آثار بلاد الرافدين

من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي

تأليف : سيتون لويد

ترجمة : محمّد طلب



آثار بلاد الرافدين

من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي

عنوان الكتاب الأصلي

SETON LLOYD

The Archaeology of Mesopotamia

From the Old Stone Age to the Persian Conquest

REVISED EDITION

with 174 illustrations

الطبعة الاولى
١٩٩٢ - ١٩٩٣

الكتاب : آثار بلاد الرافدين
من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي
ترجمة : محمد طلب
تأليف : سيتون لويد
مطبعة : الشام - فايز جوهر
عدد الطبع : ١٠٠٠ نسخة
التنضيد الضوئي : مكتب الفيحاء - دمشق
اخراج : كمال سرحان
الناشر : دار دمشق : دمشق - شارع بور سعيد
هاتف : ٢١١٠٢٢ - ٢١١٠٤٨
ص. ب : ٥٣٧٢
تلكس : TAWI ٤١١٩٥٦ sy

مقدمة الطبعة العربية

لا نأتي بجديد إذا قلنا مرة أخرى ان الحضارة الانسانية قد انبعثت، ومنذ أقدم العصور، من منطقتنا العربية. ومع ان البعض حاول ربطها بأصول يونانية - رومانية لكن الاكتشافات المتلاحقة جاءت لتؤكد ان ظهور الحضارة في الوطن العربي القديم سبق تلك الأصول بآلاف السنين. فمن هنا أتت الابتكارات الأولى في مجالات تصنيع الاسلحة والادوات، والبناء والاستقرار والزراعة والتدجين وابتكار الفخار، والفن والدين والكتابة وما إلى ذلك من الانجازات التي وضعت الأساس المادي لحضارتنا الحديثة. وثبت كل ذلك من خلال البحث الأثري التاريخي على امتداد السنين الماضية. لقد شدت الاوابد الأثرية والتاريخية الاهتمام ومنذ القرون الوسطى، لكن ما يدعو للأسف ان الأعمال الأثرية الأولى قد تميزت بالسطحية وافتقار المنهج العلمي، وقام بها رحالة مغامرون أو دبلوماسيون، كان دافعهم الأول الحصول على أكبر قدر ممكن من التحف والكنوز التي ضمتها التلال الأثرية المنتشرة على امتداد أقطار الوطن العربي وبخاصة في بلاد الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل. ولست هنا في وارد ذكر تفاصيل سباق القوى الاستعمارية الكبرى على نهب آثار هذه المناطق، ذلك السباق الذي تجاوز كل حد معقول، فبلغت «حرب القناصل» بين الفرنسيين والانكليز درجة اللصوصية الفاضحة. ومما زاد الطين بلة موقف السلطات العثمانية

الذي سهل وساعد على عملية النهب الحضاري هذه سعياً خلف كسب مودة ورضاء الممثلين الـدبلوماسيين الأجانب. لقد طالت تلك الأعمال المخربة، التي استمرت بكثافة، حتى مطلع القرن العشرين، العواصم السياسية والحضارية الكبرى لشعوب الوطن العربي القديم، وبخاصة عواصم بلاد الرافدين السومرية والاكادية والبابلية والآشورية وغيرها، وقد نقلت أهم مكتشفاتها إلى المتاحف الأوربية.

وبما أن الكتاب الذي نحن بصدده يعالج الآثار في بلاد الرافدين فسوف نقتصر ما أمكن على إنارة واقع هذه المنطقة. لقد تشكلت هنا مناهج وتيارات ومدارس بحث أثري عديدة ومتنوعة، بعضها علمي وموضوعي المنطلق والهدف، يسعى إلى البحث الجـاد والنزيه ويعطي الشعوب والمناطق حقها التاريخي ودورها الواقعي، ومكانتها الحضارية التي تستحقها. كما وظهرت تيارات ومدارس منحرفة تخدم غايات ومصالح سياسية وعرقية لا علاقة لها بالبحث التاريخي النزيه. وليست «المدرسة التوراتية» إلا واحدة من تلك المدارس المشبوهة التي دأبت على توظيف المكتشفات الأثرية والتاريخية لتخدم حق الصهاينة المزعوم في أرضنا العربية. ولحسن الحظ فان هذه الادعاءات بدأت تتراجع أمام تصاعد تيار البحث النزيه وأمام صراحة ووضوح الاكتشافات ذاتها التي أتت على أيدي علماء حقيقيين لا هدف لهم إلا خدمـة الحقيقـة والواقع. ان الباحث الانكليزي «سيتون لويد»، أستاذ الآثار الشرقية في جامعة لندن هو واحد من أشهـر الـذين ساهموا بجدارة ونزاهة في دراسة آثار وتاريخ بلادنا. لقد تعمق هذا البـاحث في دراسة آثار منطقة بلاد الرافدين سنوات طويلة، فنقّب في العديد من مواقعها، وكتب الكثير من المؤلفات حولها، ويعتبر مؤلفه الحالي وأحد من أهم تلك المؤلفات.

يعـالـج الكتـاب الجـانب الأثـري في بلاد الرافدين، ويبدأ بتحديد الاطار الجغرافي والبيئوي لتلك البلاد التي تضم العراق والجزيرة السورية الحالية على خلفية جغـرافية أوسـع تطال أحيانـاً الأنـاضول وايران، فيؤكد على أهمية الموقع الجغرافي والثروات الطبيعية، والجهد الانساني المبدع في نشوء الحضارات الرافدية. ثم ينتقل لتتبع عملية الاستيطان البشري في هـذه البلاد ومنذ أقدم العصور. ومن يتفحص هذه العملية يلاحظ ان استيطان بلاد الـرافـدين قد بدأ انطلاقاً من شمالها. فمن الشمال أتت المكتشفات الأبكر، العائدة للعصر الحجري القديم كما دلت مكتشفات

مغارة «شانيدار» المؤرخة على أكثر من ستين ألف سنة خلت، والتي سكنتها جماعات بشرية عاشت على الصيد والالتقاط. ثم ومنذ الألف العاشر قبل الميلاد ازدادت تلك الجماعات عدداً وتطوراً وأتت آثارها من مواقع أكثر من بينها «زارزي» و«كريم شاهير». وفي الألف الثامن والسابع قبل الميلاد عرف سكان الشمال الرافدين الزراعة والتدجين والبناء والاستقرار الذي دلت عليه قراهم العديدة مثل «جارمو» الشهيرة العائدة إلى العصر الحجري الحديث. ومنذ الألف السادس قبل الميلاد نشأت حضارات جديدة بدأت تهبط من المناطق الجبلية الشمالية إلى السهول جنوباً، فعرفنا حضارة «أم الدباغية» تلتها حضارة «حسونه» ثم حضارة «سامرّاء»، تلك الحضارات التي قطعت شوطاً بعيداً في طريق الاستقرار والبناء، والزراعة والفنون وغيرها. ومنذ منتصف الألف السادس قبل الميلاد، دخلت بلاد الرافدين في عصر جديد نسميه العصر الحجري النحاسي المعروف بابتكاراته الرائعة في مجالات البناء والفنون وانتاج الاسلحة والادوات والأواني الفخارية. لقد تتابعت في بلاد الرافدين في هذا العصر مختلف مراحل الحضارة الحلفية التي حلت مكانها في منتصف الألف الخامس قبل الميلاد الحضارة العبيدية التي شكلت الدليل الأول على الاستيطان في الجنوب الرافدي، علماً بأن الاكتشافات الحديثة أظهرت ان هذا الجنوب قد كان مأهولاً قبل العبيديين، لكن المخلفات بقيت مطمورة تحت الترسبات الكثيفة لنهري دجلة والفرات. مع ظهور العبيديين انتقل مركز الثقل الحضاري إلى جنوب بلاد الرافدين فظهرت في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ـ «عصر فجر التاريخ» ـ حضارة الوركاء التي وضعت بابتكاراتها الرائعة وعلى رأسها الكتابة التصويرية الأولى، الحد لعصور ما قبل التاريخ لتبدأ العصور التاريخية القديمة. وفي مطلع الألف الثالث قبل الميلاد نشأت دويلات المدن السومرية الأولى ذات النظم السياسية والاقتصادية المركبة. وفي هذا العصر لم تعد الوثائق الأثرية مصدر معلوماتنا الأول، بل بدأت الوثائق الكتابية تشكل مصدراً آخر بالغ الأهمية. لقد أطلق على هذا العصر اسم «عصر السلالات الباكرة» للتأكيد على السلالات التي حكمت في الدويلات الرافدية الأولى التي جاءت آثارها بكثافة وتنوع من العديد من التلال التي جمعت مدن «أوروك» و«أور» و«كيش» و«إشنونا» و«نيبور» و«ماري» وغيرها. ورغم النقاش الذي مايزال جارياً حول أصل السومريين فاننا نعتقد، واستناداً إلى دلائل أثرية ملموسة، انهم سكان الجنوب

الرافدي الأصليون، عاشوا إلى جانب اخوانهم الأكاديين الذين أفلحوا، في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، في توحيد المشرق العربي القديم في دولة واحدة. وكان للقائد العظيم «شاروكين» الفضل في تأسيسها بعاصمتها الجديدة «أكاد» التي لم يعثر عليها بعد، مما يدفعنا في دراسة آثار هذا العصر إلى الاعتماد على مكتشفات من مواقع أثرية أخرى معاصرة. لقد سقطت الامبراطورية الأكادية في منتصف القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد على يد شعوب الجوتيين ذات الأصل الجبلي الايراني، فتلا ذلك عصر تخلف وركود استمر حوالي القرن. لكن بلاد الرافدين نهضت ثانية وطردت الغزاة واستمر عصر النهضة السومري الأكادي الجديد حتى حوالي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وتميزت مدن هامة من بينها «أوروك» و«لاجاش» و«أور» وغيرها التي أتت آثارها غزيرة في العمارة والفن والأدب والدين والتشريع والاقتصاد.

ومع مطلع الألف الثاني توضحت الشخصية الحضارية للأموريين - الكنعانيين، خلفاء السومريين والاكاديين، فأقام هؤلاء دولهم الصغيرة والمزدهرة والمنتشرة على امتداد المشرق العربي القديم، والتي استطاع القائد البابلي الكبير «حمورابي» توحيدها منذ مطلع القرن الثامن عشر قبل الميلاد في امبراطورية ضخمة هي الثانية من نوعها بعد الامبراطورية الأكادية. وللأسف فان السويات البابلية القديمة في بابل في وسط بلاد الرافدين قد غمرتها المياه الجوفية مما جعلنا نعتمد في دراسة آثار هذا العصر على مكتشفات من مناطق أخرى أهمها مدينة «ماري» على نهر الفرات السوري.

لم تستطع الامبراطورية البابلية الحفاظ على قوتها وعجزت عن القضاء على الاخطار التي أحاقت بها من شعوب هندو- أوربية سكنت أطراف المشرق العربي القديم وتحينت الفرص للسيطرة عليها. فوقع المشرق في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد تحت حكم الكاشيين والحوريين والحثيين. وبالرغم من السيطرة السياسية لهؤلاء فانهم لم يستطيعوا تبديل الجوهر الحضاري للأموريين - الكنعانيين، لا بل تأثروا به وتبنوه كما بدا واضحاً من آثار العمارة والفنون والدين وغير ذلك من مكتشفات «عقرقوف» و«نوزي» و«ايمار» وغيرها.

مع غروب شمس البابليين تصاعد دور اخوانهم الآشوريين الذين سكنوا القسم الشمالي من بلاد الرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد وتوضحت شخصيتهم

الحضـارية والسياسية في مطلع الألف الثـاني قبل الميلاد. وبعد تراجع وتقدم ثبتوا أقـدامهم كقـوة رئيسية منـذ منتصف الألف الثـاني قبل الميلاد، العصر الآشوري الوسيط. ومع نهاية القرن العاشر قبل الميلاد فتح الآشوريون صفحة جديدة في تاريخ المشرق العربي القديم بعد ان أصبحوا القوة الرئيسية المهيمنة في هذه المنطقة. وترك لنا هؤلاء آثاراً ضخمة، تدل على الطابع الامبراطوري وجوهر الفتوحات العسكرية الكـبرى التي حققـوها بقيادة حكامهم الكبار: سارغون، سنحاريب، اسرحدون وآشور بانيبال.. الخ.

لقد اعطتنا التنقيبات الأثرية التي جرت في العواصم الآشورية المتتالية، آشور، كلخـو، دورشـاروكين ونينوى وغيرها أغزر المعلومات عن هذا العصر. وكما كانت الحال سابقاً، فقد سقطت الامبراطورية الآشورية في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، ونشأت على أنقاضها الدولة البابلية الجديدة بزعامة نبوخذ نصر الذي اتخذ من بابل عاصمة له، تلك العاصمة التي وفرت بين أيدينا أفضل آثار هذا العصر. وفي حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد سقطت الدولة البابلية الجديدة ولم تفلح محاولات شعوب المشرق العربي القديم لانقاذها من الأخمينيين القادمين من إيران. وبذلك انتهت مرحلة طويلة وحافلة بالعطاء الحضاري حكمت فيه شعوب المشرق العربي القديم نفسها بنفسها، وبدأ احتلال فارسي فرض نفسه سياسياً وعسكرياً لكنه عجز عن تحقيق هيمنته الحضارية.

إن كتاب «لويد» يعالج هذه المرحلة الطويلة من تاريخ بلاد الرافدين مستنداً بشكـل كامـل على المعـطيات الأثرية التي أتت منذ مطلع القرن العشرين بعد ان تبلورت منـاهـج البحث الأثري العلمي الرصين. وبالرغم من تفاوت قيمة تلك المكتشفات فقد استطاع المؤلف استخلاص الأساسي منها وعرضها في إطار متسلسل ومتكـامـل ومـزود بالأشكال المناسبة، ينمُّ على رؤية علمية شاملة وتمكُّن متميزٍ في استخدام المعطيات الأثرية من أجل إبراز الصورة الحضارية المشرقة لهذه المنطقة.

ولكن.. ومن موقعنا كباحثين عرب، نخوض صراعاً حضارياً مصيرياً نوظف فيه تاريخنا وآثارنا، كنا نود لو ان المؤلف قد لفت النظر بشكل منصف إلى أمور جوهرية أخرى، منها الضرر الجسيم الذي لحق بمواقعنا الأثرية نتيجة عمليات السلب التي تعرضت لها على أيدي المستعمرين، اضافة إلى التزوير والتشويه اللذين يمارسان على

مكتشفاتنا الأثرية خدمة لأهداف عنصرية صهيونية مغرضة. وكان من الأفضل لو أن المؤلف لم يتـوقف عنـد سرد الأحداث التاريخية والمكتشفات الأثرية وملامستها على السطح وإنما إنارة خلفيتها وتحديد هوية الشعوب التي أبدعتها من سومريين وأكاديين وأمـوريين ـ كنعـانيين وغـيرهم من شعوب الوطن العربي القديم مع تبيان الوحدة الحضارية التي تربط كل هؤلاء مع بعضهم ومع اخوانهم في الوطن العربي القديم الذي يشكل إقليماً حضارياً كبيراً واحداً تعتبر منطقة بلاد الرافدين إحدى عناصره الصغيرة. نقطة ثالثة، فلقد ألمح المؤلف في بعض الصفحات بسرعة إلى بلاد الشام دون إظهار دورها الحضاري الخاص الذي أكدته الاكتشافات الأخيرة و«إيبلا» إحدى هذه الاكتشـافات التي.تضع بلاد الشام نداً إلى ند وعلى مصاف بلاد الرافدين في الشرق ووادي النيل في الغرب بعد أن كانت تعامل كمنطقة هامشية تابعة. وأخيراً فقد فات المؤلف، عندما عالج المواقع الأثرية الرافدية السومرية، وبخاصة «ماري»، ان يظهر الطابع المشترك لهذه المواقع كحلقة وصل بين بلاد الرافدين وبلاد الشام ذات الأرومة الحضارية الواحدة.

وختاماً انني سعيد برؤية كتاب جديد وقد نقل، بلغة عربية سليمة ومفهومة، حافظت على مضمونه الغني، ليرفد مكتبتنا العربية التي لاتزال بحاجة إلى مثل هذه المؤلفات في مجال علم الآثار.

الدكتور سلطان محيسن
جامعة دمشق ـ كلية الآداب

مقدمة الطبعة الأولى

ربما يصاب أي شخص سبق له التعرف على موضوع هذا الكتاب بالارتباك في بادىء الأمر بسبب الادعاء المتطرف الذي يتضمنه عنوانه ويشعر، وهذا الشعور مبرر حقاً بان الاحاطة بكامل الموضوع تتطلب الكثير من الكفاءة والجهد. لقد كانت الاكتشافات الأثرية في منطقة بلاد الرافدين تتقدم وبشكل مستمر طوال فترة تزيد على مئة عام وان ما ظهر من الدراسات يكفي لملء مكتبة متوسطة الحجم. فمن التقارير الميدانية والتحليلات المتعلقة بعلم النماذج ودراسة الرموز إلى التعليقات والدراسات الفنية المنهجية وقد ظهرت جميعها على شكل دراسات عميقة ومتطورة. ولذلك كله فليس هناك أي غرابة إذا قلنا ان المؤلفات حول هذا الموضوع قد تجاوزت /٥٠٠٠/ كتاب ومقالة. ولأنه من المستحيل تلخيص حتى الأفكار الرئيسة لهذه المؤلفات فان هدف هذه الدراسة سيتركز على الجوانب الهامة من الموضوع. لقد أصبحت هذه العملية الانتقائية ممكنة بسبب الثنائية الواضحة في الأنواع المختلفة للأدلة التي حققتها الحفريات الأثرية في قطر تم اختراع الكتابة فيه في عصر موغل في القدم.

تم تعريف علم الآثار ووظيفته من أحد الكتاب على انه: (طريقة لمعرفة الماضي من خلال الأشياء بدلاً من الكلمات). ونلاحظ في عملية التعريف هنا تبسيط مضحك ففي مصر أو بلاد الرافدين كانت الأشياء التي عثر عليها المنقبون وثائق

مكتوبة بحد ذاتها. ومن ناحية أخرى فان الغاية التي خدمتها هذه الوثائق، بغض النظر عن كونها مقتصرة على التاريخ السردّي القصصي، فقد شملت المهمة الأكثر شمولية وهي إعادة صياغة دراسة تشريحية وتحليلية للحضارة القديمة. ولقد أسهمت النصوص المكتوبة إلى حد كبير في تحقيق هذا الانجاز الهام من خلال استكمال النماذج المدونة للنظام الاجتماعي والاقتصادي والتطور الفكري في العصور الكتابية.

ومع ذلك فان اهتمام الحفريات يتركز على البقايا الأثرية للبيئة التي كتبت بها هذه الوثائق وهي بالتالي تكمل عملية الكشف عن البشرية المتطورة وتكيف الجنس البشري مع تأثيرات البيئة. وباختصار فان معلوماتنا عن حضارة بلاد الرافدين في العصور التاريخية قد أُخذت من مصدرين مختلفين هما الأدب القديم ودراسة الآثار المادية. وينبغي ان نذكر هنا ان حقبة زمنية طويلة من الجهل قد سبقت العصور التاريخية وان هذه الحقبة تمثل مرحلة هامة من مراحل التطور البشري وان نتاج عمل الرفش الأثري هي مصدر كل مفاهيمنا ومعلوماتنا عن تلك الحقبة المسماة بعصور ما قبل التاريخ.

وكما يبدو من هذه الملاحظات فان هذا الكتاب يعنى بالآثار المادية وبتطور عمليات التنقيب التي أدت لاكتشافها أكثر مما هو بحث نظري. لذلك فقد عالجت وبشكل سهب النشاطات الرائدة للمكتشفين الأثريين في منطقة بلاد الرافدين في كتاب آخر عنوانه «أسس في الرمال» «Foundations in the Dust» ١٩٨٠ وبذلك تجنبت التورط في سرد تقارير وصفية لعملية التنقيب الأثري في العصور الفيكتورية.

لقد آثرت ان تكون نقطة الانطلاق متوافقة مع نشوء الأسلوب الحديث في عمليات علم الآثار المنهجية. ومن المعروف ان هذا قد حدث في نهاية القرن التاسع عشر. يجب ان تنسب الخطوة الأولى في عملية التنقيب في بلاد الرافدين إلى العالمين الألمانيين فالتر اندريه (Walter Andrae) وروبرت كولديوي (Robert Koldewey) الذين بدأا عملهما في بابل عام ١٨٩٩. وان الطريقة السريعة التي اتبعاها في الكشف عن الأسوار المبنية من القرميد الطيني قد اتاحت لهما عرض ودراسة الابنية بشكل لم يسبق له مثيل. وفي عام ١٩٠٣ نقل اندريه عمله إلى العاصمة آشور (Ashur) التي شرع باكتشاف آثارها بنفس الطريقة البارعة. وقد استمر كلاهما في اتباع نفس الطريقة مع الابنية الموجودة تحت السطح مباشرة، لكن اندريه ذهب في عمله إلى أبعد

من ذلك . وعندما اكتشف ان أحد المعابد قد أعيد بناؤه في مراحل متعاقبة من تاريخ المدينة ، تمكن من دراسة البقايا الأثرية في المستويات المتسلسلة نزولاً إلى أقدم معبد فنسبه للسومريين. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد عرف أي شيء عن الشعب السومري . لكن الحقيقة الأكثر أهمية هي انه في عمله هذا قد فهم فهماً كاملاً فن التنقيب الأثري المعتمد على دراسة الطبقات الأرضية وهو تطبيق عملي يعتبر استيعابه المفتاح لابحاث هامة في كل انحاء بلاد الرافدين . وفي العقد الثالث من القرن الحالي عندما بدأ علماء الآثار المحترفون القادمون من بلدان مختلفة بالدخول إلى العراق، تبنوا هذه الطرائق الألمانية وحققوا فوائد جمة . وعلى الرغم من تطوير هذه الطرائق مع تقدم الزمن فانها مازالت تعتبر الأساس في تقديم تقنية الحفريات الأثرية التي لولاها لما أمكن الوصول إلى الاكتشافات المدونة في هذا الكتاب .

* * *

مقدمة الطبعة المعدلة

كتبت مقدمة الطبعة الأولى في أواخر عام ١٩٧٠ عندما كانت عمليات التنقيب للمواقع الهامة في جنوب العراق قد فقدت زخمها. وأصبح العمل بين آثار المدن العظيمة في السهل الطموي كثير التكاليف بسبب ارتفاع أجور اليد العاملة . وعلى ما يبدو فان الاهتمام قد تركز على المواقع الأثرية لعصور ما قبل التاريخ في الشمال حيث يمكن لعمليات تنقيب أضيق مجالاً ان تعطي نتائج أكثر فائدة وان تكون أكثر اقتصادية . ترتبط الاكتشافات التي أجريت في المواقع العراقية بشكل وثيق بالاكتشافات في الاقطار المجاورة لذلك فقد أعاقت عملية الكتابة عن الاكتشافات في تلك الاقطار الرغبة في ان يغطي البحث حدود الدولة الحديثة فقط. ومن الواضح ان لهذا الأمر بعض الاستثناءات كما هي الحال في اكتشافات اندريه بارو (André Parrot) الهامة في مملكة ماري في أواسط الفرات، واكتشافات ماكس مالوان (Max Mallowan) في مواقع نهر الخابور. ولكن عندما وصلت أخبار اكتشافات باولو ماتييه (Paolo Matthiae) الرائعة في إيبلا بالقرب من مدينة حلب وظهرت علاقة إيبلا بالحضارات السومرية والأكادية أصبح واضحاً ان حدود منطقة بلاد الرافدين قد

بدأت تمتد نحو الشمال.

وفي مجال ما قبل التاريخ فقد ساهم عامل جديد بنقل اهتمام علم الآثار نحو الشمال. ان الابحاث الحديثة في مواقع شمال سورية التي أكملت العمل في أعالي العراق وإيران قد قدمت إسهامات جديدة في توضيح أصل حضارات بلاد الرافدين وفي حل اللغز المتعلق بأسلاف السومريين الذين وضعت حضارتهم المبدعة أسس الحضارة الغربية. لقد تم من خلال الاكتشافات الجديدة في سورية تحديد اتجاهات حركة هجرة الشعوب في المنطقة حيث اندمجت العبقريات المتنوعة لعناصر شعوبها المختلفة والمتباينة والتي تجمعت في دلتا بلاد الرافدين في هوية عامة. ويمكن الاطلاع على موجز لأحدث التطورات في هذا الموضع في مطلع الفصل الأخير.

ومن المفيد هنا ان أكرر ان هذا الكتاب ما هو إلا مقدمة لدراسات أكثر شمولاً. ولهذا السبب فقد عنيت بشكل كبير في ذكر أسماء المراجع حيث توجد الدراسات الأكثر تخصصاً كما وأعطيت الأولوية للمراجع المكتوبة باللغة الانكليزية.

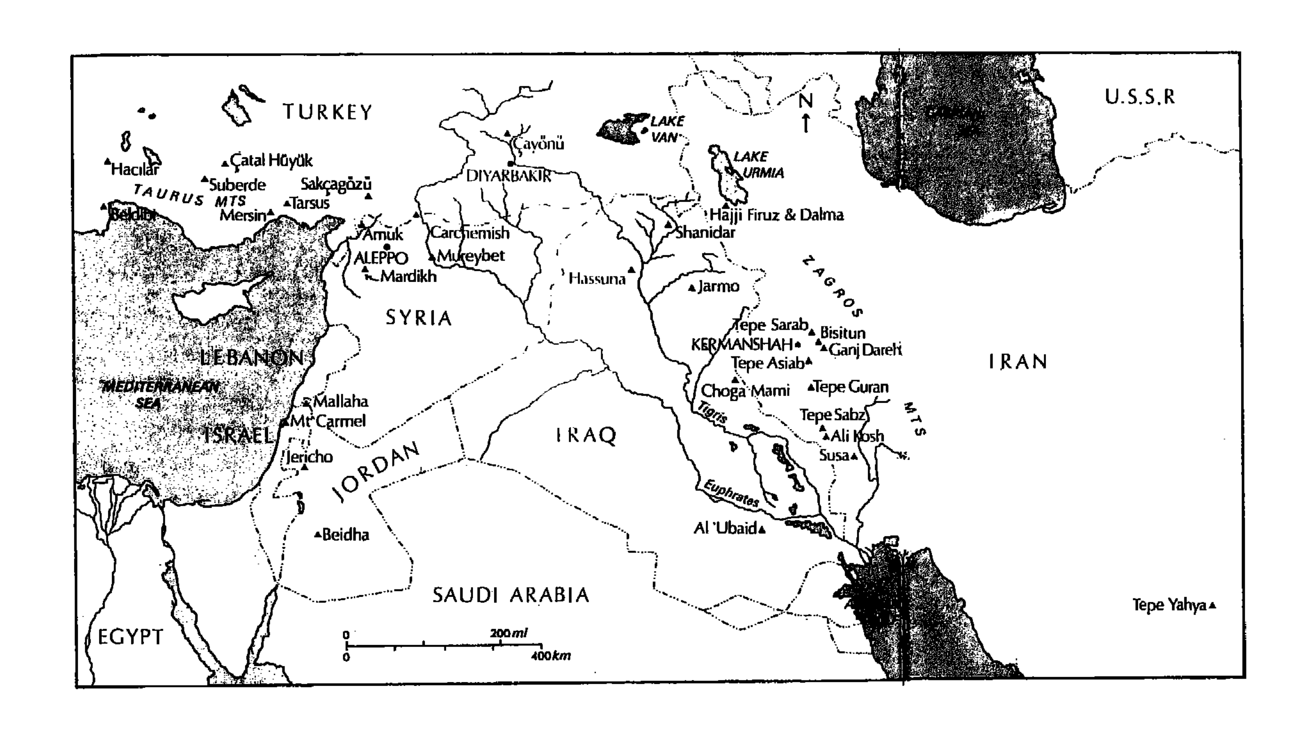
ولا يسعني في النهاية إلا ان أعبر عن الامتنان الكبير للدكتورة جون اوتس (Joan Oates) التي لم تأل جهداً في تجديد وتطوير النص الأصلي للكتاب ولابنة أخي الدكتورة دومينيك كولون (Dominique Collon) لاهتمامها الواضح والمفيد بهذا البحث.

الفصل الأول

الأرض والأنهار

إن اسم بلاد الـرافـدين (Mesopotamia) قديم، ويدل تقليدياً على خلفية تاريخية أكثر من دلالتـه على منـطقـة جغرافية واضحة الحدود. لقد ظن المترجمون اليونانيون للتوراة (Old Testament) ان موطن البطريرك ابراهام يقع بالقرب من حرّان الموجودة في الوسط بين الفرات ودجلة. واستعمل سترابو (strabo) هذا الاسم للدلالة على المنطقة الشمالية من منطقة ما بين النهرين بينما أطلق اسم بلاد بابل (Babylonia) على المناطق الجنوبية. أما بليني (Pliny) فقد مدّ حدود بلاد الرافدين إلى الخليج العربي وجعلها مكافئة تقريباً للعراق الحديث. لكن استعمال هذا الاسم العربي بمعنى الجرف (Cliff) لا يخلو من الالتباس. ولقد استعمل من الفاتحين العرب للدلالة على بابل فقط وهذا يحتاج إلى الكثير من الايضاح.

إذا اقترب شخص من وادي النهر، كما فعل الفاتحون العرب في القرن السابع، فسيجد نفسه فجأة على جرف يقرب ارتفاعه من ثلاثين متـراً فوق مستوى السهل



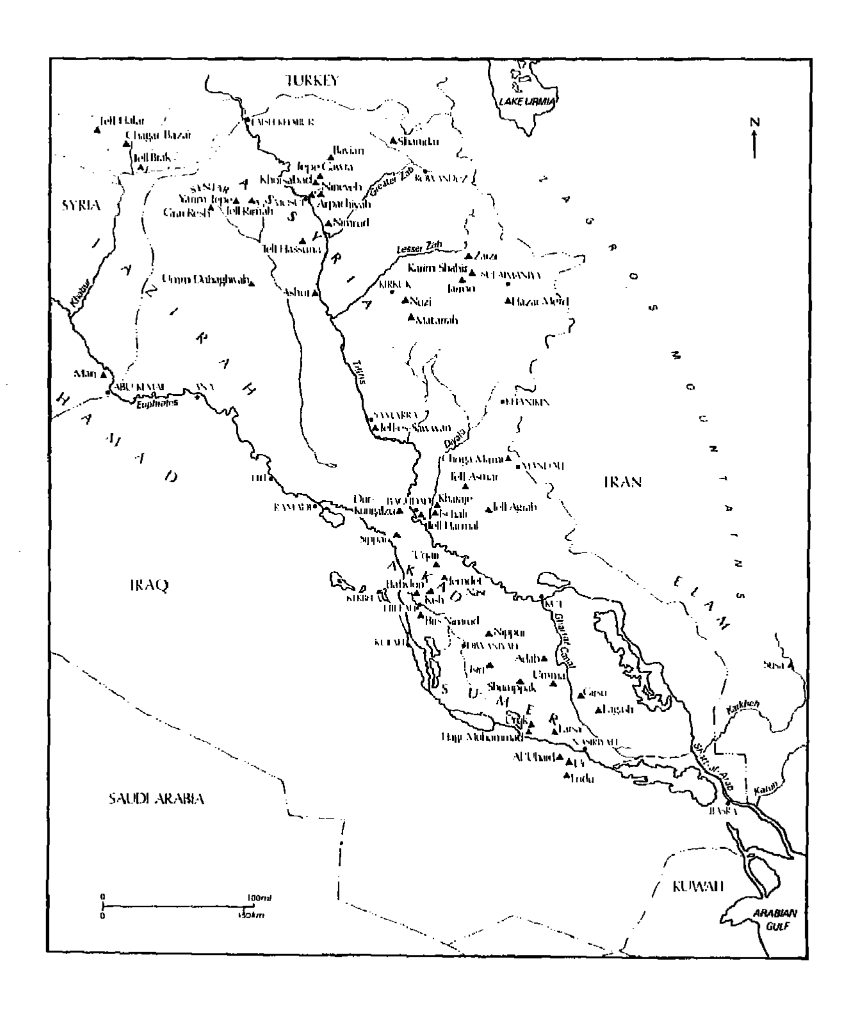
الشكل رقم ١ : خريطة لبعض المواقع الاثرية في الشرق الأدنى . المذكورة في النص .

وهو يطل من أعالي أشجار نهر الفرات على مناطق دجلة الزراعية وفي المدى البعيد على جبال زاغروس التي تشكل الحدود الشرقية لبلاد الرافدين . وفي الكوفة هناك معبد يسمى (السفينة) عند حافة جرف يحدد المكان الذي يعتقد المسلمون ان سفينة نوح قد استقرت فيه .

الاقليمان : (منطقتا شمال وجنوب الرافدين)

ربما تلفت هذه الجمل القليلة الانتباه إلى عدم التكافؤ بين بلاد الرافدين الشمالية والجنوبية . وسيصبح هذا الأمر أكثر وضوحاً إذا تأملنا الطبيعة الجيوفيزيائية للقطر وتكوينها الجيولوجي ، وخصوصية المناخ وعناصر البيئة التي اجتمعت لخلق النمط المتميز في حياة سكان البلاد القدماء[1] . وبالرغم من عدم تحديد الوحدة

الجغرافية بعد فهي تتألف من منطقة واسعة قليلة الانخفاض تتجه بدءاً من الخليج العربي وتعتبر امتداداً له. ومن الصعوبة بمكان تحديد حدود المنطقة من الجانبين حيث تتطابق في الشمال مع التلال الايرانية، وفي الغرب مع أطراف الصحراء التي سماها الجيولوجيون (الهضبة العربية).



الشكل رقم ٢ : خريطة للمواقع الأثرية المذكورة في النص في منطقة بلاد الرافدين.

أما الأمر الأقل وضوحاً فهو الخط العمودي الذي يمر تقريباً بين (هيت) على نهر الفرات و (سامراء) على نهر دجلة ويشكل الحدود العليا للسهل الطموي. وإلى الشمال من هذا الخط تفصل النهرين هضبة كلسية تسمى الجزيرة وهي تحجز الفرات ضمن وادٍ ضيق. أما دجلة فانه يستفيد من روافد شرقية ويجري عبر مناطق صالحة للزراعة أكثر ارتفاعاً وأكثر اتساعاً. وتمثل هذه المنطقة الاقليم المنتج الذي سمي باسم (بلاد آشور) (Assyria). وإلى الجنوب من خط هيت ـ سامراء حيث يصل النهران إلى الدلتا يختلف الوضع تماماً فالمنطقة هنا من انتاج النهرين اللذين يطرحان منذ فترة موغلة في القدم الطمي على بساط من الصخر الرسوبي. هذا الأمر قدم إلى حيز الوجود سهلاً منبسطاً لا نظير له على الاطلاق في الخصب.

الشاطىء

أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة في وصف منطقة بلاد الرافدين فسوف نجد اننا أمام أحد أهم المشاكل البارزة المتعلقة بالتشكل الجيولوجي للدلتا الجنوبية. لقد كان من المرجح في الماضي اعتبار ان القسم الاعظم من السهل الطموي قد تكوَّن من البحر على مر الزمن. وخلال النصف الأول من هذا القرن رجحت آراء المؤرخين والجيولوجيين وجهة النظر هذه. وكان من الواضح طبعاً ان أي انحسار للشاطىء قد بدأ بالضرورة في وقت مبكر جداً لأن الثلثين العلويين للسهل تنتشر فيهما المرتفعات والهضاب القديمة التي تمثل المدن العظيمة لسومر وأكاد اللتين يرجع تاريخهما القديم إلى الاستقرار المبكر للإنسان في الألف السادس قبل الميلاد. ونلاحظ هنا أيضاً وجود خط عبر الاقليم بالقرب من خط عرض الناصرية الذي لا يمكن العثور على أي هضبة إلى الجنوب منه[٢]. وبين هذا الخط والشاطىء الحالي للخليج العربي توجد منطقة واسعة مأهولة بالسكان بشكل غير كثيف ومليئة بالبحيرات والمستنقعات. لذلك فمن المفترض ان الخليج الذي كان يمتد فوق كامل الدلتا في العصور التاريخية القديمة قد تراجع بعيداً حتى خط الناصرية. وان نهر قرخه وقارون اللذين يجريان من خوزستان نحو الغرب قد كونا دلتا خاصة بهما وبذلك أغلقا الخليج وحولاه إلى بحيرة ضخمة ثم بدأ نهر الفرات ودجلة بتزويد البحيرة بكميات كبيرة من الطمي.

وفي عام ١٩٥٢ قام اثنان من الجيولوجيين[٣] بدحض هذه الفرضية التي قبلت

بسهولة حين استطاعا بعد اختبارات طويلة استعملا فيها أجهزة متطورة ان يثبتا ان وضع الشاطىء لم يتغير كثيراً منذ أقدم العصور التاريخية. لقد أثبتت ملاحظاتهما الأولية حقيقة مفادها ان كمية قليلة من الطمي الذي يحمله النهران قد وصلت إلى الشاطىء، وان الارتفاع في منسوب السهل الجنوبي يقدر بحوالي /٦٠/ سم في كل قرن. وبذلك لا يمكن ان تستمر أية بحيرة أو سبخة إذا لم تترافق عملية الامتلاء بالطمي مع هبوط للصخور الأساسية في الدلتا. استطاع هذان الجيولوجيان اقامة الدليل على حدوث هذا الخسوف وتقدير مستواه بشكل تقريبي.

لقد وجد علماء الآثار في بداية الأمر صعوبة كبيرة في التوفيق وبشكل مؤكد بين الحقائق التاريخية، فمدينة اريدو (Eridu) السومرية على سبيل المثال المعروفة باسم (تل أبو شهرين) والتي تعتبر أقدم مدينة في العالم وصفت بكل صراحة بانها كانت تحاذي الشاطىء. وكذلك مدينة أور (ur) الواقعة على بعد بضعة أميال من الخليج كانت لها أرصفة تفرغ عليها المراكب البحرية البضائع[٤]. تبعد هاتان المدينتان عن الشاطىء الحالي للخليج حوالي /١٠٠/ ميل لذلك لا بد من الوصول إلى تسوية مقبولة بهذا الشأن. ان بعض التفاصيل الصغيرة لأدلة علم الآثار قد جعلت التسوية أمراً ممكناً. في أحد المعابد كانت الأضاحي من السمك تقدم للاله إنكي (Enki) وقد وجدت بين عظام هذه الأسماك عظام أنواع من السمك النهري الذي يستطيع العيش في المياه القليلة الملوحة في مصبات الأنهار. ربما كان المنخفض البسيط الذي تقع فيه اريدو جزءاً من مجموعة بحيرات مرتبطة بمصب نهر الفرات عبر أقنية عميقة وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة أور التي كان يمر منها المجرى القديم لنهر الفرات.

الأنهار

ينبغي للمرء هنا ان يعود إلى ميزات نهري دجلة والفرات التي يعتمد عليها اقتصاد الاقليم بأكمله. ينبع نهر دجلة من بحيرة هازار غولو (Hazar Gölü) الصغيرة الواقعة على بعد /١٠٠/ ميل إلى الغرب من بحيرة فان (Lake Van)، ويتدفق نحو الجنوب والجنوب الشرقي إلى نجود نينوى (Nineveh) وآشور (Assyria) أما الفرات وهو النهر الأكثر طولاً، حيث يبلغ طوله (١٧٨٠) ميلاً بينما يبلغ دجلة (١١٥٠) ميلاً، فله مصدران للمياه هما فان (Van) و ارزيروم (Erzerum). يجري الفرعان نحو الغرب

في البداية ثم يتحدان قرب إلازيغ (Elazig) حيث تتشكل الآن بحيرة عند سد كيبان. ثم يجري النهر الرئيسي في مجرى متعرج باتجاه الجنوب مجتازاً الحدود من تركيا إلى سورية عند مدينة كركميش (Carchemish) ومن ثم إلى العراق. تفصله عن دجلة عند هذه النقطة مسافة تقارب /٢٥٠/ ميلاً من السهوب الواسعة، ويقترب النهران من بعضهما عندما يصلان إلى بغداد والرمادي. وهنا يرتفع منسوب الفرات عن منسوب دجلة قرابة (٩) أمتار حيث يتم ترشيح المياه من نهر لآخر بواسطة سلسلة متعاقبة من الأقنية كونت في قديم الزمن حزاماً من الأرض شديد الخصوبة. ثم يبعد النهران عن بعضهما مرة ثانية ويتم ري الأراضي بنظام أقنية وفروع بالغ التعقيد.

ومع مرور النهرين عبر العراق وقبل وصولهما إلى خط هيت ـ سامراء يتدفق النهران ضمن أسرَّة حفراها في تربة من الصلصال وحجر الكلس لذلك فنادراً ما غيرا مجرياهما منذ عصور ما قبل التاريخ. ولهذا السبب ماتزال مدن مثل كركميش ونينوى ونمرود وآشور قائمة كما كانت في الماضي بجانب ضفاف الأنهار. وإلى الجنوب من نفس الخط تختلف الأمور تماماً حيث تتعرج الأنهار عبر السهل الطموي وتغير مجاريها وتشكل فروعاً جانبية. وكما هي الحال في كل الأنهار التي تحمل الرسوبيات والتي تجري بانحدار بسيط فانها ترفع من منسوب قاعها بالتدريج لذلك نجدها ولفترة طويلة تجري في منسوب أعلى من السهل المحيط بها. وإذا حدث في بعض الأحيان ان خرجت المياه عن الضفة في وقت الفيضان فلا بد ان تتشكل عند ذلك بحيرات وسبخات دائمة وفي مرات كثيرة تغير هذه الأنهار مجاريها. وهذا ما يفسر تحول الكثير من المدن إلى خرائب بعيدة في الصحراء بعدما كانت مجاورة للسهول الطموية المحاذية لنهري دجلة والفرات.

هذه الصورة للنهرين الجاريين ضمن ضفاف شبه صناعية تعلو الأراضي المجاورة سوف تساعد في عرض موضوع الري في منطقة بلاد الرافدين ودوره الأساسي في اقتصاد المنطقة. ولذلك فان عملية جر المياه يجب ان تتم بطريقة لا تسبب الضرر للضفتين أو تسبب الفيضانات. ومن الطبيعي ان هذه الطريقة تعتمد على النظام الفصلي للفيضانات والظروف المناخية.

المناخ والري

عند الحديث عن مناخ بلاد الرافدين من المفيد ان نذكر انه وفقاً لاكتشافات الجيولوجيين لم يحدث أي تغيير مناخي منذ زمن طويل جداً. تتراوح درجة حرارة المنطقة صيفاً بين (١١٠ - ١٣٠) درجة فهرنهايت في الظل وتتميز بوجود ثمانية أشهر غير ممطرة في السنة. في نهاية الفصل الجاف تتعرج الأنهار بركود في أراض طينية قفرة، ثم يحل الشتاء بشمسه الشاحبة في النهار ولياليه الباردة وتحدث عواصف مطرية متقطعة. لكن الأنهار لا تتلقى كميات المياه الكاملة حتى حلول فصل الربيع عندما تذوب الثلوج في جبال طوروس وزاغروس فتغذي الروافد بالمياه. ثم تأتي فيضانات الربيع التي كانت تعتبر حتى قبل ربع قرن ظاهرة لا يمكن ضبطها وتمثل خطراً كبيراً على حياة السكان في السهول المنخفضة. ويحدث الفيضان ما بين شهري نيسان وحزيران وهو من وجهة النظر الزراعية وقت متأخر لري المحاصيل الرئيسية.

لقد كان على فلاحي منطقة الرافدين مواجهة هذا النظام المناخي والاضطراب الفصلي... أمطار بكميات غير كافية وفي أوقات غير مناسبة، مياه الأنهار كذلك موجودة بأوقات غير ملائمة ومتركزة حول قاع النهر بكميات لا يمكن الاستفادة منها. لذلك كان لا بد من تزويد الأرض بالماء عن طريق ابداع الانسان لنظام معقد من الأقنية والخزانات والسدود وبوابات التحكم والتصريف. ولقد تطلب هذا الأمر الكثير من التنظيم والكثير من الصبر، فالأقنية تمتلأ بالطمي بسرعة كبيرة وتتطلب بالتالي عمليات تعزيل متكررة. وبعد ذلك ومع استمرار عملية التعزيل ترتفع الضفاف إلى درجة تعيق عملية التعزيل من جديد مما يفرض حفر أقنية جديدة موازية للأقنية الأولى. وفي الوقت الحاضر إذا نظرنا إلى المنطقة من الجو نلاحظ الشبكات الغريبة من الأقنية والتي يتكون بعضها من ثلاث أقنية متوازية. الانطباع الرئيسي هنا هو هذا النمط الفريد، والمعقد، مشهد يوحي بأن الأقنية الثلاثة كانت تستعمل في نفس الوقت. وفي الواقع فقد استطاع العراق في الماضي ان يعطي صورة توحي بأنه كان مخزن قمح استمر مزدهراً وعامراً حتى دمره المغول في القرن الثالث عشر الميلادي. كان هذا المفهوم خاطئاً فقد كشفت الابحاث الزراعية في السنوات الأخيرة ان الوضع مختلف تماماً. ان الدراسات المتخصصة والمتتالية أكدت نقص الانتاجية الذي لم يكن نتيجة كارثة وقعت في العصور الحديثة نسبياً بل بسبب استمرار وعدم

كفاءة نظام الزراعة الأساسي الذي يرجع إلى عصر قديم جداً[٥].

الملوحة

بالاضافة إلى آثار الفيضان المدمرة فان من أخطر ما أصيبت به الزراعة في بلاد الرافدين هي الملوحة في التربة والزراعة الكثيفة ونتائجها السلبية. ان المسافر في العراق اليوم يستطيع ان يشاهد بأم عينه نتائج سوء التعامل مع التربة. . مساحات واسعة غير مزروعة أصبحت الآن مغطاة بقشرة خارجية بيضاء سببتها عمليات الري الزائدة. يأتي الماء من النهر مشبعاً بمحلول ملحي قوي وعندما يتبخر الماء يترسب الملح مخرباً خصوبة التربة. عندما يحدث ذلك لأرض ذات اقتصاد زراعي انتشاري، وهو اقتصاد يقوم على استغلال مساحات واسعة من الأرض بأقل ما يمكن من الجهود والنفقات، فان الفلاح ينتقل إلى أرض جديدة ويبدأ بالري مرة ثانية. أما المصدر الأكثر أهمية للملوحة فهو ارتفاع منسوب الماء في الأرض نتيجة الري لفترة طويلة مما يدفع بالملح إلى سطح الأرض. تستطيع عملية التصريف المائي ان تواجه هذا الأمر ولكن ليس هناك أي أثر عن وجود جهود أو اتجاهات لاتباع هذا الاسلوب طالما يمكن ممارسة الاسلوب الزراعي الانتشاري.

في أواخر الخمسينات أُلقيت أضواء كثيرة على هذا الموضوع خلال حلقة دراسية أقامها توركيد جاكوبسن (Thorkild Jacobsen)، أحد أكبر الباحثين في منطقة الدولة الآشورية في العصر الحديث[٦]. لقد وجد الباحث في كثير من النصوص المسمارية أدلة واضحة عن نتائج الملوحة واستطاع دراسة آثارها لفترة طويلة من الزمن. وعلى سبيل المثال استنتج جاكوبسن ان التلف التدريجي للتربة كان خطيراً في مدينة لاجاش (Lagash)، حيث بدأت الملوحة في عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد وانتشرت غرباً نحو الفرات حتى وصلت بعد ألف عام إلى بلاد بابل (Babylonia). كما استطاع ان يحسب ان القمح الذي كان يشكل ١٦٪ من إجمالي محاصيل البلاد قد انخفض إلى ٢٪ فقط بعد ثلاثة قرون بينما لم يرد له أي ذكر على الاطلاق بين عامي ٢٠٠٠ و١٧٠٠ قبل الميلاد. أما الشعير، الذي يستطيع تحمل الملوحة لفترة أطول من القمح، مما جعله المحصول الرئيسي، فقد انخفض انتاجه في وحدة المساحة في الكثير من المناطق الجنوبية. ان معلومات كهذه تعطينا صورة واضحة عن تقلص الازدهار الاقتصادي

وانتقـال الـزراعة باستمرار نحو الشمال نتيجة لفقر التربة في الجنوب. ولقد اعتقد جاكوبسن ان هذا الامر يتفق مع نسق تطور التغيرات الرئيسية في تاريخ بلاد الرافدين لأن الـزعامة السياسية انتقلت من سومر (Sumer) إلى بلاد بابل ومن ثم إلى مملكة آشور: (Assyria) حيث لم تكن قد ظهرت مشاكل ملوحة التربة. ومع ذلك فهناك الكثير من الأدلة التي تثبت ان نقص الانتاجية الزراعية خلال تلك الحقبة التاريخية كان قضية مؤقتة. لقد استطاع جاكوبسن وزملاؤه بعد اجراء اختبارات في حوض نهر الديالى إلى الشرق من بغداد ان يتأكدوا من وجود تقنيات متطورة لمقاومة الملوحة أو تأخيرها على الأقل في الألف الثالث قبل الميلاد. وقد أدت الخبرة الطويلة إلى اكتشاف تطبيقات أفضل من أجل الحصول على انتاجية قصوى للتربة. ولقد وصف كتيب سومري زراعي يرجع إلى حوالي عام ٢١٠٠ قبل الميلاد عملية استعمال المحراث في الزراعة والاشكال البدائية في صرف المياه. لذلك يبدو حتى لو نبذنا وصف هيرودوتس (Herodotus) المبالغ فيه للحصاد في عصره فانه يجب التأكـد من حدوث اصلاحات لتطوير انتاجية الزراعة في بلاد الرافدين الجنوبية في الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد. كما وحدثت بلا شك كوارث مؤقتة للزراعة تبعاً للفيضان وتغير مجرى الأنهار. أما المناطق الشمالية فلا بد أنها قد عانت أحياناً كما تعاني اليوم من نقص معدلات الأمطار السنوية. وعلى العموم يمكن ان نقول ان بلاد الرافدين كانت منطقة غنية بالانتاج الزراعي وقادرة خلال القسم الأكبر من التاريخ القديم على تأمين الغذاء للشعب. بالاضافة إلى ذلك فقد استطاعت مقايضة مخزون القمح الفائض بالحجارة الكريمة والمعادن والمواد الأخرى التي كانت تحصل عليها بواسطة التجارة مع الأقطار المجاورة. ولم تقتصر منتجات البلاد على الحبوب. ونقرأ في النصوص القديمة ان العراق كان يمتلك بساتين نخيل واسعة كما وتم انتاج البلح عن طريق التلقيح الصنـاعي. وفي الـواقع شكلت الحبوب والتمور الراتب الغذائي للسكان القدماء وكـذلـك تمت تربية الأغنـام والأبقـار ورعيها في المناطق غير المزروعة كما وانتجت البحـيرات والأنهار والأقنية والبحر كميات كبيرة من الأسماك. أما الخضار والفواكه فكانت تنتج في الحدائق والبساتين التي تحميها أشجار النخيل من حرارة الشمس والتي كانت تروى بطريقة بسيطة لرفع الماء ماتزال متبعة في العراق حتى الآن.

شمال العراق

بغية استكمال عرض الصورة الجيوفيزيائية لبلاد الرافدين لا بد من تقديم وصف عام للأراضي المرتفعة الشمالية الواقعة وراء خط هيت ـ سامراء. فإلى الغرب من سهوب الجزيرة يروي نهر الفرات شريطاً ضيقاً من الأرض الزراعية تنتشر فيها مدن تجارية صغيرة مثل هيت (Hit) وراوه (Rawa) وعانه (Anah). وإلى الشمال من الحدود السورية تتوسع الأرض الزراعية مشكلة منطقة فسيحة كانت ترتبط في الماضي القديم بمدينة ماري (Mari). وخلف الجزيرة باتجاه الشرق يشكل نهر دجلة وروافده الزاب الأكبر والزاب الأصغر والدهيم الشرايين الزراعية في منطقة الدولة الآشورية وتتميز بكونها منطقة مرتفعة ذات وديان خصبة وغنية وتتوفر فيها الحجارة الضرورية للبناء. ان معدل سقوط الأمطار السنوي في هذه المنطقة يكفي لانتاج محصول القمح الوحيد دون حاجة للري حيث تروى الحدائق والمزارع فقط بالطريقة الصناعية من الأنهار والآبار. ولمعظم فصول السنة تكون الأرض هنا عارية من النباتات إلى ان يحل الربيع فيكسوها بثوب أخضر من العشب والأزهار الملونة(٧).

وأخيراً تحيط بمملكة آشور من الشرق والشمال منطقة جبلية تعرف اليوم باسم كردستان العراقية. وهي عبارة عن هلال من المرتفعات توجد احدى زاويتيه في مدينة خانقين والأخرى عند مدخل دجلة في مثلث الخابور (Faish Khabour) حيث تلتقي الحدود السورية ـ العراقية التركية. وتختلف المنطقة هنا قليلاً عن منطقة فيلايت (Vil-ayets) في شرق تركية حيث توجد قرى مبنية من الحجارة تشرف عليها التلال المغطاة بأشجار الحور الضخمة كما وتشتهر بزراعة الكروم والتبغ، بالاضافة إلى المناطق الجبلية المغطاة بأشجار السنديان والصنوبر. وسوف نتحدث بكثير من التفصيل عن هذه المنطقة المسماة بالهلال الخصيب (Fertile Crescent) عند البحث في مناطق الاستقرار البشري الأولى في التاريخ القديم.

بعد هذا الوصف العام لخلفية البحث الأثري في منطقة بلاد الرافدين لا بد من الحديث عن العلاقات التاريخية بين سكانها وسكان المناطق المجاورة وهي مناطق الصحراء السورية ومناطق القبائل في جبال زاغروس. لقد كان السومريون سكان مدن وفلاحين، وخلافاً للبدو في الصحراء ولرعاة المرتفعات الايرانية المتنقلين فقد كانوا يفضلون الابتعاد عن الأماكن المكشوفة والتمركز في حياة مستقرة في وديان

الأنهار. وفي حياتهم هذه لم يكونوا متحررين من أطماع جيرانهم الأقل ثروة والذين كانوا يقطعون عليهم طرق التجارة ويغيرون على قراهم البعيدة. وسوف نلاحظ ان فصولاً طويلة من تاريخ السومريين تتركز على صراعهم لحفظ طريقة حياتهم المستقرة وحماية أنفسهم من سكان الصحراء والجبال. وفي بعض الأوقات كانت عداوتهم لهؤلاء البداة أقل أهمية لديهم من تغلغل نفوذهم السلمي في منطقة الوديان واقامة سلطتهم القوية. وفي هذه الحالات فقط كانت سيطرة حكامهم المحليين يستعاض عنها بسلالة أكاد غير المعروفة حتى ذلك التاريخ أو ملوك بابل الساميين. كما وشهد التاريخ حدوث غزوات من القبائل المجاورة في الشرق أو تطفل اراستقراطية كاشيه (Kassite).

هذه الأحداث هي مادة التاريخ في منطقة بلاد الرافدين.

الفصل الثاني

فجر انسان العصر الحجري الحديث

إن الموضوع الذي سيعالجه هذا الفصل هو حصيلة ابحاث في التطور الاجتماعي وفي أصول الشعوب التي شكل من تحدروا منها سكان منطقة بلاد الرافدين في العصور التاريخية. مايزال الخيط الذي يربط هؤلاء الناس بانسان العصر الحجري القديم غامضاً ومثيراً للجدل. ومع ذلك فان هذا الأمر لا يمكن تجاهله ولاننا وضعنا حلولاً اعتباطية للمنطقة الجغرافية موضوع الدراسة فانه لمن الخطأ ان نهمل الأدلة التي تم العثور عليها ضمن هذه الحدود على الاستيطان البشري الذي سبق نهاية العصر الحجري القديم. وبشكل طبيعي فان هذا الموضوع يمتزج مع أو ينبعث من التاريخ الجيولوجي لمنطقة جنوب غرب آسيا. ومع ذلك فان اهتمامنا يجب ان يتركز على الفترات الأخيرة من هذا التاريخ وسوف نعمل في البداية على ذكر تسلسل الأحداث التاريخية.

العصر الحجري القديم

إن العصر الحجري القديم، الذي شهد تطور الإنسان من سليل للقرد إلى شبيه حقيقي بالانسان العاقل (الهوموسابيان)، يتزامن تقريباً مع عصر البليستوسين أو المرحلة الأكثر حداثة في التاريخ الجيولوجي. لقد بدأ هذا العصر قبل أكثر من مليوني سنة مضت وانتهى قبل الفترة الواقعة ما بين ٢٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ سنة مضت. وخلال هذه الفترة، ولأربع مرات متتالية، زحفت الجموديات الضخمة التي كانت امتداداً للجليد القطبي نحو الجنوب لتغطي أجزاء كثيرة من أوربا وآسيا وشمال امريكا[٨]. تمتد أقدم مرحلة في العصر الحجري القديم زمنياً منذ مليوني سنة إلى حوالي ٨٠ ألف سنة مضت. وفي أوروبا واثناء الحقبة الأخيرة من هذا العصر وجدت الدلائل الأولى للحضارات البدائية مثل الحضارات الابليفية والكلاكتونية والآشولية، وبقايا مواد لمخلوقات ترتبط بأسلاف الإنسان الحديث. وعلى الفترة الوسيطة من العصر الحجري القديم ما بين ٨٠٠٠٠ ـ ٣٠٠٠٠ سنة مضت سوف نركز الكثير من اهتمامنا. لقد تمثلت في هذه الفترة عمليات الاستيطان في الكهوف في شمال العراق في العصر الموستيري وعثر على بقايا بشرية تشمل عظام انسان النياندرتال ذلك الفرع الغريب والمنقرض من شجرة الوراثة الانسانية.

وكذلك فان العصر الحجري القديم الممتد من ٣٠,٠٠٠ ـ ١٢,٠٠٠ سنة مضت سيكون موضع اهتمام كبير في بحثنا. ففي كردستان العراقية ومناطق اخرى من الشرق الأدنى درست بقايا هذا العصر دراسة عميقة كلما حانت الفرصة لذلك لأن بقايا هذا العصر تشكل مقدمة للتغيير الكبير الذي حدث في نهاية عصر البليستوسين. أما المراحل التي تطابق العصر الاورينياسي (Aurignacian) والغرافيتي (Gravettian) في أوربة والتي تمثلها مكتشفات جبال الكرمل في فلسطين، والمواقع الأثرية الايرانية الممتدة من جبال زاغروس حتى بحيرة اورميا فتنبع أهميتها من كونها توضح التوزع الجغرافي لهذه الحضارات. بينما تبرز الأهمية البالغة للمرحلة الأخيرة والانتقالية التي تلت هذه الحضارات لأنها تغطي الفجوة في دراسة تطور الانسان قبل ان يكتمل تطوره إلى مرحلة ظهور الانسان العاقل (Homo Sapiens) كما نعرفه اليوم. وقد تم ذلك بالاستفادة من الدلائل المتوفرة عن انجازاته القديمة وطموحاته. ان

المستوى الحضاري	العراق: مواقع أخرى	العراق: كهف نيدار	غرب أوربة	المرحلة	قبل الوقت الحاضر
انتاج الطعام	زاوي شيمي	الطبقة ب ١			
		١٠٦٠٠ قبل الفخار			
		الطبقة ب ٢			١٢٠٠٠
الصيد وجمع الطعام		١٢٠٠٠ قبل الفخار		العصر الحجري القديم الأعلى	
	كريم شهير				
	مليغات		المجدلاني		١٥٠٠٠
	هازار ميرد				
	بالغاورا				
		فراغ			
			السولوتري		
	زارزي				٢٠٠٠٠
			البيرغوردي		
		الطبقة العليا (س)	الأورنياسي		
		٢٨٠٠٠ قبل الفخار			٣٠٠٠٠
		الطبقة السفلى (س)		العصر الحجري القديم الأوسط	
		٣٥٠٠٠ قبل الفخار			٤٠٠٠٠
		فراغ			
		الطبقة العليا (د)	الموستيري		٥٠٠٠٠
		٤٦٠٠٠ قبل الفخار			
		الطبقة الأعلى (د)			
		٥٠٠٠٠ قبل الفخار			٨٠٠٠٠
	كهوف أخرى				
	ومواقع مكشوفة	قاعدة الكهف			

الجدول رقم ١

نموذج مقارن عام للعصر الحجري القديم في أوربة والشرق الأدنى. (عن سوليكي، ١٩٧١).

التسلسل الزمني لهذه الفترة الأخيرة من العصر الحجري القديم مايزال غير مؤكد. أما الحد النهائي لهذه المرحلة فيجب ان يكون مرتبطاً مع ظهور أول المجتمعات الزراعية في بداية العصر الحجري الحديث (النيوليت) أي بعد عام ١٠٠٠٠ قبل الميلاد بقليل.

من الصعب قليلاً ان نتخيل التغيرات المناخية والجيولوجية التي حدثت في غرب آسيا في عصر البليستوسين عندما ظهر الانسان القديم للمرة الأولى. لقد تم التعرف على بعض الآثار لعمليات تجمد مرحلية في جبال الاناضول ولدرجة أقل في غرب إيران ومع ذلك فقد أصبح الآن واضحاً ان ألواح الجليد لم تصل بعيداً حتى الشرق الأدنى. على العكس من ذلك فانه طوال معظم العصر الجليدي كانت الرياح الرطبة تهب من البحر المتوسط حول الحدود السفلى للجبال باتجاه شرقي وجنوبي وبذلك تشكلت مرتفعات عشبية خالية من الأشجار بالاستفادة من المناخ المعتدل والمنتظم. ولفترة طويلة من الزمن فان السفوح الدنيا والمتجهة جنوباً من جبال زاغروس وطوروس قد وفرت صيداً وفيراً وظروفاً مناخية ملائمة لصيادي العصر الحجري القديم. لذلك فيجب ان لا يكون من المدهش لعلماء ما قبل التاريخ في العالم القديم. ان يكتشفوا آثاراً للصناعة الصوانية في كهوف كردستان العراقية أو في فلسطين أو جنوب غرب الاناضول أو شمال غرب ايران. وكذلك فليس من الغريب ان حضارات هؤلاء الصيادين قد أكدت وجود صلة مع الحضارات التي تم التعرف عليها من قبل أوربا. تتفق كل هذه المناطق في خط جغرافي واحد للهجرة كان في عصر البليستوسين أكثر وضوحاً مما هو اليوم.

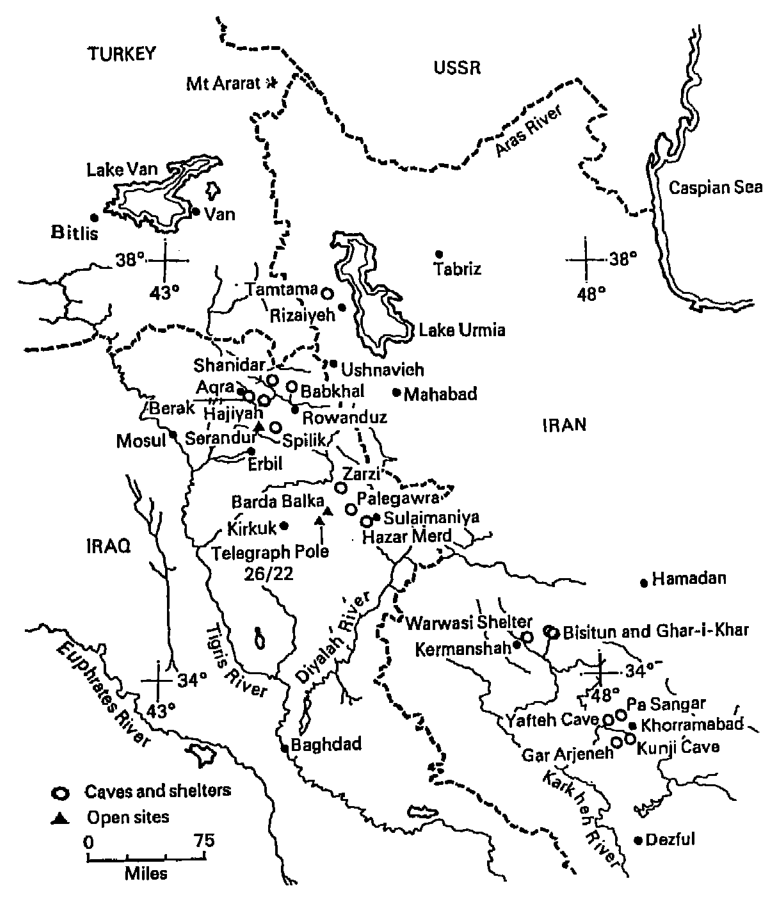
وإذا أردنا الحديث عن التغييرات في البحار الداخلية في غرب آسيا في هذا العصر فيفترض أحد النصوص انه خلال العصر الجليدي الأخير وبسبب مياه الأمطار ارتفع منسوب بحر قزوين (٧٦) متراً أعلى من منسوبه الحالي. وعلى النقيض من ذلك تحول البحر الأسود إلى بحيرة مالحة يفصلها مضيق البوسفور الجاف عن البحر الأبيض المتوسط وبذلك سهلت عملية الاتصال بين الانسان القديم في كل من أوربا وآسيا. أما في أقصى الشرق فقد منع بحر قزوين والمستنقعات الواسعة حول بحر آرال مثل هذه العملية[٩].

غارود وسوليكي (Garrod and Solecki)

قامت دوروثي غارود عام ١٩٢٨، والتي أصبح اسمها معروفاً بسبب حفرياتها الأثرية الطويلة في جبل الكرمل، باجراء أول الاكتشافات الخاصة بالعصر الحجري القديم في شمال العراق. كما أجرت أول اسبارها في كهف يدعى (زارزي) قرب منابع نهر الزاب الأسفل على بعد حوالي عشرين ميلاً إلى الشمال من السليمانية حيث عثرت على مخلفات لم تحرك من مكانها توافق الحضارة الغرافيتية في أوربة وبذلك أصبحت زارزي الموقع النموذجي للمواد من ذلك العصر[٩].

وكانت التجربة التالية لغارود في هذا المجال في كهف أقرب إلى السليمانية يدعى هازار مرد (Hazar Merd) حيث أظهر السبر صناعة صوانية أكثر قدماً يمكن تعريفها باسم الصناعة الموستيرية (Mousterian) بسبب وجود الأدوات والمكاشط وجيدة الوجه. نشرت غارود لائحة بقايا حيوانية معاصرة استطاعت زميلتها دوروثي بليك (Dorothea Blake) ان تتعرف عليها[١٠]. وبعد رحيل غارود إلى فلسطين توقفت عملية البحث في آثار العصر الحجري القديم في شمال العراق حتى عام ١٩٤٩، عندما قامت سلسلة من العلماء الامريكان بمتابعة عملية الاستقصاء والبحث. لقد كان عمل رالف سوليكي في كهف شانيدار من أكثر الأعمال نجاحاً وهو كهف اختاره من مجموعة من الكهوف على الجانب الجنوبي لسلسلة جبال بارادوست (Baradost) فوق راوندوز (Rawanduz). لقد وصل عمق سبره إلى (١٣,٧) متراً واستطاع ان يعزو سلسلة الاستيطان في السوية (د) إلى المرحلة الموستيرية بالاضافة إلى ان المنتجات المصنوعة التي تمثل حضارة صناعة الرقائق الصوانية تقابل حضارة صناعة النصال في العصر الحجري القديم في السوية (س). وفي هذا الكهف أيضاً وبين عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٧ سنحت له فرصة الكشف عن بقايا أربعة هياكل عظيمة تبين بصورة لا مجال فيها للخطأ انها لانسان النياندرتال[١١].

وفي غرب ايران أعلن كارلتون كون (Carleton Coon) وهو عالم انثربولوجي من بنسلفانيا عام ١٩٤٩ عن عثوره على مواد لا تقل أهمية عن المواد التي اكتشفتها سوليكي. وباتباعه نفس خط الهجرة المفترض الذي ذكرناه سابقاً استطاع كون ان يعثر صدفة على موقع كهف في بيسيتون (Bisitun) قرب كرمنشاه وفيه آثار لصناعة موستيرية تشبه تلك التي وجدت في هازار ميرد. كما ادعى بانه اكتشف هياكل عظمية



الشكل رقم ٣: خريطة للمواقع الأثرية الرئيسة في شمال العراق في العصر الحجري القديم.

تطابق مواصفات انسان نياندرتال أيضاً. كما وعثر علماء اتراك في بيلدييي وفي أماكن أخرى قرب شاطيء الاناضول المتوسطي على مواد مشابهة لتلك التي عثر عليها في بيسيتون وبذلك يكون قد تم تحديد نموذج الانتشار بشكل أفضل.

وعلى ما يبدو فان المرحلتين الأخيرتين من العصر الحجري القديم السولتيرية والمجدلانية اللتين اشتهرتا بالرسوم الجدارية في غرب فرنسا لم تصلا إلى الشرق الأدنى. ان مجموعة الأدوات التي عثرت عليها غارود في منطقة زارزي قد اعتبرت وفقاً لما سبق تمثل المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم في العراق. ولأن هذه المرحلة قد أسهمت في توضيح بعض ملامح المرحلة الانتقالية التي أعقبتها فهي تستحق الدراسة العميقة والمتمعنة.

المنقبون الامريكان في كردستان

ان المدى المحدود لاكتشافات غارود في زارزي قد اكتمل بما تم العثور عليه في كهف باليغاورا (Palegawra) الذي يقع على بعد بضعة أميال إلى الجنوب الشرقي من زارزي والذي قام بالتنقيب فيه كل من هـ. ي. رايت (H. E. Wright) وبروس هاو (Bruce Howe) في عام ١٩٥٠. لقد أدت نتائج الحفريات في الكهفين إلى رسم صورة أكثر كمالاً. وكان الابتكار الهام هو استعمال الصوان الميكروليتي، وصناعة النصال المصقولة التي شملت أول رؤوس سهام مصنوعة من الحجارة الرقيقة وكذلك المجموعة الواسعة من المكاشط والنصال وأدوات النقش. وكان ضمن الأدوات فأس مصقولة وأجزاء من جواريش تستعمل للطحن بالاضافة إلى توفر مادة الاوبسيديان التي كان أقرب مصدر لها يقع في منطقة بحيرة فان في شرق الاناضول. وكان هنالك خرز وعقود وحلي مصنوعة من الأصداف. ولقد أظهرت عظام الحيوانات ان السكان كانوا يصطادون حمار الوحش أكثر من أي نوع حيواني آخر. أما الماعز البري وقطعان الاغنام والغزلان فقد رسمت صورة عن طبيعة التضاريس التي عاش فيها الانسان البارادوستي. وتضمنت بقايا الخشب أنواعاً من السنديان والطرفاء والحور والصنوبر وهي أشجار مازالت موجودة في منطقة كردستان حتى اليوم. لقد استطاع المنقبون الآثاريون العثور على تاريخ بواسطة الفحم المشع يقع ما بين ١٣٠٦٠ - ١٤٢١٠ سنوات مضت. ان الوضع الحضاري الذي يمكن تصوره نتيجة كل هذه الادلة يعتبر اليوم نقطة الانطلاق للابحاث المركزة التي تجري في هذه الأيام. إنه مرحلة الانتقال من أسلوب العصر الحجري القديم في الحياة إلى مرحلة الاقتصاد المتغير والمتنوع في العصر الحجري الحديث.

ومن المهم الآن ان نتذكر أهمية هذه التحريات الأثرية خلال العقد الخامس من هذا القرن عندما بدأ ر. ج. بريدوود من شيكاغو مشروع جارمو العراقي يدعمه فريق من المتخصصين المتنوعين وقد اعتبر ما قدمه هؤلاء من أبحاث ابتكاراً كبيراً بحد ذاته[١٢]. كما كرس عدد من العلماء من جنسيات مختلفة أنفسهم لسنوات طويلة لدراسة الحضارات ما قبل السومرية وأصول حضارات بلاد الرافدين. ولقد اكتشف ليونارد وولي (Woolley) سكان المستنقعات البدائيين في موقع سمي باسم العبيد (Ubaid) وفي سبر عميق في سويات ما قبل التاريخ في أور(Ur). بينما قام زميله

م. ي. ل. مالـووان (M. E. L. Mallowan) بعملية اختراق أكثر عمقاً في تل كويو نجيك في منطقة نينوى واستطاع التعرف على سلسلة من عمليات الاستيطان ظهر فيهـا ان السكـان قد استـطاعـوا استيعاب عملية صهر النحاس ومارسوها بشكل متعـاظم. وفي عام ١٩٤٣ تمكن فريق تنقيب أثري حكومي في حسونه على حدود المـرتفعات الآشورية من الكشف في أعمق المستويات عن وجود مخيم بدوي اعتبر منتمياً إلى مرحلة العصر الحجري الحديث.

ان فترة الخمسة آلاف سنة التي تفصل هذه البقايا عن آثار العصر الحجري القديم في زارزي وباليغاوراتمثل فجوة في التسلسل الزمني لعصور ما قبل التاريخ. ولقد كان هدف حملة بريد وود خلال الخمسينات من هذا القرن سد هذا الفراغ. وقد ساهم مشروع بريد وود في كردستان بشكل كبير في حل هذه المشكلة التي يجب التفكير بها على ضوء المعلومات المتراكمة التي توفرت نتيجة عمليات استقصاء مشابهة جرت في كل انحاء الشرق الأدنى. لذلك فمن المتعذر ان يقتصر عرضنا على العراق فقط بل يجب علينا ان ندرس ما قدمته الاكتشافات في عشرين موقع أثري موزع بين المشرق وغرب الاناضول وإيران. وفي البداية لا بد من كلمة نقولها وهي ان اصطلاح «الثورة الحجرية الحديثة» قد استعمله لأول مرة غوردن شايلد وهو عميد علماء عصور ما قبل التاريخ في انكلترا.

لقد تركز اهتمام شايلد في بادىء الأمر على عملية انتقال الانسان من اقتصاد مرحلة الصيد وجمع الطعام إلى اقتصاد يتميز بانتاج الطعام. وفي زمانه أي في عام ١٩٢٧ كانت كلمة العصر الحجري الحديث قد أصبحت مقبولة للدلالة على مرحلة من مراحل التطور البشري حدث فيها هذا التغيير. ولقد استطاع شايلد ان يحدد مفهوم كلمة «ثورة» عندما شرح انها لا تتضمن بالضرورة أي ثوران عنيف لكنها تعني «تـراكم التغييرات الارتقـائية المتـواصلة في التنـظيم الاجتـماعي والبنية الاقتصادية للمجتمعـات البشرية»[١٣]. لقـد سلَّم شايلد بالمقياسـين المقبـولين للتطور الخاص بالعصر الحجـري الحـديث وهما ممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات. كما وانه اعتبر صناعة الفخار سمة مميزة لذلك العصر على الرغم من الاكتشاف الحديث لحضارات ما قبل فخارية منتجة للغذاء. لقد ثبت ان هذا الامر مجرد تعميم مبالغ فيه ففي شمال سورية ظهر ان عملية صناعة الفخار وجمع الحبوب البرية قد حدثتا في زمن واحد.

ومع ذلك فان مفهوم الثورة هنا قد بدأ يعني عملية تطور ارتقائية أكثر مما هي ثورية أي انها لم تحدث خلال فترة قصيرة من الزمن ولا ضمن منطقة محدودة جغرافياً. ولقد ثبت أيضاً على سبيل المثال أن أقدم عمليات تدجين أنواع حيوانية وزراعة أنواع نباتية لم تظهر في منطقة معينة ولا في زمن محدد لكنها ظهرت في مواقع مختلفة وفي أزمنة مختلفة أيضاً. ويبدو ان مثل هذه النتائج تنزع إلى دحض النظريات التي وضعها أسلاف شايلد في مجال العصر الحجري الحديث. حاول بريد وود ولفترة طويلة من الزمن ان يحدد جغرافياً (منطقة الموطن الطبيعي) الذي حدثت فيه أول عملية تدجين لحيوانات أو زراعة لنباتات من خلال تشكيل هلال حول المناطق القليلة الارتفاع لجبال زاغروس وطوروس معتبراً البحر المتوسط نقطة البداية من جهة الغرب. وبسبب الكثير من المواقع الأثرية المكتشفة حديثاً والتي تؤكد وجود مجتمعات تنتمي إلى العصر الحجري الحديث عرفت ممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات وتقع خارج إطار المنطقة المذكورة فان هذا المفهوم أيضاً يجب اعادة النظر فيه.

أهمية أبحاث العصر الحجري الحديث

يجب ان نلخص بشكل مختصر التنقيبات الأثرية التي جرت في أقطار الشرق الأدنى، غير العراق، والتي ساهمت مساهمة كبيرة في السنوات الأخيرة في زيادة معرفتنا عن حضارات العصر الحجري الحديث والحضارات التي سبقتها مباشرة. وفي عملنا هذا يجب ان نبدأ من المشرق حيث عثر في عام ١٩٢٨ على مستوطنات وفرت أقدم الأدلة على عملية انتاج الطعام. وهنا نعود مرة أخرى إلى عمل دوروثي غارود في وادي النطوف في جبل الكرمل من فلسطين. حيث عملت الحضارة النطوفية التي أمكن التعرف عليها هناك كنقطة انطلاق في تحديد المراحل الزمنية للتطور في العصر الحجري الحديث. لقد كانت هذه الحضارة بحد ذاتها كشفاً هاماً لطريقة جديدة في الحياة، مختلفة في نواح هامة ومتعددة عن نمط الحياة في نهاية العصر الحجري الوسيط. لقد اعتبرت صناعة الصوان الميكروليتي بشكل مؤقت تابعة للعصر الحجري القديم. وكان الصيد وصيد الأسماك هما المصدر الرئيسي للطعام، لكن نصال المناجل الصوانية والتي ظهرت الادلة على استعمالها أثبتت وجود الحصاد لمحصولي القمح والشعير البري. وتطورت الصناعة الحرفية إلى ان شملت نقش أجسام للحيوانات

قبل الميلاد	المشرق	الأناضول: مواقع أخرى	الأناضول: مرسين	ايران
			العصر البرونزي	سوسا (د) ١ ـ س
٢٥٠٠				سوسا (س)
٣٠٠٠			اوروك ـ عبيد	س ↓ ب ↓ ↑ آ ↓
٣٥٠٠				
٤٠٠٠			عبيد ١١ـ١٥	سوسا (ب)
				سوسا (آ) سوسا القديمة
٤٥٠٠	آريحا			
	↑ نيوليت فخاري ب		الحصن ١٦	سوسيانا (ي)
٥٠٠٠	نيوليت فخاري آ	هاتشيلار ١ـ٩		سوسيانا (آ ـ د)
٥٥٠٠		شاتال هويوك ٠ ـ ١٢	حلف ١٧ـ١٩	
٦٠٠٠	فراغ ↓		العصر الحجري الحديث ↓	↑ غوران ↓
٧٠٠٠	البيضا ↑ نيوليت قبل الفخار ب	↑ شايونو		
٨٠٠٠	↑ نيوليت قبل الفخار آ ↓	↑ المريبط سوريا		↑ اسياب

الجدول رقم ٢ تسلسل زمني مقارن لمواقع المشرق، الأناضول وإيران.

استعملت كمقايض للنصال العظمية. كما عثر على أنواع من الحلي الشخصية تشمل أغطية شبكة للرأس مصنوعة من مادة الأسنان بالاضافة إلى العقود. ان المواقع الأثرية الأخرى في المشرق وبخاصة مواقع المريبط وأبو هريره وعينان (عين ملاحه) وأريحا قد أضافت ملامح جديدة إلى هذه الحضارة المتطورة نسبياً ومن بين هذه الملامح فن العمارة البدائية وأدلة على وجود عقائد دينية منظمة. وبرأي أحد المراجع الموثوقة فان النطوفيين قد أسسوا أقدم عملية استيطان دائمة في العالم.

وادي الأردن والمشرق

في منطقة أريحا بوادي الأردن حيث قامت كاتلين م. كينيون بالتنقيب عن أعمق المستويات في الرابية المدنية في الواحة ما بين عامي ١٩٥٢ - ١٩٥٨ ظهرت سويتا استقرار مبكر أحداهما من العصر الحجري الوسيط والأخرى من العصر الحجري ما قبل الحديث تتوافق كل منهما مع العصر النطوفي في أماكن أخرى. ولقد وصفت كينيون المستوطنين الأوائل في حوالي عام ٩٠٠٠ قبل الميلاد كصيادين وجامعي طعام لكن الصورة الواضحة لاستيطانهم كانت صومعة مبنية من الحجارة. ولقد أعقبت مرحلة العصر الحجري الوسيط مرحلتان تميزتا بوفرة الانتاج هما المرحلتان (أ) و (ب) من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري. ولقد ظهر في أولى هاتين المرحلتين تطور سريع في تنظيم الحياة الاجتماعية وكانت هناك بيوت دائرية أو مستطيلة مبنية من اللبن الطيني المجفف بأشعة الشمس. لقد شغلت هذه المدينة مساحة تقارب (١٠) فدان وكانت محصنة بسور حجري ضخم يرتفع فوقه برج دائري يصل قطره إلى اثني عشر متراً بالاضافة إلى خندق دفاعي محفور في الصخر. استنتجت كينيون ان نظاماً دفاعياً من هذا النوع لا بد ان تكون وراءه درجة عالية من التضامن الاجتماعي والقيادة الواحدة، ويعزز هذه الفكرة وجود الزراعة المنظمة والتجارة البعيدة المدى لسلع منها مادة الاوبسيديان. والتواريخ المأخوذة بطريقة الفحم المشع لهذه المرحلة تقع ما بين عامي ٨٣٥٠ - ٦٧٧٠ قبل الميلاد.

أما المرحلة الحجرية الحديثة قبل الفخار في أريحا فقد استمرت مثل سابقتها لفترة طويلة حيث أمكن تمييز ما لا يقل عن ٢٦ مرحلة من البناء. ولقد تطور فن العمارة للمنازل تطوراً كبيراً فأصبح لكل منزل غرف متصلة مع بعضها. أما الجدران



الشكـل رقم ٤ : ثلاثة نماذج لجماجم بشرية مشكلة بالجص مع عيون مطعمة بالصدف وجدت في سويات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في أريحا ـ الألف السابع قبل الميلاد.

فقد ظلت مصنوعة من القرميد الطيني بينما رصفت الأرضيات بالجص وغطيت في بعض الحـالات بالحصير المصنوع من مادة القصب. واعتبرت كينيون أحد الأبنية المصمم بشكـل متنـاسق هيكـلاً دينياً. ومن أغـرب الملامح الفنية في هذه المرحلة الجماجم البشرية التي تميزت بوجوه أعيد ترميمها بواسطة الجص وطعمت بالعيون. لقد عثر على ما لا يقل عن عشرة من هذه الجماجم مما يوحي بممارسة نوع من العقيدة تتعلق باحياء ذكرى بعض الأشخاص. أما عن عظام الحيوانات البرية فقد كانت عظام الغزال أكثر توفراً وكذلك عظام الماعز الذي كان قد تم تدجينه. كما وعثر أيضاً على بقايا متفحمة من الحبوب، ويبدو ان قمح (emmer) الذي كان شائعاً في فترة سابقة قد حل مكانه قمح (einkorn). ويمكن تمييز مرحلة العصر الحجري الحديث الفخـاري التي تلت فترة اخـلاء المستـوطنة المؤقتة في أريحا بظهور نوع من الفخار المدهون بغير إتقان بينما تظهر أنواع أكثر اتقاناً في مواقع أثرية أخرى وفي نفس الفترة.

ولم تتقدم تنقيبات كينيون الأثرية في أريحا بشكل كبير بسبب المنطقة المحدودة

لسبرها العميق. وبعد فترة قصيرة سنحت لديانا كيركبرايد (Diana Kirkbride) فرصة اكتشاف موقع أثري على ضفة أحد الوديان الجافة في شمال البتراء حيث ظهرت الابنية النيوليتية للمستوطنة تحت سطح الأرض مباشرة. كما وأجرت عملية تنقيب أثري في منطقة واسعة في البيضا في السنوات ما بين ١٩٥٨ - ١٩٦٧ وكشفت بذلك النقاب عن صورة كاملة التفاصيل لحياة قرية بدائية. بعد ان شغل هذا الموقع لفترة قصيرة في بداية العصر النطوفي هجر بصورة مؤقتة ثم أُعيد استيطانه في وقت ما بعد عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد وبواسطة شعب يتوافق مع سكان أريحا في العصر ما قبل الفخاري. أما



الشكل رقم ٥ : صورة تبين عمليات التنقيب الأثرية في البيضا قرب البتراء. وتظهر في الصورة بيوت مبنية من الحجارة لمستوطنة انشئت في العصور النطوفية. ولقد سكن المستوطنة شعب من العصر الحجري الحديث منذ حوالي عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد.

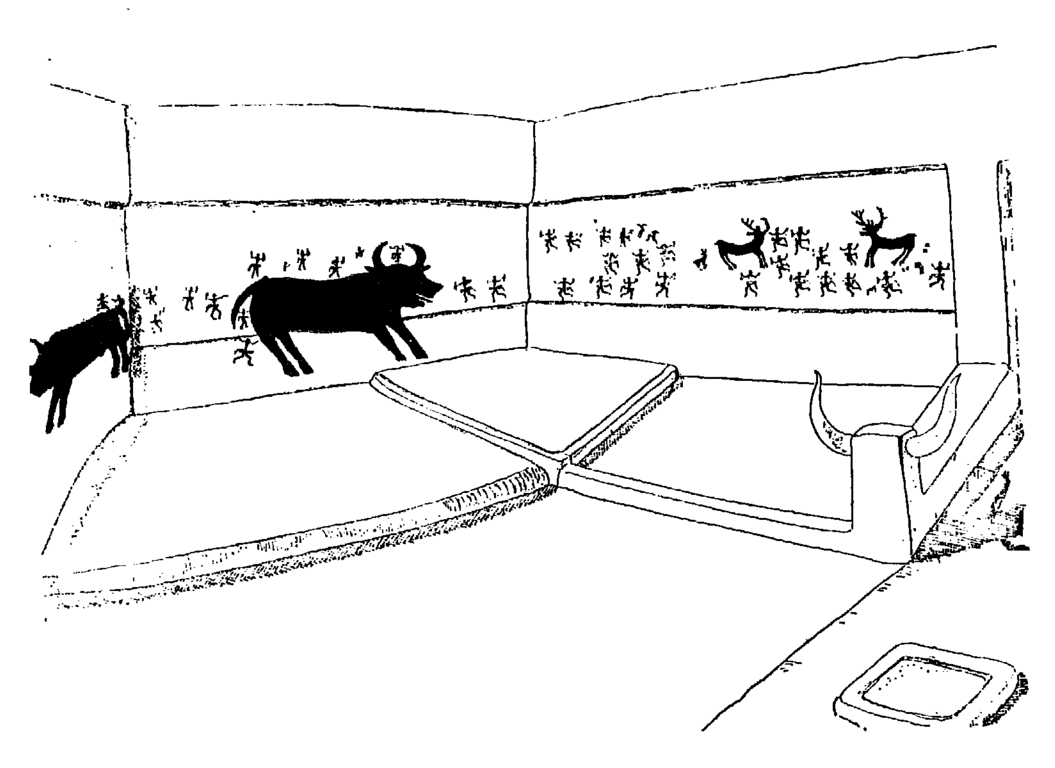
البيوت التي تطورت من الشكل الدائري الى المستطيل فقد بنيت من جدران سميكة وأعيد طلاء الغرف بالجص مرات عديدة. كما استبدلت مجموعات الغرف الصغيرة بمقصورات منفردة وأكبر حجماً وكانت مطلية بالجص، أما الأرضيات المبنية دون مستوى الأرض بقليل فكانت مزينة بخطوط من الدهان الملون. لقد تم التعرف على دكان خباز ودكان لحام وتوفرت أدلة على وجود تطور مبكر للتجارة المتخصصة. وقد تم ابتكار أدوات حجرية تفي بكل غرض يمكن تصوره بينما صنعت الألعاب والأدوات الدينية من الغضار.

تم تأكيد وتثبيت الأدلة المأخوذة من هذه المواقع في الاردن والساحل بواسطة الكشوف التي تمت في المناطق الداخلية من سورية والتي مازالت قيد النشر. ففي المريبط إلى الجنوب الشرقي من مدينة حلب قام م. فان لون (M. Van Loon) وجاك كوفان (J. Cauvin) بالتنقيب عن مستوطنة تعود للألف التاسع قبل الميلاد. حيث ثبت ان الناس الذين عاشوا في بيوت قوية مصنوعة من الغضار قد قاموا بزراعة القمح وتدجين الماعز وصناعة الفخار.

الأناضول

إذا كان علينا ان نختار واحدة من مجموعة حفريات أثرية في تركيا الحديثة فان إحدى هذه الحفريات تفرض نفسها على الفور لأنها تمثل النظير الأناضولي لموقع أريحا في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري. انه موقع شايونو (çayönö) في منطقة ديار بكر حيث كان بريد وود قبل وقت قريب يعمل بالتعاون مع عالمة تركية تدعى هاليت شامبل. ويمكن هنا اعتبار اللقى المادية كأشياء مميزة لمجتمع متطور من مرحلة ما قبل الفخار مع خبرة مناسبة في أمور الزراعة والاستفادة من الحيوانات المنزلية، كما يتميز الموقع بصفتين غير عاديتين أحداهما فن العمارة والبناء. خلال المرحلة الثانية من المراحل الأربعة للمستوطنة، كانت بقايا البناء تتكون من أساسات حجرية مكونة مصلبات منتظمة ذات فراغات ضيقة فيما بينها لا تصلح إلا للخزن[١٤]. بينما عثر في المرحلة الثالثة على أرضية متماسكة مزينة على شكل رصيف تيراسي بأشكال من الحجارة الرقيقة جعلت هذه الأرضية ناعمة السطح. الأمر الثاني والمثير للدهشة هو صناعة الأدوات البسيطة بواسطة طرق النحاس المحلي على البارد وهذا أقدم استعمال

للنحاس عرف حتى الآن. يمثل موقع شايونو ألف عام من الاستيطان تنحصر ما بين عامي ٧٥٠٠ ـ ٦٥٠٠ قبل الميلاد تسبق مباشرة أقدم سويات المستوطنة الشهيرة «شاتال هويوك» التي اكتشفها جيمس ميلارت في سهل قونية. وهنا يمتد بنا الزمن لمدة ٨٠٠ أو ٩٠٠ سنة من الابتكار والتطور المثير[١٥].



الشكل رقم ٦: غرفة معبد من الداخل في مدينة شاتال هويوك في العصر الحجري الحديث قرب قونيا في الأناضول. وتظهر رسوم جدارية لثيران وعملية صيد الأيل. (٥٨٠٠ قبل الميلاد). (عن ميلارت ١٩٦٧).

سيكون من غير الملائم هنا ان نصف بالتفصيل المظاهر الكثيرة لمستوطنة شاتال هويوك التي لم يمض إلا القليل من السنوات على اكتشافها ونشر المعلومات عنها بصورة وافية. تغطي مدينة شاتال هويوك مساحة تزيد عن (١٥) فداناً وتتألف من بيوت مصنوعة من القرميد، مرتبة بشكل متلاصق كبيوت النحل ويتم الدخول إليها بواسطة سلالم من السقوف. أما الأبنية البالغة الأهمية فهي تلك التي تبدو انها ذات

أغراض دينية، فهي تتميز بجدران مزينة برسوم جدارية، تذكر بنقوش الكهوف في عصر سابق، وبرؤوس وقرون للحيوانات. لم تكن الأواني الفخارية فقط شائعة الاستعمال بل كانت كذلك نماذج لهذه الأواني مصنوعة من الخشب أو السلال التي كانت تدوم أكثر من غيرها. نحتت الأشكال البشرية والحيوانية من الصخر أو أعيد تكوينها من مادة الغضار بينما صنعت الأدوات والأسلحة من الصوان والاوبسيديان. كان الصيد مايزال يحتل مكانة هامة كمهنة كما تم تعزيز الاقتصاد بواسطة الزراعة التي تميزت بتنوع كبير في النباتات الغذائية ويضاف إلى ذلك وجود دلائل عن بداية عملية الري.

ومن غير المستحب الاعتقاد بأن هذا التعاظم في التطور الحضاري قد كان ظاهرة معزولة لم يكن لها مثيل في ذلك العصر في بقية أنحاء الشرق الأدنى ومع ذلك فيبدو ان هذا الأمر يمثل الواقع في ذلك الوقت وهناك أدلة بسيطة على انه قد ساهم في تسريع التطور في مجتمعات العصر الحجري الحديث في مناطق متعددة. وفي الواقع فخلال المراحل التاريخية التالية بدا ان الكثير من الانجازات قد نسيت وظهرت دلائل على وجود عطالة جديدة في التطور الفكري. وفي تركيا تتمثل هذه المرحلة في المستويات العميقة من مواقع هاتشيلار وساكشاغوزو وترسوس ومرسين حيث يرتبط وجود البيوت المبنية من الحجارة مع وجود الفخار الملون باللون البني أو الأسود بالاضافة إلى منتجات الاوبسيديان الرائعة الصنع. لكن هذه الحضارة لم تكن على ما يبدو أكثر من مقدمة لحضارة العصر النحاسي الأكثر تطوراً والتي سيكون عندنا الكثير مما سنقوله عنها عندما نعود إلى الحديث عن بلاد الرافدين.

إيران

ولا بد الآن من الحديث قليلاً عن التطورات المعاصرة في إيران، ومن أجل ذلك ينبغي أولاً ان نأتي على ذكر المناطق الخاصة التي أجريت فيها التنقيبات الأثرية وان نلاحظ انتشارها الواسع والهام. لم يبدأ البحث في أصول حضارات ما قبل التاريخ في إيران حتى عام ١٩٥٠ لذلك فان الكثير من المكتشفات ماتزال حديثة العهد ولم تنشر بشكلها النهائي والدقيق حتى الآن. وتعتبر الدراسة التي أجراها ب. سينغ (B. Singh) من أفضل الدراسات رغم انها تعتمد على معلومات تمهيدية

وأولية وضمن السياق الحـالي يمكن اعتبـارهـا من أدق مصادر المعلومات المتوفرة. استطاع سينغ ان يحدد جغرافياً ثلاث مجموعات من المواقع الأثرية المكتشفة تحتوي على ثلاثة تجمعات ثقافية بشرية ترتبط بالعصر الحجري الحديث[١٦]. يوجد التجمع الأول في وديان الأنهار إلى الجنـوب الشرقي من كرمنشاه بينما يقع الثاني في سهل خوزستان ضمن منطقة يبلغ نصف قطرها حوالي ٥٠ ميلاً حول سوسه، أما التجمع الثالث فيقع إلى الجنوب والجنوب الغربي من بحيرة اورميا في أذربيجان. لقد وفرت الحفريات الأثرية التي أجريت في هذه المواقع مكتشفات توسع أكثر مما تكمل المكتشفات التي أشرنا إليها في الأناضول والمشرق.

ونذكر فيما يلي بعض التفاصيل عن المواقع التي تم تصنيفها أعلاه وعن مساهمة هذه المواقع في استكمال سلسلة التطور في العصر الحجري الحديث.

أولاً: في مجمـوعة كرمنشاه تحتوي «تبه أسباب» على آثار اقامة شبه دائمة لجامعي طعام، كانوا على وشك القيام بانتاجه أيضاً والتاريخ التقديري لهذا الموقع هو ما بين ٧١٠٠ - ٦٨٠٠ قبل الميلاد. وفي فترة أكثر تقدماً لم يعثر في «تبه ساراب»، وهي تمثل حضارة جامعي طعام، على فن معماري مرتكز على الجدران الطينية بالرغم من ان صنـاعتهم للفخار العادي والملون أصبحت واضحة. والاستخدام الآخر للغضار المشـوي في هذا الموقع كان من أجل صناعة الأشكال المتنوعة والتماثيل والتي عرف أحدها باسم (فينوس ساراب) وهو يظهر مهارة فائقة في الصناعة والتشكيل. لقد تم هنا تدجين الماعز وليس هناك أي دليل على وجود الحبوب الغذائية كما وجدت أول آثار العمارة المتينة في (تبه غانج داره) وكانت عبارة عن بيوت مستقيمة الزوايا مبنية على شكل مجموعات تستند بعضها إلى بعض ولها جدران مصنوعة من القرميد المحدب. وتتمثل الصناعة الصوانية في تقاليد صناعة النصال الرقيقة بينما نلاحظ الغياب الكلي لصنـاعة الأدوات من مادة الاوبسيديان، كما توحي آثار الصقل التي لوحظت على بعض النصال بعملية حصاد الحبوب. ان التماثيل الفخارية المصنوعة بنماذج ذات رؤوس قصبية سنلتقي بها ثانية في مواقع أخرى. ومن المفيد ان نذكر ان تاريخ هذا الموقع الأثري يقع ما بين عامي ٧٣٠٠ - ٦٩٠٠ قبل الميلاد. أما الموقع الموثق بشكل جيد في هذه المجموعة فهو موقع (تبه غوران) الذي يصور مرحلة الانتقال من الكوخ إلى المنزل ومن مرحلة ما قبل الفخار إلى مرحلة الفخار. ويظهر الفخار هنا في السوية

الرابعة من الاستيطان وبعد ذلك يظهر الفخار الملون أما الصناعة الحجرية فتشمل الاوبسيديان والرخام. المظهر البارز الآخر لفن العمارة هو صنع المنصات من مادة اللبـاد المطعمة بالغضار الملون بالمغرة الحمراء ويرجع تاريخ هذه الحضارة الحجرية الحديثة إلى الفترة ما بين عامي ٦٥٠٠ ـ ٥٥٠٠ قبل الميلاد.

المجموعة الثانية: من هذه المواقع تقع في سهل (ديه لوران) إلى الغرب من سوسيانا وقد وجدت سلسلة من المراحل الحضارية نتعرف عليها الآن من خلال أسماء هذه المـواقع. المرحلتان الأولى والثانية «بوز مرده» و«علي كوش» هما من مراحل ما قبل الفخار بينما يظهر الفخار في المرحلة الثالثة وهي مرحلة «جعفر». وتؤكد هذه المراحل الثلاث وجود فترة من الزراعة البعلية المبكرة وتدجين الماعز بدءاً من حوالي عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد. ثم اعقبتها وحلت محلها بالتدريج فترة تميزت بالزراعة المروية وتدجين قطعان الأغنام التي بدأت حوالي عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد وكانم لها ما يماثلها في «شوغا مامي» في العراق.

المجموعة الثالثة: وهي مجموعة حضارات القرية الباكرة، المتمثلة في مواقع «حجي فيروز» و«دالما» و«بيسيدلي» جنوب شرق اذربيجان فهي من نمط ينتمي تقريباً إلى العصر النحاسي المبكر. ويمكن ان يقال نفس الكلام عن موقع «تبه يحيى» الذي يقع في منتصف المسافة بين (كيرمان) و (بندر عباس) الذي يؤهله بعده لتأكيد الشكل الجغرافي الواسع لهذه المواقع ويمكنه من تحديد توجه قوي نحو مزيد من الاكتشافات[١٧].

مشروع جارمو ـ العراق

بعـد ان حاولنـا تقديم لمحة شاملة عن أهم المساهمات في الكشف عن آثار العصر الحجري الحديث التي تمت على مدى ما يزيد عن ربع قرن في مناطق هامة من غرب آسيا، أصبـح بالامكان ان نقيِّم نتائج عمليات أثرية مشابهة في منطقة بلاد الرافدين الشمالية. ومن أجل ذلك لا بد من العودة إلى مشروع جارمو الأثري الذي بدأه بريد وود في الخمسينـات، وعنـدما نفعل ذلك فاننا سوف نكتشف ان بعض النتائج قد ثبت بطلانها ومع ذلك فانه ينبغي ان نتذكر الدور الرائد لأعمال بريد وود.

ان نتائج العمليات التنقيبية في اثنين من مواقع بريد وود والتي كانت لها أهمية

متواضعة في تسلسل التطور الثقافي قد أصبحت الآن موثقة أكثر في أماكن أخرى. أحد هذه المواقع هو الموقع الذي يدعى «كريم شاهير» إلى الشمال من شيمشمال في لواء كركوك. ويبدو ان هذا الموقع واحد من عدة مواقع في مناطق مجاورة كانت مشغولة كمعسكر مؤقت في زمن غير محدد بدقة، وربما يكون معاصراً لمرحلة العصر الحجري الوسيط في أريحا، عندما حدث انتقال الإنسان من الكهوف والملاجىء إلى المواقع المكشوفة.

لقد كان الصيد والصيد البحري المصدرين الرئيسين للطعام، ولم تتوفر آثار تدل على الاقامة الدائمة. لم تكن الحيوانات قد دجنت بعد ويعتقد ان المناجل قد استعملت فقط لحصاد القصب الذي كان يستعمل في البناء. تعتبر الأزاميل الحجرية والتماثيل الغضارية الطينية من المعايير القليلة لانعتاق الانسان من أنماط الحياة في العصر الحجري القديم. ومن الثابت وجود فاصل زمني كبير بين كريم شاهير وموقع أريحا حيث قام بريد وود بعملية تنقيب واسعة النطاق ما بين ١٩٤٨ - ١٩٥٥. والتواريخ المأخوذة بواسطة الفحم المشع غير وافية بالغرض، إلا انه وفقاً للجداول الزمنية فقد شغلت جارمو في فترة قصيرة الزمن قبل وبعد العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري (ب) في أريحا وتاريخها الوسطي هو عام ٦٧٥٠ قبل الميلاد. ووفقاً لاصطلاح بريد وود فانها تحتل مكانها ضمن ما يسمى (مجتمعات القرية الزراعية البدائية)[١٨].

تشغل هذه القرية مساحة (٣) فدان تقريباً على كتف متآكل لمرتفع يطل على واد عميق وجاف. وهناك (١٢) سوية من البناء ذات جدران مصنوعة من الفخار تستند إلى أساسات من الحجارة، ولقد عثر على الفخار في الثلث العلوي من هذه الطبقات. ان وجود الأدوات المصنوعة من الصوان أو الحجارة يعني ضمناً استعمالها في الحصاد والطحن، الأمر الذي تم اثباته بوجود الحبوب الغذائية بما فيها القمح والشعير. كما وان الصناعة الصوانية شملت صناعة النصال والميكروليت مع كمية مستعملة من الاوبسيديان الوارد من بحيرة فان.

لقد كان شكل فخار جارمو لغزاً محيراً لعلماء الآثار، فالأواني الحجرية الحسنة الصنع في المستويات الأعمق أفسحت المجال في منتصف فترة الاستيطان لسلسلة من الأواني الفخارية التي صنعت بأشكال مناسبة وذات حواف مصقولة وملونة ومصممة



الشكل رقم ٧: موقع جارمو على حافة جرف في منطقة التلال الكردية. ولقد استعملت في التنقيب عن هذا الموقع طريقة الأسبار الطبقية من أجل تحديد موقع المستوطنة العائدة للعصر الحجري الحديث حيث ظهر الفخار في السويات الأخيرة فقط أي منذ عام ٥٨٠٠ قبل الميلاد.

بأشكال بسيطة. لكن هذه الخصائص تتلاشى في المستويات الأقرب إلى سطح الأرض. وكان بريد وود قد توقع من خلال طريقته في العمل ان يثبت ارتباط هذا الفخار مع فخار حسونه لكنه لم ينجح في ذلك وأحدث التخمينات هي ان لهذا الفخار ما يماثله في (تبه غوران) بإيران مما يوحي بوجود علاقة مع جبال زاغروس أكثر مما يوحي بوجود علاقة مع منطقة وادي الرافدين[١٩].

يمكن اعتبار تأريخ بريد وود زمناً لفترة اخلاء المستوطنة يتزامن مع المرحلة

الأخيرة من العصر الحجري الحديث في أماكن أخرى. وإذا كان هذا الأمر صحيحاً فانه يجب البحث عن النشوء القديم لحضارة حسونة في الوديان نفسها، في مواقع مثل أم الدباغية أو الموقع الذي قام الروس بالتنقيب عنه في منطقة سنجار. هنا تندمج المرحلة الحجرية الحديثة بشكل غير منظم مع المرحلة التي سميت حديثاً بالعصر الحجري النحاسي والذي يفضل ان نؤجل مناقشته إلى فصل آخر من الكتاب.

وقبل ان نترك موقع بريد وود هناك شيء اضافي لا بد من ذكره حول اللقى التي تم العثور عليها في هذا الموقع. لقد ذكرنا سابقاً مجموعة البحث ذات الاختصاصات المتعددة التي جاء بها بريد وود إلى العراق في الخمسينات. وللمرة الأولى في الشرق الأدنى يتعاون علماء الجيولوجيا والمناخ من المختصين في علم النباتات والحيوانات ضمن اقليم معين ومع علماء الآثار في دراستهم للخلفية البيئية للانسان القديم. ونتيجة لتقارير هذه المجموعة من المختصين تظهر صورة للوضع البيئي مختلفة تماماً عما هي عليه في الوقت الحاضر. ان التناقض الذي اكتشفوه بين الماضي والحاضر في المظهر الجغرافي لشمال العراق هو أحد النتائج الهامة لعملهم المشترك. وكما يقول بريد وود: «خلال الفترة التي انقضت عندما كانت جارمو مجرد قرية شكل الانسان فيها أكبر تأثير في البيئة، ويمكن مشاهدة آثار عمله في منطقة الشرق الأدنى بأكملها. وعلى العموم فان دور الانسان بزراعته وقطعانه كان دوراً تدميرياً دون ان يكون ذلك ناتجاً عن رغبته في ذلك».

واليوم يقول بريد وود: «وعلى طول وعرض المناطق السهلية التي كانت في الماضي مملوءة بالغابات ومنطقة التلال في وادي شيمشمال لم تبق أية شجيرة ولم يسمح لشجرة بلوط ان تصل إلى طول يزيد على ستة أقدام قبل ان يقطعها الانسان لصناعة الفحم الخشبي. ونتيجة زوال الأشجار وقيام الحيوانات بالتهام الأعشاب حتى جذورها في كل ربيع امتلأت الأنهار بالتربة الطموية حيث كانت في الشتاء تتشكل عند كل منحدر سيول من مياه الأمطار الملونة بلون الشكولاته»[٢٠].

وهذا هو مصدر الطمي الذي نشأ في سهل بلاد الرافدين.

مواقع ديالى											
عقرب	خفاجه	أسمر	العقير	كيش	نيبور	عبيد	اريدو	اوروك	اور	العصر	ق.م
منازل	أبنية	القصر		البناء	أبنية				قبور	الأكادي	
		الأكادي		Z							
		معبد	قبور	المقبرة	معبد اينانا	قبور			قبور ملوك	III b	
		بمزار		A	٥ـ٦	معبد		أبنية	السلالة		٢٥٠٠
		وحيد				نين كورساخ	المجمع		الأولى		
	المعبد البيضوي ٣ ـ ١٠			القصر ٨		المصطبة	الديني			III a السلالات الباكرة	
				الزيقورة	٧	البيضوية					
معبد	٢ ـ ٨-٩	المعبد		منازل	٨		قصور			II	٢٧٥٠
شارا		المربع		السير							
	١ ـ ٧-٦	المعبد		منازل					طبعات		
	معبد سن	القديم			٩ ـ ١١	معابد قديمة			أختام	I	
								المعبد ٢		جمدة	٣٠٠٠
	١ ـ ٥	هيكل	صومعة		١٢ ـ ١٤			الأبيض		نصر	
			المعبد				المعابد ١ ـ ٢	السيار ٣ و ٤ و ٥	السيار	اوروك	
			الملون		١٥ ـ ١٦	?	المعبد العالي			الأخير	٣٢٥٠
			معابد				٣ ـ ٥	منطقة أنو أبنية ٦ ـ ١٤			
			قديمة		١٧ ـ ٢٠		المعبد			اوروك	
							المسور			الباكر	٣٥٠٠
			مستوطنة			مستوطنة	٦ ـ ٧	١٥ ـ ١٨		عبيد	
							المقبرة	?		٤	
							المعابد			عبيد	٤٠٠٠
							٨ ـ ١١		اور/عبيد ١ ـ ٢ ـ ٣	٣	
			?			?					
							السويات			عبيد ٢	
							١٢ ـ ١٤			حجي	٤٥٠٠
							حجي محمد			محمد	
							بدون أبنية				
							المعابد			عبيد ١	
							١٥ ـ ١٨			(اريدو)	٥٠٠٠
							فخار اريدو				

الجدول رقم ٣: التسلسل التاريخي لمواقع جنوب بلاد الرافدين

الفصل الثالث

«بداية التاريخ المكتوب»

ينبغي ان نعود الآن إلى السهل الطموي في جنوب بلاد الرافدين والمستنقعات التي تفصل السهل عن الخليج العربي لكي نتتبع المراحل المتسلسلة لنشوء الحضارة السومرية. وفي تلك المنـطقة سنجد أنفسنا نعالج مرحلة بدايتها على الأقل سهلة التحديد لأنها تتزامن مع فترة الاستقرار في العصر ما قبل السومري حيث تم العثور على آثار قليلة منه يعود تأريخها إلى حوالي عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد. لقد انتهى هذا العصر في عام (٢٩٠٠) قبل الميلاد مع بداية السلالات السومرية وبداية وجود مراجع مكتوبة لأسماء ملوك عرفوا كشخصيات كان لها دور هام في التاريخ. وبالمفهوم المحدد يمكن تسمية هذه المرحلة «بما قبل التاريخ» ولأن الفترات الأخيرة من هذه المرحلة شهدت استخدام الكتابة والمبتكرات الهامة الأخرى للسومريين فان هذه التسمية تبدو غير مناسبة كما ويمكن العثور على تسميات أخرى للمراحل الزمنية الخاصة بالتطور في هذا العصر.

سلسلة الاكتشافات

في عام ١٩٢٩ تبنى المنقبون الأثريون في منطقة بلاد الرافدين فكرة اطلاق تسميات عصور فرعية وثانوية للمواقع التي يتم التعرف عليها للمرة الأولى وجرت فيما بعد محاولات لاعادة تصنيف هذه المواقع تحت تسميات حضارية أكثر تحديداً. ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا التسلسل موضوع بحث بين علماء الآثار من مختلف الجنسيات وظل كل منهم يحمل مفهومه الخاص عن هذا التسلسل إلى ان وصلوا إلى نقطة لم يعد فيها أي تصنيف زمني مقبولاً بشكل كامل. ومع وجود هذه المشكلة في وجهات النظر فمن المستحسن في البداية ان نلخص الاكتشافات الأثرية وترتيبها الزمني.

العبيد

عند استئناف عمليات التنقيب الأثري في العراق بعد الحرب العالمية الأولى كانت المعلومات المتوفرة عن السومريين قليلة وعن أسلافهم أقل بكثير. لقد عثر ليونارد وولي على أول دليل على الاستقرار في مرحلة ما قبل التاريخ في موقع صغير يسمى العبيد على بعد أربعة أميال إلى الغرب من أور (Ur) التي كان هـ. ر. هال (H.R. Hall) قد حدد فيها موقع منصة سومرية مبنية من القرميد وكان قد أقيم عليها هيكل في معبد ُحظ وولي كما لاحظ هال من قبل ان أحد أقسام المستوطنة مغطى بأجزاء مكسورة من الفخار الملون واستطاع ان يربط هذا الفخار ببقايا بيوت مستوطنة مبنية من القصب، رسمت أمام عينيه صورة واضحة لبدائيين مستقرين في جزيرة وسط المستنقعات. وفيما بعد، وفي سبر عميق حفره وولي في هضبة مدينة أور نفسها، ر على نفس النوع من الفخار الملون راقداً تحت بقايا سومرية ضمن سلسلة من سويات الاستيطان مما أوحى بأن هذا النوع من الفخار كان مستعملاً لفترة طويلة من الزمن. واستطاع ان يقسم هذه السلسلة إلى ثلاث مراحل على الرغم من ان الاصطلاحات التي استعملها في وصف هذه المراحل قد ثبت بطلانها بعد ظهور مكتشفات حديثة.

الوركاء

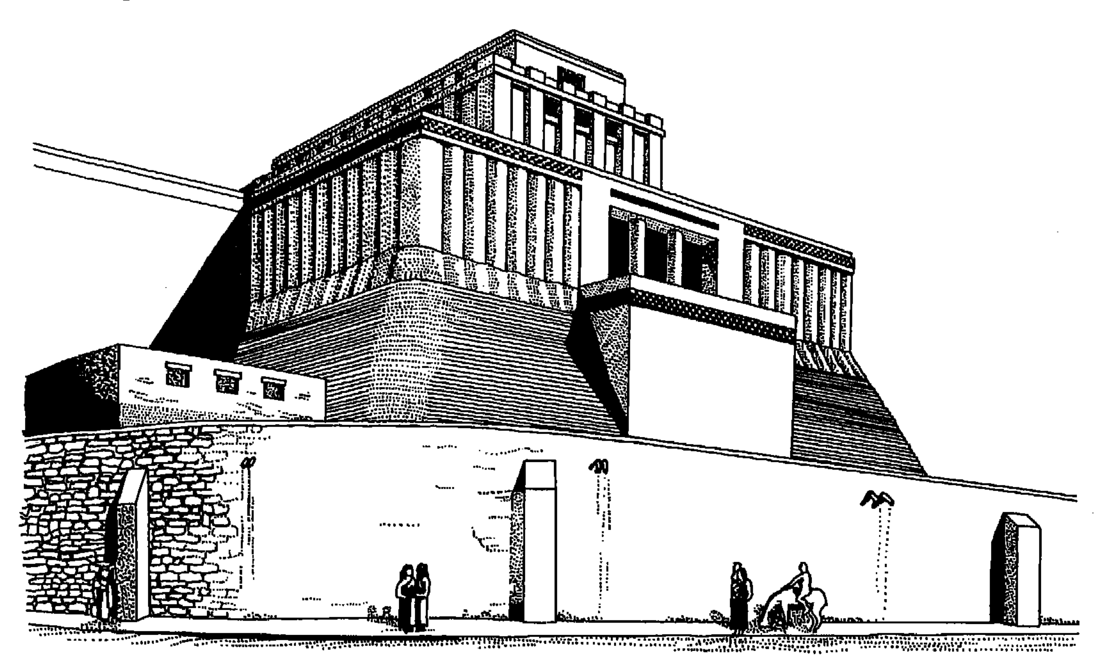
عندما كان وولي يقوم بهذه الاكتشافات في عام ١٩٢٠ كان مكتشفون أثريون

آخـرون من جنسيات أخـرى يجربـون أجـراء أسبار تحت مواقع سومرية، وكانت المجموعة الشرقية الألمانية التي قادها ن. نولديك وج. جوردان وعملها في فناء أحد المعابد في (ايانا) الوركاء الحديثة من أكثر الاسبار أهمية[٢١] لقد تم تحديد ثماني عشرة سوية قديمة من البناء تتفق المستويات الخمسة الأولى منها في الفخار الذي انتجته مع مجموعة وولي في أور في عبيد. وبعد مرحلة انتقالية قصيرة استمرت من المستوى (١٤ حتى ١٢) اختفى الفخار الملون وحل محله فخار مختلف تمام الاختلاف، مصنوع بواسطة الدولاب غالباً وبدون أية زخارف ما عدا وجود بعض الحواف المدهونة بالأحمر أو الرمادي ووجود سطوح مصقولة أحياناً. وباستثناء المجموعة الكاملة ذات الأشكال الجـديدة التي ظهـرت يمكن ملاحـظة تغير ملحوظ وهو الغياب الكامل للأشياء الصغـيرة مثـل التماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين والنصال المصنوعة من الفخار المشوي التي رافقت ظهور الفخار هنا وفي موقع أور. ان ظاهرة كهذه لا بد ان تعكس حدوث تغير عرقي في سكان المدينة.

واعتباراً من السوية الخامسة فصاعداً في الوركاء لم يعد هناك مجال أمام الالمان للاعتـماد على اللقى. ففي مكـان مجاور بدأ العمـل في حفـريات أثـرية جديدة وامتد العمل في السنوات التالية ليشمل قسماً كبيراً من الموقع مما[٢٢] قاد بالتدريج إلى اكتشافات مدهشة في السويات بين (٥ ـ ٣) لبقايا معمارية وتماثيل وأختام اسطوانية ونقوش تم من خلالها اظهار الانجازات الرائعة لسكان هذه المستويات للمرة الأولى. وفي هذه الاثناء تم اجراء عملية تنقيب واسعة في موقع يسمى (جمدة نصر) حيث قامت بعثـة أثـرية انكلو ـ أمـريكية بإدارة (س. لانغـدون) بإجـراء هذه العملية الكبيرة[٢٣]. وفي هذه المنطقة لم تكن اللقى الأثرية للأبنية واضحة تماماً ولم تنشر عنها أية تقارير وافية، لكن اهتمام البعثة الأثرية كان منصباً على النوع الجديد من الفخار الملون الذي ظهر نتيجة أعمالهم الأثرية. لقد كان الفخار متعدد الألوان وتميز بأشكاله الهندسية وسطوحه اللامعة البراقة. وبدا الآن ان هذا النوع يمثل المرحلة الأخيرة من ذلك العصر.

وفي هذه المرحلة من النشاطات الأثرية عقد مؤتمر لعلماء آثار بلاد الرافدين في مدينة ليدن (Leiden)، تم فيه الاتفاق على أسماء المواقع وتحديد ثلاث مراحل زمنية حددت سلسلة المراحل التاريخية لهذه المواقع. شملت مرحلة العبيد كل الفترة المرتبطة

بالفخار المدهون في السويات العميقة في اور والوركاء. أما اسم اوروك فأطلق مؤقتاً على السويات القديمة التي سبقت عصر عبيد في سبر الوركاء. وأطلق اسم جمدة نصر على المرحلة الزمنية الثالثة. لقد كانت هناك حاجة ماسة للكثير من الاكتشافات والتحديدات لعصر عبيد وقد مرت عشرون عاماً تقريباً قبل ان يتحقق هذا الأمل.



الشكل رقم ٨: معبد اريدو في عصور ما قبل التاريخ. يمثل الرسم المعبد بعد اعادة بنائه في عصر بداية الكتابة. وفوق جدار المجمع الديني بقي الرصيف حتى ارتفاع قاعدة الرواق ذي الأعمدة. وفوق ذلك اعتمدت عملية اعادة تشكيله على الواجهات المزخرفة للمعابد الأخرى. (م. ي. ويفر عن لويد).

اريدو

في عام ١٩٤٨ بدأ فؤاد صفر وسيتون لويد (S. Lloyd) بعملية تنقيب لمصلحة ادارة الآثار العراقية في اريدو التي تسمى الآن تل أبو شهرين والتي يعتبرها العلماء أقدم مدينة في العالم[٢٤]. لقد عثر هنا على بقايا زيقورات ومعبد سومري قديم، وتحت إحدى زواياه عثر على جدران الهيكل الصغير الذي تم تحديد زمانه بواسطة الفخار بنهاية عصر عبيد. لقد ثبت ان هذا البناء هو الأخير في سلسلة أبنية أمكن التعرف عليها

وعلى مخططاتها هبوطاً إلى ثمانية عشرة سوية من البناء حتى المصلى المبني على كثيب من الرمل. إن الادلة التي قدمتها محتويات هذه الابنية لم تكن ذات قيمة كبيرة بالنسبة لتحديد التواريخ. ويمكن هنا بصورة خاصة ملاحظة مراحل التطور المتلاحقة للأواني العبيدية التي كانت في أنواعها الأقدم تشبه قليلاً انتاج العصور اللاحقة المعروف باسم فخار اريدو. وسنعرف فيما بعد كيف تم تخمين وتحديد المراحل الفرعية في سلسلة اريدو.

إن سلسلة معابد اريدو لم تنته بالطبع مع عصر عبيد، فقد تزامنت خمس سويات عمرانية مع عصر اوروك. هذه السويات التي لم يبق منها سوى القليل من البلاط القرميدي وأجزاء سقطت من زخارف واجهات الأبنية-ومع ذلك فاننا نجد هنا شكلاً متكاملاً من أدلة التأريخ. في مرحلة اوروك الباكرة من اريدو نمت مجموعة من الأبنية الدينية الاضافية والفرعية حول الهيكل. وفي فترة من الزمن تم إخلاء هذه المجموعة من المعابد حيث امتلأت غرفها حتى مستوى السقف بالرمال. وبعد ذلك، وربما في عصر ازدهار فن العمارة في اوروك، تمت احاطة هذه الابنية بسور حجري من أجل اقامة مجمع ديني كبير أعيد بناء الهيكل فوقه في صيغة رائعة حقاً. ان محتويات الأبنية القديمة تحت المجمع الديني عند مقارنتها مع بقايا الأبنية التي أنشئت فوقها تشكل تقسيماً لعصر اوروك إلى مرحلتين هما المرحلة المبكرة والمرحلة المتأخرة.

<table>
<tr><td>سويات اوروك القديمة</td><td>٣ (آ)</td><td>٣ (ب)</td><td>٣ (س)</td><td>٤ (آ)</td><td>٤ (ب)</td><td>٤ (س)</td><td>٥</td><td>٦</td><td>٧</td><td>٨</td><td>٩ - ١٤</td></tr>
<tr><td>ديلوغاز</td><td colspan="9">بداية الكتابة</td><td colspan="2">اوروك الباكر</td></tr>
<tr><td>بيركينز</td><td colspan="10">بداية الكتابة</td><td>الوركاء</td></tr>
<tr><td>ايريك</td><td colspan="2">بداية الكتابة س . د
جمدة نصر</td><td colspan="3">اوروك الأخير
بداية الكتابة ب</td><td colspan="5">اوروك الوسيط
بداية الكتابة آ</td><td>اوروك الباكر</td></tr>
<tr><td>مالوان</td><td colspan="2">اوروك
(جمدة نصر)</td><td colspan="9">اوروك ←──── ١٢</td></tr>
<tr><td>مورتغات</td><td colspan="11">بداية التاريخ</td></tr>
<tr><td>لويد</td><td colspan="2">جمدة نصر</td><td colspan="8">أوروك الأخير</td><td>← أوروك الباكر</td></tr>
</table>

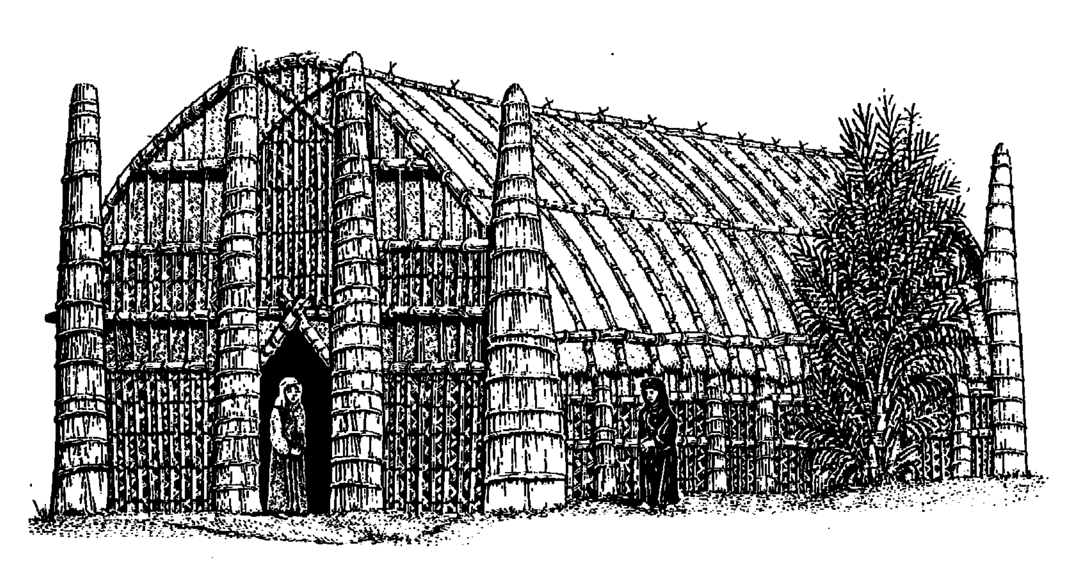
الجدول رقم ٤
مصطلحات عصر ما قبل السلالات وفقاً لآراء مختلفة.

خفاجه

قبل هذه الاكتشافات بفترة طويلة وخلال الثلاثينات تم إلقاء أضواء من نوع آخر على عصر ما قبل السلالات بواسطة اكتشافات أثرية أجراها المعهد الشرقي في جامعـة شيكاغو في مدن الدولة القديمة المسماة اشنونا (Eshnunna) في منطقة ديالي الواقعة إلى الشرق من العاصمة بغداد. لقد ركز هذا الكشف الأثري الاهتمام على عصر السـلالات السومرية والعصور التالية. فلقد تم الكشف عن أسلاف المعبد السـومري في خفاجه في أعماق تصل حتى الأساس البنائي الأصلي في نهاية عصر اوروك[٢٥]. وعند الاعلان عن محتويات هذا البناء كان المكتشف أول من يتحقق بأن هذه المـرحلة المتـأخرة من عصر اوروك، المتمثلة بالمستويات (٥) و(٤) في اوروك

نفسها، المعروفة بانجازاتها الحضارية العظيمة، يجب ان تفصل كما حدث في اريدو عن المرحلة التي سبقتها والتي لم يمكن تمييزها تماماً والمتمثلة في اوروك في المستويات ما بين ١٤ ـ ٦. لقد اقترح المكتشف دمج المرحلة السابقة مع مرحلة جمدة نصر وجعل منهما مرحلة واحدة سماها مرحلة ما قبل الكتابة. وفي الواقع لم يقبل هذا الاقتراح بسهولة ضمن أنظمة التاريخ التي اقترحت منذ ذلك الوقت، ومع ذلك فان هذا التحديد يخدم هدفنا في الوقت الحاضر[٢٦].

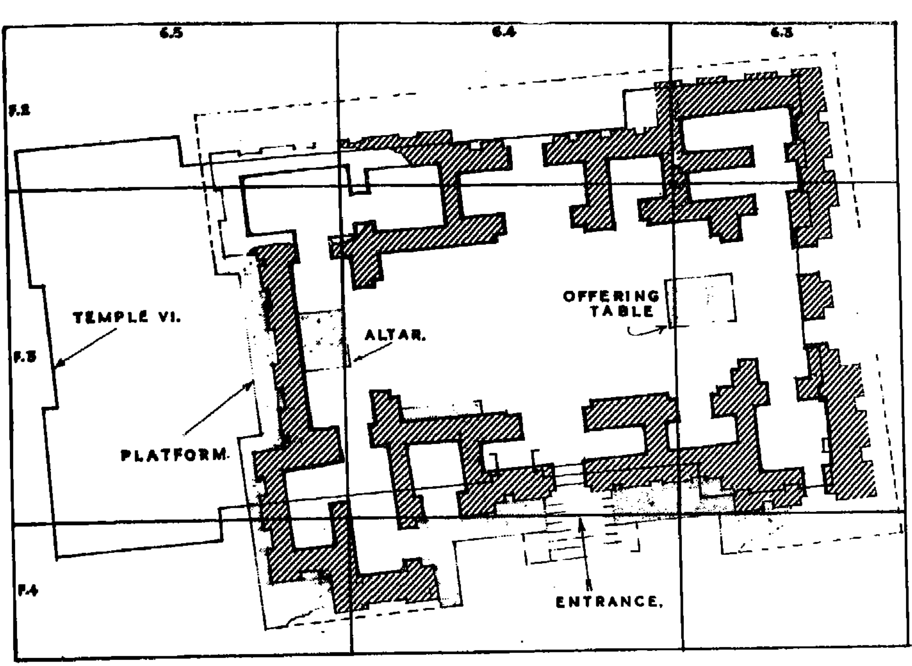
في الفصول القليلة القادمة سنعطي تقريراً أولياً عن محاولات تحديد الهيكل الزمني لعصر ما قبل السلالات من خلال تفسير الأدلة المأخوذة عن طبقات الابنية لعدد من المصادر. وفي عملنا هذا أعطينا الأولوية للاكتشافات في منطقة الرافدين الجنوبية لسبب أساسي هو أن التسلسل الثقافي والحضاري الذي تم انشاؤه هناك قد وفر نوعاً من المعيار يمكن من تخلاله محاكمة اللقى الموازية في شمال العراق والأقطار المجاورة. وقبل التوسع في عرضنا لهذه المناطق، الأقل ارتباطاً بالأصول السومرية فان من المستحسن ان ندرس بتفصيل أكبر مميزات الحضارات في بلاد الرافدين الجنوبية.

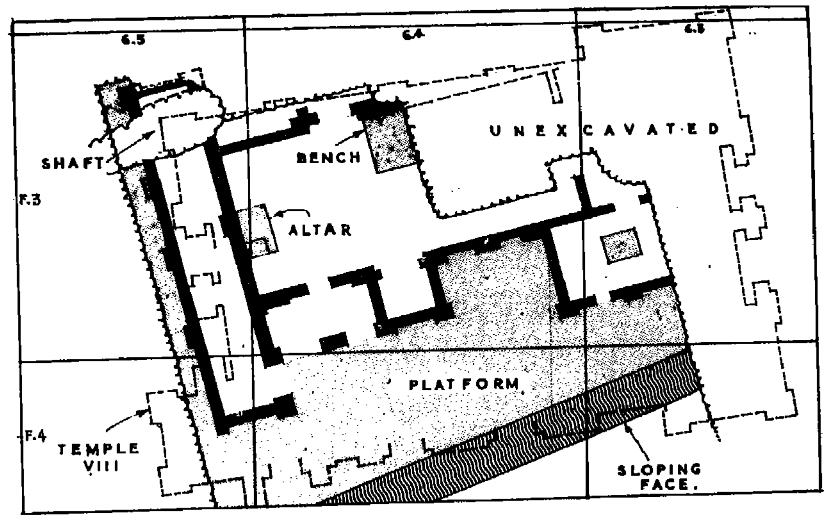


الشكل رقم ٩: بيت الضيوف (المضافة) في قرية عربية حديثة. شكل تقليدي من البناء بالقصب سبقت مشاهدته مرسوماً في نقوش عصر ما قبل الكتابة. (عن ليكروفت ١٩٧٤).

فن العمارة: يخبرنا أحد النصوص المخطوطة السومرية ان شولجي (Shulgi)، أحد ملوك السلالة الثالثة قد عني عناية كبيرة بمدينة اريدو التي كانت على شاطيء البحر. وينبغي ألا نعتمد هذا النص حرفياً، لأنه كما وضحنا سابقاً، ربما تكون المدينة مرتبطة بشاطيء البحر بمجموعة من الأهوار الناشئة عن المد البحري فقط وان هذه الأهوار قد شكلت منطقة مستنقعات شبيهة بتلك التي تفصل رأس الخليج العربي عن السهل الطموي في عصرنا الحاضر. وعلى أي حال فانه يبدو من المؤكد ان السكان الأوائل في اريدو وبعض المواقع السومرية كانوا سكان مستنقعات وعاشوا في بيئة مشابهة لمناطق الأهوار الحالية في العراق. لذلك فليس من المستغرب ان نجد أقدم الأمثلة عن فن العمارة في الأختام الاسطوانية والرسوم النافرة حيث كانت الأبنية مكونة من القصب وتشبه في تفاصيلها بيت الضيافة الذي نشاهده في قرى مناطق المستنقعات في هذه الأيام[٢٧]. لذلك فانه من المربك قليلاً ان نجد ان أقدم الأبنية الدينية التي وجدت في السوية ١٦ من سبر هيكل اريدو وغيرها قد انشئت من القرميد الطيني المجفف في أشعة الشمس. ومن الثابت والمؤكد ان الآثار التي وجدت في سبر آخر من اريدو كانت مبنية من القصب ولكن الأمر الذي ثبت أخيراً ان هذا البناء كان مجرد بناء خارجي لبيت مصنوع من القرميد الطيني الطبيعي[٢٨].

ان الطراز البدائي للهيكل في السوية ١٦ في اريدو كان مجرد مقصورة منفردة لا تزيد مساحتها عن ثلاثة أمتار مربعة ومع ذلك فقد ظهرت فيها بعض الملامح مثل طاولة الاضحيات أو الاعطيات المركزية والمشكاة الدينية وهي من مميزات المعابد منذ ذلك العصر. وفي السويات الواقعة مباشرة فوق المستويات (١٥ ـ ١٢) ظهر ان موقع الابنية لم يكن في متناول السبر. لكن الأبنية ظهرت ثانية في المستوى (١١) وأعيد بناؤها مرتين في المستويين (١١ و١٠) بمخططات أكثر تطوراً تميزت بوجود حرم مركزي وأجنحة جانبية. وفي هذه الحال فقد دعمت الجدران الضيقة المبنية من اللبن بدعامات أكثر سماكة وبطريقة تعيد إلى الذاكرة الأبنية القديمة المصنوعة من القصب. ثم جاءت سلسلة من الهياكل المبنية بمتانة أكبر وبطريقة أكثر تعقيداً في السويات بين (٨ ـ ٦) يمكن اعتبارها من بقايا عصر عبيد. كانت الغرف الجانبية تعتبر بمثابة المدخل إلى الحرم المركزي الطويل الذي كان يتميز بوجود ممر طقسي ومذبح مرتفع في





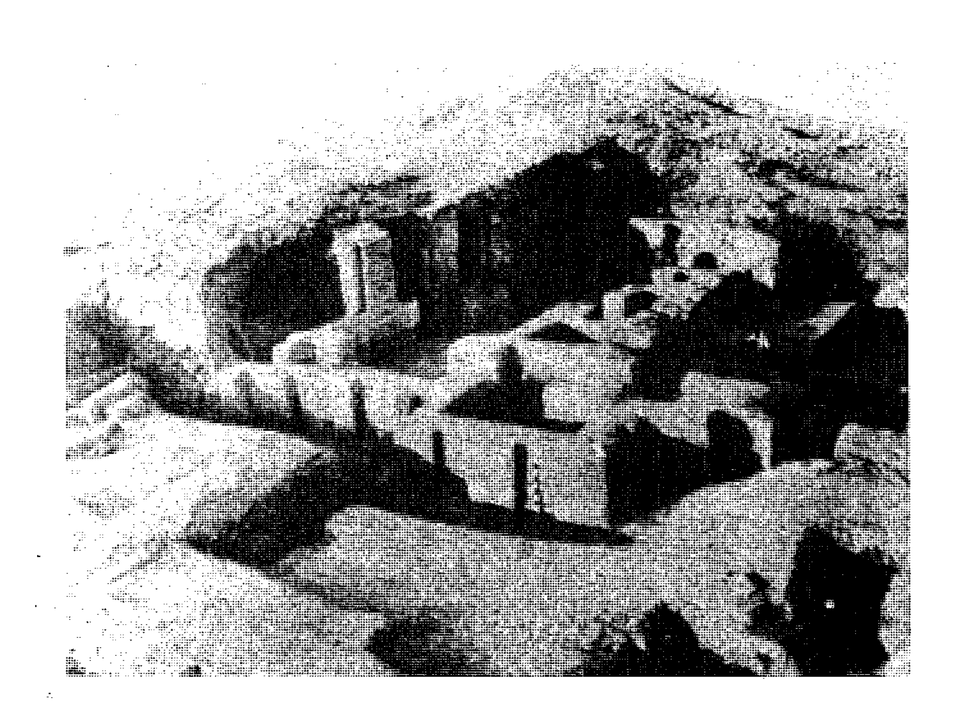
الشكل رقم ١٠ : مخططات معابد تمثل ثلاث مراحل رئيسية شوهدت في سبر في موقع اريدو.

١ ـ عبيد رقم ٤ المعبد VII في الأعلى.

٢ ـ عبيد رقم ٣ المعبد IX.

٣ ـ عبيد رقم ١ المعبد XVI في اليمين.

وهي ترجع إلى التواريخ ٣٨٠٠ ـ ٤١٠٠ ـ ٤٩٠٠ قبل الميلاد على التوالي. ونلاحظ ان المعبد XVI مجرد بناء صغير رغم وجود المشكاة والمذبح وطاولة الاضحيات.



الشكل رقم ١١ : المعبد VII كما ظهر في اريدو بعد التنقيب. ونشاهد فوقه إلى الخلف كتلة ضخمة تمثل زيقورة السلالة التالية التي بناها شولغي (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨) قبل الميلاد وفي المقدمة نلاحظ المنصات الخاصة بمعابد عصور ما قبل الكتابة (VII - I). وقد بنيت الجدران من قرميد طيني مستطيل الشكل.

الطرف الآخر. ومرة ثانية نلاحظ وجود قاعدة تمثال من أجل الاعطيات النذرية التي شملت أسماكاً وضعت عظامها في غرفة مجاورة[٢٩]. وكانت الواجهات تزين بدعامات وتجاويف متناوبة ونادراً ما غاب هذا المظهر عن الأبنية الدينية منذ ذلك الوقت.

الـدين: بعـد ان رأينا النمط البدائي للأبنية الدينية في بلاد الرافدين والتي سنتحدث عنها بشيء من التفصيل، لا بد من رسم صورة عن الاغراض التي بنيت من أجلها هذه المعابد وعن شكل العبادة والأعمال الطقسية وأهميتها الخاصة كتعبير بدائي عن الفكر المجرد والوعي الروحي. ويمكن ان نفهم القليل عن هذا الموضوع في المرحلة المبكرة من التطور من البقايا المادية أو المعمارية التي كشفت عنها عمليات التنقيب الأثري. كما ويمكننا هنا التعرف على بعض المظاهر الأولية من خلال عملية القياس مع التطورات التالية، فلقد تحدثنا عن المذبح والمشكاة وطاولة الاعطيات لكن

الصورة الكاملة عن العقائد الدينية نفسها والتي كرست هذه الأبنية من أجلها وعن الأعمال التي تعبر عن هذه العقائد يمكن اعادة تشكيلها على ضوء المعلومات التي تقدمها النصوص المكتوبة للعصور التالية. . ما يتوفر لدينا هنا هو الشكل الممكن لبعض العناصر عن العبادات السومرية والأعمال الطقسية التي ترتبط بهذه العبادات.

يمكن تصنيف الشعائر الدينية والواجبات التي كانت تمارس في المعبد تحت عنوانين رئيسيين هما الاعطيات والضحايا. ومن أهم الخدمات التي كانت الآلهة تطلبها من العباد تقديم الطعام والشراب والزيت من أجل المباركة بواسطة الدهن ووفقاً لما قاله «هـ. و. ف. ساغس» (H.W.F Saggs) عام ١٩٦٢ «كانت الآلهة تتناول وجبات منتظمة من الطعلم الذي كان يوضع على طاولات أمام صور مقدسة». لقد اشتمل طعام الآلهة على كميات كبيرة من الخبز بالاضافة إلى لحم الغنم وشراب يشبه البيرة التي كان السومريون يفضلونها كثيراً. . ومن بين المؤن التي ذكرت فيها بعد كان هناك العسل والسمن والزيت والحليب والتمر والتين والملح والكعك والدجاج والأسماك والخضار.

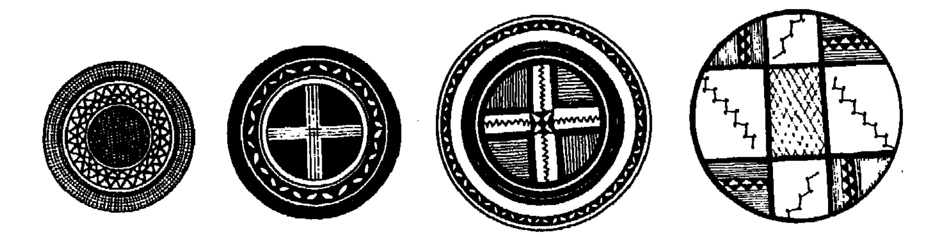
كانت وجبة الالهة عبارة عن وليمة يدعى إليها صغار الآلهة والمتعبدون والموتى أحياناً. وكانت الآلهة تتناول أجزاء مخصصة من لحوم الحيوانات بينما يترك الباقي من الطعام للملك والكهنة وفريق المعبد. وكانت الاضحيات امراً مختلفاً تماماً حيث كانت تقدم على المذبح الخاص أو على سطح المعبد من قبل كاهن مؤهل كان يقطع عنق الحيوان وهو يردد التعاويذ وكان الدم الناتج عن الذبح يعتبر شراباً تكريمياً للآلهة. أما الأشكال الأخرى للشراب التي تظهر في الفن السومري فكانت الخمر أو السوائل التي تراق من فوق المذبح على الأرض أو فوق حيوان أو نبات. كتب ساكس: «لقد كان حارق البخور أحد المظاهر الشائعة للطقوس حيث يمكن اعتبار حرق الأخشاب ذات الرائحة اما كطقس تطهيري أو خدمة للآلهة التي كانت تسعد بالرائحة الحلوة».

ويمكن من خلال أسماء وألقاب الكهنة الذين كانوا يقومون بالشعائر الدينية الخاصة معرفة أمور اضافية عن العقائد الدينية، فقد كان بعضهم مختصاً بالتعاويذ بينما آخرون بطرد الأرواح الشريرة من خلال العزف على الآلات الموسيقية، كما كان بعضهم يقوم بطقوس النظافة والدهن بالزيت. وأخيراً فالنوع الأكثر أهمية كان كهنة بارو (Baru) المتخصصين بفهم وتفسير البشائر (الفأل) وكان لهم تأثير كبير جداً في اتخاذ

القرارات السياسية. ويمكن ان نفهم ان متطلبات الشعائر الدينية المتنوعة قد انعكست في تخطيط وتجهيز الأبنية التي كانت تمارس فيها هذه الشعائر.

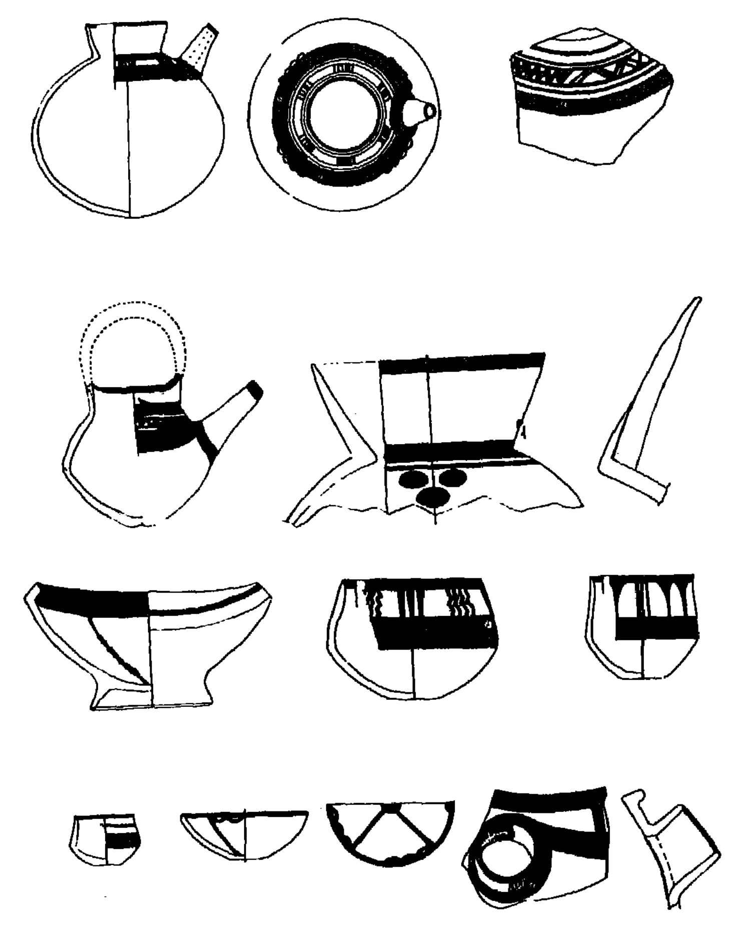
الفخار والأشياء الصغيرة

لقد كان الفخار وفيراً في كل مستويات اريدو التي ذكرت حتى الآن ما بين السويات (١٦ - ٦). هذا وان التحول في تصاميم اريدو المبكرة إلى التصاميم المشابهة



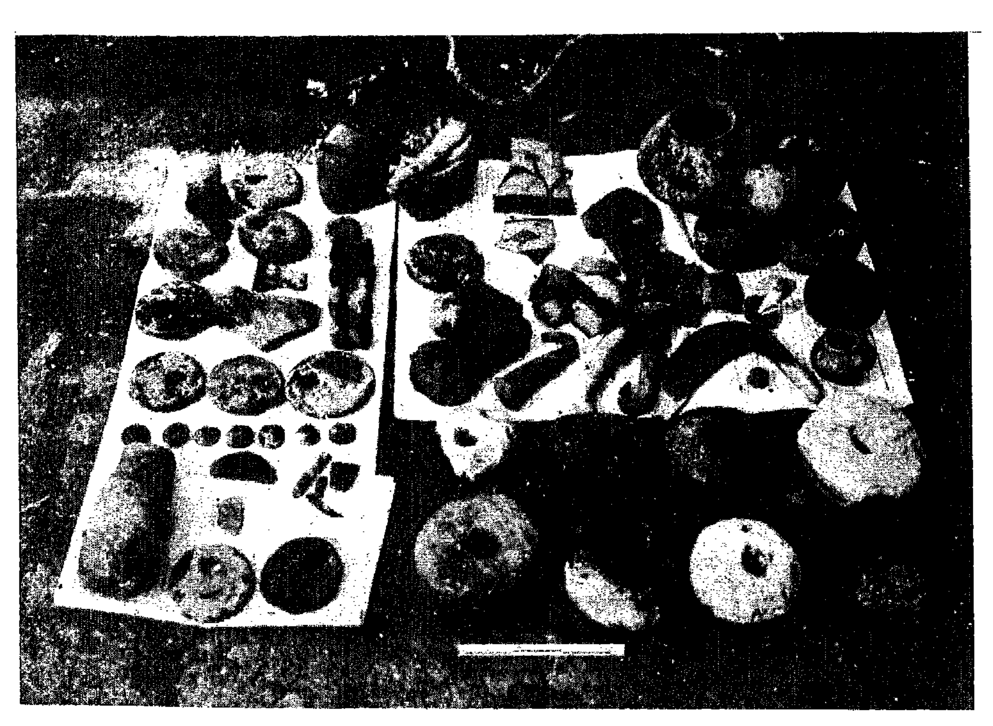
الشكل رقم ١٢: بعض التصاميم المدهونة التي استخدمها صانعو الفخار في أريدو. وهي من أقدم أنواع الفخار التي وجدت حتى الآن في جنوب بلاد الرافدين. أطباق منبسطة كما زخرفت الكؤوس الطويلة والأواني العميقة بنفس الطريقة. تعرف هذه الأنواع باسم (عبيد - ١) (عن لويد وصفر).

في أماكن أخرى مع تصاميم العُبيد يمكن تقسيمه إلى أربعة مراحل واضحة تتوافق مع التحولات الرئيسية في مخططات العمارة التي تم التعرف عليها من خلال سلسلة عمليات اعادة البناء. اعتباراً من التربة العذراء حتى السوية (١٥) لوحظ ان فخار اريدو الباكر هو المسيطر. وهذا الفخار وحيد اللون، بني بلون الشكولاته ومزين بأشكال ورسوم مستقيمة الاضلاع. تتزامن هذه النماذج مع نشاط البناء البسيط التي تعاظم في المصلى (الكنيس الصغير) الموجود في السوية (١٦) والذي حدد بالمرحلة رقم (١). نجد المرحلة الثانية في المستويات (١٢ - ١٤) في الأعلى حيث لم يلاحظ وجود أي أثر للعمارة وتتميز هذه المرحلة بتطفل نوع غريب من الفخار. وقد وجدت نماذج هذا النوع الغريب في موقع مجاور لشاطىء النهر يدعى «حجي محمد» قرب الوركاء[٣٠]. أما المرحلتان (٣، ٤) فهما تتوافقان مع المرحلتين الباكرة والمتأخرة للتطور التقليدي لحضارة عبيد التي وصلت إلى أوجها في عصر المعبدين (٧ - ٦) وفي هذه المرحلة من اريدو توفرت مصادر غنية للوثائق والادلة.



الشكـل رقم ١٣ : نماذج وأشكال تمثل فخار عبيد في المرحلة الأخيرة. (عبيد ٤) وفي هذه المرحلة انتشرت الحضارة العبيدية شمالاً حتى سوريا وكيليكيا. (عن لويد وصفر ١٩٢٣).

المقبرة: على بعد خمسين متراً من السور الحجري، على الجانب الجنوبي الغربي من منـطقـة المعبد المرتفع عثر على مقبرة تحتوي على (١٠٠) قبر تابعة لعصر عبيد الأخـير. ولقد تم الكشف عن حوالي (٢٠٠) من هذه القبور. تتكون المدافن من ممرات رأسية مبنية من الداخل من اللبن الطيني وكان لا بد من تحديد مواقع هذه الممرات على سطح الأرض لأنه يمكن اجراء عملية دفن ثانية في نفس المكان كما كانوا يدفنون جثة الكلب أحياناً في قبر صاحبه.

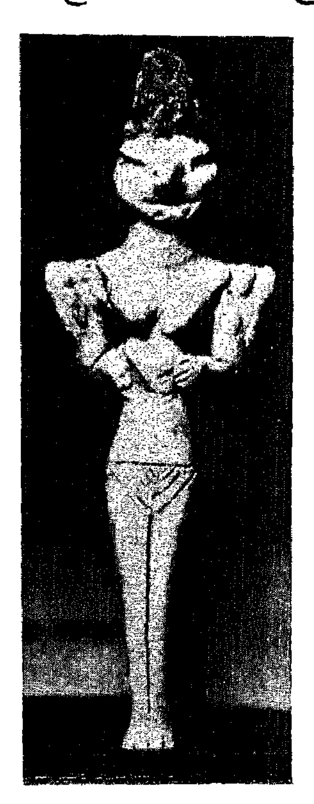


الشكل رقم ١٤ : أشياء نموذجية صغيرة وقطع محطمة لأشكال من مستوطنة (عبيد ٤) في تل العقير - وتشمل الأشياء النمـوذجية الصغيرة مناجل ومسامير وأوزان وفؤوس مصنوعة من الفخار المشوي بالاضافة إلى بلطة مصقولة، مطرقة، وأحجار حفر.

ان مقبرة اريدو التي يمكن تحديد تاريخها بالنصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد تمثـل مرحلة متقدمة من تطور طقوس الدفن. وكما سنلاحظ فانه في المواقع الأقدم كانت المدافن تتركز في مناطق محددة غالباً ما تكون بجوار الأماكن المقدسة. وللمرة الأولى فان تماثل هذه القبور وعددها يخلق انطباعاً بانها مقبرة عاصمة حقيقية. لقد اختير موقع المقبرة في اريدو خارج المستوطنة العبيدية وموقع المعبد. ولم يعثر هناك على أي مقـبرة لمراحل لاحقة بالرغم من ان المنقبين الأثريين في هذا الموقع حينما صادفوا بقايا فخار نذري في موقع اوروك أخطأوا في اعتقادهم انها مقابر بشرية. كما وعثر وولي (Woolley) في اور على مجموعة من المدافن البشرية عرفت فيها بعد باسم المقبرة الملكية وهي أيضاً واقعة خارج موقع المعبد. لاحظ وولي ان جسد الميت كان مسجّى على ظهره وممداً بشكل كامل وكان الذراعان مطويان قليلاً على جانبيه لكي يمكن طيهـا عبر الحـوض. وعلّق وولي بقوله: «ان هذه الوضعية الغريبة بالنسبة

لشعب عبيد لم يتبناهـا أحـد من سكان سومر اللاحقين» كما سجل وولي الحقيقة التالية: «في قبرين، كان القسم العلوي من الجسم مغطى بمسحوق دقيق أحمر اللون وفي إحدى الحالتين كانت كومة من أكسيد الحديد الأحمر موجودة قرب الرأس. مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الاجساد كانت مدهونة بهذه المادة ودون أي شك فان المسحوق كان من نفس مادة الدهان في الكومة».

ومن المثير أيضاً ان نلاحظ ظاهرة مشابهة في مقبرة اريدو. كانت كل العظام تقريباً مصبوغة بلون برتقالي قاتم وكان نفس اللون ظاهراً على أجسام الكلاب كما ظهر اللون نفسه على قطعة عظام بجانب فم كلب. لذلك كله فنحن ميالون إلى عدم تصـديق امكـانية صباغها بشكل متعمد أو لسبب طقسي بمادة المغرة الحمراء ومن المرجح ان هذا اللون قد نتج عن بعض التفاعلات الكيميائية في التربة.





الشكل رقم ١٥ ـ ١٦: تمثالان من الفخار المشوي من مقابر عبيدية في اور (الانثى) ومن اريدو (الذكر). الأشكال الخاصة بالعين وغطاء الرأس وزينة الكتفين تمثل تقاليد كانت منتشرة في ذلك العصر وما قبله.

تشمل محتويات هذه القبور مجموعة غريبة من الأواني الفخارية الكاملة وهي تشبه تماماً قطع الفخار المعاصرة التي جمعت من سبر المعبد في المستويين (٦ و٧). ان الاشكال والتصاميم الملونة والخصوصية التقنية لفخار عبيد في هذه المرحلة تكتسب أهمية أثرية كبيرة، وذلك لأن حضارة عبيد قد امتدت في هذا العصر وربما في عصر لاحق إلى أماكن بعيدة فيما وراء حدود بلاد الرافدين في الشرق والشمال الغربي. انه فخار يدوي، تصاميمه المنحنية الاضلاع أو غيرها من التصاميم كانت ملونة بفرشاة ناعمـة باللونين الأسود والبني عادة. كما ظهرت في مرات كثيرة نماذج مصنوعة على شكل أوراق الأشجار بالاضافة إلى نماذج وأشكال لحيوانات أو طيور. وفي أريدو كان الدهان يطبق على الحواف الملونة بالأصفر الشاحب أو الأصفر البرتقالي. وفي أماكن أخرى أزيلت حواف هذه الأواني وشويت على نار بدرجة حرارة عالية جداً مما جعل الغضار يكتسب اللون الأخضر القاتم بالاضافة إلى اللون الأسود الذي يتشربه في الداخل. ان حقيقة ان هذه الأواني كانت تعاني من الشيّ المفرط لدرجة التزجيج وانها نتيجة لذلك قد أصيبت بالتشوه توحي بأن الخزافين العبيديين لم يكونوا قادرين على التحكم تماماً بحرارة النار في أفرانهم.

لقد كانت الأواني المحطمة التي وجدت في كوخ وولي القصبي في العبيد نفسها سيئة الصنعة، ويبدو انها تمثل مرحلة انحطاط سبقت مباشرة نهاية عصر عبيد. وهي على غرار بعض النـماذج المـأخوذة من السوية (٦) في اريدو تدل على انها صنعت بواسطة الدولاب اليدوي أي انها أقدم من الفخار المصنوع بواسطة الدولاب في عصر اريدو أيضاً[٣١]. وتوحي اللقى السطحية بان عملية اختراق أعمق ربما تؤدي إلى ظهور مرحلة استيطان أكثر قدماً في عصر عبيد.

ان المواد الأخرى غير الفخارية والتي تبين انها تميز عصر عبيد تكتسب بحد ذاتها قدراً كبيراً من الأهمية. أول هذه المواد وأكثرها أهمية هي التماثيل المصنوعة من الطين النضيج، التي وصفت على انها تمثل «الالهة الأم» وقد عثر على ما يقابلها في أحد قبور اريدو. ان رؤوس هذه التماثيل الشبيهة بالسحالي، وأغطية الرأس المصنوعة من القار والتي اثارت اهتماماً كبيراً عندما عثر عليها وولي للمرة الأولى، تعتبر أحد تقاليد الصور الدينية في الشرق الأدنى في عصور ما قبل التاريخ. وسوف نناقش فيما بعد المراحل المبكرة لنشوء وتطور هذه التصاميم عند مناقشة اللقى التي تم العثور

عليهـا في شمال العـراق. وتشمـل الأدوات الأخـرى مصنـوعات بالغضار المشوي كالمنـاجل والفؤوس التي لا بد انها صنعت ضمن أفران ذات درجات حرارة عالية جداً. وعلى ما يبدو فان المناجل كانت تشوى على شكل رزم لأنها وجدت في مرات عديدة ملتصقـة مع بعضهـا في كتلة مزججة. وكذلك بالنسبة للمسامير الغضارية الضخمـة ذات النهـايات المعقـوفـة والتي كانت تستعمل كما نعتقد لتثبيت الحصر المصنوعة من القصب على الجدران المبنية من اللبن الطيني. أما باقي الأدوات فتشمل المنتجـات الصناعية البسيطة مثل السكاكين الصوانية والمجارف والأدوات العظمية ذات المقابض المصنوعة من القار والتي يمكن ان تنتمي إلى أية مرحلة من مراحل ما قبل السلالات.

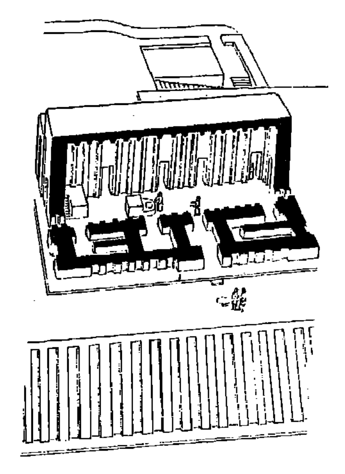


الشكل رقم ١٧: مخطط لموقع اوروك يبين منطقتي «ايانا» و«آنو» حيث وجدت معابد عصر ما قبل الكتابة. البناءان الضخمان «بيت ريش» و«ايريغال» معبدان بنيا في عصر الاقامة في الموقع في عصر سلوقي (٣٣١ - ٣٢٩) قبل الميلاد. ويحتمل ان المخطط العام للمدينة لم يتغير في عصر جلجامش. (عن هوكس، ١٩٧٤).

عصر اوروك

الوركاء:

استمرت أعمال علماء الآثار الألمان الذين قاموا بحفرياتهم الأثرية في هذا الموقع بشكل متقطع لمدة تقارب نصف قرن وكان أحدثها ما تم من تنقيبات بقيادة (هـ. ج. لينزن) (H.J. Lenzen) وكانت هذه التنقيبات من أهم وأوفر مصادر المعلومات عن هذا العصر. ان اوروك التي أصبح أسمها الحديث وركاء هي نفس مدينة ايريك (Erech) المذكورة في التوراة. وهي ترتبط في الأدب السومري بجلجامش أحد القادة في السلالات القديمة وكان له دور فعلي كشخصية تاريخية. ولقد ساد الاعتقاد ان المدينة في عصور ما قبل السلالات كانت تشغل مساحة ٢٠٠ فدان، وكان ثلث هذه المساحة مخصصاً للمعابد والثلثان الآخران أبنية سكنية للعامة. ان الأسبار التي تمت في أماكن متفرقة أثبتت ان عملية الاستيطان بلغت حجماً كبيراً حتى في عصر عبيد. وفي الملحمة الشهيرة التي كان جلجامش بطلها يقال انه بنى أسواراً في اوروك وبنى متراساً عظيماً بالاضافة إلى معبد إآنا (Eanna) المبارك لاله السماء آنو (Anu)، ومن أجل الهة الحب عشتار (Ishtar). وبكل تأكيد فانه عندما جاء الالمان للتنقيب في مركز المدينة تركز عملهم في مجمعين من الأبنية وهما (زيقورة آنو) ومنطقة (إآنا). وكان من المفيد لهم جداً في الحالتين ان آثار عصر قبل السلالات كانت في المتناول وعلى عمق بسيط من سطح التل.



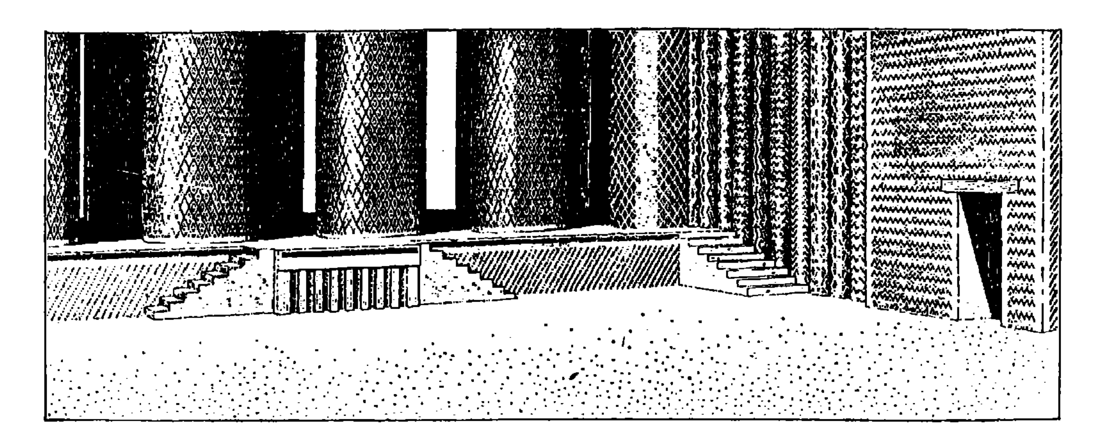
الشكل رقم ١٨: مقطع عمودي «للمعبد الأبيض» في الوركاء وهو مبني على رصيف عال معروف لدى المنقبين باسم «زيقورة آنو» وقد وجدت تحته آثار لمعابد قديمة يرجع تاريخها إلى عصر عبيد. (عن ليكروفت، ١٩٧٤).

منطقة آنو

لقد أصبحت أقدم المكتشفات في منطقة آنو أكثر سهولة على الفهم الآن مما كانت عليه يوم اكتشافها. وان البناء الذي دعاه المنقبون الأثريون «المعبد الأبيض» والذي يتميز بجدرانه المدهونة باللون الأبيض من الخارج والذي كان قائماً على مصطبة من القرميد لم يكن في الواقع سوى اعادة بناء أخيرة لهيكل يشبه هيكل اريدو ويمكن ان يؤرخ منشأه كما نعرف اليوم لعصر عبيد[٣٢]. ومع ذلك فان مخطط اعادة بنائه الأخيرة والمؤرخ على عصر جمدة نصر ٣٢٠٠ - ٢٩٠٠ قبل الميلاد، يتمتع بأهمية بالغة لانه يحافظ على كل الخصائص الرئيسية لعصر عبيد باستثناء شيء واحد وهو أن مساحة المنصة قد أصبحت أكبر بكثير. وان واجهات المعبد المزينة بألواح تنزلق نحو الداخل بزاوية صغيرة ويتم الاقتراب منه بدرج ثلاثي ضخم. ولأنه لا يوجد أي معبد يعود إلى فترات لاحقة فاننا نعرف انه يتمتع بأهمية كبيرة كنموذج للزيقورات السومرية.

كانت الأسوار الخارجية لمنطقة إأنا تقع على بعد خمسين متراً أو ما يقارب ذلك إلى الشرق من المعبد الأبيض وهي منطقة واسعة ذات ساحات تحيط بالزيقورة الحقيقية وهي مكرسة للالهة (اينانا) ولقد أعيد بناؤها لمرات عديدة في العصور التاريخية. اكتشفت المنطقة في وقت مبكر وقد حل التصميم الكبير محل المجمع القديم للأبنية الدينية التي تؤرخ على المراحل النهائية لعصر ما قبل السلالات. لاحظنا كيف ان الالمان بواسطة سبرهم التنقيبي الرائد في وسط هذه المنطقة قد استطاعوا تشكيل سلسلة زمنية لهذه الأبنية الأثرية واستطاعوا ربطها بسويات الاستيطان لعصور أكثر قدماً. وخلال السنوات التالية اتسعت عملية التنقيب الأثري وتركز الاهتمام التام للعاملين على وظيفة محددة وهي توضيح وحل رموز المخططات.

ويمكننا ان نتخيل حجم هذه المسألة إذا عرفنا ان الأبنية قد انشئت من قرميد طيني سهل التخريب. وفي النهاية صادف المنقبون الأثريون (١٢) معبداً كاملاً لكل منها أساسات وملحقات متنوعة، وقد دمرت وأعيد بناؤها بشكل متداخل وكان ارتفاع بقايا جدرانها لا يزيد عن بضع بوصات. وإذا تذكرنا ان شكل واتجاه هذه الجدران يتم بتحديده بطريقة وضع كل قرميدة فانه لا يسعنا إلا ان ننظر إلى «إأنا» كانجاز هام في تقنية علم الآثار.

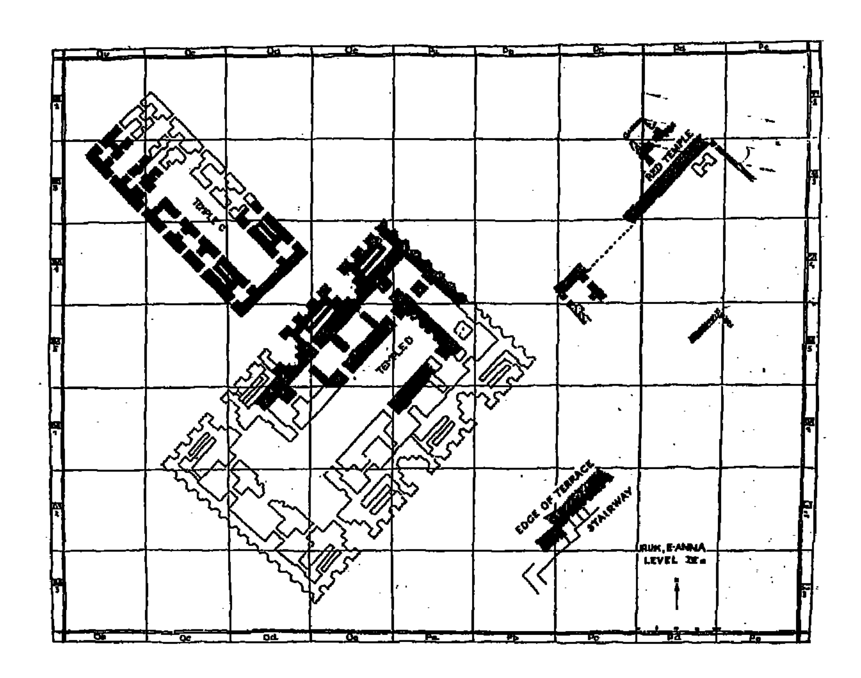


الشكل رقم ١٩ : تشكيل معماري ألماني لقاعة الأعمدة في الوركاء. الأعمدة والجدران المصنوعة من القرميد مغطاة بمخاريط من الموزاييك الملون بأشكال هندسية كما ويظهر معبد مصغر بين الدرجين المركزيين. (مكنزي - كير، عن هنريك ١٩٣٢).

منطقة إأنّا

من المستحيل ان نصف كل بناء على انفراد في هذه المنطقة من الحفريات الاثرية في الوركاء أو ان نقوم عملية اعادة تشكيل مخططاتها التي اعتمد بعضها على اعادة تشكيل بارعة من الاجزاء المتوفرة الضئيلة. ومع ذلك فليس من الصعب اختيار الأبنية ذات الأهمية الخاصة. أحد هذه الأبنية وقد حفظ لمدة أطول من غيره هو البناء المسمى (قاعة الأعمدة) الموجود في السوية (٥) والذي يعتبر أول نموذج يعثر عليه في مكـانه الأصلي ويمثل فن زخرفة الواجهات بنقوش الموزاييك المخروطية التي تعتبر مظهراً خاصاً بهذا العصر. تتخذ هذه الواجهات شكل رواقٍ ضخم من الأعمدة يبلغ اتساعه (٣٠) متراً ويشمل صفين من الأعمدة الدائرية ذات أقطار تصل إلى مترين بالاضافة إلى أنصاف أعمدة على الجانبين. يتم الوصول إلى هذا الرواق من مساحة طويلة مستطيلة الشكل ذات مستوى أدنى منه. أما الجدران الجانبية للساحة فهي تواجـه أيضاً أنصاف أعمدة متلاصقة يتم منها الاقتراب إلى رتل الأعمدة الطويلة بواسطة ثلاثة أدراج منفصلة. كل سطوح الأعمدة والجدران الجانبية مزينة بمخاريط من موزاييك الطين النضيج أو الموضوعة على قواعد من الغضار وتشكل أطرافها الملونة أشكـالاً هندسية متنوعة. وعلى ما يبدو فان هذه البنية المعمارية تشكل المدخل إلى

الأبنية التي تقع خلفها والتي لم يعثر على أي أثر لها لكونها إما تالفة تماماً أو انها غير مكتملة البنـاء. أما واجهة الدرج فكانت مزينة بالموزاييك أيضاً وبتصاميم مصغرة لتلك الموجودة على واجهات الأبنية.



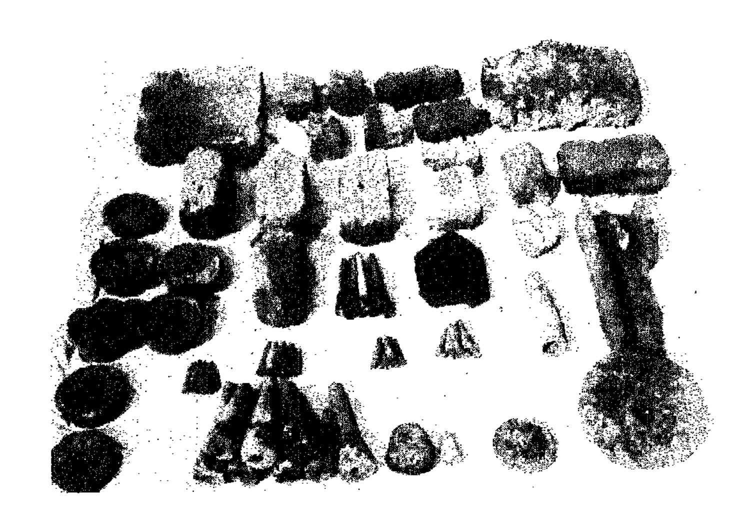
الشكل رقم ٢٠ : مخططات للمعبدين (C) و (D) في منطقة ايانا في الوركاء (السوية C - a IV ٣١٠٠ قبل الميلاد) وفي هذين البنائين نلاحظ المقْدَس المصمم على شكل حرف (T) وهو تطور وجد في شمال بلاد الرافدين. وقد ألحقت بالمعبد (C) وحدة بناء صغيرة تشبه المعبد الأبيض. تؤكد هذه الأبنية التي تبلغ أبعاد أكبرها (٨٠ × ٥٥) متراً الابداع المبكر لفن العمارة في ذلك العصر. (عنْ لنزن ١٩٤٩).

ومـرة ثانية استعملت زخـارف الموازييك المخروطية باقتصاد لـتزيين جدران الهياكـل والمعابد في ذلك العصر، وكانت التصاميم متوافقة مع نوعين مختلفين من تقاليد البناء. يتمثل أحد هذه التصاميم بالشكل الثلاثي النموذجي الذي سنتعرف عليه ثانية في المعبـد الأبيض في اريدو. أما التصميم الثاني فهو ابتكار كامل يتميز بوجود جناحين يطلان على الحرم في أحد الطرفين وهناك ممر بينهما يؤدي إلى (مقدِس) موجود على المحور الرئيسي. وان المعبد (د) في السوية الرابعة (آ) يشكل أفضل نموذج

لهذا التصميم العمـراني. تبلغ أبعاد هذا البناء ٨٠ × ٥٥ متراً وهي تجعل منه بناءً عظيماً من حيث الحجم وفي نفس الوقت فان تخطيطه وتصميمه عمل مدهش يدل على البراعة والقوة. يتم الدخول إلى الحرم المصمم على شكل حرف (T) بواسطة الجناحين الجانبيين وتحيط به غرف جانبية من جميع الاتجاهات. ولقد زينت الواجهات الخارجية بنقوش وكانت هناك نوافذ صغيرة مزينة على الجانبين الطويلين للبناء في وضع متبادل مع غرف الادراج التي يمكن الوصول إليها من الخارج. وفي نموذج آخر وهو المعبد (C) في نفس السوية نجد تصميماً أكثر بساطة وهو يمتد نحو (المقدِس) ليشكل عنصراً معمارياً مثلثاً يتوافق تماماً في شكله وأبعاده مع المعبد الأبيض وعلى ما يبدو فقد كان لهذا البناء وظيفة مزدوجة.

وسنعرف الآن ان الحرم المصمم على شكل حرف (T) وهو أحد مظاهر مخططات المعابد، لم يكن مقتصراً على بلاد الرافدين الجنوبية، فقد عثر على نماذج كثيرة لها نفس الترتيب في مواقع موجودة في شمال وشرق العراق وكذلك في شمال سورية. ويبدو ان بعض هذه المعابد كانت معاصرة للمعابد التي وصفناها قبل قليل بينما ينتمي بعضها الآخر إلى تاريخ أقدم.

وهناك بناء آخر يتمتع بأهمية كبيرة، رغم انه لم تعرف حتى الآن وظيفته وهو المعبد المسمى معبد الموزاييك الحجري المخروطي. بني هذا المعبد في موقع منعزل إلى الغرب من مجمع أبنية (إأنا) وقد نسب تاريخياً إلى السوية الرابعة أيضاً. يتميز المعبد بتصميم غامض حيث يحيط به سور دفاعي ذو دعائم مزدوجة وقد زخرفت الواجهة الداخلية للسور بمخاريط من الموازييك على غرار واجهات الأبنية الأخرى وكانت هذه المخاريط مصنوعة من الحجارة الملونة. لقد كانت هذه الزخارف موضوع عملية تأمـل كبيرة لانها ظهرت بكميات كبيرة منقولة من مكانها الأصلي في اريدو وأماكن أخرى. وساد اعتقاد بأنها تشكل نوعاً من الزخارف البدائية لانها استبدلت مع تطور الاقتصاد بالمخاريط المصنوعة من الطين النضيج. ويبدو ذلك الاعتفاد معقولاً جداً نظراً لتنوع ودقة هذه الزخارف في نهاية عصر اوروك. فقد بلغ طول هذه المخاريط الـطينية أكثـر من ثلاثين سنتمتراً وشكلت حزمة من الزخارف حول متراس منصة المعبد، بينما استعملت في عصور لاحقة في أبنية اريدو مخاريط مشابهة مصنوعة من الجبس وكانت رؤوسها مغلفة بالنحاس. وفي بعض الأحيان كانت الزخارف المنحوتة

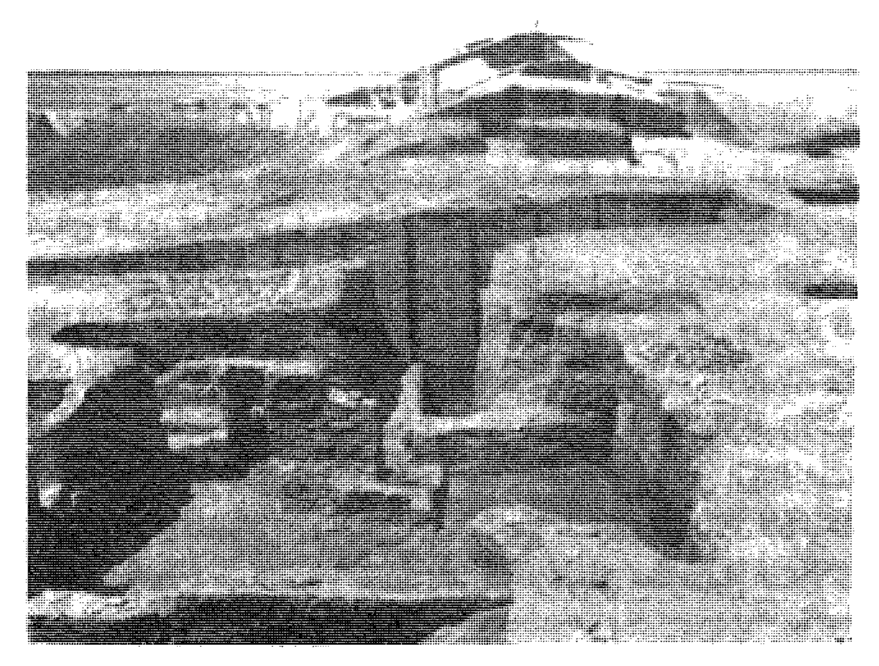


الشكل رقم ٢١ : عناصر معمارية مأخوذة من معبد المرحلة الأخيرة في اوروك من العقير وهي تشمل قطع قرميد أو جبس موشورية الشكل. عناصر مخروطية لزخارف الواجهات، مزراب مطري وقواعد دائرية مجهولة الاستعمال.

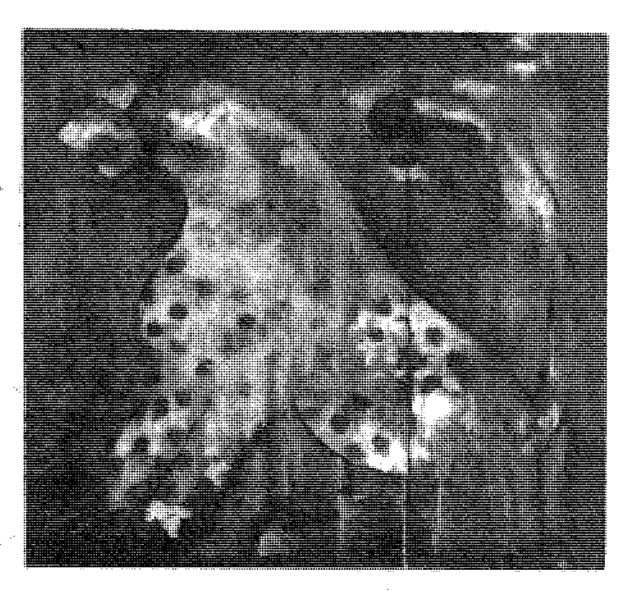
على ألواح من الحجارة موجودة مع نماذج من الموازييك وغيرها لجعلها أكثر حيوية.

تل العقير

في مواقع كثيرة من بلاد الرافدين السفلى تظهر أعداد مبعثرة من الموازييك على السطح يمكن الاعتماد عليها كدليل على الاستيطان في هذه المواقع اثناء عصر اوروك. وتل العقير هو أحد هذه المواقع التي اكتشفت بهذه الطريقة وهو يقع على بعد حوالي (٥٠) ميلاً إلى الجنوب من بغداد، وقد نقب فيه علماء آثار المتحف العراقي وعلى رأسهم (فؤاد صفر) و س. لويد (S. LLoyd) في عامي ١٩٤٠ - ١٩٤١[٣٣]. على الحافة الخارجية لمستوطنة تتسم بخصائص عبيدية غطت رابية عالية بقايا معبد من عصر اوروك. ويتميز هذا المعبد بوجود رصيف في حالة جيدة بالاضافة إلى ان أقساماً عديدة من الأسوار ماتزال قائمة على ارتفاع بضعة أمتار. ومخطط هذا المعبد يطابق تماماً المعبد الأبيض في اوروك، باستثناء ان أدراجه الموجودة في أحد الأطراف قد حل محلها المذبح الموجود على المحور الرئيسي والذي يتم الوصول إليه بواسطة مجموعة من الدرجات. وقد استطاع المنقبون الأثريون الوصول إلى البناء من خلال أحد الأبواب



الشكل رقم ٢٢ : بقايا رصيف وجدران لمعبد عصر اوروك الأخير في تل العقير وقد تم حفظ الرسوم الجدارية التي وجدت في المقدس. تظهر في المقدمة زخارف الهيكل الذي يرجع إلى عصر جمدة نصر حيث وجدت بعض الألواح القديمة.



الشكل رقم ٢٣ : فهد ملون يشكل قسماً من زخارف المذبح في المزار، من عصر اوروك الأخير في تل العقير.

الجانبية وتمكنوا في الحال ان يكتشفوا ان الواجهات الداخلية كانت مغطاة برسوم جدارية ملونة بألوان متعددة. وكانت الأجزاء السفلى من الجدران ملونة باللون النبيذي الذي تعلوه حزمة من الزخارف الهندسية، وفوق ذلك يمتد أفريز من الأشكال البشرية والحيوانية لم يبق منها سوى القسم السفلي. أما الزخارف التي بقيت بحالة أفضل فهي التزيينات الموجودة على واجهات المذبح الرئيسي وهي على غرار قاعة الأعمدة في اوروك تمثل واجهات معبد مصغرة بلوحات عمودية من الموزاييك. وعلى الجهات المقابلة للدرج ظهرت لوحات تمثل نمرين للحراسة منقطين بالأحمر والأسود. وباستثناء الواجهة المطلية بالكلس، التي اعطت المعبد الأبيض في اوروك اسمه، والمعبد الأحمر في منطقة (إأنا) واللذين بقي بعض من أقسامهما حتى الآن فان لوحات تل العقير الجدارية هي النموذج الوحيد المعروف للرسوم في عصرنا قبل السلالات، ومن هنا تنبع أهمية هذه الرسوم.

لقد اعطي المعبد المدهون في تل العقير تاريخاً مؤقتاً يرجع إلى المرحلة الأخيرة من عصر اوروك وهو عام ٣٢٥٠ قبل الميلاد. وهو يشبه المعبد الأبيض في كون غرفه مبنية بمواد صلبة أكثر مما هي مبنية بالقرميد الطيني الذي استعمل في بناء المصطبة، الأمر الذي جعل من الممكن فيها بعد إقامة بناء المزار المقدس فوق الغرف. لا يمكن تحديد التاريخ الذي بني فيه المزار بشكل مؤكد، لكن بعض الأدلة قد توفرت نتيجة اكتشاف أثري عند أسفل الرصيف. فقد عثر هنا على كنيسة صغيرة تحتوي على بقايا اوانٍ نذرية كانت مواصفاتها أفضل من أي فخار آخر في هذا الموقع. وأكثر من ذلك فان الادلة الزمنية التي يمكن الاعتماد عليها قد توفرت بعد اكتشاف أربع لوحات من الغضار تمثل عصر جمدة نصر وهي من أهم مواد المعبد المنقوشة برموز تصويرية.

وباستثناء المخططات الأرضية وزخارف المعبد الجدارية التي تم وصفها يمكننا ان نذكر بعض الأمور الاضافية عن المظهر العام من خلال الرموز المعمارية التي وجدت أحياناً على الاختام الاسطوانية السومرية واللوحات المنحوتة[٣٤]. ففي أمكنة مرتفعة من الدعامات الجانبية عثر على على نوافذ مثلثة لم يعرف ان كانت حقيقية أم تزيينية، ولكن من وجهة نظر الاضاءة الداخلية فانها تترك قليلاً من الشك بأن جدران المعبد المركزي كانت تعلو جدران الغرف الجانبية، ولذلك يمكن اعتبار هذه النوافذ منافذ للنور. أما بالنسبة لمعابد إأنا الضخمة فمن المحتمل ان غرفها لم تكن مسقوفة

على الاطلاق. بينما تتفق الكثير من النصوص اليوم على ان الخشب الذي استعمل للسقوف قد حصلوا عليه عن طريق التجارة النهرية.

أبنية عصر جمدة نصر

الوركاء

ينبغي ان نعود بالذاكرة الآن إلى الفرضية التي ظهرت عام ١٩٤٢ والتي تقول ان عصر اوروك الأخير، الذي تنتمي إليه معظم الأبنية الضخمة في منطقة إأنا يندمج مع عصر جمدة نصر لتكوين مرحلة جديدة ورئيسية تسمى مرحلة بداية الكتابة. وبكل وضوح فإذا قبلنا هذا الاقتراح فلن تكون أية مناقشة لفن العمارة في هذه الفترة كاملة دون الرجوع إلى أبنية عصر جمدة نصر. ولقد ذكرنا حتى الآن بناءً واحداً من هذه الأبنية في اوروك نفسها وهو اعادة بناء أخيرة للمعبد الأبيض. وعلينا بعد ذلك ان نلقي نظرة سريعة على التطورات المعاصرة في منطقة إأنا في تلك الفترة. لقد دمرت المعابد الضخمة لأوروك الرابعة (٤) وغطيت المواقع ببقايا مبعثرة في الباحات والشرفات التي كانت جدرانها غنية بلوحات من الزخارف والفسيفساء. ومن الملامح الغريبة لهذا التصميم ظهور التجهيزات الخاصة التي أطلق عليها الألمان اسم «المحراب» لقد كانت هذه التجهيزات عبارة عن أجران مدهونة بالجص واستعملت على ما يبدو لحرق بقايا الاعطيات النذرية المؤلفة من حيوانات أو طيور أو أسماك. وكانت هذه الاعطيات تبسط أحياناً في صفوف منظمة مما يدل على انها مستعملة لمرات عديدة. ولقد ظهرت هذه الاعطيات في حالات كثيرة وفي مواقع أخرى بالاضافة إلى أوروك[٣٥].

البناء الفعلي الذي خصص لأغراض طقسية من نفس النوع أطلق عليه بالألمانية اسم (البناء الصغير المربع الشكل والمصنوع من اللبن)[٣٦]. (Riem-chengebäude) وقد حفرت أساسات هذا البناء ضمن خرائب معبد الفسيفساء المخروطي الحجري على التخم الغربي للمنطقة. الغرفة الداخلية منه، والتي لم يظهر لها أي مدخل، كانت محاطة كلياً بممر ظهرت فيه دلائل على حدوث حريق رهيب. ولقد كان ضمن المبنى أدوات ملقاة كيفما اتفق، وربما بشكل مقصود. تشمل هذه الأدوات مجموعة غنية تقدر بمئات من المزهريات الفخارية أو الحجرية وأوان من المرمر والنحاس ومخاريط من الفخار وصفائح من الذهب ومسامير ذات رؤوس مغطاة

بصفائح ذهبية بالاضافة إلى الأسلحة وعظام الحيوانات وقطع محطمة من الأثاث. لقد اعتبر المنقبون الأثريون ان هذه الأشياء نتجت عن عملية تدمير طقسية للأدوات والأشياء المطهرة التي تعود إلى أبنية أكثر قدماً وكان تدميرها أمراً ضرورياً.

خفاجه

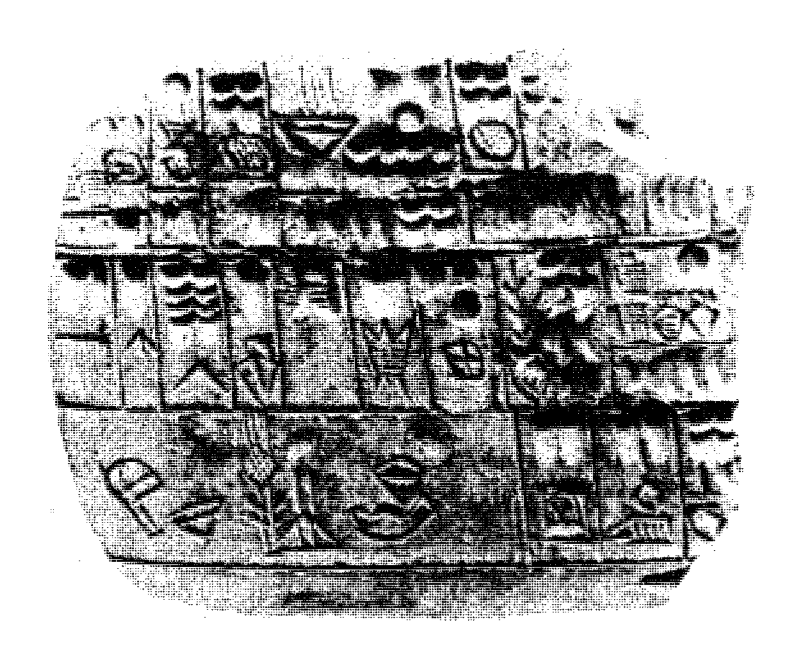
تم نشر الكثير من المعلومات عن عصر جمدة نصر، وكان قد تم الحصول عليها من البقايا الباكرة لما سمي (بمعبد سن)، الذي كرس لاله القمر. قامت بالتنقيب عن هذا المعبد في خفاجه من منطقة ديالي إلى الشرق من مدينة بغداد مجموعة من المنقبيْن الأمريكيين(٣٧). بني هذا المعبد الصغير بتصميم يشبه تقريباً المعبد الأبيض وعلى مستوى الأرض. والفرق الوحيد بينهما هو عدم وجود الممرات الطقسية عند نهاية المزار. المستويات الخمسة الباكرة للبناء تقع في هذا العصر الذي نتحدث عنه وهناك أمور اضافية سنقولها عن محتوياته عند مناقشة المظاهر غير المتعلقة بفن العمارة لهذه الحضارة.

عصر بداية الكتابة

الكتابة الأولى:

بعد ان لاحظنا تعاظم النشاط المعماري والابتكار الذي حدد مسار عصر بداية الكتابة فإنه بالامكان ان نستدل على قوة العقيدة الدينية التي ألهمت هذا التطور. من الأبنية فقط يمكن معرفة القليل عن البنية التفصيلية للديانة السومرية والخلفية الاجتماعية التي نشأت فيها، أما المعلومات الاضافية عن هذا الموضوع فقد اكتشفت بالشكل الأفضل من خلال الوثائق المكتوبة لعصور لاحقة. وفي الوقت الحاضر فان الصيغ البدائية التي كانت متوفرة تساهم بشكل معقول كمصدر وافٍ للمعلومات(٣٨).

لقد كان مصدر أقدم الألواح المكتوبة التي اكتشفت حتى الآن هو السوية الرابعة في أوروك وكانت على شكل كتابات تصويرية اعتمدت كسلف للكتابة المسمارية(٣٩). ان درجة الاتقان التي تم تحقيقها توحي بوجود مراحل في التطور أكثر قدماً في مناطق أخرى وربما في سويات توافق السوية الخامسة والسادسة في أوروك اللتين اعتبرتا ضمن هذه المرحلة(٣٩) وفيما يتعلق باللغة التي كتبت بها هذه المخطوطات



الشكل رقم ٢٤ : الوجه الخلفي لكتابة تصويرية، من عصر جمدة نصر (٣٠٠٠ قبل الميلاد) وفيه لائحة بأسماء سلع . كتبت مثل هذه الألواح في البداية بشكل عمودي ثم انعكس الوضع فأصبحت تكتب فيها بعد بعكس عقارب الساعة لتقرأ بشكل أفقي من اليسار إلى اليمين.

فان النصوص الأولى المكتوبة باللغة السومرية قد وجدت في عصر جمدة نصر. ولأن بعض المراجع قد اعتقدت ان أساساً وثنياً يمكن ان يكون قد وجد في سومر قبل هجرة السومريين لذلك كان بالامكان الادعاء بان النصوص في أوروك (٤) ربما كانت مكتوبة بلغة مختلفة. ان تأملات من هذا النوع تشكل جزءاً من مناقشات طويلة حول الأصول السومرية.

ان بعض العلامات والرموز المستعملة في نصوص مرحلة بداية الكتابة يتوفر لها مثيل مناسب في الكتابة المسمارية لعصور لاحقة لذلك كان معناها معروفاً. ورسوم الحيوانات كالأغنام والماعز والحمير أمر طبيعي، بينما الكلمات المعبرة عن الصيد وصيد الأسماك فيمكن ملاحظتها بسهولة. أما التجارة فكانت مفهومة من خلال أسماء التجار. وتؤكد تقنيات صناعة الفخار استعمال الدولاب وتطورت المزجلة إلى نوع من العربات. كما وتوحي الرموز الأخرى بالأشياء المعدنية التي كان منها الفأس المصنوع

في قالب مغلق. وتوحي عملية تغليف مخاريط الفسيفساء بالنحاس بتطور فهم صناعة وعلم المعادن. ومن جهة ثانية فبالرغم من وجود كلمات مثل (أكبر) و(مستشار) فان مفهوم الملك لم يكن معروفاً في ذلك الوقت. تدعم وتؤكد هذه المعلومات البدائية الرسوم والمواد المنحوتة والتصاميم الظاهرة في النقوش البارزة.

فن النحت (Sculpture)

ان أغلب المشاهد المصورة بطريقة النحت والباقية منذ عصر بداية الكتابة هي مشاهد دينية. وهنا فان عملية الاستطراد في وصف خصائص ومكونات العقيدة السومرية أمر مناسب ومقبول. بالاعتماد على أقدم الصيغ المكتوبة للعقيدة الدينية تظهر أسماء ثلاثة من الالهة المذكّرة بشكل واضح وبارز، وهذه الأسماء هي آنو، انليل وإنكي (Anu - Enlil - Enki). كان الاله آنو، رب السماء، الذي لاحظنا معبده في اوروك هو القوة الكبرى في الكون والمسيطر على جميع الأرباب. ولقد حل مكانه في التاريخ السومري كل من انليل رئيس الالهة في نيبور (Nippur) ثم مردوخ (Marduk) الاله الحارس في عصر بابل. أما الاله انكي فقد كان يمثل رب الحكمة والعلم. وعلى العموم فقد كان لكل مدينة الهاً خاصاً بها ومجموعة خاصة من الأساطير. ولقد ذكر جورج رو (George Roux):

«إن السماء كانت مسكونة من مئات من الكائنات القوية الشبيهة بالمخلوقات البشرية، وكان لكل اله وظيفته الخاصة ومجاله الخاص في النشاط، فكانت السماء مسؤولية أحد هؤلاء الالهة والهواء مسؤولية آخر والماء مسؤولية الثالث وهكذا حتى نصل إلى الالهة الأقل شأناً والمسؤولة عن الفلاحة واللّبن والصوان والمعاول».

لقد كان لهذه الالهة نفس المظهر الفيزيولوجي للإنسان ونفس ميزات وعيوب البشر وكما يقول جورج رو: «لقد كانت الالهة تمثل أفضل وأسوأ ما في الطبيعة الإنسانية ضمن مقاييس تفوق البشر»[٤٠].

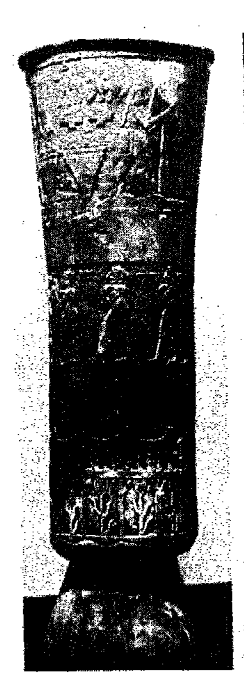
أما الأمثلة التي ذكرت عن الالهة المرتبطة بمدن خاصة، الذين يمثلون عقيدة دينية عامة فتشمل اله القمر نانا (Nanna) في مدينة أور وابنه واله الشمس اوتو (Shamash) في سيبار ولارسا، والاله المحارب نينورتا (Ninurta)، والالهة نين

هورساغ (Nin - Khursag) والدة وزوجة الاله انليل، والالهة اينانا أو عشتار الهة الحب وزوجها دوموزي (Dumuzi).

لقد كانت الالهة اينانا (Inanna) هي الالهة الأم العظيمة والتي كرست لها منطقة اينانا في اوروك، كما كانت الرمز الانثوي للخصوبة والابداع. أما فيما يتعلق بدوموزي فانه برأي جورج رو يرتبط في الفكر السومري بالانتاج في الحقلين النباتي والحيواني لذلك فان اتحاده مع الالهة اينانا يرمز إلى الخصب. وبالتالي فان نظرية فريزر (Frazer) التي تعتمده كرب للموت والنشور أصبحت مرفوضة مؤخراً. أما الالهة الصغيرة والأقل شأناً فعددها كبير جداً ويضيق المجال هنا لذكرها.

لقد عثر على مزهرية حجرية مشهورة من الوركاء بطول ٩٠ سم تحتوي على ثلاثة جداول للتماثيل المنقوشة بشكل نافر وباتقان واضح. في الأعلى تظهر الآلهة اينانا أمام حزمتين من القصب تنتهيان بعُقد وأعلام، رمزها الأبدي، كما يظهر كاهن عار يقدم لها سلة من الفاكهة. وخلف ذلك فان اللوحة المحطمة تظهر بقايا شكل ربما يكون لقائد أو ملك وأمامه خادم يحمل حزاماً يقدمه للملك. كما ويدعم اينانا عدد من الآلهة الثانوية يقفون على هياكل نموذجية وحيوانات مناسبة مع رموز تشمل زوجاً من المزهريات التي تشبه تلك التي نقشت هذه الرسوم عليها. وفي جدول آخر نشاهد كهنة عراة يقدمون الاعطيات، وفي الجدول الثالث هناك حيوانات ونباتات تمثل مملكتي النبات والحيوان. والرمز المقدس الثاني الذي نراه هنا هو المزهرية المزخرفة بثمانية تويجات أزهار. وبالاضافة إلى ذلك فعلى الجانب المنحوت للحوض الحجري في المتحف البريطاني نشاهد أغناماً وكباشاً من القطيع المقدس تعود إلى معبدها، حيث تخرج الخراف للقاء القطيع. يتكرر هذا المشهد كثيراً وتحل الأبقاء مكان الأغنام على سطح زبدية حجرية مأخوذة من خفاجه. وبعد ذلك بوقت طويل نشاهد نماذج مماثلة على لوحات منحوتة مأخوذة من معبد السلالة الباكرة في العبيد.

أما المواضيع الدنيوية في اللوحات فهي أقل شيوعاً، فهناك بلاطة منقوشة مصنوعة من الغرانيت الأسود أخذت من الوركاء. البلاطة منحوتة بصعوبة وتظهر مشهدين للملك وهو يصطاد الاسود، بالاضافة إلى الرأس المصنوع من الجص وبالحجم الطبيعي والذي وجد في جمدة نصر مع انه يؤرخ من جهة الأسلوب على اوروك (٤). انه أحد العناصر التي تشكل تمثالاً مركباً ويحتمل ان تكون الأجزاء الباقية




الشكل رقم ٢٥ و٢٦ : مزهرية من المرمر وجدت في مكان ينتمي إلى عصر جمدة نصر في الوركاء (٣٠٠٠ قبل الميلاد). فقد تمثال الملك من الحقل العلوي لكننا نشاهد الخادم وهو يحمل حزامه الثقيل. في الجهة الأخرى نشاهد الالهة اينانا وهي تتلقى الاعطيات من موكب من الكهنة يمتد على طول الحقل الثاني من المزهرية.

قد صنعت من الخشب والقار. فقدت عينا وحاجبا هذا الرأس وكذلك الرقاقة التي تغطي الشعر وعندما استردت الأجزاء الناقصة بدا الرأس غريباً بعض الشيء أما القناع فقد كان على درجة كبيرة من الجمال. والحيوانات المنحوتة على جميع الجوانب كالكبش الجاثم من الوركاء والخنزير البري من اور فيبدو انها تمثل زخارف تعلق بحلقات معدنية بتماثيل أكبر حجماً. بينما نلاحظ ان المزهريات الحجرية قد زخرفت برسوم كثيران واسود وكان قسم منها منحوتاً من جميع الجهات بينما نحت القسم الآخر بشكل بارز.

وبدءاً من عصر جمدة نصر في الوركاء هناك أشكال ملوك منحوتة بغير اتقان تبشر بتماثيل الشخصيات النذرية لعصور السلالات الباكرة. ومن الأمثلة على ذلك التمثال الوحيد الصغير الحجم لامرأة من خفاجة وفي نفس العصر أيضاً نرى الجرار المصنوعة على أشكال الحيوانات وهذه الجرار مفتوحة من الأعلى ومصنوعة من حجارة قاتمة اللون ومزخرفة أحياناً بتطعيمات ملونة بأشكال هندسية.

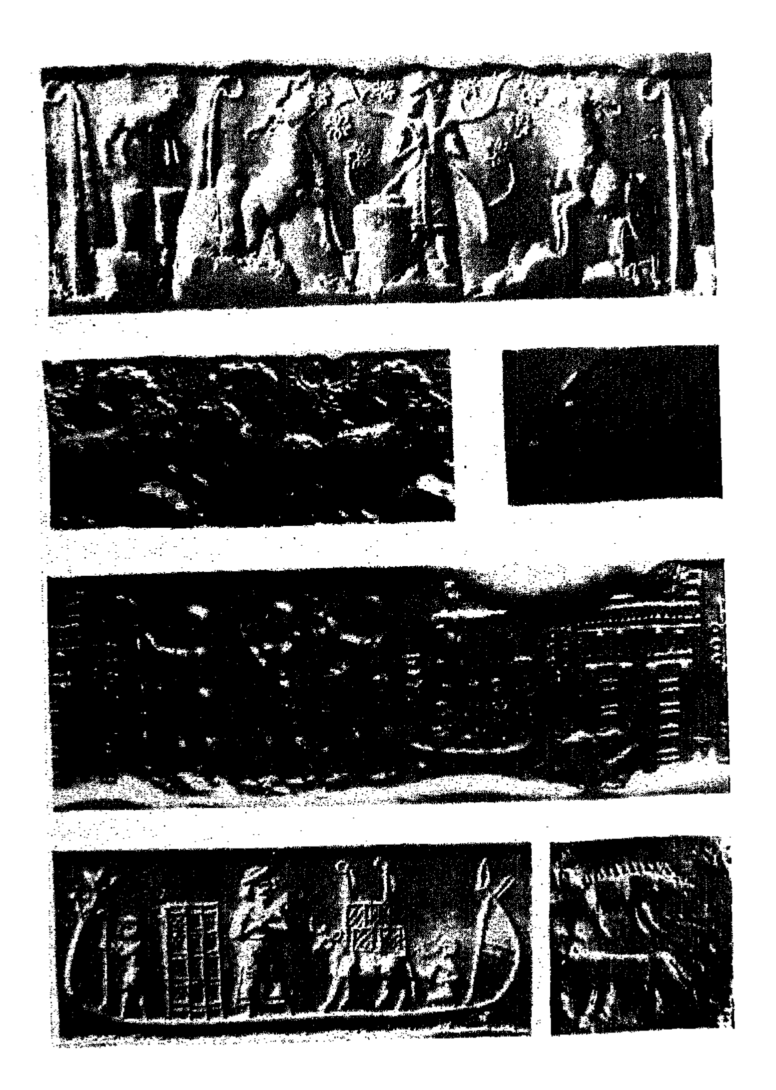


الشكل رقم ٢٧ : حوض منقوش من المرمر في المتحف البريطاني من عصر ما قبل الكتابة. حيوانات ايننا المسماة بالقطيع المقدس إلى جانب زريبة مبنية من القصب.

الاختام الاسطوانية

الابتكار الآخر الذي سار موازياً للكتابة التصويرية في عصر بداية الكتابة هو الاختام الاسطوانية التي استخدمت لتحديد ملكية أو لتسجيل اتفاق. هذه الأشياء الصغيرة المصنوعة من الحجارة أو الصدف والمثقوبة في وسطها من أجل التعليق كانت منحوتة بلطف وعلى طرفها المحدب بأشكال وتصاميم متنوعة لتشكل افريزاً دقيقاً من الزينة عند دحرجتها فوق الغضار الطري[٤١]. لقد تم العثور على الاختام الاسطوانية بأعداد كبيرة وكانت طبعاتها على الألواح الغضارية أو سدادات الجرار أكثر وفرة.

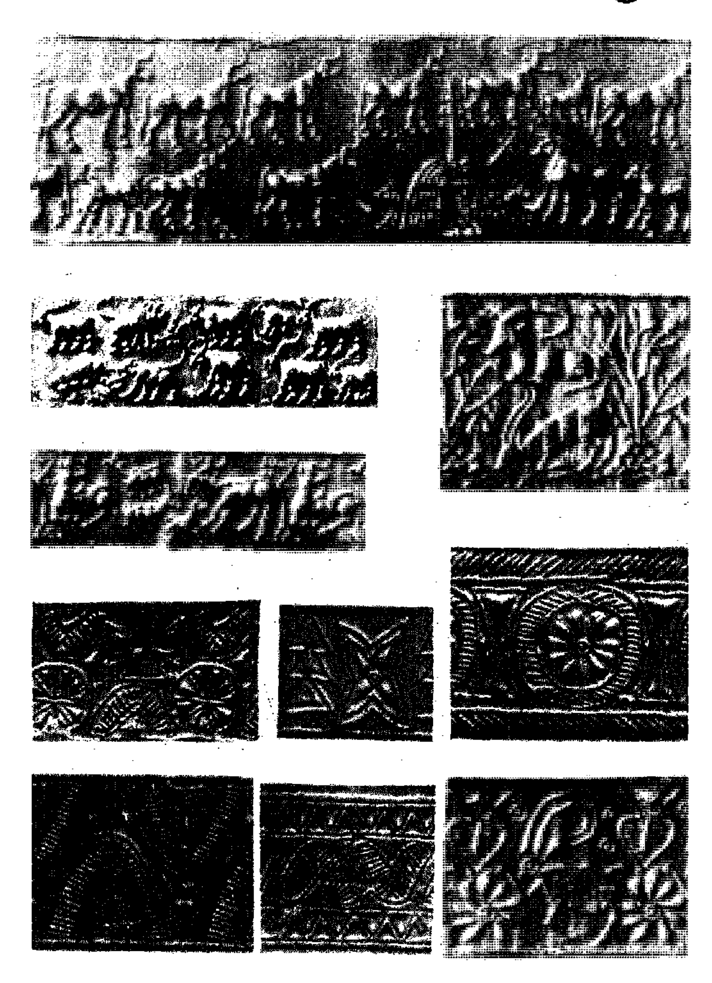
ظهر الختم الاسطواني كابتكار لأول مرة في السويتين (٥ - ٤) في اوروك[٤٢]. وفي الأمثلة المؤرخة على هذه الفترة ينبغي ان نتوقع رؤية نتاج حرفي سومري كان في البداية مجرد تجارب غير متقنة في صيغ من النحت غاية في الصعوبة. وعلى العكس من ذلك فعلى الرغم من ان الحرفيين السومريين لم يكونوا قد اتقنوا كامل تعقيدات التصميم المتكرر للنقش، فان تنوع المواضيع وبراعة المعالجة التزيينية تؤكد تحقيقهم لانجاز لم يضاهيه أي انجاز آخر خلال القرون التالية. لقد وصل عملهم إلى كل المواصفات الخاصة بالنقوش النافرة ولم يقتصر على الرسوم الخطية كما يثبت ذلك قيامهم بتصميم وتنفيذ الأشكال البشرية[٤٣].



الشكل رقم ٢٨ : أختام اسطوانية من عصر اوروك. يبدو الملك وهو يطعم حيوانات الالهة اينانا أو يقف أمام المقدس المتحرك على قارب مصنوع من القصب. الكهنة يقدمون الاعطيات الطقسية للمعبد الذي تظهر عليه رموز غير مفهومة. تشكل الوعول ووحوش أخرى تنوعاً في المصنوعات.

لقد كان للمواضيع التصويرية والرموز الاسطوانية دور كبير في ابداع هذه التصاميم التي كانت موضوعاً للكثير من الدراسة والبحث ومع ذلك فلم تفهم بشكلها الكامل حتى الآن. ان أكثر المواضيع بروزاً في المشاهد الدينية هي تعويذة الالهين رمز

إليهما وإلى صفاتهما المميزة ولم يصورا بشكل منفرد. فالاله تموز المقدس (Tammuz) الـذي يرمـز إلى القـوة المنتجـة في الطبيعة مثلته بعض الحيوانات والنباتات بشكل تصـويري. أمـا الرموز الأخرى للاله فتشمل النسر الذي يحمل أحياناً رأس أسد وأفعى. أما الالهة اينانا فقد كُوِّن شعارها بشكل غريب، مثل أعمدة المعبد المبني من القصب وأصبح اسمها فيما بعد أحد رموز الكتابة التصويرية. لقد استطاعت البنية



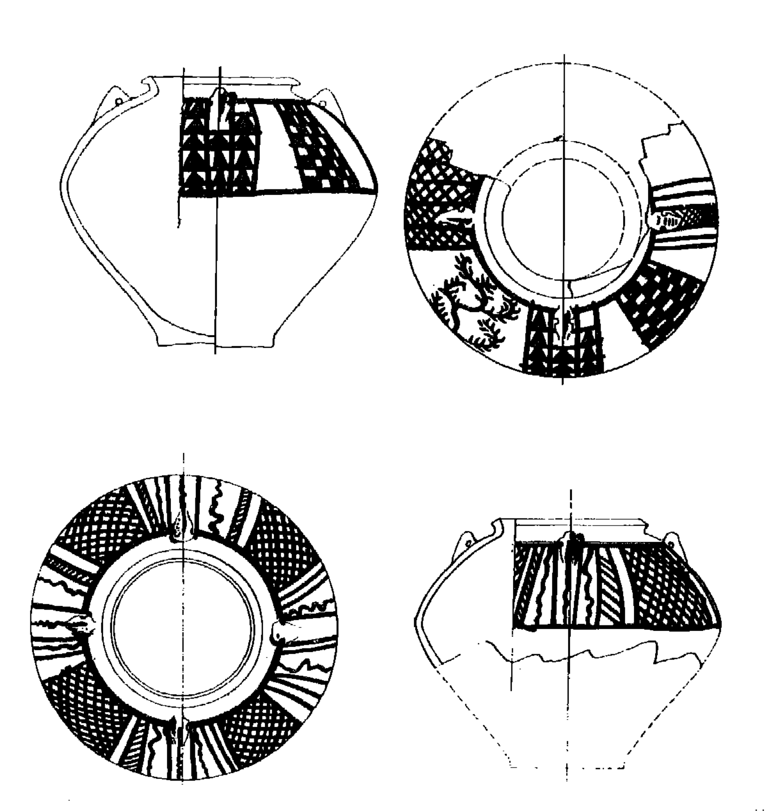
الشكل رقم ٢٩ : أختام اسطوانية من عصر جمدة نصر ونلاحظ في الموضوعات الحيوانية في الأعلى ان قيمة النحت قد قل شأنها نتيجة استخدام المثقب المنحني. أما التصاميم الهندسية فهي أهم ما يميز هذه المرحلة في صناعة الأختام.

الزخرفية لهذه الرموز ان تشكل موضوعاً للختم الاسطواني. وعندما يمثل الرسم أحد الطقوس الدينية تظهر الأشكال البشرية مثل الرجل الملتحي وعلى رأسه تاج وله كتلة من الشعر ملفوفة في مؤخرة رأسه ويرتدي تنورة مطوية ويقف أمامه كاهن عار أو بملابس قصيرة. يمكن التعرف على هذا الرجل كملك. انه يحضر أدوات طقسية للمعبد المصنوع من القصب أو يشرف على اطعام احتفالي لبعض المواشي. كما وتظهر قطعان المواشي مرات كثيرة ويحميها الإنسان الثور أو النسر ذو رأس الأسد أو أي وحش آخر وهذه كلها مظاهر مألوفة في فن التصوير السومري. وتظهر أحياناً حيوانات أخرى كالخنازير البرية والأيل والماعز الجبلي لتكمل مجموعة صانع الأختام من التصاميم والأشكال. ظهرت بعض المواضيع الدنيوية التي تصور الملك في الصيد أو في الحرب. ان أنواع الصخور التي كان يفضلها صانع الاختام لم تكن في بلاد الرافدين الأمر الذي يدل على وجود علاقات تجارية مع الأقطار المجاورة.

وفي عصر جمدة نصر نلاحظ تدهوراً طفيفاً في دقة صنع ونحت هذه الاختام، فالمثقب الذي كان يستعمل بشكل ضئيل في السابق والذي لم تكن آثاره ظاهرة أصبح استعماله واضحاً. وتدنت عملية تنفيذ وصياغة الأشكال الحيوانية كما وظهرت أشكال أخرى من الاختام طويلة بشكل لا يتناسب مع قطرها وكانت مغطاة بشكل كامل بأشكال وزخارف هندسية.

الفخار:

عند تتبع المراحل المتلاحقة لنشوء حضارة ما قبل السلالات نذكر الفخار مؤكدين أهميته كدليل ستراتيغرافي، وفي معظم الأحيان كان فخار مرحلة بداية الكتابة خالياً من الزخارف. ولقد كانت خصوصيته التقنية موضوع الكثير من الدراسات المتخصصة التي لن نتمكن من تلخيصها الآن. وهناك استثناء وحيد لهذا التعميم وهو الفخار الملون الجيد الذي ظهر في حوالي نهاية عصر جمدة نصر[٤٣]. ومن أكثر الأواني شيوعاً في هذه الفترة الجرار الفخمة ذات الاعناق والمزينة برسوم هندسية باللونين الأحمر والأصفر والتي تشكل لوحات تظهر فيها رسوم لحيوانات وأوراق أشجار وحتى لكائنات بشرية في بعض الأحيان. أما القسم الباقي من سطح هذه الجرار فكان



الشكل رقم ٣٠ : فخار ملون من عصر جمدة نصر. ونلاحظ التصاميم الملونة بالأحمر والأصفر والأسود الموجودة في معظمها في القسم العلوي من الاناء حيث الاطراف المزججة الجذابة. (عن لويد وصفر ١٩٤٣).

مغطى بدهان أرجواني اللون يشكل سطحاً لامعاً. لقد وفر هذا الفخار معياراً مفيداً للتأريخ عندما عثر عليه في بيئات مختلفة.

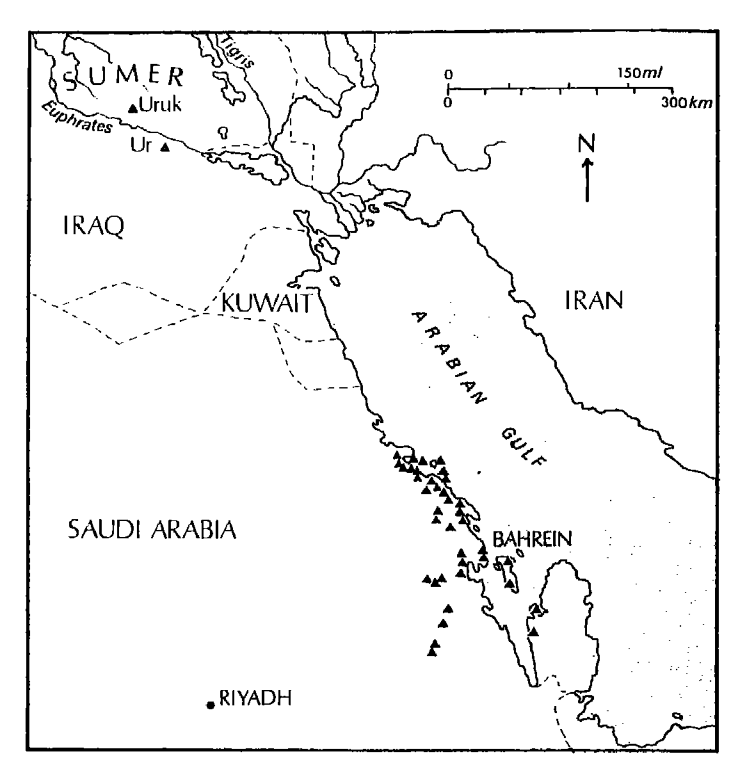
سوف نناقش ظاهرة التماثل بين فخار عصر ما قبل السلالات في بلاد الرافدين وفخار الحضارات المعاصرة في إيران وغيرها تحت عناوين منفصلة، ولكن يمكن ان نذكر هنا موضوع العلاقة المبكرة بين بلاد الرافدين ومصر. وفي عملنا هذا لن يكون اهتمامنا مركزاً على الفخار بقدر ما هو مركز على التطورات الحضارية المشتركة في ذلك العصر بين هذين المركزين العظيمين للحضارة البدائية. لقد درس المختصون الكثير من مظاهر هذه العلاقة بشكل وافٍ[٤٤]. وكان أحد مظاهر التأثير هو تأثير معابد بلاد الرافدين المبنية من القرميد على التصاميم المعمارية لقبور عصر ما قبل السلالات الفرعونية في مصر. والموضوع الآخر هو الجدل حول مقولة ان الكتابة الهيروغليفية قد

تأثرت بمعرفة المصريين القدماء لخبرات السومريين في هذا المجال. لقد أصبح هذا الأمر مقبولاً بصورة أكبر بسبب اكتشاف الكتابة التصويرية المشابهة للكتابة في بلاد الرافدين في أماكن بعيدة كرومانيا من جهة[٤٥] وحدود بلوشستان من جهة أخرى[٤٦]. لكن أهم الدلائل الملموسة على الاتصال بين مصر والعراق في عصور قديمة كعصر جمدة نصر هي الاختام الاسطوانية التي عثر عليها في قبور ناغادا (Naqada) في مصر والتي تدل على وجود بعض العلاقات التجارية والتي يتطلب وجودها في ذلك العصر المزيد من البحث والدراسة.

الأسلاف السومريون:

وأخيراً يجب ان نعود إلى مشكلة أصل السومريين، التي كانت موضوع بحث مترو بين العلماء والمختصين. وقد كان هذا الأمر موضع صراع واضح بين حجج الفقهاء اللغويين من جهة واستنتاجات علماء الآثار من جهة أخرى. وبشكلها العريض تنشأ المشكلة من الشك المتعلق بالنقطة الزمنية في سلسلة عصور ما قبل السلالات التي أصبح عندها ممكناً ان نطلق اسم (السومريين) على سكان بلاد الرافدين السفلى. لقد قيل ان ابتكارات عصر بداية الكتابة تحدد الهوية التي يمكن من خلالها التعرف على حضارة بلاد الرافدين خلال تاريخها الطويل وان هذه الابتكارات قد قبلت في وقت من الاوقات كدليل قوي على وصول السومريين إلى المنطقة في ذلك العصر. ان الجدل حول هذا الموضوع يقود إلى مقدمة وحيدة وهي ان بعض المدن القديمة جداً في بلاد الرافدين والمذكورة في النصوص التاريخية. والتي كانت قائمة قبل عصر بداية الكتابة يمكن الاعتقاد بانها كانت تحمل أسماءً غير سومرية. ولقد استعمل هذا الأمر لتبرير سلسلة التفكير بحدوث هجرة مفترضة لسكان ساميين خلال منطقة الشرق الأدنى بكاملها[٤٧]. ويشير علماء الآثار إلى شكهم بهذا الأمر عن أصل السومريين وإلى غياب الأدلة التي تؤكد استخدام مثل هذه الأسماء قبل ابتكار الكتابة. وفي النهاية فانهم يقعون تحت تأثير وجود دليل على الاستمرار الحضاري ما بين عصر عبيد وأوروك[٤٨].

ان الدليل على وجود استمرار في العقائد والشعائر الدينية يبدو مقنعاً بالنسبة لعلماء الآثار حيث قدمت ثلاثة مواقع أثرية مساهمات كثيرة لهذا الجدال. ان سلاسل



الشكل رقم ٣١: خريطة تبين الانتشار المعروف للمواقع الأثرية العبيدية في منطقة الخليج العربي. (س. ابراهيم عن ج. اوتيس ١٩٦٧).

العبيد نفسها المتمثلة بتل العقير واريدو تبدأ زمنياً مع استيطان العبيد التقليدي وبالتناظر مع اريدو يمكن الافتراض باحتوائها على هيكل عبيدي أعيد بناؤه مرات عديدة. وفي هذين الموقعين تم إخلاء المستوطنات في زمن يتوافق مع نهاية العصر المسمى بعصر عبيد. وعلى الرغم من ذلك فان المعبد، الذي يشبه معبد اريدو، قد أعيد بناؤه وتوسيعه خلال مرحلة بداية الكتابة. وفي عبيد بالذات أعيد بناؤه في عصر السلالات الباكرة. وفي اريدو اختيرت آثاره كموقع للزيقورات في زمن ملوك السلالة الثالثة في اور. وقد استعمل السومريون في عصر السلالات الهضبة العبيدية القديمة للمستوطنة كمقبرة لهم. وإذا وضعنا هذه الأمور في الذاكرة فان البديل في أي عصر لمهاجرين مختلفين عن السكان المحليين يصبح فرضية غير مقبولة(٤٩).

وتبقى مسألة أخيرة، تتعلق بالمصدر الأصلي للمستقرين الأوائل في بلاد الرافدين الجنوبية. لقد كان اكتشاف بيئة مزدهرة للمستوطنات العبيدية في الشاطىء الجنوبي للخليج العربي وأراضي البحرين الغربية موضع اهتمام كبير[٥٠]. ان وجودهم القديم في هذه المنطقة يمكن تأريخه في الوقت الحاضر على المرحلة الوسطى من عصر عبيد. والدلائل الأكثر حداثة والتي توفرت أخيراً تبين ان الفخار الذي استعمله هؤلاء المستوطنون كان مستورداً من سومر التي كانت علاقتهم بها علاقة مستعمرين أو تجار. ان الدراسات المتعلقة بالموطن الأول لحضارة العبيديين تبدو لذلك عديمة الجدوى.

الفصل الرابع

شعوب شمال بلاد الرافدين في عصر ما قبل الكتابة

في الفصل السابق تركز اهتمامنا على نتائج الحفريات الأثرية في السهل الجنوبي لبلاد الرافدين وعلى الدلائل التي وفرتها هذه الحفريات عن التطور الحضاري في عصر ما قبل السلالات. وينبغي ان نعود الآن لدراسة الابحاث المشابهة التي كانت تجري في شمال العراق ودراسة سلسلة الاحداث المختلفة التي كشفتها هذه الابحاث. وفي عملنا هذا فاننا سنجد أن خيط الارتباط مع حضارة السومريين الناشئة ربما كان ضعيفاً بينما نجد في نفس الوقت ان التأثير الحضاري لمناطق ما وراء حدود الرافدين أكبر أهمية. ولهذا السبب فان اصطلاح «ما قبل السلالات» ليس مناسباً للفترة الفاصلة بين العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي المبكر، عندما بدأ الإنسان يعرف عملية صهر المعادن وربما يجب ان نستبدله باسم العصر الحجري النحاسي كما هي العادة في الأقطار الأخرى في مناطق غرب آسيا[٥١]. ومرة ثانية يجب ان نرسم صورة لسلسلة الاكتشافات قبل ان نناقش بالتفصيل تسلسل المراحل التاريخية.

براك	كري ريش	نينوى	غاورا	السلسلة الجنوبية	ق.م
القصر				الأكادي	
	١	نينوى (خمسة)		السلالات الباكرة ٣ ب، ٣ آ، ٢، ١	٢٥٠٠
معبد العيون			عصر غاورا		
رمادي أحمر	٢ ـ ٣	٤	٨ ـ ١٠	جمدة نصر	٣٠٠٠
				اوروك الأخير	
العربجية	٥	٣	١١ ـ ١٢	اوروك الباكر	٣٥٠٠
منازل ومقابر عبيدية ١ ـ ٤	٦ ـ ٩ حسونة		١٣ الأكروبول ١٤ ـ ١٦ (عبيد الشمالية)	عبيد الأخير ٤	٤٠٠٠
	عبيد		١٧ ـ ١٩ الانتقال	عبيد الأخير ٣	
٦ ـ ١٠ منازل حلف المستديرة	حلف	٢	حلف ٢٠	حجي محمد ٢	٤٥٠٠
	سامراء حسونة مواقع الخيام	١	شمشارة	اريدو ١	٥٠٠٠
جارمو	أم الدباغية				٦٠٠٠

الجدول رقم ٥

التسلسل الزمني للمواقع في شمال بلاد الرافدين.

تنقيبات أثرية في الشمال

العربجية

لقد أجرى أبحاث مستوطنات ما قبل التاريخ في الدولة الآشورية علماء آثار بريطانيون وأمريكيون وفي وقت واحد في مطلع الثلاثينات. وكنقطة انطلاق يفضل ان نختار موقعاً صغيراً يسمى العربجية، يقع على بعد أربعة أميال إلى الشمال من نينوى، وقد قام بعملية التنقيب الأثري فيه م. ي. ل. مالووان (M.E.L. Mallowan) في عام ١٩٣٣[٥٢]. عثر مالوان هنا على قرية صغيرة ذات أكواخ فقيرة مبنية من اللبن الطيني، لكنه لاحظ ان الفخار في هذا الموقع يختلف نوعياً عن فخار عبيد الملون الذي وجد في بابل في وقت سابق. وهناك تنوع واسع في الألوان المستعملة فقد وجد الفخار البني والأحمر وحتى الفخار الأرجواني الذي كان أكثر شيوعاً من الأسود لكن الأشكال والتصاميم بقيت دون تغيير. وتم التأكد من ذلك عند اكتشاف المقبرة خارج القرية حيث كانت تحتوي على أكثر من أربعين قبراً وعثر فيها على أدوات وأوان فخارية كاملة، كان بعضها غير مكسور. في داخل المنازل عثر على الخرز المصنوع من الطين النضيج المنقوش بالاضافة إلى المسامير الفخارية المعقوفة والتي تشكل أحد مميزات المواقع العبيدية في الجنوب. وأخيراً فقد عثر مالوان على فأس نحاسي مصنوع ضمن قالب مفتوح مما يدل على ان النحاس رغم ندرته كان مستعملاً إلى جانب الأدوات الصوانية، وذلك أمر متوقع في بيئة تعود للعصر الحجري النحاسي.

ولقد تم العثور على بيوت متشابهة في السويات ما بين (١ - ٤) من الأبنية لكن مالوان اعتقد ان هذه الأبنية لا تمثل أكثر من خمسة أو ستة أجيال لأن القبور لم تكن متداخلة مما يدل على ان وضع القبور الأقدم كان معروفاً عندما حفر القبر ثانية لاعادة استعماله. وفي السوية الخامسة بدأت صفات الفخار تتغير، وفي القسم الباقي من حفريته ما بين السوية السادسة والعاشرة وجد نفسه يعالج حضارة مختلفة تماماً تتميز بفخار لامع وتام الصنعة، ومدهون بألوان متعددة. لقد عرف هذا الفخار باسم (تل

حلف) وكان قد عثر عليه للمرة الأولى المنقب الالماني بارون ماكس فون اوبنهايم (Baron Max Von Dppenheim) قبل الحرب العالمية الأولى في موقع يحمل ذلك الاسم في سورية، على الحدود السورية التركية. لكن فون اوبنهايم عثر عليه مصادفة وهو ينقب في قصر من العصر الحديدي لأمير آرامي في مدينة تسمى غوزانا (Guzana) حيث اندفعت أكوام من قطع الأواني الملونة عندما حفر أساس القصر، ولم يستطع ان يجد أي دليل على عصر هذه الأواني. ولقد عثر على هذه الأواني في العربجية ولأول مرة بشكل مرتبط بفن العمارة الذي عاصرها. وسوف نكون بحاجة لأن نقول الكثير عن فخار حلف الرائع الذي نفذت عليه رسوم متقنة بالدهان اللامع. ان أسلوبه المتميز لم يكن له فائدة كبيرة كمعيار تاريخي عندما عثر عليه بكميات كبيرة في شمال سورية وجنوب الأناضول. ومن الأهمية بمكان ان نشير إلى أن هذا النوع من الفخار لم يكن له نظير في جنوب بلاد الرافدين. وفي العربجية أيضاً كانت النماذج الأولى للأشياء الصغيرة التي عثر عليها وهي التماثيل الصغيرة الدينية والمصنوعة من الطين والاختام الاسطوانية ذات الأشكال البشرية والحيوانية والخرز والتعاويذ بأنواعها المختلفة والتي اعتبرت بمجموعها ممثلة لعصر حلف. ومع ذلك فان السمة التي تميز بها موقع العربجية هي الأبنية الدائرية التي عثر عليها في السويات العميقة والتي كانت معروفة لدى الأغريق باسم (Tholoi). لقد بنيت هذه البيوت من اللبن على أساسات من الحجارة وكان الدخول إليها يتم عبر غرفة مجاورة مستطيلة وبذلك تصبح كبيرة الشبه بالقبور المبنية على شكل خلية النحل والتي تعود لعصور أكثر حداثة في ميسينا (Mycenae).

تبه غاورا

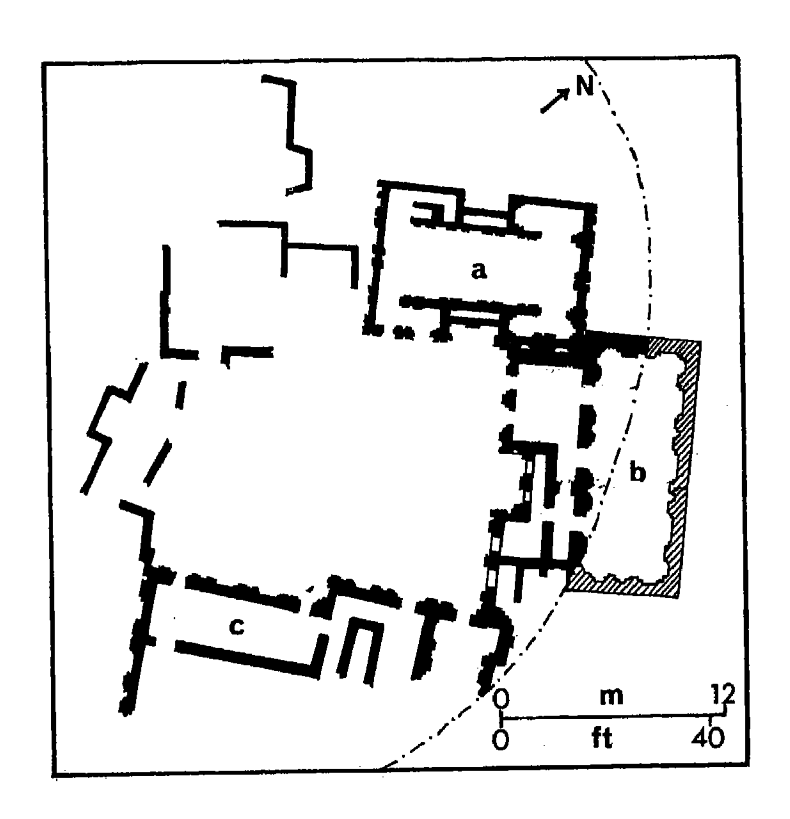
عندما كان مالوان يقوم بحفرياته الأثرية في العربجية بدأت بعثة أمريكية العمل في هضبة أكبر تسمى تبة غاورا وتقع على بعد بضعة أميال إلى الشمال الشرقي منها[٥٣]. وكما هي العادة في تلك الأيام، كان التمويل الأمريكي أكثر وفرة من التمويل البريطاني ولذلك استطاع المشرف على البعثة الأمريكية ي. ا. سبيسر (E.A. Speiser) ان يخطط لعملية شملت كامل قمة الهضبة في غاورا. وخلال السنوات التالية تغير

المنظر الجانبي للهضبة حيث انخفض ارتفاعها بشكل مفاجيء من (١٨) متراً إلى أقل من تسعة أمتار. لقد قلت عيوب المنطقة المحددة للسبور وبالتالي أصبح الكشف عن كامل المستوطنة أمراً ممكناً. وخلال السنوات الأولى من عمل البعثة الأمريكية كان سبيسر ومن معه مشغولين بتعزيل مستويات الاستيطان المعاصرة للمدن السومرية في الجنوب أو الموافقة لمرحلة بداية الكتابة في عصر ما قبل السلالات. وفي المراحل الأخيرة ثبت ان الموقع يمثل حضارة متميزة في سماتها مما أدى إلى الإشارة إليها باسم عصر غاورا في شمال العراق. لقد عثر على قبور غنية بالمجوهرات الذهبية ومعابد ذات تصاميم هندسية غريبة وغير مألوفة وتعاويذ منقوشة بشكل مثير كما عثر على أكثر من دليل على استعمال النحاس بشكل واسع النطاق. تلك كانت بعض مميزات المستويين (٨) و (٩) من غاورا التي ستفيدنا كدليل في الوقت الحاضر لأن غاورا تمثل موقعاً رئيسياً وهاماً في مجال علم طبقات الاستيطان في شمال بلاد الرافدين.

وعندما انتهت عمليات التنقيب في العربجية بدأ العاملون في غاورا يصادفون بأنفسهم الخزف المدهون الذي عثر مالوان على مثيله في مواقع عبيد الشمالية، وبذلك استطاعوا دراسة تطوره خلال مرحلة زمنية تتمثل بما لا يقل عن ثمانية مستويات من الاستيطان ما بين (١٢ - ١٩) وان يتعرفوا على أشياء كثيرة فيها. في السوية الثالثة عشرة من الاستيطان ظهر ان الحضارة قد وصلت إلى أقصى تطورها ففي هذا العصر شغلت قمة الهضبة ببناء ديني ضخم مؤلف من فناء مفتوح تحيط به ثلاثة معابر مبنية من اللبن الطيني المتقن. وهي تتفق في الكثير من الجوانب مع الأبنية الموجودة في مستويات عبيد من منطقة اريدو وقد تبين فيها بعد انها كانت معاصرة لها.

وضمن مستويات عبيد العميقة في غاورا وجدت آثار للفخار تتمتع بأشكال ونماذج زخرفية باقية من عصر تل حلف السابق. وعندما تم الوصول إلى السوية (٢٠) تبين ان مرحلة الانتقال بين الحضارتين قد تم تجاوزها حيث سيطر الفخار المتعدد الألوان وبدا ان كل اللقى أصبحت تمثل عصر حلف كما تم العثور على بناء دائري لم يتم التأكد بانه يمثل معبداً. وعند هذه المرحلة انتهى سبر غاورا ولم يتم العثور على أي دليل على وجود عمليات استيطان أقدم من ذلك.

ويبقى هنا ان نضيف ان نوعاً آخر من الفخار الملون بدا معاصراً أو سابقاً لصناعة فخار تل حلف. لقد تعرف ارنست هيرزفيلد (Ernest Herzfeld) في عام



الشكل رقم ٣٢: تبه غاورا. مخطط للحصن في السوية ١٣ (٣٦٠٠ قبل الميلاد) مع المعابد العبيدية التي تواجه الساحة المكشوفة. تذكر هذه المعابد العبيدية المبنية من جدران مهلهلة بمعابد (عبيد ٣) حيث لا يوجد أية تجهيزات طقسية.
q = المعبد الشمالي ـ b = المعبد الرئيس ـ c = المزار الشرقي ويدل الخط المنقط على أطراف التل. (عن توبلر، ١٩٥٠ ـ س. ابراهيم).

١٩١٤ على هذا النوع عندما كان ينقب في موقع مدينة سامراء التي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد في مكان على نهر دجلة في منتصف الطريق بين بغداد والموصل(٥٤).

عرف هذا النوع باسم فخار سامراء. وبين أساسات الأبنية الإسلامية وجد هيرزفيلد آثاراً لمقبرة أو مستوطنة من عصور ما قبل التاريخ استعمل فيها هذا الفخار الجميل وغير العادي. ولأنه لم يكن بمقدور هيرزفيلد في ذلك الوقت العثور على أية بقايا معمارية بقي عصر هذه المستوطنة سراً غامضاً. ولم يتم إلا قبل فترة قصيرة التأكد من ظهور هذا الفخار في العصر الذي يسبق فخار حلف القديم بوقت قصير.

كويونجيك Küyünjik

ان النتائج المجتمعة لعمليات التنقيب التي ذكرناها قد شكلت معلوماتنا الكاملة عن علم طبقات الاستقرار في شمال العراق حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وبقي علينا ان نناقش السبر العميق الذي أجراه مالوان تحت معبد عشتار الآشوري في تل كويونجيك في نينوى(٥٥) لقد كان لهذه العملية العديد من النتائج البالغة الأهمية. أولى هذه النتائج هي انه كان لمالوان فرصة اكتشاف رأس برونزي بالحجم الطبيعي لأحد الملوك الأكاديين ويعتبر هذا الرأس أحد أهم الأعمال الفنية الكاملة في بلاد الرافدين. وثاني هذه النتائج هي عثوره على دليل وثائقي يثبت ان مدينة نينوى كانت في العصور السومرية مدينة ذات معابد. والأمر الثالث هو انه استطاع ان يؤكد سلسلة عصور ما قبل التاريخ المعروفة وان يثبت وجود حضارة أقدم من حضارة حلف. وفوق التربة العذراء مباشرة وعلى عمق (٢٧) متراً تحت قمة التل عثر على نوع غير معروف من الفخار له نقوش مخدوشة تم تصنيفها تحت اسم نينوى ا. ولمدة عشرة سنوات بعد ان غادر مالوان العراق إلى سوريا لمتابعة نشاطه العلمي بقيت أجزاء من هذه الأواني في المتحف العراقي لتمثل أقدم شكل من الفخار حتى ذلك التاريخ في بلاد الرافدين.

حسونه

التطور التالي حدث في عام ١٩٤٣ عندما حدد مفتشو ادارة الآثار العراقية موقعاً متمثلاً برابية صغيرة تدعى تل حسونه ويقع على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من الموصل، وكان سطح هذا الموقع مغطى بفخار نينوى ا. لقد أدت عملية التنقيب في حسونه إلى تجديد النشاط المشترك في تل العقير بين الكاتب وفؤاد صفر هذا النشاط

الذي فاقت نتائجه كل التوقعات[٥٦]. فقد أضيف فصل جديد إلى تاريخ مستوطنات العصر الحجري النحاسي في شمال العراق ابتدأ مع قدوم شعب كان مايزال بدوي الطراز وقد بنيت فوق مواقع خيامه بيوت تمثل مجتمع القرية الزراعية الصغيرة. شملت عملية التنقيب مساحة عشرين متراً مربعاً وأتاحت متابعة تطور هذه القرية عبر ست مستويات من الأبنية المتعاقبة وربط مرحلة الاستيطان الأخيرة مع وصول السكان الجدد لهذا الموقع واستعمالهم لشكل مبكر من فخار تل حلف الملون.

وإذا بدأنا العد من الأسفل إلى الأعلى فان المستويات من (٣) حتى (٥) تمثل ما يمكن اعتباره حضارة حسونة النموذجية. لقد كان الفخار غير مصقول وكان بعضه مزوداً بنقوش محفورة بالدبابيس كما وكان بعضه ملوناً بينما جمع البعض الآخر بين الأشكال والزخارف المتنوعة. وفي السويات الثلاث إلى الأسفل وهي (II و Ic و Ib) ظهر فخار يسمى بالفخار القديم وكان مصقولاً أو ملوناً بلون لامع. وخلال المراحل الفرعية الستة. بقيت ملامح القرية منسجمة تماماً فقد كانت البيوت المبنية من اللبن الغضاري مجمعة حول باحات المزارع. وكانت هناك أسباب للاعتقاد بأن هذه البيوت كانت ذات سقوف محدبة من الخشب والقش كما هي الحال في بيوت القرى في المنطقة في العصر الحاضر. وقد توفرت الدلائل على وجود الزراعة البدائية فالمناجل ذات الأسنان الصوانية المركبة ضمن القار والمقابض الخشبية تدل على أن هؤلاء الناس كانوا يحصدون الحبوب البرية. كما وكانت هنالك مخازن للحبوب متقنة الصنع ومحمية بواسطة الجبس والقار مما يثبت قيامهم بحفظ بذور الحبوب من أجل اعادة زراعتها في موسم قادم. كما وتدل الصواني البيضوية الغريبة المصنوعة من الغضار المشوي على عملية غربلة الحبوب. وفي وقت كانت فيه عظام الحيوانات الأليفة وفيرة دلت الرماح ورؤوس السهام المصنوعة من الاوبسيديان على استمرار ممارسة عملية الصيد. وقد تم توضيح بعض العقائد الدينية من خلال تمثال مكسور لالهة وهو تمثال أصبح نموذجه الآن معروفاً تماماً. وفي السويات (Ib) و (Ic) كان معظم الفخار المصقول البسيط من نموذج يرتبط في أماكن أخرى بالمراحل الأخيرة من العصر الحجري الحديث. وأخيراً وفي السوية (Ia) وفوق أتربة العذراء مباشرة كان هناك تغير كامل، فالملاجىء ان وجدت فهي مبنية من مواد سهلة التلف لان كل ما وجدناه كان عدة مواقد منزلية متفرقة ومبعثرة ووجدت حول كل منها مجموعة من الأدوات الصناعية البسيطة

والبدائية . كما كان هناك فخار مصنوع بطريقة بسيطة وجرار طويلة الجانبين استعملت من أجل الحليب، بالاضافة إلى أدوات بسيطة أيضاً كالمجارف والفؤوس المصنوعة من الصخر الصواني غير النقي . وفي حالة واحدة عثر على هيكل عظمي جاثم بجانب رماد أحد المواقد . وهنا كما يبدو لنا تظهر رموز لمرحلة الانتقال من حياة الرعي البدوية وحياة الصيادين إلى اقتصاد المجتمع الزراعي الذي يتصف بالاستقرار.

مواقع حسونه الأخرى

. خلال السنوات الأخيرة جرت محاولتان لتوسيع معلوماتنا عن حضارة حسونة ولتتبع الحضارات التي سبقتها مباشرة إذا كان ذلك ممكناً. تمثلت إحدى هاتين المحاولتين في عمل البعثة السوفييتية في موقع (ياريم تبه) إلى الجنوب الغربي من تل عفار في منطقة سنجار وإلى الشمال الغربي من الموصل[٥٧]. لقد تمت هنا عملية تنقيب أثرية لعدة تلال منذ عام ١٩٦٩ ، وكانت هناك عناية نموذجية فائقة في طريقة العمل كما وتم تسجيل النتائج بدقة متناهية .

قدم هذا العمل فائدة كبيرة في توسيع ودعم نتائج حفرياتنا الأثرية في حسونه، فلقد تم فحص الكثير من المنازل الصغيرة التي تشكل في مجموعها أكثر من مئة غرفة موزعة على ثلاث عشرة سوية متعاقبة من سويات الاستيطان . وغطت كل السلسلة من التطورات التي عرفناها بأنفسنا في نفس الموقع بالاضافة إلى بعض الملامح التي افتقدناها فقد تلقت اضافات مفيدة . تضمنت الاكتشافات عقوداً من الرصاص ومجموعة جديدة من التماثيل البشرية ونماذج أصلية من الاختام الاسطوانية التي أصبحت مألوفة في عصور لاحقة . كما وان الاسبار التي أجريت في مواقع أخرى من نفس المنطقة كأسبار تل السورطو والمغزلية قدمت مواد من بداية عصر حسونة ما قبل الفخاري .

وفي أثناء ذلك، في مطلع السبعينات قامت مجموعة من المنقبين الأثريين البريطانيين باشراف ديانا كيركبرايد (Diana Kirkbride) بعملية بحث ثانية ولنفس الغرض في سهوب الجزيرة إلى الغرب من الحتراء (Hatra). في تلك المنطقة التي جففت تماماً الآن عثر على ٨٧ موقعاً، ظهرت في أكثر من (٤٠) موقعاً منها علامات تدل على الاستيطان في عصر حسونه ـ سامراء . وقد اختير أحد هذه المواقع للقيام بعملية تنقيب

باتجاه الأسفل حتى الوصول إلى التربة البكر وكانت مفاجأة كبيرة تنتظر المنقبين في المستويات العميقة[٥٨]. عثر المنقبون هنا على نظائر وفيرة لأقدم مراحل الاستيطان في حسونه في السوية (Ia). وعلى عكس مواقع الخيام البدوية التي دلت على الوصول إلى الموقع للمرة الأولى فقد ظهرت أبنية قوية من النوع الذي شوهد من قبل في ياريم تبه (السوية I)، وكانت مصممة لأغراض مختلفة عن أغراض السكن فقد كانت صفوف من الغرف المستطيلة الصغيرة بشكل لا يسمح بالسكن فيها، مجمعة بشكل متشابك كما لو انها غرف لخزن بضائع تجارية. ان وجود عظام الحيوانات بوفرة في الأماكن المجاورة والتي شكلت عظام حمار الوحش نسبة ٦٨٪ و١٦٪ منها على التوالي قاد المنقبين إلى الاعتقاد بوجود نوع من تجارة الجلود ولاسيما جلود حمار الوحش الذي استمر وجوده في هذه المنطقة حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ولقد تم اثبات هذه النظرية في المرحلة الأخيرة من عملية التنقيب حين عثر على جدران المنازل السكنية في المستويات العميقة على لوحات جدارية تمثل هذا الحيوان في حالة فرار نحو خط من شباك الصيد مشدود بأوتاد إلى الأرض[٥٩].



الشكل رقم ٣٣: رسم يمثل حمار الوحش ـ رسم جداري بدائي من مستوطنة من عصر ما قبل حسونه في أم الدباغية في الجزيرة (٥٧٠٠ قبل الميلاد) كان السكان يصطادون هذه الحيوانات من أجل جلودها. (عن كيركبرايد، ١٩٧٥).

لقد اقترحت ديانا كيركبرايد بداية الألف السادس قبل الميلاد كتاريخ لأم الدباغية وهي بذلك تعاصر أعمق مستويات الاستيطان في حسونة أي المرحلة التي أطلقنا عليها اسم العصر الحجري الحديث الفخاري في أماكن أخرى. لم تستطع

كيركبرايد التأكد من وجود أية علاقات بين الصيادين وتجار الجلود وسكان التلال في جارمو في الشمال الشرقي، على الرغم من عدم وجود أي فاصل زمني كبير بين الطرفين.

سامراء وتل الصوان

خلال السنوات التي أعقبت اللقى التي عثر عليها في حسونه فان مسألة ثانوية شغلت علماء ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين وهي تتعلق بمنزلة فخار سامراء المدهون، الذي ظهر جنباً إلى جنب مع فخار حسونة المتطور، والذي بدا كانتاج غريب، وربما كان مستورداً من مكان آخر. ففي «المطرَّه» إلى الجنوب من كركوك حيث قام بريد وود (Braid Wood) بعملية تنقيب بعد الاعلان عن حسونة، بدا ان هذا النوع من الفخار هو الغالب، لذلك استنتج بريد وود انه يتعامل مع حضارة سامراء الأساسية[٦٠]. لقد ظهرت بعض الدلائل على هذه الحضارة، لكن الاكتشاف الأخير لموقع فعلي قد تم في عام ١٩٦٤ فقد اكتشف العالم العراقي «بهنام أبو الصوف» موقعاً أثرياً جديداً وغزير الانتاج إلى جوار سامراء مباشرة[٦١]. انها المستوطنة المعروفة اليوم باسم «تل الصوان» حيث تم التنقيب فيها عن خمسة مستويات للاستيطان ارتبطت جميعها باستثناء أقدمها بوجود الفخار الذي وجده هيرزفيلد أصلاً وكان من النوع المدهون الملون. لقد احتوى موقع تل الصوان على الكثير من المفاجآت مثله مثل موقع كيركبرايد في الجزيرة فبالاضافة إلى البيوت السكنية المبنية من القرميد الطيني المجفف بالشمس كانت هناك أبنية على شكل الحرف (T) مكونة من غرف كثيرة اعتبرها المنقبون مستودعات.

وخلال عملية الاستيطان الثالثة أحيطت كل المنطقة السكنية بسور خارجي مزود بحصون ومحصن أيضاً بخندق عميق وكبير. وتضمنت الاكتشافات الأخرى في تل الصوان أكثر من ١٠٠ قبر كان معظمها تحت أرضيات المنازل. ولقد تم الحصول على مواد هامة من هذه القبور مثل الأواني الرخامية ومجموعة من التماثيل البشرية الصغيرة المصنوعة من الرخام أيضاً وهي مختلفة تماماً عن التماثيل المصنوعة من الغضار المشوي التي وجدت في مواقع تابعة للعصر الحجري النحاسي[٦٢]. ان وجود الحبوب الغذائية وبقايا الخضار في منطقة أخرى بالاضافة إلى عظام الحيوانات والأسماك جعل

بمقدورنا ان نتصور الحياة في المستوطنة على انها قائمة على اقتصاد مختلط مبني على الزراعة بالاضافة إلى طريقة بدائية في الري مع الصيد والرعي.

لقد أعطى هذا الموقع صورة عن حضارة سامراء المحيِّرة والمتمركزة على نهر دجلة في الطرف الشمالي للسهل الطموي. ان الحفريات الأثرية في مواقع مرتبطة بالموقع السابق قد حددت الامتداد الجغرافي لسامراء بحدود إيران في الشرق متمثلة «بشوغا مامي» قرب المندلي، وبموقع «تل الباغوز» قرب البو كمال في الغرب[٦٣]. ان حقيقة عدم وجود أية قطعة فخارية من حسونه في تل الصوان تؤكد التفاوت بين الحضارتين.

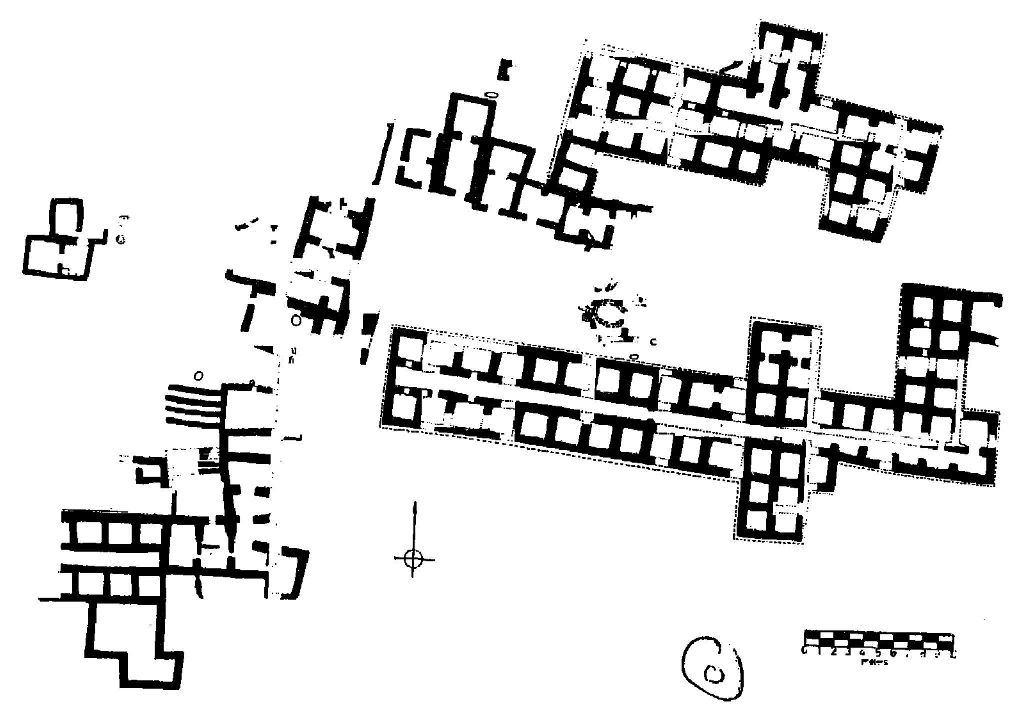
فن العمارة

عصر ما قبل حلف

في المواقع التي تمثل أقدم القرى في شمال العراق كانت جدران المنازل مبنية من اللبن الطيني ومطلية بالجص، وفي حالات نادرة كان الجبس يفضل لطلي واجهات الجدران والأرصفة ولاسيما في «أم الدباغية». أما القرميد المجفف بأشعة الشمس ضمن قوالب من الخشب فانه لم يظهر حتى نهاية عصر حسونة. كما وظهرت الأساسات الحجرية في جارمو والمغزلية حيث وفر النهر هذه المادة. كانت الأرصفة في جارمو مصنوعة من الطين الأملس الذي وضعت فيه طبقة من القصب أما البيوت السكنية المتعددة الغرف فقد خططت على أساس مستقيم. وقد لوحظ في أم الدباغية ان كل منزل يتكون من غرفة رئيسية لا تزيد أبعادها عن (٢ × ٥ , ١) متراً بالاضافة إلى غرف أصغر حجماً، ويتم الدخول إلى المنزل عبر مدخل يمر من تحت قنطرة لا يصل ارتفاعها إلى متر واحد. والأمر الغريب هنا هو وجود مواقد ذات مداخن لها أغطية، وترتبط هذه المداخن عبر الجدران بأفران لصناعة الخبز. ولقد تم العثور على ابتكار وحيد من هذا النوع في جارمو. كما وان وجود الدرج وثقوب خاصة بأصابع القدمين في الجدران رجحت ان الدخول إلى الغرف كان يتم أيضاً عبر فتحة في السقف.

كان حجم وعدد الغرف السكنية للمنزل في «ياريم تبه» أكبر بكثير حيث وصلت أبعاد أحد المنازل إلى (١٤ × ٦) متراً. وبنيت البيوت على شكل مجموعات متلاصقة في أم الدباغية مشكلة أزقة ضيقة أو تواجه ساحات مكشوفة كما هي الحال

في حسونة. وبالاضافة إلى أفران صناعة الخبز كان الكثير من المنازل مزوداً بصناديق مستديرة لخزن الحبوب حيث يحفظ قسم من الصندوق في الأرض ويطلى بمادة الجبس أو القار.



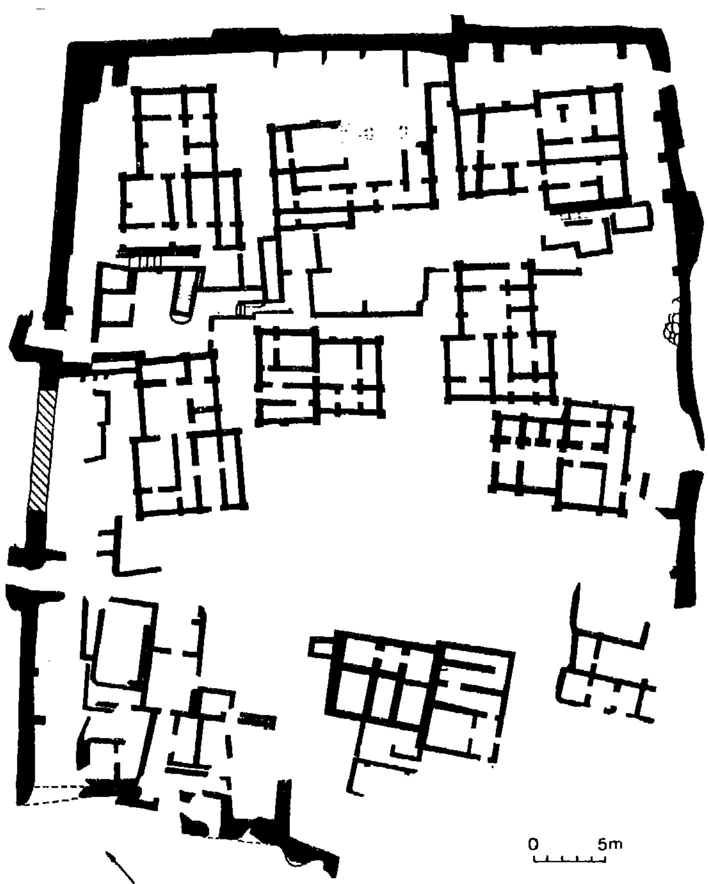
الشكل رقم ٣٤: مخطط مستوطنة أم الدباغية في السوية الرابعة وفيها مخازن يعتقد انها لتجفيف جلود حمير الوحش. (عن كيركبرايد، ١٩٧٥).

وفي قرية أم الدباغية كانت مجموعتان كبيرتان من غرف الخزن ترتبطان بالاحياء السكنية وقد أشرنا سابقاً إلى علاقة هذه الغرف بتجارة الجلود. فبنيت الجدران من الغضار المعالج جيداً وبسماكة (٥٠) سم أما الغرف الصغيرة التي تم التنقيب عن أكثر من سبعين واحدة منها فكانت أبعادها (١,٧٥ × ١,٥٠) سم وسطياً ولم يكن لها أية ممرات للاتصال فيما بينها.

عصر سامراء

يمثل فن العمارة في هذا العصر موقعان على تخوم السهول الجنوبية لبلاد

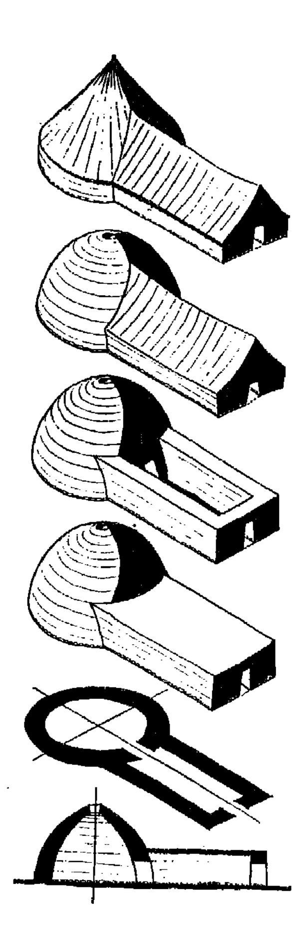
الرافدين هما «شوغا مامي» على الحدود الايرانية و«تل الصوان» على نهر دجلة . يشكل موقع شوغا مامي قرية كبيرة عامرة تبلغ أبعادها (٣٥٠ × ١٥٠) متراً ويبدو انها كانت تتبع نظاماً بدائياً في ري الأرض . وتتألف بيوتها من عدد يصل إلى اثنتي عشرة غرفة ذات جدران مبنية من اللبن الطيني المدهون بالغضار. أما في موقع تل الصوان الأكثر تطوراً فقد تقدمت أساليب البناء حيث استعمل القرميد الموشوري أو ما يسمى (اللبن العربي) الذي كانت أبعاده (٨٠ × ٣٠ × ٨) سم . أما الأبنية التي تأخذ شكل الحرف (T) في هذا الموقع والتي كان يصل عدد غرفها إلى (١٤) غرفة فلم يتم حتى الآن فهم طبيعتها بشكل كامل. تبين الممرات الموجودة بين الغرف انها كانت للسكن كما وان بعض محتوياتها يوحي بانها كانت للاستعمال المنزلي ومع ذلك فقد اعتبرت غرفاً للخزن في بادىء الأمر.



الشكل رقم ٣٥ : تل الصوان ـ نموذج لمستوطنة من عصر سامراء السوية الثالثة (٥٣٥٠) قبل الميلاد مع أبنية منظمة بشكل واضح ضمن سور المستوطنة . (عن أبو الصوف، ١٩٦٨).

عصر حلف

في مستويات حلف للبناء في موقع العربجية ظهر ابتكار معماري جديد حيث اتخذت الأبنية شكلاً دائرياً سماها المنقبون باسم (Tholoi). لقد عثر على ما يقارب العشرة من هذه المنازل في مستويات نختلفة من الهضبة وأجزاء أخرى من الموقع على الرغم من انه لم يظهران أكثر من اثنين منها قد بنيا في وقشت واحد. أقدم هذه المنازل الدائرية كانت بطول (٤) أمتار بينها وصلت أقطار المنازل الأحدث إلى (٦) أمتار



الشكل رقم ٣٦: تشكيلات لمساكن (الثولوا) Tholoi في العربجية وهي أبنية مستديرة يتم الدخول إليها بواسطة مداخل مسقوفة مستطيلة ـ عصر تل حلف ٤٨٠٠ قبل الميلاد. قد تكون هذه الأبنية، وقد لا تكون، أبنية دينية. (عن مالوان وروز، ١٩٣٥).

وبلغت سماكة الجدار (١,٦٥) متراً. وكان الدخول إلى البيوت يتم عبر غرفة جانبية مستطيلة وفي إحدى الحالات كانت لهذه البيوت غرفة ملحقة بها بشكل عرضي. وبصورة عامة فلم يبق من هذه الأبنية سوى الاساسات الحجرية لكن إحدى هذه الأبنية وفرت دليلاً على وجود بنية فوقية من اللبن كانت على الأغلب قبة صغيرة. ونتيجة لعدد القبور والتماثيل الدينية الصغيرة التي وجدت إلى جوار هذه الأبنية مباشرة كان «مالوان» ميالاً إلى اضفاء الطابع الديني عليها. لكن التنقيبات الأثرية الحديثة في سنجار وسوريا وإيران أشارت إلى انه في معظم مواقع تل حلف، خلافاً لموقع العربجية، كانت هذه الأبنية الدائرية منازل سكنية[٦٤]. وضمن حدود العراق ظهرت أشباه معاصرة لبيوت العربجية الدائرية في السوية (٢٠) من تبه غاورا وهناك أمثلة أكثر قدماً في ياريم تبه.

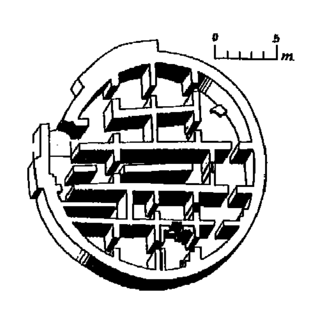
عصر عبيد

تظهر في السوية (١٩)، إذا كان العد باتجاه الأسفل، أقدم الأبنية في شمال العراق التي يمكن اعتبارها معابد دينية في موقع تبه غاورا وتتوافق زمنياً مع بداية عصر عبيد في هذا الموقع. يتميز البناء بخطوط مستقيمة وجدران من اللبن الطيني المهلهل. ولقد اعيد تشييد هذا البناء في السوية (١٨) بشكل أكبر حجماً وكان مؤلفاً مما لا يقل عن عشرين غرفة مرتبة حول حرم (مقدس) مركزي، وكان للحرم جدار منخفض في الوسط ولم يكن به مذبح. كما وظهرت الأبنية المستديرة مرة ثانية في السوية (١٧) ولم يكن هناك أي دليل على ممارسة العقائد الدينية ولم يعثر على المعابد حتى السوية (١٣) عندما تم تنظيف التل لتحديد موقع ثلاثة أبنية دينية ذات مخططات واضحة. بنيت هذه المعابد حول ساحة مكشوفة بطول ٢٠ متراً ولها ثلاث واجهات مزخرفة بمجموعة معقدة من التجاويف المتنوعة وملونة بألوان مختلفة. ثم تمت استعادة كل مخطط المعبد المسمى بالهيكل الشمالي الذي يتألف من هيكل مستطيل يمتد على طول البناء وله غرفتان جانبيتان مفصولتان لم يعرف الغرض منها. وكما هي العادة في البيئة التي سبقت عصر الكتابة ليس هناك أي دليل لربط البناء بعقيدة دينية محددة. لقد كانت الجدران المبنية من اللبن الطيني رقيقة جداً إلا انها كانت مدعمة بدعامات قوية على مسافات منتظمة كما ويفترض ان اعمدة السقف كانت مثبتة على هذه الدعامات. هذا النظام

في البناء هو نفس النوع الذي سبق ان عرفناه في الهياكل ما بين المستويين (٩ ـ ١١) في اريدو الواقعة في الجنوب رغم ان تلك المرحلة سبقت زمنياً «اكروبول» غاورا . وفي الجنوب يبدو ان غاورا في السوية (١٣) تمثل القمة في عصر عبيد أما في السوية (١٢) فقد ظهرت دلائل على اندلاع حريق هائل دمر المستوطنة بكاملها .

عصر غاورا

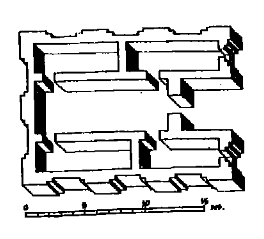
لقد تم الحصول على الكثير من المعلومات عن التطورات في شمال العراق خلال الحقبة التي سميت في الجنوب باسم عصر اوروك وذلك من خلال سلسلة مؤلفة من أربعة مستويات استيطان في غاورا متمثلة في المستويات ما بين (٨ و١١) . ويمكن هنا



الشكل رقم ٣٧: البيت المستدير في السوية (١١)، تبه غاورا، وهو بناء لم تعرف الغاية منه يتزامن تاريخياً مع عصر بداية الكتابة في جنوب بلاد الرافدين . (م . ي . ويفر، عن توبلر ١٩٥٠).

ان نشهد عملية التحول الحضاري التي أعقبت نهاية عصر عبيد بشكل واضح في البقايا المعمارية من ذلك العصر بالاضافة إلى الفخار والأدوات المعدنية التي توفرت بشكل متزايد . والمثير للدهشة هنا هو البناء المستدير الرائع الذي ظهر في السوية (١١) والذي عرف باسم «البيت المستدير» . يتميز هذا البناء بجدرانه التي تبلغ سماكتها المتر كما يبلغ قطر البناء (١٨) متراً ويبدو انه يشمل ما لا يقل عن (١٧) غرفة . ليس لتصميم هذا البناء أية أهمية طقسية وليس هناك أي مبرر لاعطائه أي غرض ديني . وفي هذا المجال يذكرنا «دافيد وجون أوتيس» ان : «الأبنية الدائرية قد وجدت في مستوطنات قديمة جداً في الشرق اعتباراً من العصر النطوفي فصاعداً ، وكانت تمثل بالاضافة إلى الأبنية المستطيلة واحداً من نوعين بسيطين للأبنية الدائمة المتطورة من تقاليد مختلفة في بناء المنازل المؤقتة للسكان المتنقلين» .

الشكل رقم ٣٨: رسم انشائي لمعبد في تبه غاورا في السوية (٨) وقد وجدت عدة معابد مبنية على نفس المخطط الذي يميز الموقع في هذا العصر. وهو نموذج يمكن مقارنته مع أبنية الميكارون (Megaron) في عصور ما قبل الاغريق. (ب. ب. برات، عن سبيسر، ١٩٣٥).

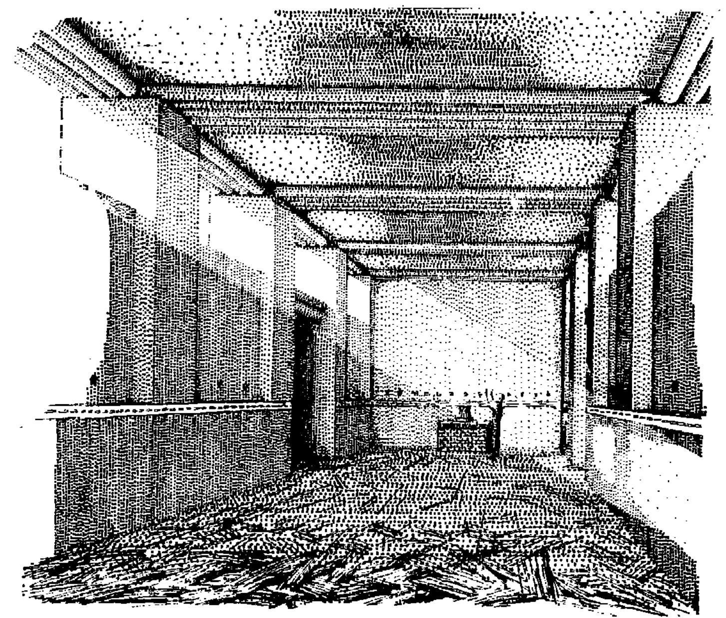


وبناء على ذلك فانه يبدو أن هناك سبباً ضعيفاً جداً لاعطاء البيت المستدير في السوية (١١) في غاورا وظيفة غير دنيوية. وفي الواقع فقد ظهر انه خلال نفس مرحلة الاستيطان هذه وجدت «هياكل» فعلية مصممة بطريقة كافية لتدوم طوال المرحلة الباقية من عصر اوروك. هذه الأبنية الغريبة التي مانزال نرى نماذج مشابهة لها حتى الآن في غاورا فقط أثارت الكثير من الاهتمام[٦٥]. تتكون الأبنية من حرم مستطيل ويتم الوصول إليه عبر رواق مفتوح وله غرفتان ملحقتان على الجانبين. أحد الأمثلة في السوية (٨) يتميز بوجود مذبح وطاولة للاعطيات في أحد أطراف (المقدِس). بينما كان لنموذج آخر واجهات مزخرفة من كل جهاته بألواح عمودية. ومن الجدير بالملاحظة ان أكثر من بناء من هذا النوع قد عثر عليه في نفس السوية وان المدافن كانت متركزة حول هذه الأبنية.

تل براك

في هذه المنطقة الشمالية من بلاد الرافدين عثر مالوان عام ١٩٣٨ على بناء وحيد آخر لمعبد من عصر اوروك. وتل براك هو مرتفع قرب نهر الخابور خلف الحدود السورية الحالية[٦٦]. ويختلف هذا البناء الضخم، الذي يبلغ بعداه ٣٠ × ٢٥ متراً، اختلافاً تاماً عن المعابد في تبه غاورا التي سبق ان قدمنا وصفاً عنها، لكنه يشبه إلى حد بعيد معابد اوروك في الجنوب. يمتد المقدس المركزي من طرف البناء إلى الطرف الآخر وله أجنحة صغيرة على أحد الأطراف لا تختلف عن الأجنحة التي ذكرناها في السوية الرابعة من اوروك. وتقابل صف الغرف الجانبية في أحد الجانبين مجموعة معقدة من الغرف في الجانب الآخر، وجميع هذه الغرف محاطة بسور مبني من القرميد الطيني المتين المبني على أساس حجري. زخارف هذا المعبد المؤلفة من مخاريط ملونة

مصنـوعـة من الغضـار ومطعمة برسوم من الحجارة تشكل نموذجاً مشابهاً للمعابد الجنوبية. لكن زخارف الحرم نفسه هى أكثر الزخارف روعة فقد كانت جدرانه مزينة بالورديات الملونة وبلوحات مطعمة بالنحاس والجص. وكان المذبح الموجود في أحد الطرفين محاطاً من الأعلى والأسفل بصفائح من الذهب ضمن حزم من الحجارة الملونة المعلقة بمسامير ذات رؤوس ذهبية.



الشكل رقم ٣٩: رسم انشائي لأحد الفنانين لغرفة مزار رئيسية في معبد العيون في تل براك ـ عصر جمدة نصر. ولقد زخرف المذبح وواجهات الجدران بالموزاييك وطعوم من الذهب. أما أرضية الغرفة فقد نثرت عليها آلاف من قطع الخرز والتمائم. (ب. ب. برات).

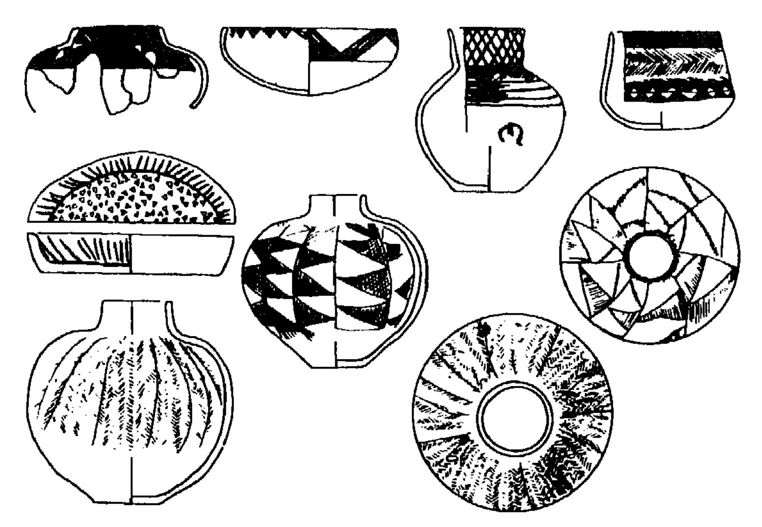
انشيء المعبد فوق بقايا بنائين متشابهين ولقد سماه المنقبون الأثريون باسم (معبد العيون) «Eye Temple» وذلك لظهور رسم متكرر للعين في أمكنة مختلفة من التزيينات وعلى شكل صور نذرية مصنوعة من المرمر وهي موجودة في منصة المعبد ضمن مجموعات من الخرز والتمائم والاختام الاسطوانية. ولأن هذه الأشياء بقيت منذ عصر المعبد الموغل في القدم فقد نسب مالوان معبد العيون إلى المرحلة الأخيرة من عصر جمدة نصر في اوروك. أما فيما يتعلق بأهمية رمز «العين» فلم يستطع المنقبون التوصل إلى نتيجة محددة.

الفخار

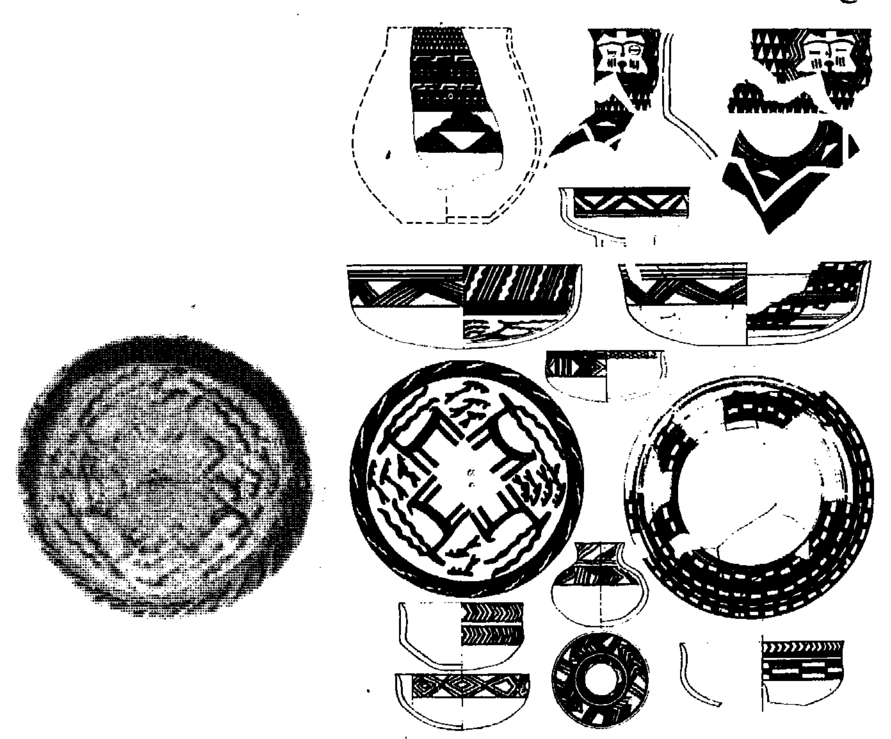
ما قبل حلف

ان عملية الـربط بين اللقى الأثرية التي وجدت من عدد كبير من عمليات التنقيب الأثري الهامة في شمال العراق وعملية تحليل التفاعل في المتغيرات الحضارية التي تضمنتها قد امتدت لفترة تقارب نصف قرن من الزمن. ولقد تضمن هذا العمل عملية طويلة من التسجيل الدقيق بينما كانت عملية التأمل والاستنتاج المنطقي تنتقل من مرحلة إلى أخرى. وضمن هذا الاطار كان لدراسة الفخار واللقى الأثرية الصغيرة أهمية كبـيرة في بلاد الرافدين الشمالية حيث توفرت أشكال كثيرة من الأدلة وكانت تأثيرات الحضارات الغربية أقل وضوحاً. ونتيجة لذلك، وفي مجال الفخار، كان مجال الدراسة على درجة عالية من التعقيد وكان على العالم أو الدارس الدخول في متاهة الشروحات التقنية والرسوم التشكيلية. وضمن السياق الحالي فان عملية شرح مبسطة لتطبيقات الفخار وبعض الروائع الفنية الأخرى قد تكون كافية لتكوين فكرة عن الدلائل المتنوعة التي ساهمت في إيجاد فهم منظم للتطور في عصور ما قبل التاريخ.

في المواقع القديمة التي ناقشناها حتى الآن ضمن هذا الفصل كان اهتمامنا متركزاً على مرحلة الانتقال من حضارات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري إلى العصر الحجري الحديث النحاسي. ولقد اتفق ان هذه المرحلة قد تزامنت مع الاستعمال الأول للزخارف الملونة على الفخار. ويجب ان نعزو المبادرة في هذا المجال إلى الشعوب الأولى التي استقرت في مناطق الجزيرة وسنجار. وفي أم الدباغية كانت النماذج الملونة بدائية ولم تحتوي على أكثر من بقع وخطوط وشارات بالاضافة إلى أشكال غير متقنة لرجال وحيوانات منحوتة من مواد لدنة. وفي حسونه حل الفخار القديم المدهون في السويات بين (Ib - III) مكان الفخار المصقول المعالج بالقش في السوية (Ia) وكـان يتميز بخـطوط متـوازية من الـدهـان الـلامع. أما السويات الباقية من مستوطنات ما قبل حلف فقد انتجت الفخار المسمى (حسونه النموذجي) الذي تميز بوجود خدوش الدبابيس أو الزخارف الملونة وقد استعملت معاً أو بشكل منفصل مع النـوع ذي الحـافة غير المدهونة الذي تمت بواسطته زخرفة عدد محدود من الأوعية والجـرار. وبدءاً من السوية (III) باتجاه الأعلى ظهرت هذه النماذج مع فخار سامراء المتميز بكونه بضاعة نفيسة مستوردة من مناطق أخرى أو مقلدة محلياً.



الشكل رقم ٤٠ : فخاريات مدهونة أو منقوشة خاصة بالمستويات بين (٣ ـ ٦) في حسونه. ولقد تم جمع قطع محطمة من هذا الفخار من أعمق المستويات في سبر مالوان في تل كوينجيك في نينوى على عمق (٣٠) متراً تحت سطح الأرض. (عن لويد).



الشكل رقم ٤١ و٤٢ : نماذج متنوعة من فخار سامراء الملون مأخوذة من حسونه ونلاحظ وجود جرار تشبه تلك التي وجدت في أعمق سويات طروادة بالاضافة إلى صورة فوتوغرافية لاناء عميق وعليه رسوم للتيس الجبلي. (عن لويد وصفر ١٩٤٥).

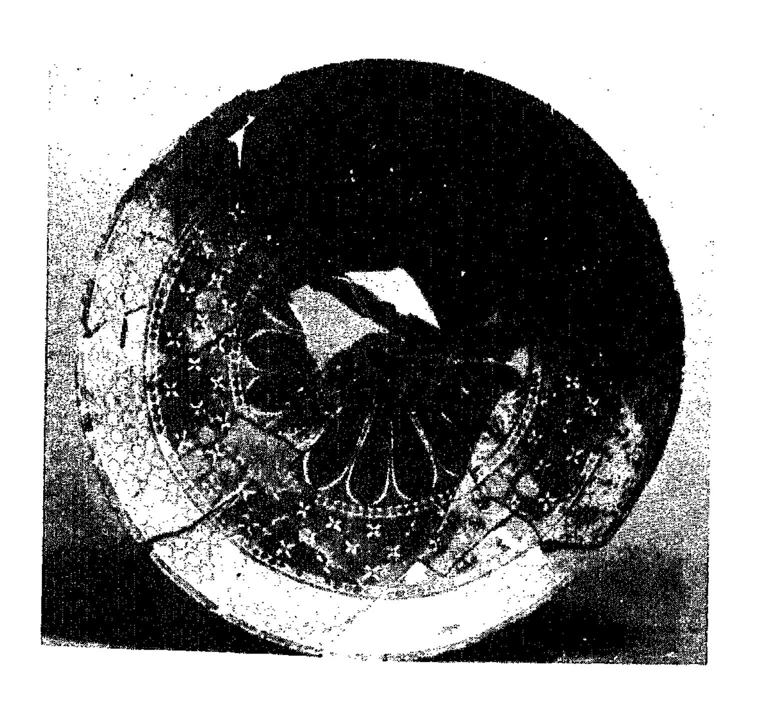
لقد درست مجموعة تصاميم سامراء دراسة شاملة في الباغوز وأماكن أخرى[٦٧]. وربما يكون الطبق المفتوح من أهم الأشكال في هذه المجموعة، وقد تميز الطبق بوجود زخارف داخلية مندفعة نحو المركز وملونة بالأسود أو البني المائل إلى الحمرة على خلفية من اللون الأصفر الشاحب (الكريم) بالاضافة إلى شارات متنوعة وأشكال هندسية تكون الخطوط الملونة فيها أكثر سعة من الفواصل فيما بينها. وفي حسونة ومواقع سامراء الرئيسة ظهرت جرار تشبه تلك التي عثر عليها في طروادة والتي تميزت بوجود أشكال مصنوعة بشكل نافر. ان المهارة والذوق الرفيع للخزافين السامرائيين يظهران بأوضح صورهما في المصنوعات القليلة الكفاءة والتي ظهرت كتقليد محلي لصناعات فخارية أخرى في مواقع تل حسونة.

تل حلف

في مصنوعات تل حلف الفخارية وصلت التصاميم الملونة إلى غاية في



الشكل رقم ٤٣: فخاريات ملونة بألوان متعددة من عصر تل حلف (٤٨٠٠ قبل الميلاد) ونلاحظ التطور الكبير في النماذج والموضوعات. لقد انتشرت الحضارة الحلفية شمالاً إلى الأناضول وغرباً إلى البحر المتوسط عبر سوريا. (عن مالوان).



الشكل رقم ٤٤ : طبق فخاري متعدد الألوان ـ العربجية ـ عصر تل حلف.

الدقة(٦٨). وفي الواقع فقد كانت الألوان المستعملة محددة بالأحمر أو المائل للحمرة أو البني المائل إلى الأرجواني بالاضافة إلى الأسود. ولكن عندما طبق اللون المشمشي تنوعت الألوان ولاسيما عند استخدام اللون الأبيض. وعندما ظهرت نماذج مبتكرة تعطي انطباعاً بالحركة لفخار سامراء وصف فخار حلف بأنه سكوني وجامد. لقد غطت هذه الأساليب الزخرفية سطوح الأواني أكثر من أي أسلوب آخر في الزخرفة حيث ظهرت نماذج الرسوم المستقيمة بالاضافة إلى تصاميم رقعة الشطرنج ذات التصاميم والتفاصيل المتناوبة والمساحات المزينة بالنقاط أو الشبيهة بحراشف السمك. ونستطيع تتبع تطور هذه التصاميم عبر مراحل متعاقبة كان أكثرها وضوحاً المرحلة الأخيرة. ويمكن تلخيص هذه العملية من خلال فكرة «رأس الثور»، ففي شكله الطبيعي الأول ظهر الرأس معزولاً ثم أصبح أكثر بساطة فيما بعد وظهر بشكل جانبي ثم انطبق في النهاية على أسلوب محدد مما جعل معناه الأصلي بعيداً عن الذهن. ومن الأشكال المتنوعة لفخار حلف وجدت أشكال نموذجية كان من أكثرها شيوعاً الطبق المفتوح المزخرف من الداخل بتزيينات محددة بالاضافة إلى لوحة مركزية. وهناك

أيضاً الأواني العميقة المسطحة القعر والأواني ذات الحواف المتموجة بالاضافة إلى الجرار القصيرة.

لقد كان انتشار فخار حلف أمراً مثيراً حقاً فقد وجد في مناطق بعيدة في الشمال حتى ديار بكر في الأناضول أما في الغرب فقد امتد من نهر الفرات عبر منطقة العمق حتى رأس الشمرة على شاطىء البحر المتوسط. ويبدو ان حدوده الجنوبية تتفق مع خط عرض مدينة بغداد. لم يكن لهذا الفخار أية علاقة بفخار إيران المعاصر وتطوره باستثناء كرمنشاه وينبغي اعتباره محلياً في بلاد الرافدين الشمالية.

عبيد الشمالي

ماتزال المراحل التي كوّنت حضارة عبيد لغزاً غامضاً، لكن على ما يبدو ان انجاز نمط حضاري ناضج ومتطور قد تزامن مع أقدم عملية توحيد تمت لبلاد الرافدين العليا والسفلى. وسواء نشأت هذه الحضارة في المنطقتين في آن واحد أو كما يبدو أكثر احتمالاً انها انتشرت من جنوب بلاد الرافدين نحو الشمال فان الخصائص التي عرفت من خلالها يمكن تمييزها بسهولة في غاورا أو العربجية وكذلك في اور واريدو. ان أقدم مستويات الاستيطان العبيدية في غاورا توحي بأن عملية الانتقال من حضارة إلى أخرى قد تمت بشكل تدريجي. لقد احتفظ الفخار في البداية ببعض خصائص عصر حلف أو انه ربما مزج هذه الخصائص في عملية ابتكار جديدة ومع ذلك فعندما وصلت الحضارة الجديدة إلى مرحلة النضج في السوية (١٣) في غاورا فان الفروقات بين فخار حلف الشمالي والجنوبي لم تكن أكثر من كونها ناتجة عن عدم التوازن في المواد الخام المتوفرة أو عن فهم متطور للعمليات التقنية كحرق الغضار أو معالجة الأصبغة والألوان. ولقد تم العثور على نموذج خاص من الأواني في كل من البيئتين وكان لهذا النوع شكل غريب مما يدعو إلى الافتراض انه يرمز إلى تقليد عام وقصير الأمد. وهذا النموذج الذي وصف بأنه مزدوج التحدب تميز بوجود فوهة واسعة على شكل الفم وصنبور بارز بشكل عمودي تقريباً على جسم الإناء. ان مضامين هذا الإناء المتعلقة بعلم دراسة الطبقات تكتسب أهمية كبيرة لانها تربط سويتي حضارة عبيد رقم (١٨ ـ ١٩) في غاورا بالمرحلتين الثالثة والرابعة لمرحلة ما بعد حجي محمد

في اريدو. ويمكن اعتبار هذا الأمر عملية موازنة بين مرحلة سامراء في الشمال ومراحل اريدو في الجنوب.

ما بعد عبيد

ولا بد من ان نبحث باختصار في الفخار في مرحلة ما بعد عبيد التي اعتبرت مطابقة لعصر اوروك في الجنوب. من أهم الخصائص البارزة لهذا الفخار غياب الزخارف الملونة وصناعة الأواني على دولاب سريع الدوران خلافاً للفخار اليدوي المصنوع في عصور أقدم. وفي السويات ما بين (٨ ـ ١١) في غاورا حل الفخار المصنوع من الغضار البني أو الأصفر الشاحب والمعالج بالقش محل الفخار الرمادي المائل إلى الخضرة الذي صنع في عصر عبيد. وكذلك يمكن العثور في غاورا على الفخار المصقول الوحيد اللون الذي كان شائعاً في الجنوب في ذلك العصر. كما انتشر الفخار الرمادي المصقول قليلاً في موقع يسمى كري ريش (Grai Resh) في منطقة سنجار إلى الغرب من نهر دجلة[٦٩]. وكما هي الحال في الجنوب فان أهم أشكال الفخار المتميزة في المواقع الشمالية في ذلك العصر هي الأواني العميقة المشطوفة الحافة، وهي أوان صغيرة مصنوعة بشكل غير متقن وقد انتجت بأعداد كبيرة وكانت سهلة الكسر. وحسب رأي الكتاب في العصر الحاضر فان هذه الأواني كانت تقدم مجاناً مع الطعام أو أنها كانت تستعمل لتقديم الاعطيات النذرية.

وكعلامة للتغير الحضاري الكبير الذي يمكن تتبعه في هذه المستويات من تبه غاورا فان الابتكارات في مجال الفخار كانت أقل وضوحاً من بروز الاهتمام المفاجىء بعلم صناعة المعادن. وكان المصدر الرئيسي للمعادن هو القبور التي عثر عليها المنقبون الأثريون والتي توفرت فيها كميات كبيرة من المصنوعات المعدنية.

القبور

عصر غاورا

وفيما يتعلق بالقبور فقد ذكرنا حتى الآن قبور تل الصوان التي تتميز بثروة من الأواني الرخامية والتماثيل الصغيرة، ومقبرة عبيد في العربجية التي كانت مصدر كمية

كبيرة من الفخار المدهون. وفي المواقع الشمالية الأخرى كانت المقابر البسيطة والمقابر ضمن الجرار الخاصة لحفظ رماد الموتى التي ترجع إلى عصور قديمة أقل أهمية من القبور التي عثر عليها في تل الصوان. أما في غاورا فان الزيادة الكبيرة والمفاجئة في عدد المدافن في الفترة الأخيرة من عصر عبيد في السوية رقم (١٢) تبدو وكأنها تستبق الممارسات المتطورة لعملية الدفن في عصر اوروك. وفيما بين المستويات (٨ و١١) نلاحظ وجود نوعين من المقابر.

لقد وجد ما لا يقل عن (٢٠٠) قبر بسيط، كان حوالي ٨٠٪ منها قبور أطفال دفنوا تحت أرضيات المنازل أو بجوار الأبنية الدينية. كما دفن بعض الكبار في مقبرة خارج حدود القرية، أما الأفراد البارزون في المجتمع فقد دفنوا ضمن قبور مبنية بعناية داخل الأبنية السكنية. بني أكثر من ثمانين من هذه القبور من الحجارة أو اللبن الطيني وسقفت بألواح الخشب أو صفائح حجرية. احتوى كل قبر على جسد ميت واحد في وضعية منكمشة وكان الميت يدفن بلباسه الكامل وكان يغطى أحياناً أو يلف بحصير من القصب.

بالاضافة إلى شكل وبنية هذه القبور تركز الاهتمام على الأنواع المتعددة من الحلي الشخصية التي كانت تحتويها فقد استعمل الخرز بشكل خاص لتزيين الجسم لذلك أمكن العثور على (٢٥٠٠٠) قطعة منه في قبر واحد. ومن المواد التي عثر عليها في القبور أحجار الفيروز والجاديت والعقيق والهيماتيت والرخام والحجر الكلسي والكوارتز والاوبسيديان واللازورد بالاضافة إلى الأصداف والعاج مما يدل على وجود التجارة مع أقطار بعيدة كأفغانستان. والمثير للدهشة وفرة الحلي الذهبية التي كانت على شكل خواتم وأزرار صغيرة ووردیات وحلي هلالية الشكل مأخوذة من صفائح معدنية ومعلقة على قماش الملابس أو أكاليل الرأس. كما وعثر على قطعة حلي صغيرة مصنوعة من خليطة من الذهب والفضة على شكل رأس ذئب وكانت مؤلفة من عناصر وأجزاء منفصلة ملحومة بمهارة فائقة.

تكمن أهمية القبور ما بين المستويين (١١ و١٣) في غاورا في انها تبيّن ان الموقع كان مأهولاً من شعب يتميز بمهاراته الواضحة وتطوره المتزايد. وفوق هذا وذاك فان تطور ممارسة صناعة المعادن هي الأمر الأكثر بروزاً. وفي مستويات عبيد السفلى كانت الأشياء المعدنية القليلة التي وجدت مصنوعة بطريقة الطرق أو السكب من النحاس

الخالص دون اضافة القصدير. وفي مستويات عصر ما قبل عبيد فانه يبدو ان المعادن بصورة عامة ومنها البرونز قد استعملت بشكل مفاجىء. لقد استطاع المنقبون في بقعة واحدة ان يسجلوا: «ان الأرض كانت كلها ملونة بالأخضر نتيجة النحاس التالف ومتلألئة كالذهب». وإذا كان الاعتقاد السائد هو ان مستوطنة غاورا كانت في ذلك العصر مجتمعاً زراعياً متواضعاً فان اكتشاف أحد المواقع الذي يتميز بمظاهر العاصمة لنفس الحضارة والذي يمكن مقارنته مع انجازات معاصرة لشعوب عصر بداية الكتابة، يعطينا الكثير من المعلومات عن التسلسل الزمني والعلاقات بين هذه الشعوب.



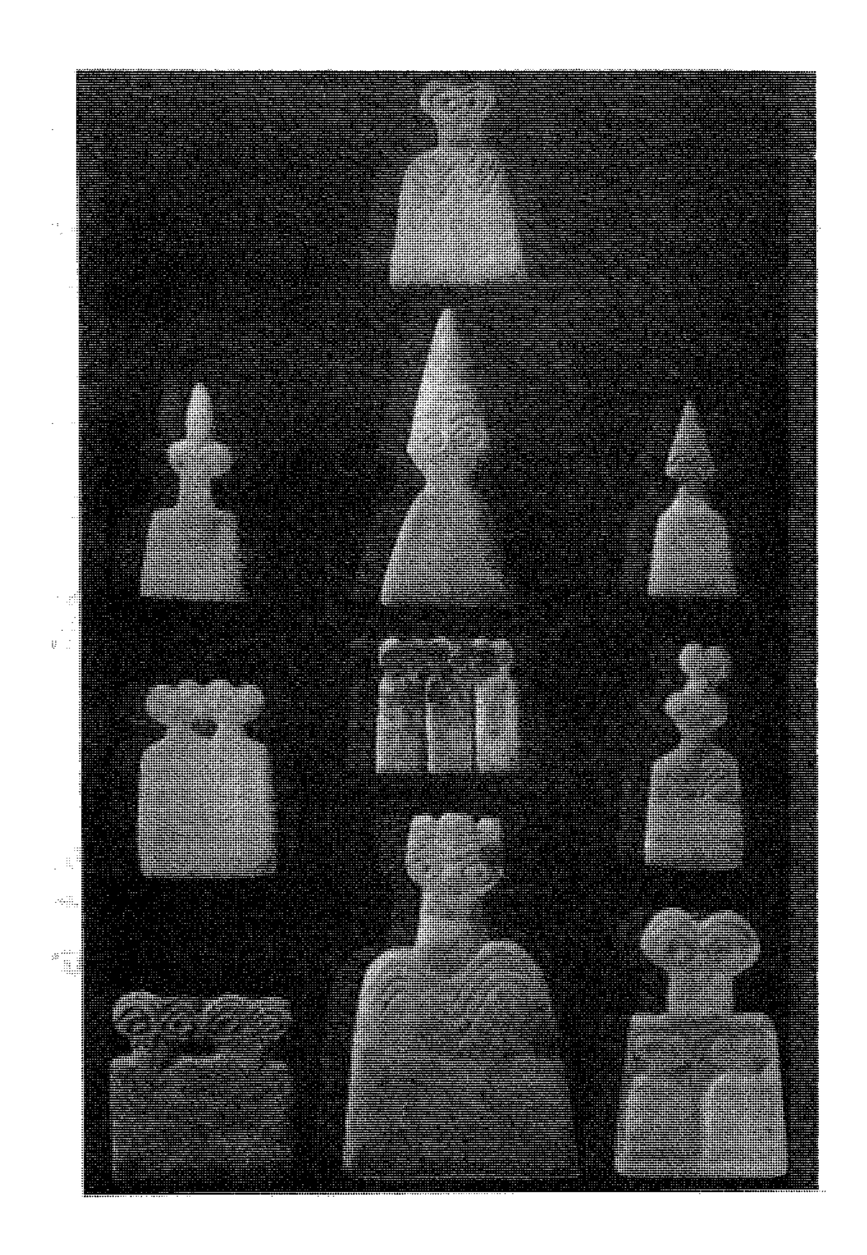
الشكل رقم ٤٥: في الأسفل تمثال مذكر طيني من السوية (١) في تل الصوان وقد وجدت في هذه السوية تماثيل واقفة من المرمر بكميات كبيرة وأوان من نفس المادة. ارتفاع التمثال (٦,٧) سم. في الأعلى رأس من الطين من عصر سامراء مأخوذة من شوغامامي ـ الارتفاع (٤,٨) سم.

الأشياء الصغيرة

التماثيل الصغيرة

لقد كانت الأشياء الدينية بين اللقى الصغيرة في مواقع العصر الحجري النحاسي في بلاد الرافدين نادرة نسبياً. وتشكل مجموعة التماثيل الصغيرة الانثوية التي ترتبط مع اصطلاح «الالهة الأم» استثناء لما سبق ذكره[70]. وخلافاً للتماثيل الجالسة ذات الرؤوس الشبيهة برؤوس السجالي لعصر عبيد في الجنوب فان هذه التماثيل تصور مخلوقات بدينة عند الإلية، جالسة أو جاثمة وذات صدور وأرداف كبيرة الحجم. وفي النماذج القديمة جداً، وعلى سبيل المثال تلك المأخوذة من ياريم تبه، فان الرؤوس كانت ذات وجوه نحيلة وأعناق رفيعة وطويلة بشكل يوحي بوجود غطاء للرؤوس مخروطي الشكل[71]. وهنا أيضاً نلاحظ وجود آثار للحلي المدهونة التي تمثل العصور التالية حيث ظهرت في التماثيل مظاهر تمثل السروال ذا المشبك أو الحزام، بالاضافة إلى وجود آثار للزينة ربما تكون من نوع الوشم. وفي العديد من النماذج الجميلة من شوغا مامي في العصر السومري، كانت الرؤوس مشكَّلة وملونة بصورة أكثر تفصيلاً وتظهر بالاضافة إلى غطاء الرأس المخروطي، العيون والاجفان الملونة وزينة الوجه[72]. لقد كانت مثل هذه النوعية من التماثيل شائعة في مواقع أثرية سورية مثل شاغر بازار وتل حلف[73] كما وجدت في أماكن بعيدة مثل شاتال هويوك في الأناضول وتبه ساراب في غرب إيران مما يؤكد الصلة الحضارية الوثيقة بين شمال العراق والأقطار المجاورة منذ العصر الحجري الحديث. ان فهم أهمية هذه التماثيل الصغيرة كأشياء دينية قد تم بشكل مختلف وبطرق متباينة، ففي أور واريدو وجدت هذه التماثيل في القبور أما في العربجية وتل الصوان فقد اكتشفت في أبنية اعتبرت ذات غرض ديني.

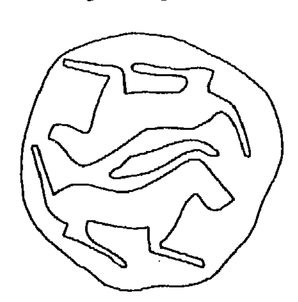
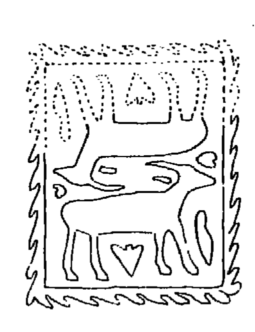
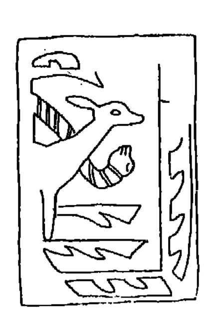
والنوع الآخر من التماثيل الصغيرة ذات الأهمية التاريخية هو «وثن العين» أو رمز النظارة، المرتبط بشكل ملحوظ بتل براك. لقد عثر على مجموعتين من هذه التماثيل الصغيرة في غاورا وخصوصاً فيما بين السويتين (٩ و١١) الأمر الذي يجعلها معاصرة لأقدم مستويات الأبنية في معبد العيون الذي اكتشفه «مالوان».



الشكل رقم ٤٦ : أوثان ذات عيون بارزة (Idols) وقد وجدت أنواع كثيرة منها في معبد تل براك من عصر جمدة نصر. ظن «مالوان» ان أكبر هذه الأوثان كان موضوعاً على المذبح في المزار الرئيسي. كما وجدت نماذج مماثلة في غاورا اعتباراً من عصر عبيد ـ ماتزال أهمية هذه التماثيل مجهولة. يبلغ طول أكبرها (١١) سم.

الأختام

لقد كانت الأختام الشخصية من الأشياء الهامة التي ظهرت في وقت مبكر في سويات الفخار المدهون في غاورا. أخلت الأختام البدائية ذات التصاميم الهندسية في تل حلف السبيل للأختـام شبه الدائرية التي حققت تصاميمها التصويرية درجة عالية من التطور في الحقبة الأخيرة من عصر عبيد. وان مجموعة محددة من الأختام المصنوعة من حجـر الستـاتيت المنسوبة إلى عصر ما بعد عبيد أظهرت تصميمات بالغة الأهمية، فالنقـوش العنكبـوتية للحيوانـات ذات القرون وكلاب الصيد تناوبت مع المشاهد الطقسية التي ظهر فيها رجال يلبسون الأقنعة وأحياناً يندمج شكلان لهذه الرسوم في وضعية جماع جنسي(٧٤).

الشكل رقم ٤٧ : أختام طبع من مستويات عصر بداية الكتابة في تبه غاورا وقد تضمنت الموضوعات الأخرى كلاب صيد ـ رجالاً بأقنعة وتماثيل بشرية في أوضاع جماع. (عن سبيسر، ١٩٣٥).

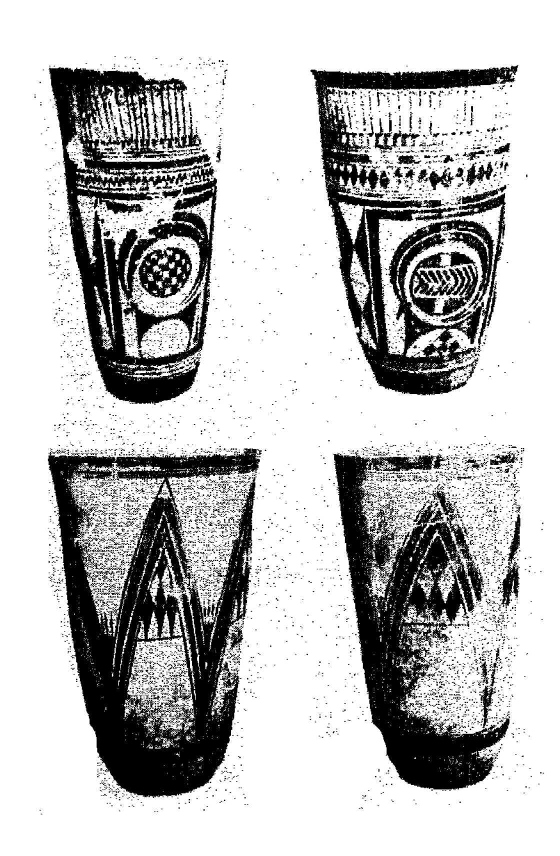
العلاقات الخارجية

منطقة سوسا (Susiana)

ربـما يكـون من غير المنـاسب ومن غير العمـلي أيضاً ان نلخص التطورات والتفاعلات بين حضارات العصر الحجري النحاسي في الأقطار المجاورة والتي كان لها ارتباطات قوية ببلاد الرافدين(٧٥). ففي شمال سورية والأناضول وبصورة خاصة في إيران، إذا كنا لا نريد ان نذكر الامتداد الأبعد نحو القوقاز وأفغانستان فقد أضيف الكثير إلى معلوماتنا عن ذلك العصر نتيجة الحفريات الأثرية مما جعل بلاد الرافدين تأخذ الموضع الأول في الاهتمام. ومع ذلك فهناك منطقة واحدة تقع خلف الحدود

الحالية للعراق بجوار الموطن القديم للسومريين، لا يمكن ان تغيب عن الاهتمام. انها المنطقة الايرانية المعروفة باسم خوزستان والتي يطلق عليها علماء الآثار اسم (سوسيانا)، على غرار المدينة الكبيرة التي كانت عاصمتها في عصور العيلاميين Ela-mite) قبل بداية التاريخ الكتابي بفترة طويلة كان هذا القطر مرتبطاً بشكل وثيق ببلاد الرافدين الجنوبية التي تعتبر امتداداً طبيعياً له. وهنا، وفي شمال مدينة البصرة الحديثة مباشرة، تتراجع سلسلة جبال زاغروس نحو الشرق، مكونة منطقة واسعة من الأراضي الخصبة التي تروي بواسطة المجاري المتشابكة لأنهار الكرخ وشاور والبيديز والمرتبطة بشط العرب عن طريق نهر قارون.

لقد وفرت عمليات التنقيب الأثرية الفرنسية في عام ١٨٩٧ في تل مدينة سوسا أول الأدلة على الاستيطان في المنطقة في عصور ما قبل التاريخ. وقدمت المقبرة الضخمة الملاصقة لسور المدينة كمية كبيرة من الفخار الملون الرائع الموجود حالياً في متحف اللوفر. وبذلك تكون البعثة الفرنسية قد سبقت اكتشاف «وولي» لحضارات بلاد الرافدين العبيدية بحوالي عشرين عاماً. ولقد كانت مجموعة الكؤوس والأقداح الطويلة الملونة والمزينة بنماذج جذابة من الطيور والحيوانات والتي أطلق عليها المكتشف الأثري الفرنسي جاك دي مورغان (Jaques de Morgan) اسم (سوسا ا) هي أكثر النماذج الفخارية جمالاً وسحراً. ومازالت هذه المجموعة تعتبر أحد أهم الانجازات في حرفة الفخار في الشرق الأدنى[٧٦]، ولعدم وجود مادة مناسبة لاجراء المقارنة فقد غالوا في تقدير عمر هذا الفخار في البداية. وكان لا بد من مرور خمسين سنة أخرى قبل ان توضع هذه الصناعة في موقعها الزمني الصحيح في سلسلة عصور ما قبل التاريخ. وخلال هذه الفترة توفرت المادة المناسبة لاجراء دراسة مقارنة بعد إجراء عدد من الحفريات الأثرية في مواقع صغيرة في خوزستان نفسها بالاضافة إلى الاكتشافات الجديدة في العراق. ولقد قام بدراسة مقارنة لهذه الاكتشافات عالم يدعى «ل. لي. بريتون» ونشرها في عام ١٩٥٧[٧٧]. وأصبح من الثابت الآن ان فخار «جاك دي مورغان» الذي سمي فيما بعد (سوسا آ) ينتمي إلى المراحل الخمسة الأخيرة التي قسمت إليها حضارات إيران الفخارية وهي (سوسا e - d - c - b - a) وتتزامن هذه الحضارات تاريخياً مع مرحلة الانتقال من عصر عبيد إلى عصر اوروك في بلاد الرافدين. وفيما يتعلق بالمراحل الأربعة الأولى فقد عثر على أمثلة مشابهة تغطي كل



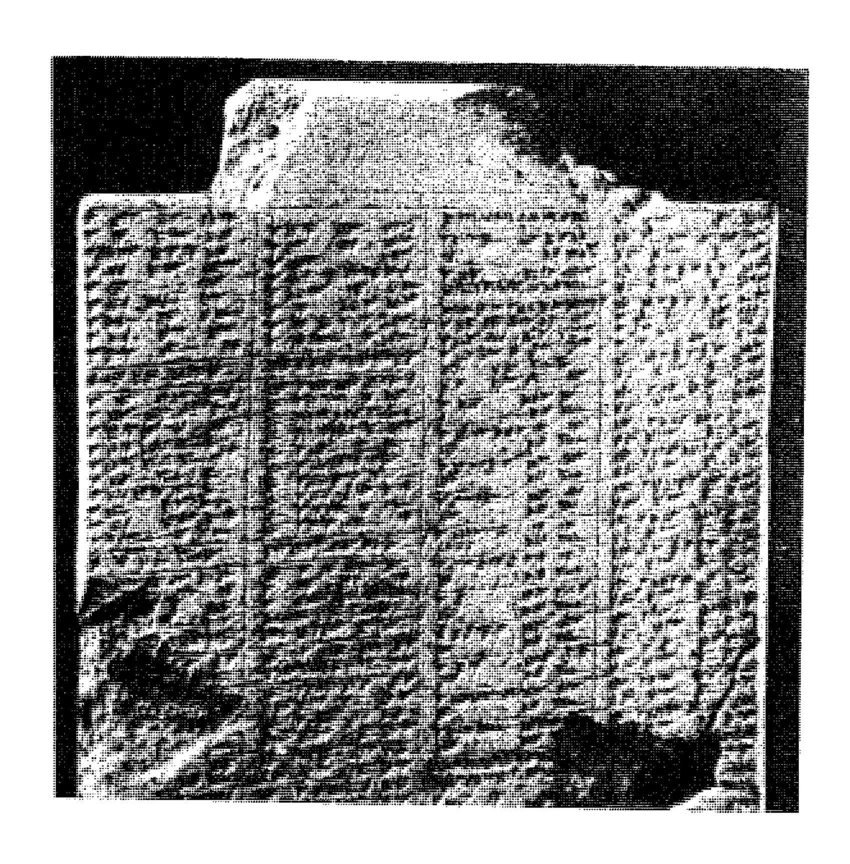
الشكل رقم ٤٨ : نماذج لفخار مدهون باتقان سماه «دي مورغان» باسم (سوسا ١) يرجع تاريخها إلى مرحلة الانتقال بين عصر عبيد وعصر بداية الكتابة عام (٤٠٠٠) قبل الميلاد. طول الاناء في الأعلى ٢٦,٨ سم.

مراحل التطور في العراق من حسونه واريدو حتى المراحل التالية. كما استطاع لي بريتون التعرف على ثلاثة مراحل إضافية توازي زمنياً عصر بداية الكتابة في بلاد الرافدين. وقد نسب الكتابة التصويرية إلى (سوسا c) وان استعمال هذه الكتابة ما هو إلا نتيجة منطقية للعلاقات الوثيقة بين سوسا والعراق في عصر اوروك وجمدة نصر. ولأن هذه الكتابة قد وجدت في مواقع بعيدة مثل تبه يحيى (Tepe yaha) الواقعة في وادي سوغام (Soghum) على بعد ١٤٠ ميلاً إلى الجنوب من «كيرمان» وكذلك في «سيالك» و«غودن» و«ماليان» و«شوغاميش» فمن الضروري ان تكون قد استعملت بشكل واسع في إيران في ذلك العصر(٧٨).

الفصل الخامس

السلالات السومرية الباكرة

ان عصر بداية الكتابة يجب ألا يعتبر مقدمة للحضارة السومرية وإنما مرحلة من مراحل تطورها ظهرت فيها الملامح الرئيسية لتكوين هوية هذه الحضارة. وكل ما يتوفر لدينا من معلومات عن هذا العصر كان نتيجة للحفريات الأثرية التي وجدنا أنفسنا عندما انتهت على عتبة التاريخ الكتابي. ومنذ هذه الفترة يجب ان نراجع نتائجنا الأثرية على ضوء بينات الوثائق المعاصرة. يطلق على المرحلة التي نحن بصدد دراستها اسم (عصر السلالات الباكرة) وهو عنوان تشرحه محتويات وثيقة هامة، مكتوبة، واحدة. هذه الوثيقة هي «قائمة الملوك» التي يظهر فيها الهيكل السياسي للحكومة السومرية ولتسلسل الحكام. وقد سجلت بشكل مكتوب لتبقى محفوظة في ذاكرة الأجيال القادمة من شعوب بلاد الرافدين[٧٩]. بقي القليل من النسخ المختلفة بشكل ضئيل من هذا النص ومن بين هذه النسخ تلك التي يعود تاريخها إلى بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد كما وظهر القسم القديم من نفس القائمة مرة ثانية في اليونان ضمن كتابات بيروسوس (Berossus) وهو كاتب تاريخي في العصر الهلينستي.



الشكل رقم ٤٩ : جزء من وثيقة «قائمة الملوك» وهي نسخة آشورية لنص قديم وجدت في خورساباد.

وقبل ان نتوسع في الحديث عن هذه الوثيقة التي نلمح فيها ضمناً مفهوم الملكية فمن المستحسن ان نتـوسع قليلاً في موضوع الألقاب التي أطلقت على حكام دولة سومر خلال المراحل المتعاقبة للتطور السياسي. في النقوش القديمة استعمل عدد من الألقاب المختلفة للتعبير عن صيغ قيادة الدولة لكنها لم تكن محددة بشكل دقيق. ومن بين هذه الألقاب (إن) «En» وهو يعني الملك أو الأمير، وإنسي «Ensi» الذي يعني الحاكم أو المشرف ولوغال «Lugal» الذي يعني الرجل العظيم أو الملك. ولقد كان التمييز بين هذه الألقـاب موضـوع الكثير من الدراسات والأفكار وبعض الجدل. لخص ساغس Saggs وغـاد Gadd في عام ١٩٦٢ النتـائـج غير الثابتة للدراسات المذكورة حول هذا الموضوع. يذكر ساغس الفرضية المثيرة التي جاء بها جاكوبسن

Jacobsen في عام ١٩٤٣. ويتوصل إلى نتيجة مفادها ان الملكية السومرية كانت متطورة وليست بالبدائية وان تصرفات الملك كانت تخضع أحياناً على الأقل لرأي مجلس من الشيوخ والكبار في المجتمع وحتى لمجموعة من الرجال الأحرار. ترتكز هذه النظرية على دراسة أجريت لمجموعة من النصوص الأدبية الأسطورية القديمة (الميثولوجيا)، ولتصرفات وسلوك الآلهة التي يعتقد انها تعكس صورة المجتمع في تلك العصور التي تبلور فيها المجتمع السومري على هيئة «الدولة المدنية» في الألف الثالث قبل الميلاد. ووفقاً لرأي جاكوبسن فقد كان من مهام مجلس العموم اختيار موظف يدعى «إن» (En) وهو في الأساس موظف ديني وصديق للاله الرئيسي للمدينة، ويلعب هذا الموظف دوراً حيوياً في الزواج المقدس الذي تبنى عليه خصوبة الدولة المدينة. أما مهامه الادارية الثانوية المرتبطة بالاشراف على أراضي الهيكل الديني فقد اعطته أهمية سياسية كبيرة وجعلت منه في بعض المراحل حاكماً فعلياً. وفي العصور القديمة كان هناك انفصال بين المهام الكهنوتية والدنيوية لهذا الحاكم الذي نقل مركزه من الهيكل الديني ليعيش في قصر فخم. وفيما بعد وخلال العصور التاريخية لم يعد الـ (إن) هو الحاكم الفعلي حيث أصبح الحاكم موظفاً يهتم أصلاً بالعمليات الزراعية يدعى انسي (Ensi) واسندت المهام الدينية إلى كاهن أو كاهنة. وعند حدوث عدوان خارجي كان على المجلس ان يختار قائداً حربياً يسمى لوغال (Lugal). لم يكن أي من مركزي «إن» أو «لوغال» وراثياً وكان وجود الثاني مرتبطاً بحالات الطوارىء فقط. وربما حاول احدهما ان يديم وضعه السلطوي وعندها تكون الوظيفتان قد انيطتا برجل واحد. وما كان هذا الرجل بقادر على التصرف كحاكم مطلق بل كان يتصرف حسب السلطات التي يمنحه المجلس إياها.

ان وجهة نظر جاكوبسن في المجتمع السومري وبنيته السياسية، التي أثارت الكثير من الاهتمام عندما عرضها أصلاً، ليست مقبولة تماماً في هذه الأيام وذلك بسبب نقص الأدلة والاثباتات في النصوص التاريخية الحديثة. أما الحقائق المجردة التي أتيح لنا استنتاجها عن وضع الحكام السومريين فهي ان «لوغال» بقي الاسم العام للملك وان «إنسي» رغم كونه بحكم حقه الشخصي حاكماً فربما كان مساعداً للملك في مدينة أخرى.

قائمة الملوك

نقدم بعض الملامح لقائمة الملوك كما نعرفها اليوم، وهي تعرض لنا أسماء ثمانية من الحكام شبه الاسطوريين قبل الطوفان وأسماء المدن التي ارتبطت أسماؤهم بها. وبعد الطوفان كما علمنا «هبطت الملكية من السماء» ثم يقدم لنا سجل أكثر واقعية صورة عن اتحاد ممالك المدن، التي شكلت واحدة منها سيادة كاملة على المدن الأخرى في وقت من الأوقات. ولقد تم تسجيل تسلسل السلالات وفق ذلك وقد ارتبطت كل واحدة منها بإحدى المدن حيث كان الحكام يورثون السلطة لابنائهم وتحولوا بذلك من قادة إلى ملوك. وتحتوي قائمة الملوك أيضاً على معلومات تتعلق بالانساب بالاضافة إلى بعض الوقائع التاريخية التي تشرح انتقال السلطة من مدينة إلى أخرى. وتحتوي هذه القائمة كما يرى بعض العلماء الحديثين على الكثير من العيوب فالأزمنة الطويلة المحددة للممالك على سبيل المثال خيالية ومبالغ فيها. ومع ذلك فان قائمة الملوك قد أدت إلى توضيح المفهوم العام لدى السومريين عن الأرض ووجودها كما وانها تجسد للمرة الأولى فهرساً بأسماء المدن السومرية الرئيسية مثل سيبار «Sippar» وشوروباك (Shuruppak» واور «Ur» وكيش «Kish» وأداب «Adab» وماري «Mari» واكشاك «Akshak» ولاجاش «Lagash» وايسين «Isin» ولارسا «Larsa» بالاضافة إلى مدن أخرى معلوماتنا عنها قليلة.

لا يمكن لقائمة الملوك بالطبع ان ترد تحت عنوان «الوثائق المعاصرة»، فهي مجرد سجل تمت استعادته وجمعه في وقت لاحق ونتيجة لمعلومات تقليدية. ويصح هذا الأمر أيضاً على الملاحم السومرية العظيمة كقصة جلجامش التي حفظت بسبب اعادة نسخها بشكل متكرر باللغة الاكادية واللغات الأخرى في عصور لاحقة(٨٠). ولذلك ينبغي ان نلقي الآن نظرة على المعلومات التاريخية الحقيقية التي تم الحصول عليها بشكل متزايد من كتابات السومريين القدماء، ونلاحظ المدى الذي وصلت إليه الدراسات المستفيضة في العصور الحديثة والتي أدت إلى توثيق الكثير من الأجزاء من تراث بلاد الرافدين(٨١)

أقدم النصوص المكتوبة

لقد أتينا في فصل سابق على ذكر أقدم أنواع الكتابة التصويرية التي وجدت في

المستويات القديمة من أوروك. وحتى لو اعتبرنا ان اللغة في ألواح (أوروك ٤) لم يتم التأكد منها بشكل نهائي فان لغة نصوص (أوروك ٣) أو جمدة نصر كانت سومرية بشكل واضح. ولقد تبع هذه النصوص في السلسة القديمة أولاً مجموعة من الألواح عثر عليها وولي (Woolley) في العشرينات من القرن الحالي في طبقة سبقت طبقة القبور الملكية التي اكتشفها في أور، ثم مخطوطات اكتشفها المنقبان الأثريان الألمانيان و. انـدريه (W. Andrae) و ر. كولديوي (R. Koldewey) في موقع تل فارة في بداية القرن الحالي[٨٢] ويجب ان نذكر هنا أن موضوع كل الكتابات التي ذكرت حتى الآن لم يكن أكثر من لوائح بأسماء أشخاص أو كميات من البضائع. إن المراحل الأولى التي شملت ملوكاً تبنـوا استعمال الكتابة لتسجيل أشياء كالنذور الدينية أو الانجازات الفردية هي مراحل معاصرة أو متأخرة قليلاً عن مجموعة تل فاره التي ذكرت سابقاً رغم انها اكتشفت في وقت أكثر حداثة من قبل «وولي» في اور. ولذلك يصح ان نقول انه حتى فترة متأخرة من العقد الثاني من هذا القرن كانت أسماء الملوك بما فيها جلجامش نفسه مجرد ابتكار من نتاج المخيلة السومرية. ووفقاً لذلك فانه لمن المثير حقاً اكتشاف وولي، في عام ١٩١٩، للوح بين آثار معبد السلالة الباكرة في عبيد يحمل اسم ميسانيبادا (Mesannipadda) الملك الأول في السلالة الأولى في اور واسم ابنه آأنيبادا (A'annipadda)[٨٣].

وفي ذلك الوقت كانت عمليات التنقيب الأثرية المنهجية التي يقوم بها علماء آثار ألمـان وأمـريكـان تتقدم في مواقع المدن السومرية الأخرى المذكورة في قائمة الملوك وتشمل بعض المواقع التي تم العثور فيها على كميات كبيرة من الألواح كان قد حصل عليها المنقبون الأثريون من قبل. وفي العقود التالية اكتشف المنقبون وعلماء اللغات القـديمـة الـذين كانـوا يعملون في دراسة مجموعات الآثار في المتاحف الكثيـر من النصوص السومرية[٨٤]. وبهذه الطريقة تمت إضافة العديد من الأسماء إلى قائمة الملوك الذين ثبت أنهم كانوا يتمتعون بدور تاريخي حقيقي. وقبل ان نتوسع في مناقشة هذا الأمر من الضروري ان نستبق السجلات الأثرية بالتنويه باختصار بالنتائج الكبيرة التي أصبحت ثابتة فيما يتعلق بالتسلسل الزمني لعصر السلالات الباكرة.

المراحل الأثرية Archaeological phases

تقسم الفترة المسماة بعصر ما قبل سارغون، التي سبقت توحيد بلاد الرافدين

تحت قيادة سارغون الاكادي، إلى ثلاثة عصور هي:

١ ـ عصر السلالات الباكرة (١) ـ (E.D.I) وهي التي تلت مباشرة عصر بداية الكتابة ما بين عامي ٢٩٠٠ ـ ٢٧٥٠ قبل الميلاد.

٢ ـ عصر السلالات الباكرة (٢) ـ (E.D.II) واستمرت حتى عام ٢٦٥٠ قبل الميلاد.

٣ ـ عصر السلالات الباكرة (٣) ـ (E.D.III) وتقسم إلى مرحلتين (آ ـ ب) وامتدت هذه الفترة إلى ثلاثة قرون تالية للتواريخ التي سبق ذكرها. ولقد تم الحصول على هذا الترتيب في التسلسل الزمني من خلال أدلة أخذت في العقد الثالث من القرن الحالي أثناء عمليات تنقيب أثرية قامت بها المؤسسة الشرقية في جامعة شيكاغو وذلك في مواقع في منطقة ديالي إلى الشرق من مدينة بغداد[٨٥]. وبنيت التقسيمات الزمنية كما سنلاحظ على تنوعات في فن العمارة والنحت وصناعة الفخار والأختام الاسطوانية بالاضافة إلى عدد من المواد الصغيرة المرتبطة بالمعابد التي أُنشئت في نهاية عصر بداية الكتابة. ولقد ثبتت صحة هذه التقسيمات مع وجود بعض التحفظات، من خلال السبور التي أُجريت في نيبور (Nippur) ومواقع أخرى.

الطوفان «The «Flood

لقد ثبت ان عملية تكييف هذه الفرضية الأثرية مع المضمون الزمني للنصوص أقل صعوبة مما يمكن للمرء تخيله. ترتبط المشكلة المبدئية بتاريخ وأهمية الطوفان الذي يبرز بشكل واضح وهام في التقاليد السومرية، والذي ورثناه في الذاكرة من خلال النصوص العبرية التوراتية. لم تكن الأدلة الأثرية في هذا المجال حاسمة لسوء الحظ. وبما أن الفيضانات الضخمة ظاهرة مألوفة في تاريخ بلاد الرافدين ومازالت كذلك حتى الوقت الحاضر، لذلك فليس من الغريب ان نجد في الأسبار العميقة في المواقع السومرية طبقات نظيفة وخالية من كل شيء إلا من الرمال التي حملتها المياه، وان نجد أيضاً الفخار ضمن طبقات مختلفة منذ عصر عبيد في اور حتى نهاية مرحلة السلالات الباكرة في كيش[٨٦]. وفي تل فاره (Shuruppak) نفسها تظهر طبقة من هذا النوع في نهاية عصر السلالات الباكرة (١) وهذه هي الحالة الوحيدة التي يمكن ان نعتمد عليها كدليل داعم لعملية الاستنتاج من وثائق النصوص السومرية.

وفيما يتعلق بقـائمـة الملوك فليس هنـاك أدنى شك في ان هذه المرحلة شبه التاريخية المتمثلة بتعاقب الملوك في عصر ما قبل الطوفان يمكن ان توازن السلسلة الأثرية المحددة بعصر السلالات الباكرة الأول (١). ان الأسماء الشخصية لهؤلاء القادة ليست بذات أهمية كبيرة لأن الاسم الأخير فقط كان يتمتع بأهمية تاريخية. وهنا تظهـر العـلاقـة مع أحـداث جلجـامش عندما قام بطل الملحمة برحلة لاستشارة اتنابيشتيم (Utnapishtim) ، وهو «نوح» بابل، في سر الحياة الابدية. وانه لأمر مثير للدهشة ان هذا الشخص لم يرد له ذكر ضمن قائمة الملوك بينما ظهر الاسم الأخير قبل الفيضـان وهو «اوبار توتو» (Ubartutu) حاكم شوروباك(٨٧). وفي نسخة أخرى من قصـة الفيضـان اعطي البطل اسم «زيوسودرا» (Ziusudra) الذي اثبتت قطعة من النص انه ابـن اوبارتوتو. ان المضمون الواضح هنا عن ان زيوسودرا وجلجامش قد عاشا في زمن واحد تدحضه حقيقة ان الأول قد سمي الهاً بعد الفيضان وبناء على ذلك فقد كان الهاً عندما قابله جلجامش.

وحول موضوع جلجامش نفسه فان مصادر النصوص الأخرى قد وفرت الكثير من الأدلة. أحد هذه النصوص هو النص الهام الذي وجدت نسخ منه في كل من اور ونيبور، وكان يحتوي أسماء الملوك الذين قاموا باصلاح بناء هيكل ديني يسمى «تومال» (Tummal) ولم يتم تحديد مكان هذا الهيكل بشكل دقيق في مدينة نيبور. وتحتوي هذه النصوص أسماء ثلاثة ملوك هـم «آغا» (Agga) وجلجامش وميسانيبادا الذين ينتمون إلى السلالات الأولى في كيش واوروك واور على التوالي(٨٨). ربما توحي قائمة الملوك بان هذه السلالات الثلاث قد تعاقبت في تسلسل زمني واحدة منها بعد الأخرى. وفي هذه الحالة فقد دحضت هذه الفكرة دلائل تثبت ان الملوك الثلاثة قد حكموا في وقت واحـد. وندرك على سبيل المثال من خلال أحد النصوص السومرية (الملاحم) ان جلجامش قد حارب «آغا» ملك مدينة كيش وان «ميسانيبادا» ملك اور هو الذي قضى على سلالة مدينة كيش. وبالنسبة للملك الأخير ميسانيبادا فقد ظهر اسمه في أحد الألواح المكتشفة في تل العبيد وعلى طبعة أحد الأختام الاسطوانية الـموجودة في المقبرة الملكية في اور. وإذا تسلحنا بهذه الأدلة وغيرها فانه يمكننا ان نحدد زمنياً تاريخ الملوك الثلاثة في المرحلة الثالثة من عصر السلالات الباكرة ما بين عامي ٢٦٥٠ - ٢٥٥٠ قبل الميلاد.

وفي الفترة الواقعة ما بين الفيضان وظهور جلجامش نكون في مرحلة من الزمن تقارب المئة سنة تتوافق مع عصر السلالة الباكرة (٢). ان الكثير من الاسماء الملكية التي اعطيت لهذه الفترة هي إما تطفلات سامية أو أسماء مقدسة مشهورة ولكن ثبت ان لاثنين منها دور تاريخي. الأول هو «اينمبيا راجيسي» والد «آغا» ملك كيش الذي وجد اسمه في موقع ينتمي للسلالة الباكرة (٢) في ديالي[٨٩]، والثاني هو «اينمير كار»[٩٠] ملك ايريك الـذي كان موضوع ملحمة سومرية قديمة جداً والذي ظهر اسمه في نسخة اغريقية لقائمة الملوك كجدٍ لجلجامش وبوصولنا إلى هذين الاسمين اللذين تم توثيقهما، فان مجرى بحثنا يقترب من النهاية في شخص «زيوسودرا» أو نوح البابلي.

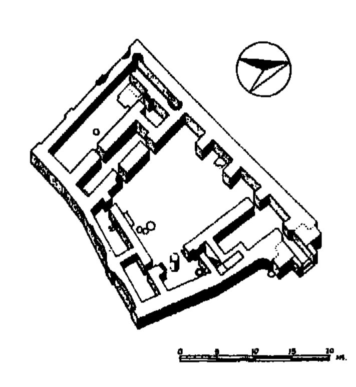
مواقع السلالات الباكرة

خفاجه

ينبغي ان نعـود الآن إلى السجل الأثري ونعدد بعض المواقع السومرية التي ساهمت في تكوين معارفنا عن عصر السلالات القديمة. ولهذا فمن المستحسن ان نبدأ بمواقع ديالي لسبب وحيد وهو ان اللقى الأثرية في هذه المواقع قد لعبت دوراً كبيراً في تشكيل البنية الزمنية التي يمكن ان نضع على أساسها كل حساباتنا. وفي هذه المنطقة يكتسب موقع خفاجه أو (توتوب القديمة) المركز الأول من حيث الأهمية فقد جذب الانتباه في السنوات التي سبقت عام ١٩٢٩ بسبب الكمية الكبيرة من اجزاء التماثيل السومرية التي كانت عمليات الحفر غير المشروعة تضعها في أيدي المتعاملين وتجار الآثار في بغداد[٩١]. لقد كانت الهضبة الواقعة قرب الضفة الشرقية لنهر ديالي، وعلى بعد (١٥) ميلاً إلى ،شمال من نقطة التقائه مع نهر دجلة،هي مصدر كل هذه الآثار. وان موسماً واحداً من عمليات التنقيب الأثري التي قام بها فريق من المؤسسة الشرقية لجامعة شيكاغو قد كشف عن وجود معبدين سومريين تحت قمة التل مباشرة. وكان أحد هذين المعبدين وهو يشغل مركزاً متوسطاً مكرساً لاله القمر «سن» (Sin). وخلال السنوات التالية تم التعرف على عدة عمليات اعادة بناء للهيكل عبر مستويات تمثل كل مرحلة من عصر السلالات القديمة، هبوطاً حتى الأساس الأصلي للمعبد الذي ينتمي إلى عصر جمدة نصر.

ان معبد اله القمر في خفاجه، مثله مثل معابد مستويات عصور بداية الكتابة

في منطقة «ايانا» في الوركاء ينتمي إلى مجموعة المعابد المبنية بمستوى الأرض. أي أن هذا المعبد لم يكن في أي عصر مرفوعاً على مصطبة، لكنه كان مبنياً على منسوب يحدده تصميم الأبنية الموجودة من حوله. وعلى غرار تقاليد العصور القديمة في بناء المعابد،



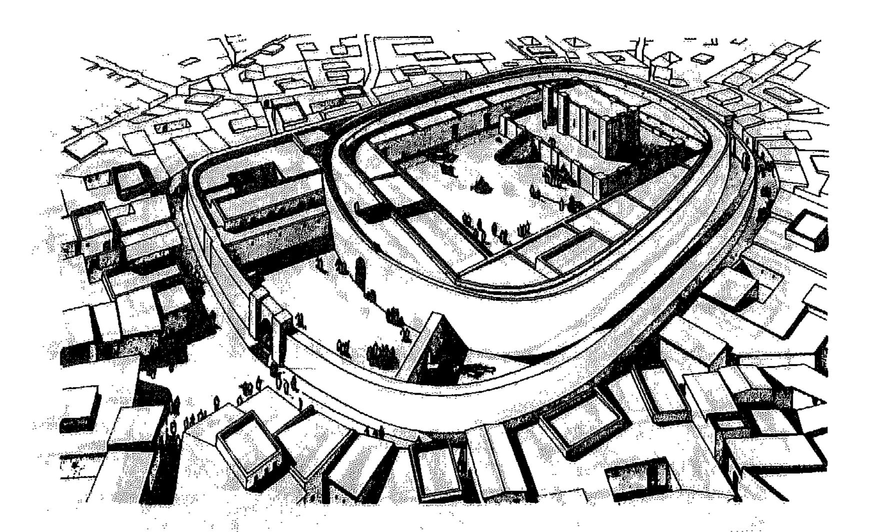
الشكل رقم ٥٠ : مخطط مجسم لمعبد (سن ٨) في خفاجه ويرجع تاريخه إلى عصر السلالة الباكرة الثانية (٢٧٥٠ - ٢٦٥٠) قبل الميلاد. ولقد تم تكييف المخطط ليناسب الشكل غير المنتظم للموقع عند بناء المعبد (ا) في عصر جمدة نصر. (عن ديلوغاز).

فقد اتخذ هذا المعبد في عناصره العمرانية الرئيسية الشكل المستطيل، وكان له مذبح بجدار منخفض في أحد طرفيه. بينما كان المدخل في الطرف الآخر. وفي أقدم معابد القمر أضيفت غرف جانبية عند كل طرف فشكل المعبد بذلك تصميماً تقليدياً ثلاثي المخطط. كما اضيفت أشياء قليلة لهذا التصميم البسيط حتى تمت عملية اعادة بنائه للمرة الخامسة في بداية عصر السلالات الباكرة، (المعبد رقم ٦) حين تم توسيع الباحة الامامية التي كان العابدون يدخلون منها كما تم تحويل هذه الباحة إلى منطقة مسورة ذات بوابة ضخمة وعدد من الأبنية الخارجية. ان اعادة بناء هذا المعبد لأربع مرات خلال العصور التالية لم تغير اطلاقاً في شكله المعقد وغير المتناسق. وفي السوية التاسعة فقط اعطي المدخل الخارجي الكثير من الجلال والابهة وأضيف للباحة الخارجية مقام مبني في الهواء الطلق.

لقد وجد ب. ديلوغاز (P. Delougaz) الذي كان مسؤولاً عن عمليات التنقيب

الأثري في خفاجه، التل كله كخلية نحل نتيجة للحفر والانفاق التي حفرها لصوص الآثـار. وكان لا بد من قضاء فترة طويلة في إزالة التربة الرخوة عن التل من أجل البحث عن الأسوار الباقية في المنطقة التي لم يصل إليها لصوص الآثار. وقد استطاع بخبرته ومهارته كمنقب أثري اعدة تشكيل مخطط المعبدين الأخيرين للقمر (٩، ١٠) وان يحصل على بعض المواد التي لم يتمكن المنقبون غير الشرعيين من اللصوص من الـوصول إليها. هذه المجموعة الاضافية من التماثيل النذرية التي أخذت من هذا المـوقـع، على الـرغم من أهميتها، فقد أصبحت أقل أهمية بعد اكتشاف تجهيزات ومعدات المعبد والأواني الطقسية في المستويات الأعمق في البناء. ولقد تم إكمال هذه المجموعة الثمينة من اللقى بمحتويات ثلاثة من الهياكل الصغيرة التي وجدت بين البيوت السكنية في غرب وجنوب الموقع الأثري. والتي لم ينتبه إليها لصوص الآثار أيضاً. أحد هذه المعابد كان عبارة عن باحة كبيرة ليس لها شكل محدد وتحتوي على هيكلين منفصلين، وبواسطة إحدى المخطوطات أدرك ديلوغاز انه كان مكرساً للالهة الأم «نينتو» (Nintu) كما كان هناك معبدان آخران أصغر حجماً ولكل منهما هيكل واحد.

ولأن هذه الأبنية كانت بنفس منسوب الأرض فلم يكن من الغريب انه، اثناء الفـترة الأولى من عمليات التنقيب في الـوركاء، تم العثور على منطقة واسعة على المنحدر الغربي للهضبة مغطاة بقليل من البقايا الأثرية من المجمع الديني البيضوي الشكل. وقد شكل هذا المعبد في أحد الممرات خلفية للمعبد العالي الذي بني على مصطبة صناعية. لقد شكلت عملية التنقيب في المعبد البيضوي في خفاجه مشكلة تقنية لديلوغاز يمكن أن تثبط من همة أي منقب أثري. فالمنطقة المحصورة ضمن خطين من الأسوار الخارجية كانت ذات أبعاد عظمى تصل إلى ١٠٠ متر ولم تكن هذه الأسوار ولا جدران الأبنية نفسها تزيد عن ارتفاع بضع لبنات. لذلك اضطر ديلوغاز إلى اتباع طريقة في التنقيب الأثري طورها الألمان في الوركاء واستلزمت هذه الطريقة فصـل كل قطعـة قرميد واعـادة تشكيل الجـدران التي تؤلفها. وبعد تدريب العمال العرب لفترة طويلة على القيام بهذا العمل تمت استعادة بناء كل المجمع في المستوى الأرضي في نهاية الأمر.



الشكل رقم ٥١: رسم إنشائي لمعبد خفاجه البيضوي كما بني في عصر السلالة الباكرة الثالثة (٢٦٥٠ - ٢٣٥٠) قبل الميلاد. لم يبق من البناء سوى أساسات رصيف المعبد والأسوار البيضوية أما شكل المزار المرتفع فهو من قبيل الافتراض. (عن داربي).



الشكل رقم ٥٢: صورة فوتوغرافية من الجو للمعبد البيضوي من جهة الجنوب يظهر سور المدينة وأبنيتها في الخلف.



الشكل رقم ٥٣ : عملية التنقيب الأثري عن أساسات المعبد البيضوي في خفاجه . بني القرميد الطيني المحدب المستوي باتقان . اكتشف المنقبون في المدينة الرمال التي بنيت عليها الأساسات .

تظهر المخططات ثلاث مراحل من البناء في الفترتين الثانية والثالثة من عصر السلالات القديمة . ففي البداية هناك سور متناسق بيضوي وقد رتبت من حوله أبنية خارجية لتكوين باحة داخلية مستطيلة ، كما يشغل الدرج الذي يؤدي إلى المعبد نصف الفراغ الذي أمكن التعرف عليه بواسطة الرصيف . ولقد أضيف إلى السور الأول سور آخر مختلف عنه نوعاً ما لاتاحة المجال لبناء باحة خارجية ومسكن للكاهن . وفي مرحلة البناء الثانية زيدت سماكة الجدار الخارجي وتم تدعيمه بحصن أما في عصر

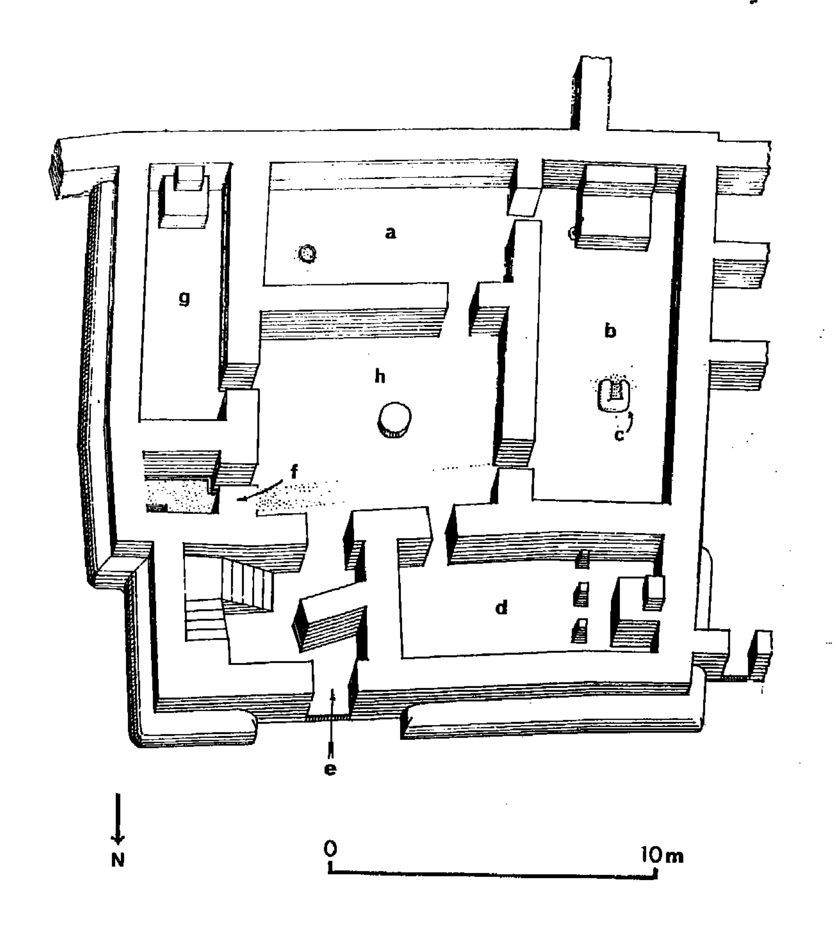
السـلالات الباكرة (E D III b) فقد أضيف للبناء مدخل ضخم جديد شغل معظم الساحة الخارجية. وفي قطاع حفره ديلوغاز عبر السورين ظهرت الأساسات الموازية تحت مستـوى الـرصيف كما وكشف أيضـاً عن ظاهرة لم يكن لها مثيل في العصور الأخرى في بناء المعابد. فقبل ان يتم وضع الأساس تم الكشف ان منطقة كاملة من المجمع الديني قد نقبت إلى عمق (٤,٦) متراً وملئت بالرمل الذي أحضر من خارج المدينة. قدر ديلوغاز ان كمية (٦٤٠٠٠) متراً مكعباً من الرمل نقلت لهذا الغرض وافترض ان التقاليد الطقسية وحدها تفسر هذا العمل.

وتتم محتويات القبور اللقى المأخوذة من معابد خفاجه حيث عثر على ما يقارب (٢٠٠) قطعة أثرية في مواقع المدينة وكان معظمها تحت أرضيات البيوت السكنية[٩٢]. وقد تنوعت القبور فهناك القبور الرأسية والقبور ذات الجدران والتي بني اثنان منها من القرميد المشوي وكانا مسقوفين بقناطر مزودة بأطناف. أما أثاث القبر فكان يتألف من الأواني الفخارية بصورة رئيسية وقد ساهم عدد هذه الأواني وتنوعها، كما سنلاحظ فيما بعد، مساهمة كبيرة في عملية التحليل والدراسة النهائية للطبقات في عصر السلالات الباكرة.

تل أسمر

في العصور ما بعد السومرية، أصبحت المدينة التي وجدت بقاياها في خفاجة جزءاً من دولة عظيمة الأهمية السياسية سميت «اشنونا» (Eshnunna). وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تل أسمر الواقعة على بعد (٥٠) ميلاً إلى الشمال الشرقي من بغداد وهي موقع لمدينة يرجع تاريخها إلى عصور السلالة الباكرة. وفي المدينة معبد قام المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو بالتنقيب عنه في نفس الوقت الذي تمت فيه عمليات التنقيب في موقع خفاجة[٩٣]. ان معبد «آبو» (Abu)، كما عرف بعد اكتشاف تمثال يحمل شارة نبات ذلك الاله المعروف في مكان آخر باسم اله النباتات، قد تم انشاؤه مثل معبد القمر في عصر جمدة نصر. ويمكن التعرف إلى تاريخه المعماري الذي يعود إلى الحقبة الأخيرة من العصر الاكادي. ولقد تطور المعبد من كنيسة ليس لها شكل تقليدي محدد في بداية ألأمر إلى معبد مستطيل ومعه رتل من الغرف الجانبية ويتزامن هذا البناء مع المرحلة الأولى من عصور السلالات الباكرة. وفي المرحلة الثانية حل محله معبد مربع

الشكل وله غرف مستطيلة كانت ثلاث منها بشكل مزارات مرتبة حول ساحة مركزية . وفي المرحلة الثالثة عاد المخطط إلى شكل المعبد ذي المزار الوحيد والذي يشبه أصغر المعابد في سلسلة معابد خفاجة .



الشكل رقم ٥٤ : مخطط مجسم للمعبد المربع في تل أسمر (عصر السلالات الباكرة II) وقد وجدت مجموعة من (٢١) تمثالاً نذرياً مدفوناً بجانب المذبح في المزار رقم ٢ ـ يختلف المزار قليلاً عن الأبنية السكنية المعاصرة .

q = غرفة الكهنة ، b = المزار ١ . c = الموقد

d = المزار ٢ . e = المدخل f = غرفة الغسل

g = المزار ٣ . h = الساحة .

(عن ديلوغاز ولويد، ١٩٤٢).

لقد كانت اللقى الأثرية في أبنية تل أسمر غزيرة جداً ومن أنواع مألوفة عند المنقبين الأثريين في منطقة ديالي حيث شملت هذه اللقى الخرز والتمائم المنقوشة والأختام والمرايا البرونزية بالاضافة إلى الأواني الحجرية والمصنوعات الفخارية المتنوعة. وبالنسبة للتماثيل فقد تم العثور على لقى مدهشة في مزار المعبد المربع كما عثر على مجموعة مؤلفة من واحدة وعشرين تمثالاً نذرياً مدفوناً بعناية تحت الرصيف بجوار المذبح. يضاف إلى ذلك ان هذه التماثيل تميزت بأسلوب من النحت ينتمي إلى عصر السلالات الباكرة (٢)، وهذا الأسلوب يختلف عن فن النحت في خفاجة حيث كان الأسلوب في خفاجة أكثر طبيعية وينتمي إلى عصر السلالات الباكرة الثالث.

تل عقرب

تل عقرب هو الموقع الثالث والأخير الذي تم التنقيب عنه في منطقة ديالي، وهو يصور امكانيات بناة المعابد السومرية. وتل عقرب مدينة مبنية على هضبة بعيدة في الصحراء الجرداء التي تعرف الآن باسم (الشول) وتقع على بعد (١٥) ميلاً إلى الشرق من تل أسمر[٩٤]. والمعبد الذي ظهرت جدرانه هنا تحت سطح الأرض مباشرة مربع الشكل يبلغ طول ضلعه (٦٠) متراً. ولقد تمت تعرية قسم من البناء مجاور لأسوار المدينة بواسطة ماء الأمطار أما القسم الباقي بعد التعرية فيحتوي المزار الرئيسي وغرف الهيكل الثانوية بالاضافة إلى أدوات ووسائل راحة الكهنة وبقيت الجدران على ارتفاع يزيد عن المترين. كان مصدر الأدوات المنقولة المزار نفسه وغرفة ملابس الكهنة المجاورة للمذبح. وكما كانت عليه الحال في معبد «آبو» في تل أسمر فقد دفنت الأدوات الدينية والاعطيات النذرية تحت مستوى الرصيف أو ضمن بنية المذبح نفسه. وفي غرفة لأب الكهنة فقط قضى المنقبون الأثريون أسابيع عديدة في الحصول على الانتاج الرائع للحرفيين السومريين والذي كان موضوعاً ضمن طبقات من التربة القاسية. وضمن آلاف القطع من الخرز والأشياء الصغيرة التي شملت التمائم المنحوتة والأختام وجد العديد من الأعمال الفنية الفريدة من نوعها والتي تضمنت أعمالاً حجرية أو برونزية وبضع مئات من رؤوس الصولجانات التي كانت تستعمل في المواكب. وسوف نتوسع في تفاصيل هذه الأمور عند دراسة مجموعات اللقى التي تنتمي إليها هذه الأشياء. وفيما يتعلق بطبقات هذا المعبد المكرس لشارا (Shara) رئيس



الشكل رقم ٥٥ : مشهد لمعبد شارا من عصر السلالة الباكرة الثانية بعد التنقيب تشاهد في الوسط المزار الرئيسي والمذبح وطاولات الاعطيات. تجمعت الأبنية الدنيوية حول ما كان مرة موقعاً دينياً مقدساً. انهار المعبد وتحول إلى ركام في نهاية عصر السلالات الباكرة.

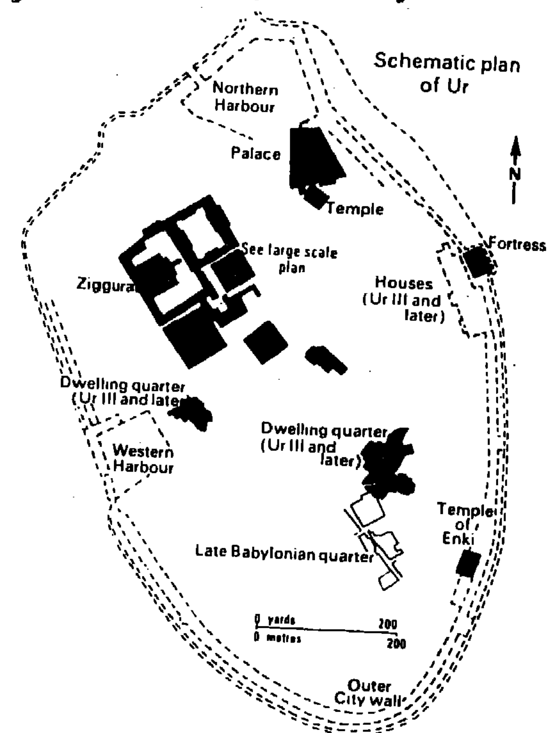
الهة اوما (Umma) فان معظم الآثار الكبيرة الباقية يمكن ان تؤرخ على المرحلة الثانية من عصر السلالات الباكرة باستثناء قطاعات صغيرة من بناء أقدم ينتمي إلى عصر السلالات الباكرة (١) كان قد تم التنقيب عنه تحت هذه الآثار. أما اللقى التي وجدت على السطح فانها توحي بعملية استيطان متأخرة في عصر السلالات الباكرة (٣).

مدينة اور الكلدانية

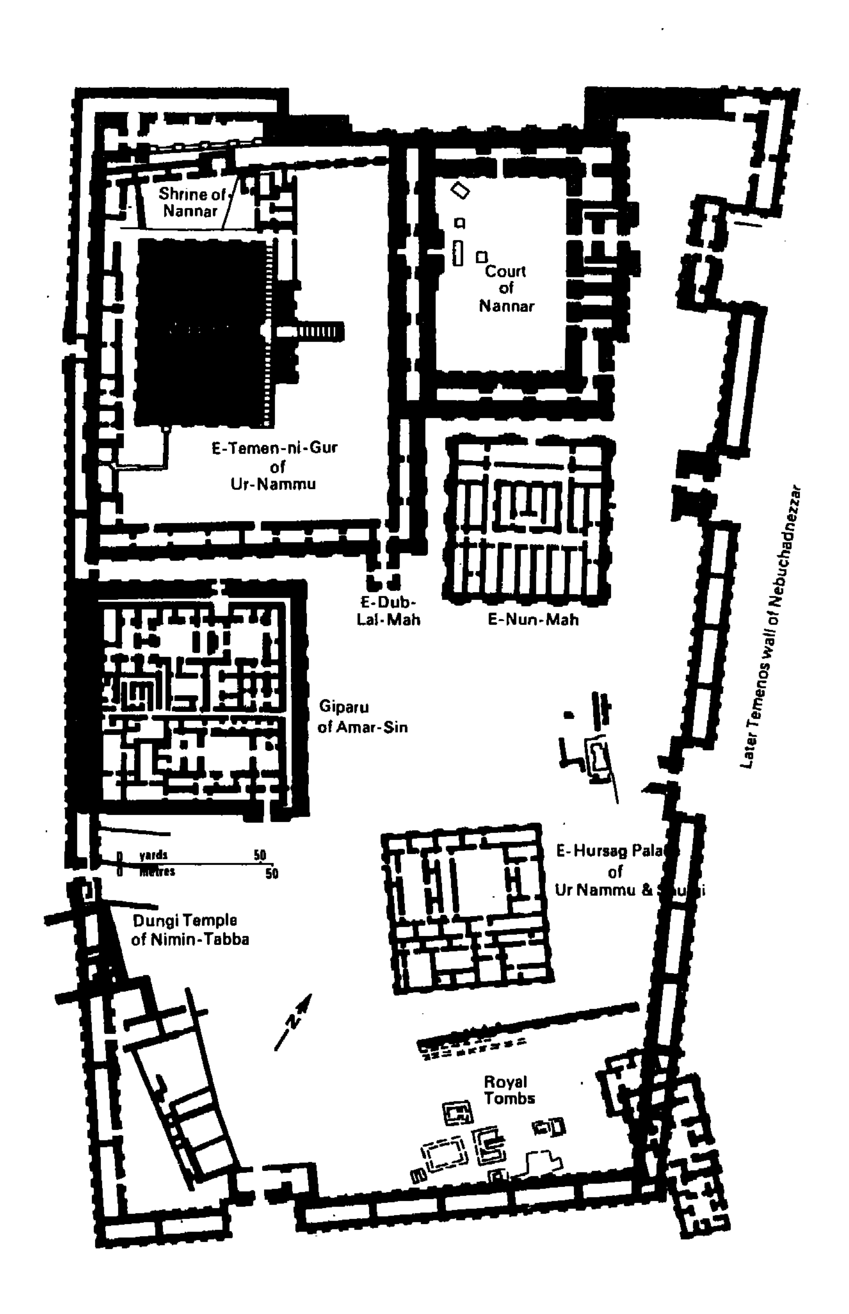
في عام ١٩٣٠ عندما بدأ العمل في مواقع ديالي، كان قد مضى على بدء حفريات وولي الأثرية في مدينة اور الكلدانية أكثر من عشر سنوات. وقد وفرت لقى وولي المثيرة كمية كبيرة من المواد المقارنة والتي استفاد منها العاملون في هذا الحقل[٩٥]. كانت مدينة اور منذ عصور ما قبل التاريخ مركزاً حضارياً ودينياً عظيماً للشعب السومري واستمرت على هذا النحو فترة طويلة بعد زوال أهميتها السياسية.

في هذا الموقع الذي يسمى في العصر الحالي باسم (المقير) وجد وولي نفسه يتعامل مع مدينة محصنة بيضوية الشكل يصل بعداها إلى حوالي النصف ميل[٩٦].

وكانت المدينة محاطة من الجهتين الشمالية والغربية بنهر الفرات وكان لها مرفآن على هذا النهر. وفي المنطقة الشمالية الغربية من المدينة بنيت أسوار ضخمة لمركز ديني بني من قبل نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد. وكانت الأسوار تحيط بالمعابد وقصورها والأبنية الثانوية التي حافظ عليها وأعاد بناءها لمرات عديدة ملوك بلاد الرافدين لذلك فليس غريباً بقاء جزء بسيط من أساساتها الأصلية على سطح الأرض. لقد أصبح هذا القسم الآن مدفوناً في معظم أجزائه تحت أبنية متزايدة الحجم بنيت في عصور لاحقة. وينطبق هذا الأمر أيضاً على الزيقورات (المعابد الضخمة) التي بنى بعض أجزائها ملوك السلالة الثالثة التي استمرت حتى القرن الثالث قبل الميلاد. لقد اقتنع وولي ان بقايا برج قديم كانت محصورة ضمن بناء ديني قديم، هو زيقورات متواضعة أكثر من كونه منصة معبد. وفي مكان عميق تحت المنصات المتأخرة وعلى الجانبين



الشكل رقم ٥٦ : مدينة اور في عصر السلالة الثالثة. دمرت أسوار المدينة في عام ٢٠٠٦ قبل الميلاد. وجد وولي ان الأسوار بسماكة ٢٧ متراً وتحقق من آثار مينائين على الفرات. بنى نبوخذ نصر السور الداخلي للمجمع الديني بعد ١٥٠٠ سنة. (عن هوكس، ١٩٧٤).



الشكل رقم ٥٧ : المجمع الديني المقدس الضخم في اور والذي يعود إلى عصر السلالة الثالثة عام (٢١١٣ - ٢٠٠٦) قبل الميلاد. (عن هوكس، ١٩٧٤).

عثر على جدران بناء آخر تعرض للتعرية يعود إلى عصر السلالات الباكرة.

وفي جانب آخر من الموقع أجرى وولي سلسلة من الاكتشافات جعلت من هذه المدينة السومرية المدينة الأكثر شهرة. في عصر نبوخذ نصر امتد المجمع الديني الكبير امتداداً كبيراً في الجهة الجنوبية الشرقية كما امتدت أسواره إلى منطقة مقابر تعود إلى عصور أقدم. ولقد أجرى وولي في هذه المنطقة سبراً عميقاً أدى إلى اكتشاف مقبرة تعود إلى عصر السلالات الباكرة، وضمن مئات من المدافن البسيطة صادف المنقب مجموعة من القبور الملكية أدهشت العالم بثرواتها وكنوزها عندما تم عرضها.

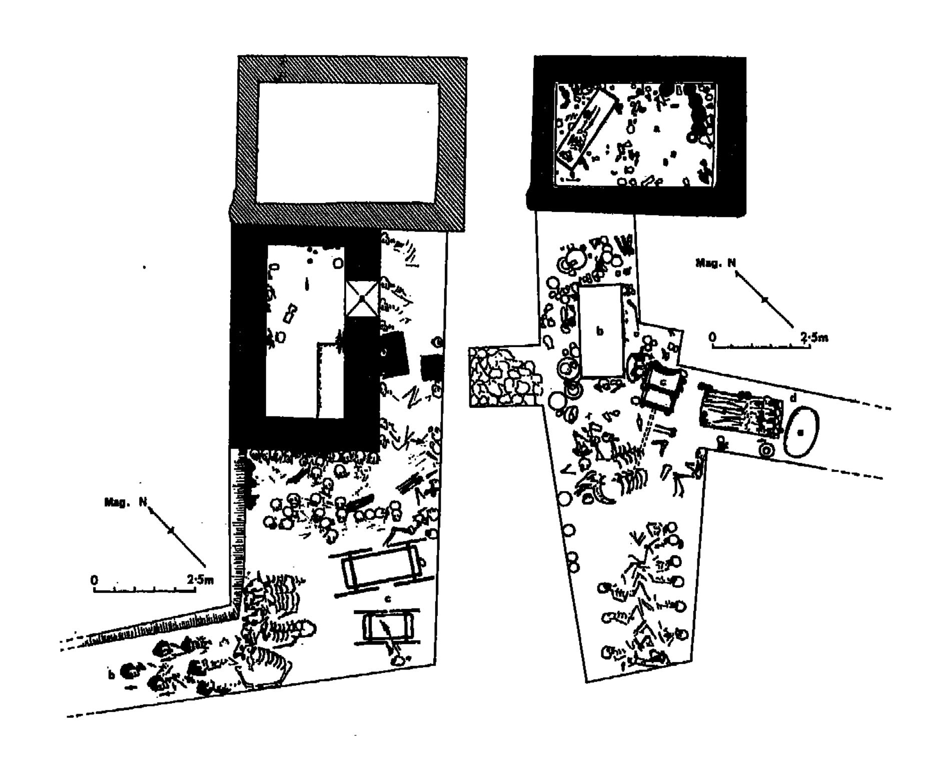
لقد عثر وولي على ستة عشر قبراً من هذا النوع يتميز كل منها بغرفه المحفورة على شكل الممر الرأسي الصخري والتي تتألف من حجرتين في بعض الأحيان. وكانت القبور مسقوفة بقوس من الحجارة أو القرميد وفي حالة واحدة فقط نلاحظ محاولة بناء قبة فوق القبر. والميزة الأكثر أهمية هي وجود دليل على طقوس الدفن تشمل تقديم بعض الضحايا البشرية. وكان الوصول إلى القبور الكبيرة يتم عبر منحدر وعند أسفل المنحدر وبجانب حجرة أحد القبور وجدت جثث لجنود ونساء بالاضافة إلى عزبات ذات عجلات مع هياكل الحيوانات الخاصة بجر العربات التي كانت تشكل جزءاً من الموكب الجنائزي. لقد وضع كل هؤلاء بطريقة منتظمة في القبر المحفور على شكل ممر رأسي بينما شارك الأفراد الموسرون غرفة القبر نفسها مع الميت الأصلي كما ان الشخصيات الاجتماعية التي كان موتها مناسبة للطقوس كانت تمدد على تابوت خشبي يحاط بكمية كبيرة من الممتلكات الشخصية. ان وفرة وتنوع هذه الحلي والاسلحة والأدوات الموسيقية والكنوز الأخرى قد وفرت مخزوناً من المواد الجميلة والرائعة التي فاقت أهميتها الأثرية قيمتها المادية الحقيقية. ولقد عرف الجمهور الكثير منها من خلال الرسوم في الكتب ومن خلال عروض المتاحف لكن كفاءة التصميم والمستوى الحرفي الرفيع في الصنع يبقى أحد أعظم روائع الآثار في العصور القديمة.

ويتسع المجال هنا لذكر بعض نماذج الأشياء المدفونة في المقابر ولهذا الغرض يجب ان نستخدم الارقام التي قدمها وولي.

ان القبر الذي تعتبر محتوياته أكثر شهرة من أي قبر آخر هو قبر الملكة «شوباد» (Queen Shubad) رقم ٨٠٠ التي نحت اسمها على ختمها الأسطواني ويقرأ الآن «بو - آبي» (Pu - abi) ، ومن الجدير بالذكر ان ختمها الاسطواني كان مصنوعاً من حجر

اللازورد. وخلافاً للقبور الأخرى فقد غاب قبر الملكة عن انتباه لصوص الآثار لذلك بقي الممر الرأسي والغرفة الحجرية وكل ما فيه بحالة سليمة. لقد كان في القبر خمسة من الجنود وعربة يجرها ثوران وعشرة من نساء القصر كانت أحداهن عازفة القيثار(٩٧) وإلى جوار الملكة كانت هناك وصيفتان. كانت الملكة ترتدي مجوهراتها الرائعة بما فيها غطاء للرأس مصنوع من الذهب والأحجار الكريمة ويمكن مشاهدة رسم يمثلها في المتحف البريطاني ومتاحف أخرى. وحول الملكة كانت الأواني الذهبية والفضية وقيثارة مزخرفة برأس بقرة وطاولة ألعاب مرصعة بالاضافة إلى حلقة لجام مصنوعة من خليط من الذهب والفضة، الكروم، و٢٦٧ قطعة من الأشياء الثمينة الأخرى. أما صندوق ملابس الملكة فكان يحجب حفرة في أرض الغرفة دخل منها العمال الذين كانوا يعدون قبر الملكة وسرقوا قسماً من محتويات غرفة موجودة تحتها. وقد افترض وولي ان هذه الغرفة هي قبر الملك لأنه كان مملوءاً بالضحايا والقرابين المرتبة بالطريقة التقليدية. لقد كان في القبر (٥٩) جثة تشمل ستة من الجنود بالاضافة إلى تسع عشرة سيدة من سيدات القصر يرتدين أغطية للرؤوس مصنوعة من الذهب. وافترض أيضاً ان الجنود الستة هم الذين قادوا الموكب الجنائزي على عربتين يجرهما ستة ثيران. وفي مكان آخر من الممر الرأسي للقبر عثر على قيثارة وعلبة رنين موسيقية مرصعة ورأس لثور مصنوع من الذهب واللازورد. وبالرغم من سرقة محتويات الغرفة فقد بقي فيها نموذج فضي لقارب وطاولة لعب مطعمة بالصدف.

أما القبر الآخر الذي تم التعرف على شاغله بواسطة ختم اسطواني فهو قبر «آكالامدوغ» (Akalamdug) رقم (١٠٥٠). وكانت جثث أربعين مرافقاً موجودة في القبر كما عثر على خنجرين احتفاليين كان لأحدهما مقبض مصنوع من اللازورد الأزرق المزين بالذهب. كما عثر أيضاً على قبر مسكالامدوغ» (Meskalamdug) رقم (٧٥٥) وهو صاحب الخوذة الذهبية الشهيرة الموجودة في المتحف العراقي والذي نقش اسمه أيضاً على مصباح ذهبي. لكن عدد الضحايا البشرية وصل إلى الأوج في القبر الشهير رقم (١٢٣٧) الذي يحتوي على ٧٤ جثة بشرية ٦٨ منها لنساء بكامل ألبستهن وشاراتهن الملكية وبعضهن يحملن القيثار. لقد وصف مالوان «Mallowan» الذي كان حاضراً عند الكشف عن محتويات القبر الانطباع الذي تركه المشهد في نفسه بقوله: «انه مشهد مروع للضحايا البشرية يمثل مجموعة من الهياكل العظمية الممدة بشكل



الشكل رقم ٥٨ : قبر الملك في مقبرة اور في عصر السلالات الباكرة وقد عثر عليها وولي تحت قبر الملكة. وعند الجدار وجدت هياكل لسيدات القصر الملكي وإلى جانبهن حراس ورماح

q = باب ـ b = مخرج ـ c = عربات. (س. ابراهيم عن وولي، ١٩٣٥).

الشكل رقم ٥٩ : قبر الملكة شوباد وقد وجدت في نفس المكان فوق قبر الملك.

q = القبر ـ b = صندوق c = عربة d = مخرج

e = حفرة f = قيثارة

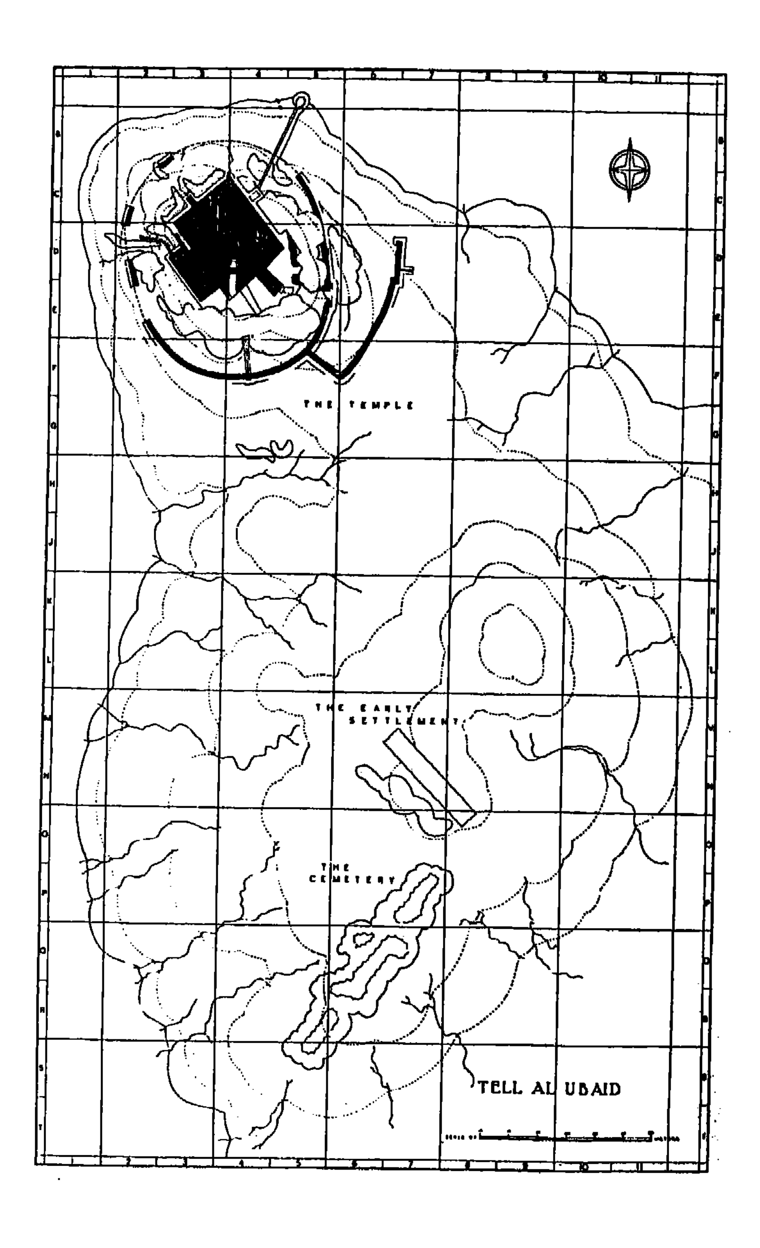
(س. ابراهيم، عن وولي، ١٩٣٥).

يجعلها تبدو وكأنها مسجاة على سجادة من الذهب». ولقد تضمنت الكنوز المأخوذة من هذا القبر عنزتين مصنوعتين من الذهب واللازورد على خلفية برونزية مزينة بأوراق النباتات. ذكر هذا المشهد وولي بنص الكتاب المقدس «كبش مقيد من قرنيه»، ويشبه مشهد العنزتين مشهد الراية الملكية ذات الأشكال المنحوتة عن الحرب والسلام والتي وجدت في قبر آخر في ان الغاية منها غير معروفة بشكل مؤكد.

وفي السنوات التي تلت هذه الاكتشافات شككت بعض الجهات في استخدام وولي لعبارة «القبور الملكية» واقترحت كبديل لذلك اعتبار شاغلي هذه القبور أشخاصاً شاركوا في بعض الطقوس الدينية المتعلقة بالخصب[٩٨]. وفي الوقت الحاضر فان الأدلة التي تؤكد النتائج التي توصل إليها وولي قد أصبحت أكثر قبولاً. وعلى اسطوانة الختم الخاص بأكالامدوغ نلاحظ انه اعطي لقب «ملك اور» وبنفس الطريقة سمي في ختم ميسكالامدوغ باسم «لوغال» الذي يعني الملك أيضاً. وفيما يتعلق بممارسة التضحيات أو القرابين البشرية نلاحظ في مقطع من ملحمة جلجامش ان البطل يرافقه في موته بعض من خدمه الخاص. ولقد أشار مالوان وآخرون غيره ان ستة أفراد من هؤلاء ينتمون إلى أسرة واحدة هي أسرة «كالام» (Kalam) المالكة وانهم ينتمون إلى سلالة سبقت السلالات المذكورة في قائمة الملوك والمرتبطة بالملك «ميسانيبادا» ومن جاء بعده. وفي الطبقة المبعثرة التي تغطي مقبرة وولي عثر على نقوش كتابية تسمي هؤلاء الملوك الذين ينتمون إلى السلالة الأولى في اور لكن ظروف هذه الطبقة توحي بأن القبور قد تعرضت للسرقة أكثر مما تعرضت له الطبقة السفلى. وبسبب هذا الوضع ربطت السلالتان بالمرحلتين الأثريتين للسلالة الباكرة (آ ـ ٣) و (ب ـ ٣).

العبيد

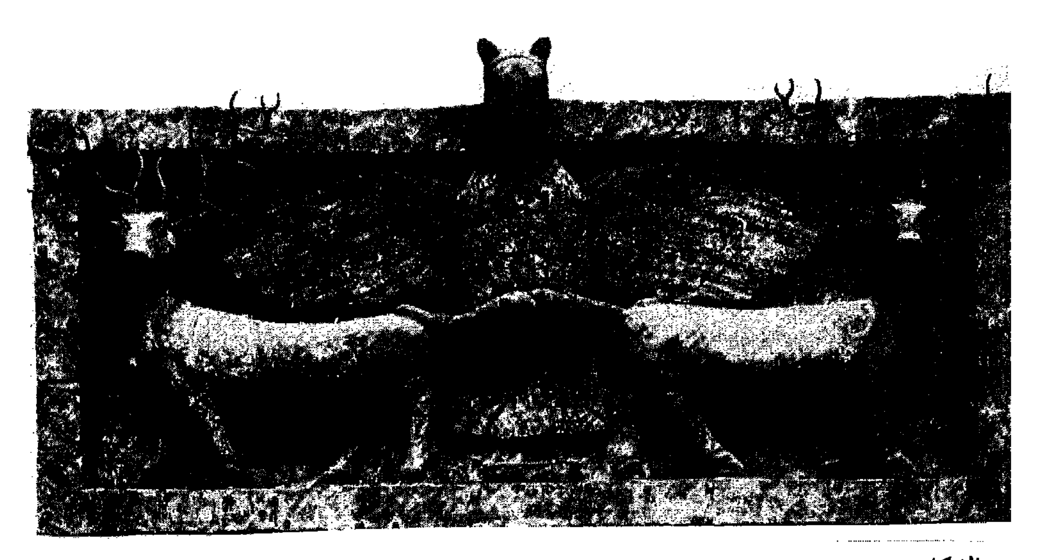
وعند هذه النقطة يجب ان نقول شيئاً عن اكتشافات وولي الأكثر قدماً، والتي تمت في عام ١٩٢٢ في موقع صغير مجاور يسمى العبيد حيث كان «هـ. ر. هال» (H. R. Hall) قد اكتشف كمية كبيرة من الآثار القديمة[٩٩]. ويبدو هنا ان مستوطنة عصور ما قبل التاريخ التي ألمحنا إليها في فصل سابق، قد تم اخلاؤها في مطلع عصر بداية الكتابة. وفي عصور السلالات الباكرة بني معبد ويحتمل ان بناءه قد تم فوق موقع مزار ديني أقدم تاريخياً. وقد كرس الملك آ ـ انيبادا (A'annippadda) هذا المعبد للالهة نين كورساغ (Nin - Kharsag) والدة وزوجة «انليل» (Enlil). ولقد بقيت واجهات هذا المعبد والمنصة المصنوعة من القرميد المشوي بالفرن بحالة سليمة كما عثر «هال» على الكثير من اللقى الأثرية المذهلة ضمن زاوية تقع بين المنصة والدرج الذي يؤدي إلى القمة. وفي وقت ما تم تجريد المعبد من الأثاث وتدميره كما وأزيلت الزخارف المعمارية



الشكل رقم ٦٠ : مخطط لموقع تل العبيد ويظهر المعبد ذو الشكل البيضوي.بني على حافة مستوطنة من عصور ما قبل التاريخ وقد استعملها السومريون كمقبرة. (عن ديلوغاز، ١٩٣٨).

لكنها وجدت في الأماكن التي سقطت أو تركت بها: العتبة العلوية للباب المصنوعة من البرونز والجسم البارز لنسر له رأس أسد والموجود بين اثنين من الخيول ربما يكون مصنوعاً لزخرفة الممر الرئيسي أما العمودان المكسوان بزخارف مطعمة ملونة فربما يكونا قد ساهما في عملية تدعيم البناء. وكانت واجهات الجدران مزخرفة أيضاً بأفاريز من الحيوانات المشكّلة بشكل نافر والملبَّسة بالنحاس بينما كانت الرسوم الأخرى تصور مشاهد شبيهة بتلك التي نراها على الأختام الاسطوانية. ان الشكل الفعلي للبناء الذي طبقت عليه مثل هذه الزخارف مايزال مجهولاً لسوء الحظ.

وفي منتصف الثلاثينات عندما عثر على بقايا معبد معاصر في خفاجة شكك ديلوغاز بأن يكون هذا المعبد يشبه تماماً نظيره في تل العبيد. وقد أكدت الأسبار الأكثر عمقاً التي استطاع ان يجريها في المناطق المجاورة لمعبد نين كورساغ حقيقة ان هذا المعبد كان محاطاً بسور بيضوي الشكل[١٠٠].



الشكل رقم ٦١: عتبة عليا لباب في المتحف البريطاني مأخوذة من معبد نين ـ كورساغ في العبيد. وجدت مع زخارف معمارية كانت قد نقلت من مكانها ووضعت في قاعدة الرصيف. تتألف من نواة خشبية مغطاة بصفائح من النحاس وتمثل ايمداغاد النسر ذا الرأس الذهبي (Imdugud) حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد وغزالين ـ الارتفاع ١٠٧ سم.

كيش

إن النماذج الوحيدة للمعابد ذات المنصات، والتي أطلق عليها المنقبون اسم

الزيقورات والتي ترجع إلى عصر السلالات الباكرة هي المعابد التي عثر عليها في موقع كيش. وسوف نتذكر دائماً ان هذه المدينة، وهي العاصمة الأولى المذكورة في قائمة الملوك، كانت موضع اجلال كبير عند السومريين. لقد اغتصب حكام المدن الأخرى الذين سيطروا على أرض سومر لقب (ملك كيش). وفي الوقت الحاضر يتمثل الموقع بمجموعة من التلال المحاذية للمجرى القديم لنهر الفرات وتقع على بعد /٩/ أميال إلى الشرق من مدينة بابل. وخلال تاريخ المدينة انتشرت بيوتها وأبنيتها ضمن منطقتين تبعدان ميلين عن بعضهما تعرفان اليوم باسم «الأحيمر» و«إنغارا» (Uhaimir - In- gharra) ولقد تم التنقيب عن هاتين المنطقتين خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن وقام بعمليات التنقيب منقبون أثريون من بريطانيا وفرنسا[١٠١].

عثر (ي. ماكاي) E. Mackay على أقدم اللقى الاثرية في تل من مجموعة انغارا التي عرفت فيها بعد باسم المنطقة (A)، حيث وجد مقبرة ترجع معظم قبورها إلى المرحلة الأخيرة من عصر السلالات الباكرة. وأثناء عملية الكشف عن القبور وجد ماكاي ان القبور الأكثر قدماً تخترق آثار مبنى قديم وهام ينتمي إلى عصر أقدم قليلاً. كان هذا المبنى هو القصر (A) وهو أول نموذج يعثر عليه لبناء ضخم ليس له طابع ديني في الفترة الباكرة من عصر السلالات السومرية. لقد أكد هذا البناء عظمة وروعة فن العمارة في ذلك العصر والتي تجلت في أروقته الضخمة وجدرانه الهائلة وغرفه ذات الأعمدة.

أما عملية التنقيب الأثري التي تمت بعد ذلك في التل الرئيسي في انغارا فكانت غزيرة الانتاج رغم انها عانت من بعض العيوب في أسلوب العمل. وبعد سنوات عديدة قام عالم حديث هو ب. ر. س موري (P. R. S. Moorey) بتوضيح تسلسل الطبقات بعد عملية اختبار مجهدة للقى الفعلية وعلاقتها بالمحتويات التي دونت في الكراسات الميدانية[١٠٢]. وكانت نتائج موري كما يلي:

عند قمة التل كان هناك معبدان مختلفان في الحجم، ينتميان إلى عصر السلالات الباكرة، وكان المعبد الصغير قد هدم جزئياً من أجل بناء معبد بابلي جديد، كما تمكن المنقبون من العثور على آثار واجهات الرصيف الذي أقيم عليه المعبد. وفي عملهم استطاعوا تحديد الأساس الأصلي للمعبد على سوية تعاصر زمنياً القصر الذي اكتشف في المنطقة (A) والذي يرجع إلى عصر السلالات الباكرة (III a). واستطاعوا أيضاً

تمييز سوية بناء تالية مفصولة عن السوية الأولى بأنقاض القرميد العميقة التي حفرت ضمنها قبور ينتمي بعضها إلى عصر لاحق وهو عصر السلالات الباكرة (III b) بينما ينتمي بعضها الآخر إلى العصور الأكادية، والتي يمكن ان توازي المقبرة الوحيدة في المنطقة (A). ولقد تم وضع أساس رصيف المعبد (الزيقورة) الأصلي فوق طبقة فيضان كانت قد غطت كامل الموقع. تم إجراء سبر هام تحت هذه الطبقة مباشرة ولقد أدى هذا السبر إلى الكشف عن جزء من منطقة سكنية هي المستوطنة (Y) وهي ذات بيوت سكنية على جانبي شارع صغير.

وقبل ان يصل السبر إلى الماء السطحي مر ضمن ثلاثة مستويات للبناء تم تأريخها بواسطة الفخار على عصري السلالات الباكرة (I و II) وكان في كل من العصرين آثار لحدوث فيضانات. ولقد كان في هذه المستويات الكثير من القبور البسيطة المحفورة تحت أرضيات الغرف كما عثر على ما يسمى بقبور المركبات التي احتوت على عربات ذات دواليب وكانت الادوات التي وجدت في القبور من أسلحة وأوانٍ مصنوعة في غالبيتها من النحاس. ومن الطبيعي ان مثل هذه القبور تحتاج إلى حفر ممرات رأسية أعمق من القبور العادية وبالتالي فانها يمكن ان تعود إلى مستوطنة بنيت فوق مستوى مستوطنة الفيضان الرئيسية. وهذا ما يجعلها معاصرة لقبور اور الملكية حيث يمكن مقارنة محتوياتها مع محتويات تلك القبور.

لاجاش LAGASH

يقع موقع تلّو (Telloh) في منتصف المسافة بين دجلة والفرات قرب المدينة الحديثة التي تسمى «شطرة». ومنذ بداية القرن الحالي، عندما أحضر منها ي. دي سارزك (E. de Sarzec) إلى متحف اللوفر تماثيل حكام لاجاش الذين كان يطلق عليهم لقب (ايشاكو)، وكانت هذه التماثيل مصنوعة من صخر الديوريت، تم التأكد انها موقع المدينة القديمة[١٠٣].

وفي عام ١٩٥٣ وجهت دراسة قام بها ثوركيلد جاكوبسن (Jacobsen) الانتباه إلى موقع مجاور يدعى تل الحيبة الواقع على بعد (١٥) ميلاً إلى الجنوب الشرقي عندها قام منقبون أثريون من متحف العاصمة ومن جامعة نيويورك بتحديد الموقع الحقيقي لمدينة لاجاش[١٠٤]. لذلك فقد أصبح مقبولاً ان نقول ان تل الحيبة وهو مدينة لاجاش

كان عاصمة للدولة كما هي نيويورك المدينة عاصمة لولاية نيويورك[١٠٥].

ومع ذلك فان اللقى الأثرية في موقع تلّو التي عثر عليها الفرنسيون في وقت مبكر من هذا القرن لم تزودنا بمجموعة هامة من الألواح فقط بل بكنوز أثرية تعود إلى زمن الملوك العظماء لمدينة لاجاش التي ذكرت في قائمة الملوك وكانت تحمل اسماءهم في بعض الحالات[١٠٦]. أما اللوحات الحجرية المنقوشة والأسلحة والأختام فترتبط بأور نانش (Ur - Nanshe) الذي ربما كان معاصراً للملك ميسانيبادا (Mesannipadda). وهناك أجزاء من نصب تحمل نقشاً أثرياً ويسمى «نصب العقبان» وهو يصور أشخاصاً يحتفلون بانتصار اياناتوم (Eannatum) حاكم لاجاش على مدينة اوما (Umma) المجاورة. وقد صور الملك وهو يرتدي خوذة شبيهة بالخوذة المدفونة مع ميسكالامدوغ (Meskalamdug) في مدينة أور. وكانت هناك المزهرية المنقوشة الرائعة التي تصور إنتمينا (Entemena) خليفة اياناتوم. وقد عرفت بعض هذه الأدوات على انها كانت جزءاً من الوقف الممنوح للمعبد الشهير المكرس للاله انليل في مدينة (جرسو)، إلا ان عمليات التنقيب المبكرة في تلّو تمت بطريقة لا يمكن معها التعرف على آثارها. وسوف نتعرف مستقبلاً على المدينة بصورة أفضل لأن بعثة التنقيب الأمريكية ماتزال تقوم بعملها.

نيبور

نيبور هي مدينة كبيرة أخرى من العهد السومري، قام بالتنقيب عنها لأول مرة هـ. ف هيلبريشت (H. V. Hilprecht) على رأس فريق من المنقبين الأثريين الأمريكيين في نهاية القرن الماضي. وتمتد التلال المعروفة اليوم باسم (نفَّر) على مسافة نصف ميل تقريباً على جانبي مجرى النهر القديم المعروف شط النيل إلى الشمال الشرقي من الديوانية. وتحت هذه التلال في الجهة الشمالية الشرقية تقع بقايا حي ديني محصن وتقع في هذا الحي الزيقورة والمعبد المخصص للاله انليل[١٠٧]. تركزت عمليات التنقيب التي قام بها ر. س. هاينز (R. C. Haines) في الستينات على منطقة تقع بين الزيقورة والمجرى القديم للنهر حيث اكتشف معبداً يعود إلى عصر السلالات الباكرة ويرتبط باسم إينانا ملكة السماء[١٠٨] ومثله مثل المعابد المشابهة في مواقع ديالي فقد أجريت عمليات صيانة وإعادة ترميم وبناء لهذا المعبد على طول المراحل الثلاثة من عصر

السلالات الباكرة. ولقد ساهم هذا المعبد في زيادة الأدلة المتوفرة من قبل حول تطور فن البناء والنحت وتصميم الفخار[١٠٩]. وفي هذا المجال فان لعملية الكشف عن المستويين (٧ و٨) على التوالي اللذين يمثلان عصر السلالات الباكرة (٢) ومرحلة الانتقال من تلك المرحلة إلى عصر السلالات الباكرة (٣ آ) وهو عصر القبور الملكية في أور، أهمية بالغة الأثر.

ولقد اتضحت عدة ملامح تاريخية هامة في المغبد الموجود في السوية (٧) فقد بني الحرمان في طرف المعبد الطويل وكان الوصول إليهما يتم عبر سلسلة من الباحات والغرف الجانبية وكانت اثنتان من هذه الغرف مبنيتان على أعمدة من القرميد الدائري لتدعيم السقف. (أنظر الشكل رقم ٧٥) وخلافاً لما كانت عليه العادة الشائعة في ذلك العصر فقد كان الدخول إلى حد الحرمين يتم عبر ممر في أحد جانبيه وهذا يستبق تقليداً أصبح معروفاً في عصر لاحق. وفي هذه المستويات وفر معبد اينانا كمية كبيرة من أعمال النحت التي كان قسم منها على شكل تماثيل نذرية أسهمت دقة معرفة طبقتها في تأمين أدلة واضحة وجديدة لدراسة تطور أساليب فن النحت. وتتمثل المنحوتات النافرة في مجموعة من اللوحات الجدارية المربعة التي مازال الهدف منها مثار جدل بالرغم من ان التصاميم والأشكال كانت شائعة في كل مواقع هذا العصر وفي عصور لاحقة[١١٠]. أما نماذج الفخار فقد تم إجراء دراسة تمهيدية لها من قبل وهي تؤكد إلى درجة كبيرة النتائج المتعلقة بالتاريخ الزمني الذي ظهر عن نشر سلسلة ديالي.

آشور وماري

ونتتقل هنا إلى موقعين آخرين يقعان وراء حدود السهل الطموي ومع ذلك فهما يعتبران القاعدة الأمامية للمنطقة السياسية والثقافية المسماة بالسومرية. الموقع الأول هو آشور (قلعة شرقاط) على نهر دجلة ويبعد مسافة ١٨٨ ميلاً إلى الشمال من بغداد. أما الموقع الثاني فهو مدينة ماري (تل الحريري) الواقعة على نهر الفرات في سورية والتي تبعد (٧,٥) ميلاً إلى الشمال من الحدود السورية العراقية الحالية.

لقد أنشئت مدينة آشور، التي أصبحت فيما بعد عاصمة للدولة، على نتوء صخري مرتفع يطل على النهر عند التقائه مع أحد الروافد الثانوية[١١١]. وخلال الألف الثاني قبل الميلاد أحيطت المدينة بسور قوي أضيف له سور خارجي آخر فيما بعد

فأحاط بكل الضاحية السكنية وازداد بذلك طول الواجهة إلى أكثر من (١,٨) ميلاً. (انظر الشكلين ١٢٦ ـ ١٢٧) وضمن الأبنية العامة التي تشمل الزيقورات (المعابد) الثلاثة التي احتلت المرتفعات الشمالية للمدينة اكتشف المنقبون الألمان بإشراف و. اندريه (W. Andrae) معبداً مكرساً للالهة عشتار تم تأريخ أساسه القديم على عصر السلالات الباكرة. وبعد إجراء عملية تسجيل للأبنية القديمة استطاع المنقبون دراسة معبد عشتار والكشف في سوية الأبنية التي بقيت سليمة عن مخطط كامل للمعبد وانقاذ قسم كبير من محتوياته[١١٢]. وبعد سنوات عديدة استطاع الفرنسيون العثور على لقى مشابهة في ماري، وكانوا يتوقعون العثور على بقايا تعود لعصر السلالات الباكرة لأن المدينة ذكرت في قائمة الملوك كإحدى المدن التي تحدرت منها سلالة ملكية حكمت سومر. ومن المؤكد تماماً ان الفرنسي آ. بارو (A. Parrot) قد استطاع في موقع مجاور للبوابة الرئيسية للحصن المحيط بالمدينة اكتشاف معبد مكرس للالهة عشتار. وقد أرِّخت السويات الثلاث للبناء من (٢ ـ ٩) على عصور ما قبل سارغون. وفي السنوات التالية تم اكتشاف معابد أخرى قرب مركز المدينة، وكما هي الحال في معبد عشتار فقد كانت الحصيلة من التماثيل والأدوات غزيرة. وفي هذه الأثناء كان بارو وفريقه مشغولين بتنظيف القصر الهائل الذي يعود إلى الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. (انظر الشكل ١١) وقد بني هذا القصر مكان قصر قديم كان معاصراً لمعبد عشتار. وأثناء عملية تعزيل هذا البناء عثر المنقبون على مخبأ للأشياء الثمينة شملت ختماً اسطوانياً قدمه ميسانيبادا[١١٣] ملك أور للحاكم المحلي للمدينة. وقد تم تأريخ هذا البناء على المرحلة الثالثة من عصر السلالات الباكرة حين قامت العلاقات بين المدينتين السومريتين[١١٤].

يمكن اضافة المعابد في هذين الموقعين إلى مجموعة المعابد السومرية الصغيرة في مواقع ديالي حيث تتفق جميعها في التقاليد المعمارية وغيرها. لقد كان لكل منها مزار مستطيل أو أكثر كما وتتميز بوجود المذبح في أحد طرفيها والمدخل في الطرف الآخر. وفي كل منها هناك نماذج لتماثيل نذرية باقية وأمام الجدران الجانبية توجد مقاعد للجلوس مبنية من الفخار. وفي آشور نلاحظ وجود أنواع أخرى من المواد النذرية والمظاهر الطقسية على شكل آنية مصغرة مصنوعة من الطين النضيج. أما الأجزاء التي عثر عليها للوح مدهون مصنوع من الجص ويمثل شكلاً جاثماً للالهة عشتار فقد ظن

المنقبون الأثريون انه يعبر عن وضعية يمكن للتماثيل الدينية اتخاذها.

تل الخويرة

ولا بد من كلمة أخيرة عن هذا الموقع النائي في شمال سورية بين الخابور والبليخ رافدي نهر الفرات. بعد ان قام انطون مورتغات (Anton Moortgat) بالتنقيب عن



الشكل رقم ٦٢: تمثال سومري من خويرة في شمال سورية. وهي مدينة تبنى سكانها لباس وعادات شعب غريب ساد العالم في ذلك العصر.

هذا الموقع ظهر انعكاس غريب للحضارة السومرية تجلت فيه الاختلافات البيئية والتأثيرات الغربية[115]. كان هذا الموقع مزدحماً بالسكان خلال العصور الأكادية وعصور السلالات الباكرة أما الأبنية هنا فقد أنشئت من حجارة لا أثر فيها للزخرفة وكان يعلوها بعض القرميد أما الحرف اليدوية فقد تأثرت بقرب الموقع من مصادر المعادن. وللمعابد في هذا الموقع أروقة ذات أعمدة تذكر بمعابد عصر بداية الكتابة في تبه غاورا ويمكن مقارنتها بالأبنية السكنية في العصر البرونزي في بلاد الأناضول. كما وعثر على غرف للدفن غريبة عن المدافن السومرية بالاضافة إلى الكثير من التماثيل النذرية الصغيرة الحجم والرديئة الصنع. يضاف كل هذا إلى الأواني الفخارية التي تحمل نقوشاً نافرة والكثير من الأشياء التي تنتمي إلى عصر السلالات الباكرة. وعن سكان الموقع قال «مالوان» انهم «لم يكونوا سومريين بالضرورة ولم يكن لهم أي انساب سامية، ويمكن الافتراض بانهم كانوا مواطنين محليين مثل الكثيرين ممن كانوا قبلهم أو جاؤوا بعدهم وتبنوا زي وسلوك وأساليب حياة شعوب غريبة كانت مسيطرة على العالم في ذلك العصر»[116].

اختلافات في المصطلحات الفنية Variants in Terminology

يجدر بنا ان ننبه قراء تقرير مورتغات عن تنقيباته الأثرية[117]. ان بعض العلماء الألمان استعملوا مصطلحات فنية مختلفة للدلالة على التقسيمات الزمنية الفرعية لعصر السلالات الباكرة فاستبدلوا التقسيمات المألوفة بمصطلحات تعتمد على دراسة النقوش وكانت التعابير التي استعملوها كما يلي:

١ ـ عصر ميسيليم (Mesilim) من إسم ملك كيش الذي وجد مكتوباً على رأس صولجان. ويرتبط هذا الاسم بمجموعة من الأختام الاسطوانية المصنوعة بأسلوب ديالا الذي اتسم بالتأكيد على الخطوط. وقد سماه شترومنغر (Stromenger) الأسلوب التجريدي القديم لعصر السلالات الباكرة الثاني. ويتوافق هذا العصر أيضاً مع عصر معبد اينانا في نيبور (السوية ٨).

٢ ـ بعد ذلك جاءت مرحلة حددها مورتغات بأختام اسطوانية حول نقش أثري قرأه كما يلي ايمدوغود سيكورو (Imdugud - Sikurru) ويسمي مورتغات هذا العصر اسم عصر تل الفاره. ونلاحظ في هذه الاختام حداثة في الأسلوب ونزعة

طبيعية واضحة تنتمي إلى عصر السلالات الباكرة الثاني وتمتد إلى عصر السلالات الباكرة (٣ ـ آ) ويماثل المستوى (٧) من معبد اينانا في نيبور.

٣ ـ في هذه المرحلة يدمج مورتغات أسلوب ميسكالامدوغ مع (أور ـ ١ ـ) في عصر ميسانيبادا وهو بذلك يساوي هذه المرحلة مع عصر السلالات الباكرة (٣ ـ ب)[١١٨].

لقـد تعرضت هذه المصطلحات للكثير من النقد فأشار مالوان إلى ان اسم ميسيليم لم يرد ضمن قائمة الملوك وان رأس الصولجان المذكور ربما يرجع إلى فترة زمنية متأخرة قد تكون عصر السلالات الباكرة (٣). ويذكِّر مالوان أيضاً ان القبور الملكية في أور قد حفرت حتى طبقة تحتوي ألواحاً أقدم من الألواح التي وجدت في تل الفاره. وعـلى العموم فان العلماء الامريكيين والبريطانيين يميلون إلى البساطة وإلى تحديد المراحل بواسطة الأعداد.

الفصل السادس

العمارة والفن في عصر ما قبل سارغون

لقد لخصنا حتى الآن النتائج الرئيسية للتنقيبات الأثرية في المدن القديمة التي تم انشاؤهـا أو الإقامة بها خلال أقدم العصور التاريخية. وان كل المعلومات عن الحضارة التي نشأت في تلك العصور وعن أنماط الحياة التي انتجتها قد تم الحصول عليها من مصدرين. المصدر الأول هو الآثار أو البقايا المادية التي كشفت عنها أو أنقذتها عمليات التنقيب والمصدر الثاني هو ما تحتويه الوثائق المكتوبة التي توفرت بين أيدي العلماء في حقـل الـدراسات اللغوية. ولأن اهتمامنا يتركز بشكل رئيسي على المصدر الأول فعلينا الآن ان ندرس اللقى الأثرية بكثير من التفصيل.

فن النحت

التماثيل

قد يبدو لنا غريباً في هذه الأيام ان فن النحت كان يمثل قطاعاً هاماً من الأعمال الفنية في بلاد الـرافـدين. وربـما تكون ندرة المادة الفنية وبعد المصادر التي يمكن

الحصول منها على هذه المادة قد أعطت العمل الفني قيمة كبيرة تتناسب مع الأغراض التي استعمل من أجلها. والحقيقة التي يجب ان نتذكرها مبدئياً هي ان كل أشكال فن النحت السومري، سواء كانت على شكل تماثيل مستديرة أو لوحات ونقوش نافرة، كانت ذات صفة دينية وهدفت إلى تأدية وظائف طقسية ضمن حدود المعابد. وفي هذا المجال فان أكثر الأشكال الفنية شيوعاً وأكثرها تمييزاً لعصر السلالات الباكرة هي مجموعة التماثيل النذرية التي ذكرت أكثر من مرة عند وصفنا لمحتويات المعابد السومرية القديمة. ولحسن الحظ فان العبارات المنقوشة على هذه التماثيل لا تترك إلا القليل من الشك في الغاية منها. فالتمثال الذي يصور متعبداً والموضوع في هيكل ديني لا يمكن ان يكون إلا الرمز لعملية شفاعة أمام الاله[١١٩].

في كل المعابد المذكورة في الفصل السابق وجدت مثل هذه التماثيل وسواء كانت منقولة من مكانها أو محطمة إلى جوار مقعد القرميد الذي كانت موضوعة عليه أو مبنية ضمن المذبح فان انقاذ هذه التماثيل قد ساهم إلى حد بعيد في تكوين معلوماتنا عن فن النحت السومري. وكل ما ينقصنا في اكتشافاتنا في هذا المجال هو التماثيل الدينية الحقيقية التي كانت موضوعة على منصة المذبح كونه البؤرة الرئيسية في الطقوس الدينية السومرية. وضمن مخزن المنحوتات الذي وجد في المعبد المربع في تل أسمر تمكن



الشكل رقم ٦٣: تمثال حجري لمتعبد من خفاجه في عصر جمدة نصر. وهو يمثل أقدم النماذج المتكررة للتماثيل النذرية التي وجدت بأعداد كبيرة في مزارات معابد العصر السومري الأخير. كان أسلوب النحت مايزال بعيداً عن التطور. الارتفاع ١٠ سم.

هنري فرانكفورت (Henri Frankfort) من التأكد ان اثنين من التماثيل منحوتان في نصف الحجم الطبيعي يمثلان الهاً والهة وذلك بواسطة نقوش ورموز منحوتة على قاعدة التمثال الذي يصور الاله الذكر. إلا أن هذا الدليل بالاضافة إلى العينين الجاحظتين الكبيرتين لم يكن مقنعاً للكثير من النقاد الذين لاحظوا فيه موقف المصلي المألوف في التماثيل النذرية الأصغر حجماً.

ان الأيدي المطوية للتماثيل التي تحمل كؤوساً يوشك شرابها ان ينسكب بالاضافة إلى بعض المظاهر الأخرى ترتبط منطقياً بالشخص المتعبد أكثر مما ترتبط بالاله المعبود. وفي معبد عشتار القديم في آشور تخيل و. اندريه تمثالاً مصنوعاً من الجبس على شكل نحت نافر فوق المذبح على انه تمثال اله وذلك لوجود نسخة مصغرة منه بين انقاض الحرم[١٢٠]. لم يكن هذا الافتراض مقبولاً تماماً لعدم وجود أي أثر مميز له على الجدار. وفي الواقع ومن المعقول جداً ان التماثيل الدينية كانت كبيرة القيمة وسهلة النقل لذلك لم تدم طويلاً.

لقد كان فرنكفورت أول من يجري دراسة تحليلية منهجية لهذه المنحوتات معتمداً كمادة رئيسية لدراسته على ما يقارب المئتين من التماثيل الكاملة أو المحطمة التي أخذت من معابد مواقع ديالي[١٢١]. وفي الوقت الذي كان في ذهنه ان خصوصية هذه التماثيل ربما كانت محلية فقد استطاع ان يميز بين مرحلتين منفصلتين في تطور تصاميم هذه المنحوتات. والمرحلتان المبكرة والمتأخرة في تطور تقاليد التصميم تتزامنان كما أثبت فرانكفورت مع الحقبة الثانية والحقبة الثالثة من عصر السلالات الباكرة في مواقع ديالي على الأقل. وفيما يتعلق بالمرحلة المبكرة لهذين الأسلوبين من النحت فإذا كنا بصدد البحث عن أصولها فيمكننا العثور عليها ضمن الأعمال القليلة الباقية لنحاتي عصر بداية الكتابة التي أشرنا إلى بعض منها فيما سبق. ومن هذه الأعمال فان الشيء الوحيد الذي يمكن مقارنته بهذه التماثيل النذرية في العصور اللاحقة هو التمثال الانثوي المنحوت بقليل من الاتقان في خفاجه من عصر جمدة نصر. فالأيدي المطوية الملتفة حول شيء مفقود توحي بوضع المتعبد[١٢٢]. ومن وجهة نظر التسلسل الزمني فان هذه الأعمال تفصلها مرحلة زمنية طويلة تتوافق مع عصر السلالات الباكرة (I) ولم يمكن ربط المنحوتات التي اكتشفها فرانكفورت بأية أعمال بشكل مؤكد حتى الآن. لذلك فمن المبرر ان نستنتج ان أسلوب عصر السلالات الباكرة (II)، قد تطور بشكل



الشكل رقم ٦٤ : تماثيل نذرية من عصر السلالة الباكرة (٢) من المعبد المربع في تل أسمر. ظن المنقبون ان التمثالين الأكثر طولاً يمثلان اله والهة. يظهر في التماثيل الأسلوب الباكر في النحت مع استخدام الأشكال الهندسية. طول الأكبر: ٦٧ سم.

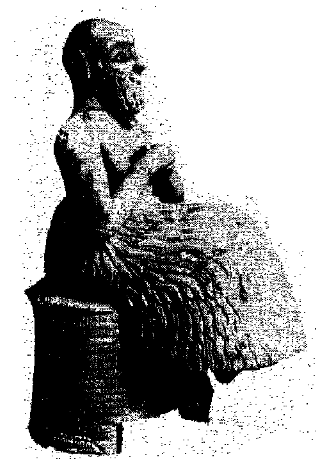
مستقل عن أي تأثير. يمكن ان نرى خصائص هذا الأسلوب في مجموعة التماثيل في المعبد المربع بتل أسمر والتي تبدو وكأنها تنتمي إلى مدرسة واحدة من النحاتين(١٢٣).

تسعة من المتعبدين في هذه المجموعة رجال يرتدون الزي التقليدي لذلك العصر ويتكون هذا الزي من تنورة صوفية بسيطة لها حزام وحاشية طويلة. أحد هذه التماثيل يصور رجلاً أصلع وحليق الذقن يمثل الكاهن أما التماثيل الأخرى فكانت لها لحى مربعة وشعر طويل مجعد ومصبوغ باللون الأسود وكانت العيون مطعمة بالصدف وحجر اللازورد. التمثال الثاني عشر كان منحوتاً من المرمر ويمثل كاهناً عارياً بطريقة طقسية ويرتدي على الرأس قبعة نسوية. أما التمثالان الانثويان فكانا يرتديان الثوب التقليدي الذي يمر بشكل مائل فوق الصدر وينثني عند الكتف الأيمن. أما بالنسبة لنموذج الشعر فاننا نلاحظ وجود نوعين من طرق التصفيف

المعروفة في المرحلتين الثانية والثالثة من عصر السلالات الباكرة فالضفيرة هنا تأخذ شكل الهالة التي تعبر قمة الرأس بشكل عمودي مع كعكة من المؤخرة. كما ويمكن مشاهدة الكثير من المبتكرات في هذا العصر. الغرابة في أسلوب التكوين لهذه التماثيل تتجلى في الأداء المتميز للجسم البشري الذي تختزل مكوناته إلى أشكال مجردة. ومهما تكن الفوارق بين التماثيل الفردية فانها تتبع نفس المبادىء، وقد استطاع الفنان تكييف العناصر المكونة للملامح المتنوعة في صيغة شبه هندسية. ويمكن ان نؤكد ان بساطة الأشكال جاءت نتيجة نقص المهارة التقنية عند صانعي هذه التماثيل على الرغم من ان التنفيذ يثبت الاهتمام الواضح بالتصميم. ويمكن أيضاً ملاحظة التناقض المثير في التماثيل المصنوعة من المعادن المسكوبة في عصر السلالات الباكرة الثاني (II). كانت صناعة المعادن مفهومة تماماً وقد عثر في موقعي خفاجه وتل عقرب على بعض الأعمال المذهلة المصنوعة من النحاس بين اللقى الأثرية وكانت التصاميم طبيعية خالصة ولم تظهر فيها أية دلالات على عملية تشكيل مدروسة.

ومن أجل دراسة فرانكفورت فان أسلوب عصر السلالات الباكرة الثالث في فن النحت تمثله التماثيل النذرية في معابد إله القمر (Sin) في خفاجه. كما تمثل هذا الأسلوب بشكل كبير نماذج مأخوذة من مواقع أخرى في سومر وفي مناطق بلاد الرافدين العليا حيث كان التفريق في الأساليب الفنية في المرحلتين أقل وضوحاً. لقد اكتسب النحاتون الكثير من الثقة بأنفسهم في الفترة الأخيرة فابتعدوا عن أساليب التبسيط وبدوا أكثر جرأة في اهتمامهم بدقائق وتفاصيل المظهر الجسمي. فقد أبرزوا تفاصيل الجسم وحددوا الفم والخدود لاعطاء الوجه التعابير المناسبة واستبدلوا تموجات الشعر واللحية بنموذج من التجعيدات التي تفصلها فيما بينها ثقوب في بعض الأحيان. كما حدث تغير واضح في تصاميم ورسوم الملابس حيث ظهر للمرة الأولى ما يسمى بالكوناكس (Kaunakes) وهي طريقة في النسيج يغطي فيها الثوب بخصلات من الصوف بشكل متداخل مما دعا إلى الاعتقاد بانها محاولة لتقليد جلود الأغنام[١٢٤]. وبالتأكيد فقد غيرت هذه الطريقة مظهر التماثيل بشكل واضح كما ظهرت الطريقة في أشكال أخرى من فنون التصوير في ذلك العصر.

وفي الواقع فان وحدة الأساليب والتقاليد الفنية ظهرت بشكل مثير على طول منطقة بلاد الرافدين حيث تحددت موديلات (أنماط) الملابس والمظاهر الشخصية



الشكل رقم ٦٥ : تمثال ايبيه ايل من مدينة ماري، وهو يمثل فترة متأخرة من عصر السلالات الباكرة ٣ . يتميز ثوب الكوناكس ببتلات الصوف وتـدل اللحية على استعمال المثقب الذي يميز فن النحت في ماري . التمثال مكرس للالهة عشتار. الارتفاع ٥٢,٥ سم .



الشكل رقم ٦٦ : تمثال اور ـ نانش من معبد عشتار في ماري . ووفقاً للنقش المكتوب عليه فهو يمثل مغن أو مغنية في قصر الملك ايبلو ليل مما يبرر النموذج غير التقليدي للشعر. عصر السلالات الباكرة ٣ . الارتفاع ٢٦ سم .

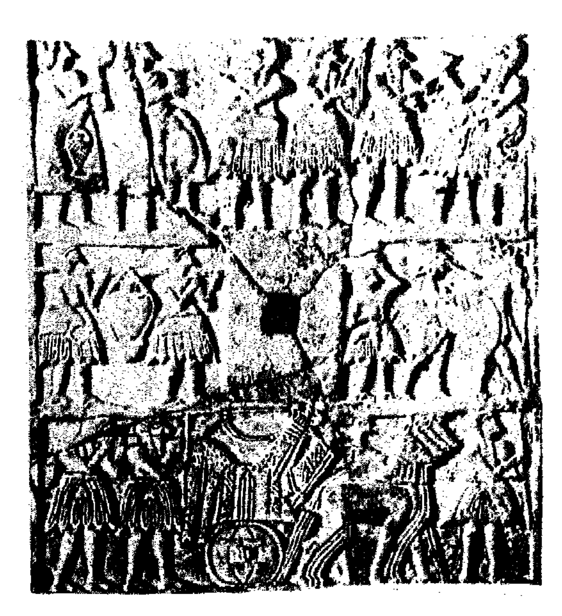
بتقاليد ثابتة بغض النظر عن الفوارق المحلية أو العرقية . ان عملية حلاقة شعر الرأس وإطلاق اللحية كانت معروفة في مملكة ماري في الفرات الأعلى التي كان سكانها من أصل غير سومري كما نلاحظ اتباع نفس الطريقة في تماثيل خفاجه والوركاء . من معبد عشتار ومعابد أخرى تعود لعصر السلالات الباكرة ومن هذا الموقع الشمالي حصل المنقبون على أروع التماثيل وأكثرها سلامة وعلى العديد منها نقشت أسماء أصحابها ووظائفهم[١٢٥] . ويظهر في أحد التماثيل مدير المعبد «إيبيه ـ إيل» وهو يجلس على كرسي

ويمكن مشاهدة مثل هذا التقليد في مواقع خفاجه وغيرها. وفي التماثيل كانت النسوة فقط يرتدين لباساً للرأس يشبه القلنسوة وكانت إحداهن ترتدي ثوباً مثنياً من الأعلى، وعلى عكس ذلك كانت المغنية اور ـ نانشي (Ur - Nanshe) تجلس القرفصاء على وسادة وكان شعرها مفروقاً في وسط الرأس وبدون تجاعيد[١٢٦].

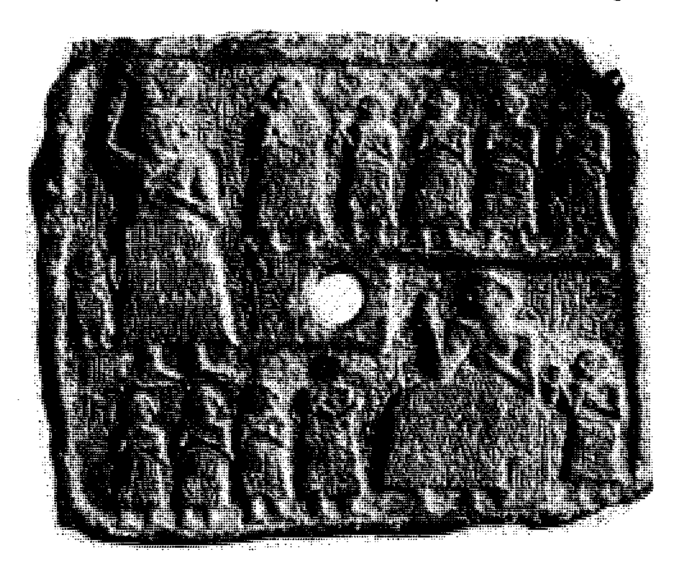
أما التماثيل التي تصور كائنات غير بشرية فكانت نادرة ومنها على سبيل المثال تمثال البقرة ذات اللحية المصنوع من المرمر وهو مأخوذ من معبد «نينتو» في خفاجه وقد توقع ديلوغاز (Delougaz) انه تمثال ديني[١٢٧]. ويجدر بنا الآن ان ننتقل إلى موضوع نحت النقوش النافرة التي عثر عليها بوفرة وكانت على قدر كبير من الأهمية.

النحت النافر Relief Carving

تمثل هذا النوع من الفنون في عصور السلالات الباكرة بأفضل صورة مجموعة من اللوحات الجدارية المصنوعة من الحجارة أو الاردواز. كانت هذه اللوحات مربعة الشكل ومثقوبة من الوسط ومزينة برسوم نافرة وأنواع مختلفة من المشاهد التصويرية. ولقد نوقش الغرض من هذه اللوحات بشكل واسع وقدمت الكثير من الافتراضات البارعة حول هذا الموضوع[١٢٨]. من الواضح تماماً انها كانت تثبت على الوجه الداخلي من الجدار بواسطة اسفين وهذا ما تؤكده بعض النماذج التي تكون فيها الحافة المكشوفة على جانب الحجارة المربعة التي كان ينوى ان تغطى بمحيط من الجص. تصور هذه اللوحات أرتالاً من البشر المشغولين بأداء طقوس دينية أو المشاركة في احتفالات ملكية كما يهدف بعضها إلى تخليد ذكرى حدث تاريخي هام. وفي أحد النماذج الفنية سجلت المناسبة وأسماء المشاركين في الاحتفال بواسطة النقوش المنحوتة على اللوحة. نشاهد أور نانشي شريف لاجاش وهو يحمل القرميد من أجل بناء معبد ومعه أولاده ومرافقوه. وهناك نماذج أخرى تمثل لوحات تصويرية مكررة في فن النحت السومري لدرجة ان قطعة مفقودة من لوحة جدارية من خفاجه يمكن ترميمها بنسخة مطابقة لها عثر عليها في «أور» الواقعة على بعد ١٠٠ ميل[١٣٠]. وفي لوحة الوليمة التي يتم فيها تقديم الطعام والشراب للملك نشاهد عملية تجهيز العربة الملكية في الأسفل وتكتمل اللوحة بمشاهد الموسيقيين والحيوانات المنزلية.



الشكل رقم ٦٧ : لوح جداري سومري من عصر السلالات الباكرة ٣ ـ في خفاجة. يظهر الخدم وهم يرافقون الملك وعربته. استبدلت قطعة مفقودة من أسفله بقسم من لوح مماثل من اور مما يدل على ان التصميم كان مألوفاً في ذلك العصر ـ المساحة ٥١,٥ سم٢.

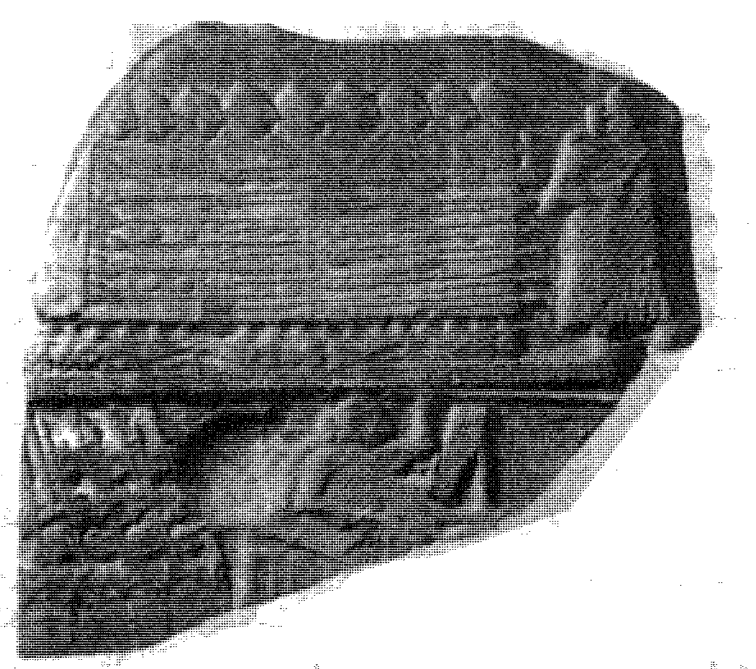


الشكل رقم ٦٨ : لوح جداري منحوت بشكل نافر من تلو ـ يظهر اور نانش من لاجاش وهو يحمل سلة مملوءة بالقرميد لبناء معبد. ويظهر في مشهد آخر بين أطفاله ـ النقوش الكتابية ظاهرة غير طبيعية في هذا اللوح ـ الارتفاع ٤٠ سم.

وكـما ذكـرنا سابقاً فقد عثر على سلسلة هامة من هذه اللوحات في نيبور في المستـويين (٨) و(٧ ـ ب) من معبـد اينانا. درس العالم د. ب. هنسن[١٣١] هذه اللوحات بعناية كبيرة وأشار إلى أن النماذج القديمة منها قد رسمت بخطوط عميقة بينما أصبحت النـماذج الأحـدث بارزة على خلفية راجعـة. اقتصرت التصاميم في هذه المرحلة على رسوم بسيطة تشبه الأختام الاسطوانية وفي المرحلة الثانية تطورت النماذج من خلال عملية التشكيل التفصيلية وبدأت تبرز فيها المضامين الفكرية. ونذكر هنا الموسيقي الذي رسم في مشهد الوليمة الملكية من السوية (٣ ـ ب) في نيبور فهو يحمل قيثارة ذات ثمانية أوتار وعلبة أصوات تشبه رأس الثور. وهو يطابق تماماً تلك اللوحات التي عثـر عليهـا في القبـور الملكية في مدينة أور في عصر السلالات القديمة (٣ ـ آ)[١٣٢].

لقد وصل فن النحت السومري إلى درجة عالية من الكفاءة في المرحلة الأخيرة من عصر السلالات الباكرة (٣ ـ ب). ولسوء الحظ فانه لم يبق إلا القليل من النماذج الفنية الكبيرة لذلك فان تقويمنا سيعتمد على الأثر التذكاري المسمى «نصب العقبان» وقد عثر المنقبون الأثريون الفرنسيون في منطقة «تلّو» على أجزاء منه حفظت في متحف اللوفر. تخلد المشاهد المنحوتة بشكل أفقي على جانبي الصخر ذكرى انتصار «اياناتوم» (Eannatum) حاكم لاغاش على دولة «اوما» (Umma) المجاورة. فالملك، الذي يرتدي خوذة تشبه الخوذة في قبر «ميسكالامدوغ» (Meskalamdug) في أور، يقود كتيبة من جنوده إلى المعركة ويسوق عربة في مقدمة مجموعة من جنود المشاة. ونراه بعد ذلـك يشرف على عملية دفن الموتى من الجند. وعلى الجهة الأخرى ينسب النصر بشكل رمزي إلى الاله نينجيرسو (Ningirsu) اله القتال، ابن الاله «انليل» (Enlil) الذي يجمع ضحاياه بشبكة مختومة بصورة النسر ذي رأس الأسد. ان هذا الأثر الفني بتعبيره عن فكرة دينية مجردة وبأسلوبه التصويري البارع يمكن ان يعتبر أحد أهم الوثائق في تاريخ البشرية.

وإذا عدنا قليلاً إلى مرحلة عصر السلالات الباكرة الثاني فاننا سنلاحظ وجود أشكال أخرى من فن نحت الحجارة في المعابد. فهناك على سبيل المثال المزهرية مع أشكال منحوتة جزئياً والنموذج المزخرف باتقان والمأخوذ من تل عقرب الذي يصور البطل العاري ذا اللحية المعروف على الأختام الاسطوانية وهو يمسك باسدين من ذيليهما. وفي نموذج آخر نشاهد الكاهن الراكع، وهو عار أيضاً، ويضع مزهرية على



الشكل رقم ٦٩ : قسم من نصب حجري يسمى «نصب العقبان» من تلو ـ يظهر ايانا توم الوكيل المقدس لمدينة لاجاش وهو يقود كتيبة من الجنود السومريين ـ كما يقود عربته في الأسفل. يرتدي ايانا توم خوذة شبيهة بخوذة ميسكالا مدوغ التي وجدت في قبره في اور. الارتفاع ١٨٢ سم.



الشكل رقم ٧٠ : قسم من منحوتة متطورة من تل عقرب في عصر السلالات الباكرة ٢ وهي منحوتة بشكل نافر يشبه مشهد البطل في الاختام الاسطوانية. يحمل البطل أسوداً مرقطة. الارتفاع ٢٠ سم.

رأسه. وهناك أيضاً مجموعة من الأواني التي بقيت لغزاً لفترة طويلة من الزمن بسبب انتشارها في أقطار أخرى إضافة إلى بلاد الرافدين. وهذه الأوعية هي أوان منبسطة القعر ولها جوانب عمودية مصنوعة من الحجر الأخضر اللين الذي كان يسمى سابقاً باسم الستاتيت والمعروف الآن باسم حجر الكلوريت. تصاميم هذه الأواني فريدة من نوعها وإذا أخذنا نموذجاً من خفاجه موجوداً في المتحف البريطاني فانه يصور شكلاً بشرياً سومري المظهر يحمل ثعباناً مبرقشاً كما توجد جداول من الماء متموجة حول وجه الاناء بين رسوم الوحوش والرموز الاسطورية(١٣٣). وتشمل هذه الوحوش الأسود والفهود والخنازير وطيور القنص وغيرها. والأمر البارز وغير الطبيعي هو وجود الثيران المحدبة وهي غير مألوفة في منطقة بلاد الرافدين ولقد طعمت هذه الأشكال ببعض المعجون أو الحجارة الملونة. ويبقى الأمر الغريب والهام هو الانتشار الجغرافي الواسع لهذه الأواني فقد وجدت نماذج منها في منطقة ماري في أقصى الشمال كما



الشكل رقم ٧١: اناء من الستاتيت مستورد من بلوشستان ـ يظهر فيه تمثال سومري وثعبان منقط وثور محدب الظهر ـ وهو نوع حيواني غير معروف في بلاد الرافدين ـ كانت هذه الأواني واسعة الانتشار في بلاد الرافدين وبلاد الفرس. الارتفاع ١١,٤ سم.

وجدت في الجنوب من سومر في مواقع الخليج العربي، يضاف إلى ذلك وجودها في مناطق بعيدة جداً مثل «موهنجو- دارو» (Mohenjo - daro) في وادي نهر الهندوس (Indus - Valley).

ولقد تم مؤخراً إلقاء بعض الضوء على موضوع الصناعة الحرفية المحلية من خلال اللقى الأثرية في موقع استثنائي يسمى «تبه يحيى» (Tepe - Yahya) إلى الجنوب من كيرمان على الطريق الرئيسي بين سومر وشمال الهند. ففي هذه المنطقة وفي سوية تعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد استطاع لامبرغ كارلوفسكي (L. Karlovsky) الحصول على أكثر من ألف قطعة من أواني الستاتيت، بعضها غير مكتمل الصنع، مع كمية كبيرة من المادة الخام. وقد تم فيما بعد تحديد موقع قريب أخذت منه المادة الخام المستعملة في صنع هذه الأواني[١٣٤]. إلا أن الأهمية الرمزية والخصائص الطلسمية التي جعلتها منتشرة بشكل واسع ماتزال لغزاً غامضاً[١٣٥].

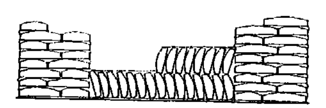
فن العمارة Architecture

أساليب البناء

انشأ السومريون وغيرهم من سكان بلاد الرافدين أبنيتهم من القرميد الطيني المصنوع في قالب رباعي الجوانب، وكان القرميد يجفف في أشعة الشمس. وحتى نهاية عصر بداية الكتابة كانوا يستعملون في البناء قطعاً من القرميد مستطيلة الشكل ومسطحة وكانوا يضعونها بشكل أفقي، أما بعد الفترة الانتقالية التي تشمل عصر السلالات الباكرة الأول فقد اختفت هذه الطريقة وبدؤوا يتبعون طريقة جديدة في البناء. لقد أصبح القرميد الطيني أكبر حجماً واتخذ شكلاً محدباً قليلاً بالاضافة إلى وجود سطح مستدير غالباً ما تظهر عليه طبعات للأصابع والأبهام[١٣٦]. كانت قطع القرميد توضع على حرفها، كما توضع الكتب على الرفوف، على شكل مجموعات متتابعة مائلة على أحد الجانبين وفي اتجاهات متعاكسة. ويعتبر هذا النموذج معياراً للمرحلتين الثانية والثالثة من عصر السلالات الباكرة. ولقد ثبت ان استخدام القرميد المشوي مناسب بصورة أفضل لبناء المنصات وسطوح الجدران في أبنية يستعمل فيها الماء وكذلك من أجل اكساء الواجهات الخارجية. وفي مواقع قليلة مثل أريدو وأور وماري توفرت بعض الصخور ومع انها كانت سيئة الخواص فقد



الشكل رقم ٧٢: في قرى العراق مازالوا يصنعون القرميد من الطين المعالج بالقش والمصبوب بقالب خشبي بدون قعر. يتم صقل السطح والتجفيف في أشعة الشمس.



الشكل رقم ٧٣: أسلوب بناء القرميد المستوي ـ المحدب وقد استخدم حصراً في عصري السلالات الباكرة (٢ ـ ٣).

استعملت في بنـاء الأساسات أو طحنت لصناعة الجبصين الذي كان يستعمل في رصف أرضيات الغرف. وفي عصر السلالات الباكرة يفترض انهم استخدموا جذوع النخيل ونشارة الخشب والغضار في البناء. أما الأبواب فكانت تثبت على محاور من الحجارة بينما تحفظ النوافذ وهي عالية وصغيرة الحجم بحواجز متصالبة ومثقوبة من الطين النضيج. وفي حالـة عدم وجود الخشب المناسب نلاحظ ندرة استخدامهم للأعمدة الخشبية في تدعيم السقوف وكانوا يستعيضون عنها بأعمدة دائرية من القرميد(١٣٧).

المعابد

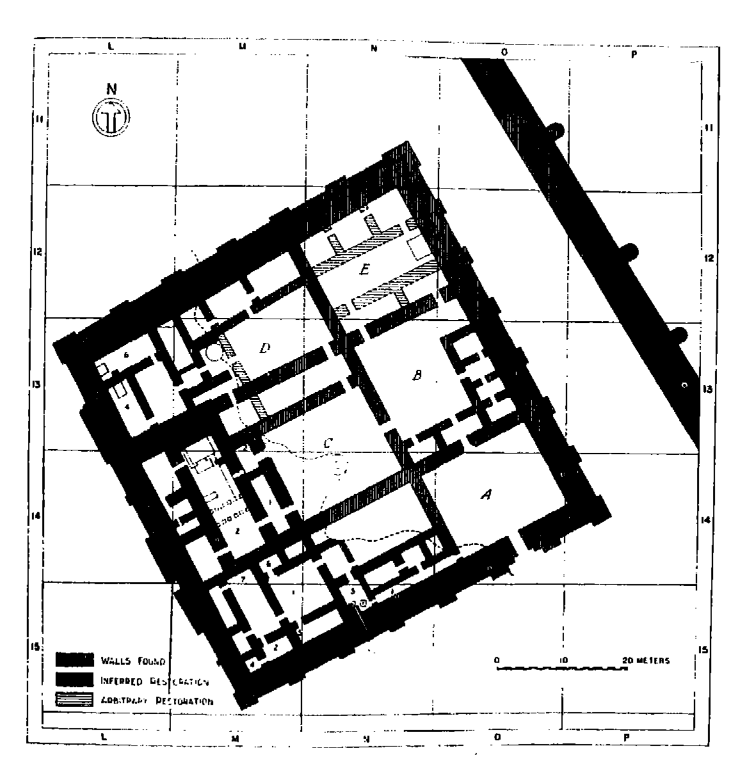
سبق ان تحدثنا بشيء من التفصيل عن تصميم المعابد في هذا العصر ولاحظنا كيف يمكن تقسيمها من حيث الشكل إلى نوعين؛ النوع الأول وهو المعابد العالية القائمة على منصات من القرميد أو الزيقورات، والنوع الثاني هو المعابد المبنية على سوية الأرض والتي تحيط بها أحياناً أبنية سكنية. ولسوء الحظ لم يعرف إلا القليل عن مخططات ومظهر النوع الأول وليس بامكاننا إلا ان نفترض وجود بعض التشابه بين هذه المعابد وبين مثيلاتها في عصور ما قبل التاريخ. وأما عن النوع الثاني من المعابد فيتوفر عدد كبير من النماذج المنتشرة في المدن السومرية والتي تشترك في كثير من الصفات العامة مما يتيح لنا ان نجري تحليلاً عاماً لتصاميم ووظائف هذه المعابد.

العنصر الأساسي في هذه المعابد هو وجود الحرم المستطيل والباب على أحد الجانبين الطويلين للحرم. وفي أحد طرفيه يوجد المذبح المبني من القرميد وخلفه المشكاة الجدارية وهي منطقة توضع فيها التماثيل الدينية. وفي مكان آخر في الوسط نشاهد منصات أصغر حجماً تستعمل كطاولات للاضحيات. أما المقاعد القرميدية الممتدة على طول قواعد الجدران فكانت تستخدم من أجل التماثيل النذرية. وتشمل الأشياء المنقولة من الأثاث طاولات فخارية طويلة كانت توضع عليها بعض أنواع المنحوتات على شكل نباتات بالاضافة إلى أشكال منحوتة من الصخور أو النحاس توضع لتدعيم أواني البخور (خفاجه، عقرب، أور. الخ). كما ويشمل الأثاث طاولات أكبر حجماً من السابقة، تشبه الأبنية الدينية. ويمكننا مشاهدة الأدلة الصريحة على الطقوس الحقيقية على المذبح فقط حيث كان سطحه العلوي أحياناً مطعماً بألواح من الحجارة أو الاردواز يسيل عليها السائل المرتشح من الطين إلى وعاء فخاري. توحي هذه التجهيزات بعملية سكب الشراب المقدس أو تقديم الأضاحي الحيوانية التي كانت قد صورت على الأختام الاسطوانية.

في أبسط أشكالها، تحتاج هذه الأبنية الدينية إلى واجهات خارجية ذات دعامات وأبراج صغيرة محيطة بالمدخل بالاضافة إلى ملحق يحتوي على فرن لصناعة الخبز لتأمين متطلبات البناء الديني[١٣٨]. ومع تطور هذه المعابد، حجماً واتقاناً، ظل الحرم عنصراً رئيسياً في البناء وأضيفت من حوله أبنية مختلفة تتفق مع شكل البناء وحدود الموقع. تمثلت الاضافة الأولى بالغرف الجانبية ومنها واحدة تشكل المدخل.

ثم أضيفت باحة أمامية لتسوير المنطقة الموجودة أمام المدخل الرئيسي. وبنفس الطريقة أحيطت الباحة بغرف ثانوية مشكلة منطقة صغيرة يتم الدخول إليها من بوابة خارجية ذات أبراج.

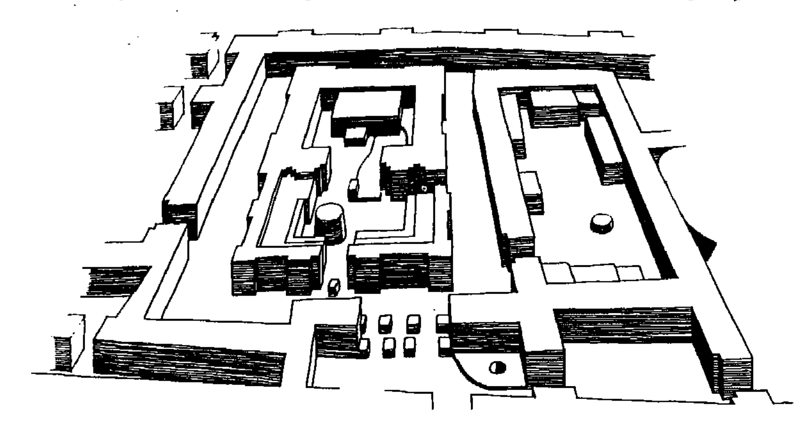
يصور هذه العملية في نمو المعابد بشكل واضح معبد إله القمر في خفاجه الذي أصبح يشغل في مراحله النهائية موقعاً غير منتظم الأبعاد ومحاطاً بأبنية سكنية خاصة[١٣٩]. ونلاحظ الصورة المعاكسة في المعابد الأخرى التي تتوفر لها منطقة مفتوحة للبناء حيث يمكن إعادة تخطيط وتنفيذ البناء الديني بشكل متناسق. ويكوّن المعبد المربع في تل أسمر نموذجاً بسيطاً لهذا النوع فقد تم ترتيبه بشكل متقن حول باحة



الشكل ٧٤: مخطط معبد شارا في تل عقرب مع سور المدينة. تمت اعادة تشكيله بطريقة معقولة مفترضة. القسم الباقي منه في أعلى اليسار يشكل وحدة مؤلفة من مزارين صغيرين. وفي المركز نلاحظ المقدس الرئيسي مع غرفتين وفي الأسفل مسكن الكهنة. بني المذبح العالي من طبقتين ودرج صغير. (عن ديلوغاز ولويد، ١٩٤٢).

مركزية وبطريقة أتاحت إضافة مزارين ثانويين إلى الحرم الرئيسي. أما النموذج الأكثر دقة في التصميم والذي لم تؤثر حدود الموقع على حسن تصميمه فقد وصل إلى الكمال في معبد «شارا» في تل عقرب. أحاطت الأسوار الضخمة بعدد من الوحدات البنائية المستقلة والتي تتألف كل منها من عدد من الغرف المجمعة حول باحة مستقلة(١٤٠). وبالاضافة إلى المزار الرئيسي الجيد التوزيع والمذبح المكون من طبقتين ومجموعة طاولات الأضاحي فقد تمت إضافة مزارين وتجهيزات مناسبة لاقامة الكهنة.

ان دراسة مقارنة لهذه الأبنية والخصائص المشتركة فيما بينها أتاحت التعرف بوضوح أكثر على ظهور ووظيفة أماكن العبادة في العصور السومرية الباكرة. وهناك نموذج واحد يشذ عن الشكل المعماري المعروف بشكل عام ففي معبد «اينانا» في نيبور بالاضافة إلى الحرم التقليدي هناك مزار معزول ومستقل ضمن باحة ويتم الدخول إليه عبر ممر في الجهة المقابلة للمذبح(١٤١). لقد أصبحت هذه الطريقة في التصميم هي القاعدة في كل معابد بلاد الرافدين منذ نهاية عصر السلالات الباكرة وما بعدها.



الشكل رقم ٧٥: مزاران في معبد عشتار في السوية ٧ في نيبور - عصر السلالات الباكرة ٢ - للمزار الموجود في الجهة اليسرى مدخل على محور طويل كان شائعاً في عصور أحدث. كما نلاحظ وجود أعمدة من القرميد. (عن هانسن وديلز، ١٩٦٢).

وقبل ان نختم بحث موضوع المعابد السومرية لا بد ان نشير إلى التناقض الواضح بين حجم البقايا المعمارية وعظمة الغاية التي تخدمها هذه المعابد. وبغض النظر عن وظيفة هذه المعابد كمراكز للطقوس الدينية والاحتفالات الموسمية فان

مهمتها الأسمى تتجلى في كونها مراكز للادارة الاقتصادية والسياسية في الدولة مما يؤدي بنا إلى ان نتوقع وجود أبنية أضخم من تلك التي وصفناها حتى الآن. ولنلق الآن نظرة على الوصف الموجز الذي كتبه هـ. و. ف. ساغس (Saggs) عن المنزلة الرفيعة والدور الهام الذي لعبته هذه الأبنية في حياة المدينة السومرية دون ان يغيب عن الذهن ان آراءه لم تكن مقبولة من الجميع. يقول ساغس: «كانت حكومة المدينة السومرية (الدولة) في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد كهنوتية، فالمدينة وأراضيها وكل سكانها ملك لاله المدينة. أما الحاكم وهو الملك والكاهن في نفس الوقت والذي يمثل جلجامش نموذجاً متكرراً له فانه وكيل الاله. فقد خلقت الالهة الإنسان للقيام بالخدمة حيث يكون المواطنون الأحرار خدماً للرب».

لذلك كانت وظيفة المواطن الأساسية هي:

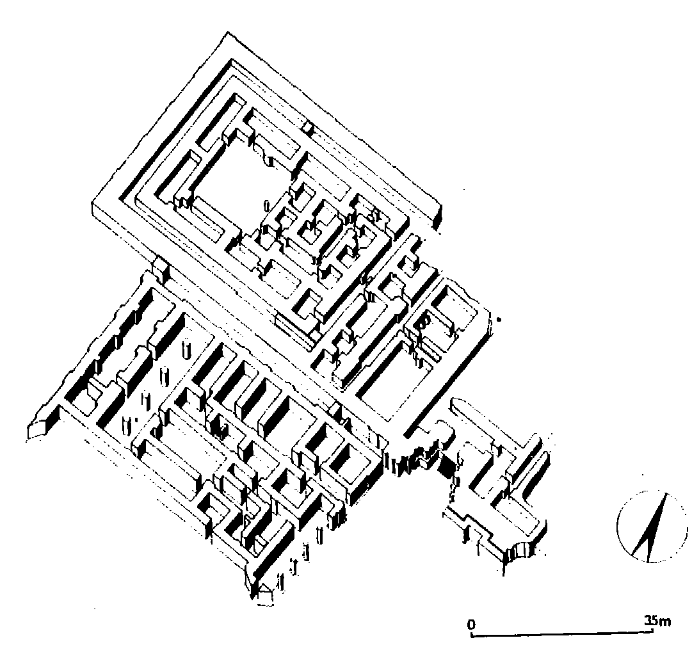
«ان يخدم أملاك المعبد أو الإنسان الذي يعمل وكيلاً للاله الذي يسمى إنسي (Ensi). وبالمقابل فان المواطن الحر يأخذ حصة من أملاك الرب أي من أراضي المعبد».

ومن الواضح تماماً ان القسم الأكبر أو جميع الأراضي كانت في العصور القديمة ملكاً للمعبد وان لكل مواطن حصة من المحصول. لقد كان من يسمى (Ensi) وكيلاً لاله المدينة، مدير أملاك وعقارات المعبد مع مجموعة من الكهنة الذين يقومون بخدمته. ولقد ظلت الملكية الخاصة للأرض نادرة حتى السنوات الأخيرة من عصر السلالات الباكرة حين قام الملوك الأكثر قوة بتحويل الأملاك والرساميل العامة إلى مصلحة عائلاتهم الخاصة. أدى ذلك إلى ظهور السلطة الدنيوية بشكل مستقل عن السلطة الدينية وربما أدى إلى حدوث نوع من الصدام في ظل بعض حكام لاجاش. في هذا الوقت أصبح الحكام يملكون قصوراً ضخمة وبالتالي تناقص عدد من يقيمون في المعابد. ويمكن ان يلاحظ المرء أنه طوال عصر السلالات الباكرة كانت أعمال الكتاب والكمية الفعلية للوثائق التي تراكمت في ظل ادارة الدولة ماتزال قليلة. ولندرس الآن بعناية ما هو معروف عن مثل هذه الأبنية نتيجة الحفريات الأثرية.

القصور

فيما يتعلق بالأبنية الدنيوية تشكل الأبنية التي سميت بالقصور المجموعة الأكثر أهمية. وهنا فان أي تعليق على فن العمارة لن يكون مكتملاً لعدم معرفتنا بوظيفتها

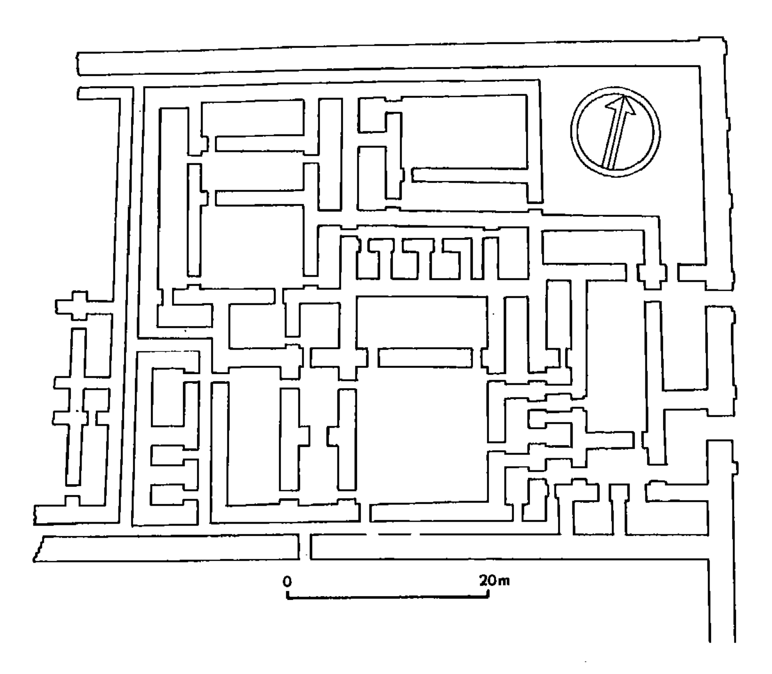
ومستلزماتها العملية . في فترة مبكرة من العصور التاريخية كان مفهوم المعبد يعني مكاناً للحكم ومركزاً إدارياً للكهنوتية الحاكمة. بعد ذلك حدث انفصال هام بين المعبد والدولة لأن الملك أصبح له سكن خاص به يؤمن كما يفترض متطلبات النشاط السياسي والاحتفالي. هذه هي الخصائص التي نتوقع وجودها فيما يسمى بالقصور وفي الواقع هناك أربعة نماذج لهذه الأبنية توجد ثلاثة منها في كيش واريدو وماري تتوفر فيها المظاهر الكافية للتعبير عن الصيغة النموذجية لهذه الأبنية. أما النموذج الرابع فهو القصر الشمالي في تل أسمر الذي يتألف من وحدات سكنية مجمعة حول باحات صغيرة[١٤٢].



الشكل رقم ٧٦: أبنية القصر المزدوج لعصر السلالات الباكرة ٣ ـ آ. بالاضافة إلى بوابة كيش الأثرية. الأعمدة المبنية من القرميد مظهر عمراني غير مألوف. (عن مكاي).

يتألف مجمع القصر في كيش، الذي ينتمي إلى عصر السلالات الباكرة (٣ ـ آ)، من بنائين يفصل بينهما ممر ضيق[١٤٣]. البناء الأكبر فيهما، والذي يتم الدخول إليه عبر بوابة ذات أبراج، محصن بسور خارجي مزدوج وله باحة داخلية وحيدة بني القصر من حولها. أما البناء الأضعف تحصيناً والمرتبط بالقصر فان الصفة الواضحة فيه هي

وجود رواق ذي أربعة أعمدة في أحد الطرفين ومتراس ذي أعمدة في الطرف الآخر. وبنفس الطريقة فان القصرين التوأمين الذين يرجعان إلى عصر السلالات الباكرة والمبنيين خارج منطقة المعبد المرتفع في أريدو يشكلان لغزاً غامضاً(١٤٤). ومرة أخرى فان



الشكل رقم ٧٧: في خارج إطار أبنية المجمع الديني العالي في اريدو يرجع تاريخ أحد القصرين إلى عصر السلالات الباكرة. تتكون الوحدة المعمارية من غرفة استقبال رئيسية وساحة مربعة الشكل. (عن صفر، ١٩٥١).

هذا البناء محصن بسور دفاعي مزدوج يشبه أسوار كيش. كما نشاهد هنا أيضاً أقدم نموذج لما يسمى بقاعة الجمهور أو قاعة العرش وهي تقليد اتبع منذ ذلك العصر كأساس لجناح الاستقبال في كل قصور بلاد الرافدين.

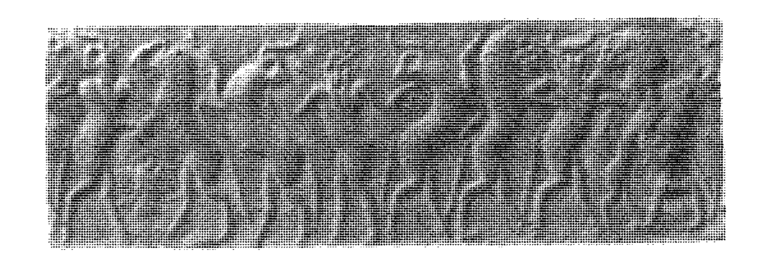
هذا التركيب المؤلف من الباحة المربعة وقاعة العرش المستطيلة يمثله بشكل واضح القصر قبل السارغوني (Palais Présargonique) الذي قام المنقبون الأثريون الفرنسيون بالكشف عن جزء منه تحت الزاوية الجنوبية الشرقية من قصر «زمري ليم» (Zimri Lim) في مدينة ماري(١٤٥) والذي يعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وسواء

أكان هذا البناء جزءاً من بناء كبير أم لم يكن فان ما يؤكد أهميته كوحدة مستقلة وجود الأسوار المزدوجة من جهاته الأربع كما يؤكدها أيضاً مظهر آخر سماه الفرنسيون بالمنطقة المقدسة. فللقاعة المستطيلة حرم صغير في أحد طرفيها أما الباحة المربعة فتتميز بواجهات جدرانها المزخرفة وهي مزودة بتجهيزات طقسية من أنواع مختلفة كما وضعت أساسات البناء تحت أرصفة الممرات التي تفصل بين الأسوار الخارجية. وإذا بدت هذه الاكتشافات غريبة في أبنية مكرسة لأغراض دنيوية فعلينا ان نذكر هنا ان مظاهر مشابهة قد ظهرت في جناح الاستقبال الذي بناه (زمري ليم) في ماري بعد حوالي سبعة قرون وسيكون لهذا الأمر تفسيرات متناقضة كما سنرى.

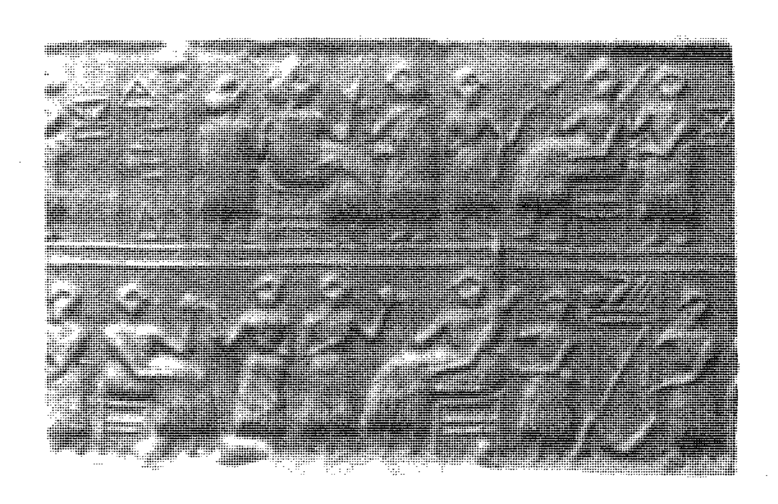
الأختام الاسطوانية Cylinder - Seals

تظهر عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى في عصر السلالات الباكرة بوضوح في تغير تصاميم الاختام الاسطوانية[١٤٦]. ولقد لاحظنا من قبل تدني الصفات الفنية لأعمال نحاتي الأختام في حوالي نهاية مرحلة ما قبل الكتابة ثم حدوث تطور خلال القرن التالي. تلاشى الاهتمام بالأساطير والرموز وحلت محل هذا الاتجاه نزعة تعتمد على الزخرفة بأشكال نباتية أو حيوانية بالاضافة إلى زخارف بلا معنى ذات تصاميم نسيجية. ويشكل الأسلوب التطريزي علامة مميزة للمرحلة الأولى من عصر السلالات القديمة وفي المرحلة الثانية حدث الانعطاف نحو المواضيع المثيرة والخيالية. أما الموضوع الذي استمر طويلاً وأصبح أكثر شهرة فهو موضوع الصراع بين الحيوانات كهجوم الأسود على القطعان ودفاع الحراس أنصاف البشريين عنها. ولقد قام بهذا الدور البطل الملتحي والرجل الثور الذي يرتدي حزاماً والذي تظهر تحت قرنيه زخارف على هيئة ضفائر الشعر[١٤٧]. ولقد صنعت نماذج متطورة ومعقدة من هذه الأشكال فكانت متداخلة أحياناً ومقلوبة أحياناً أخرى إلا ان محاولة تحسين هذه الأشكال من الناحية الجمالية كانت غير منظمة. وفي مرحلة لاحقة ظهرت تجربة للمواضيع التصويرية كما نرى في مشهد الوليمة لكن النتائج لم تتكلل بالنجاح بشكل كاف. أما الابتكار الملحوظ هنا فهو ظهور المنحوتات على طريقة الكتابة التصويرية.

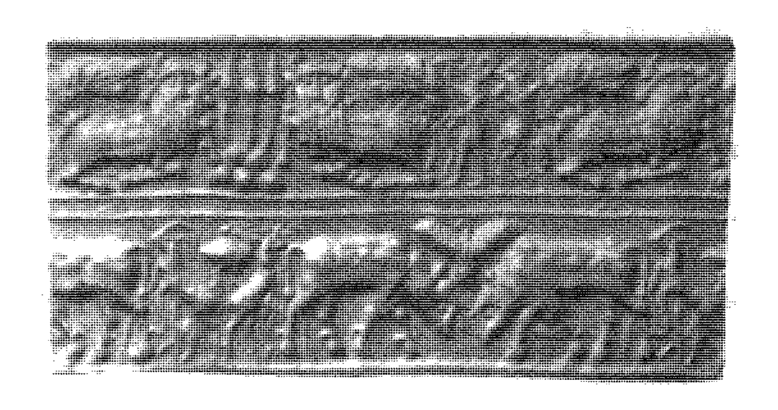
وفي المرحلة الثالثة من عصر السلالات القديمة وصلت صناعة الأختام إلى أوجها كمقدمة لفن النقوش النافرة. أصبحت الأشكال أكثر ضخامة وأفضل اتقاناً



الشكل رقم ٧٨ : ختم اسطواني من عصر السلالة الباكرة ٢. الأشكال المألوفة للبطل العاري والرجل الثور تقوم بحماية الحيوانات من خطر الأسود.



الشكل رقم ٧٩ : مشهد وليمة من عصر السلالات الباكرة ٣. التمثال الانثوي في الحقل العلوي عرف بواسطة نقش كتابي على انه يمثل الملكة بو-ابي التي دفنت في أحد أغنى القبور الملكية في اور ويفترض ان زوجها يجلس أمامها.



الشكمل رقم ٨٠: نحت متطور من عصر السلالات الباكرة رقم ٣. تظهر وجوه الثيران بشكل كامل. تماثيل المخلوقات الاسطورية تحمي الثيران من خطر الأسود.



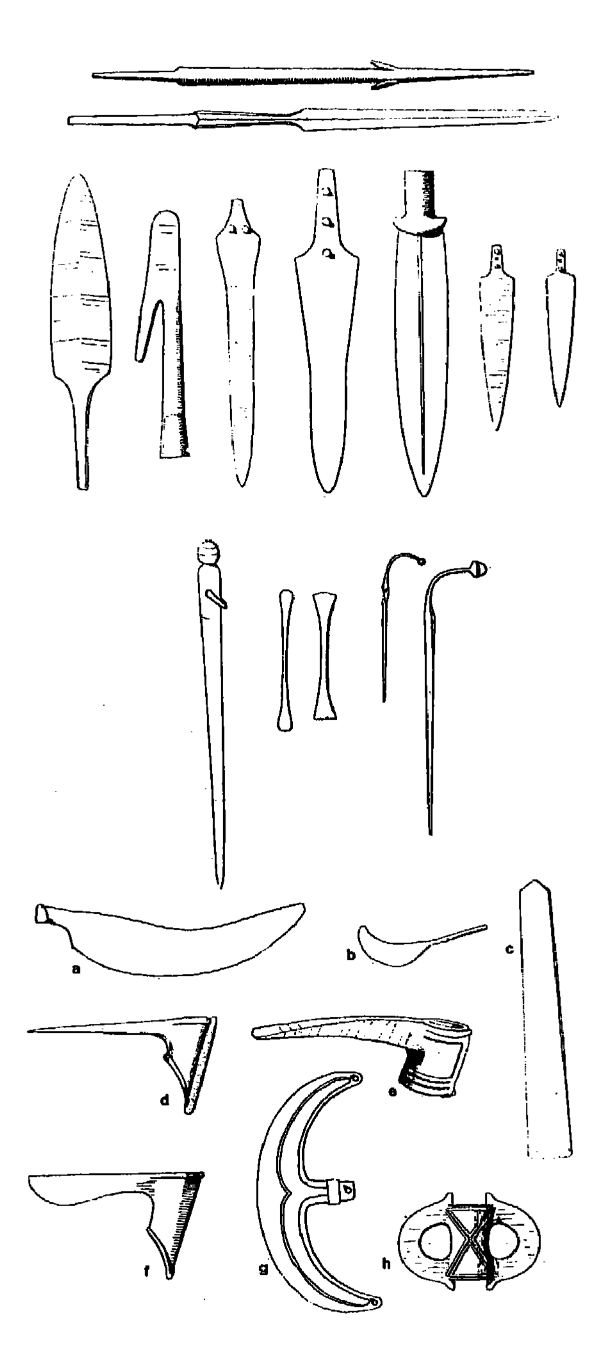
الشكل رقم ٨١: تمثال (شمش) اله الشمس في قاربه مع الالهة الأخرى ورموز الحيوانات.

فالأسود والحراس ظهرت بكامل صورها كما قدمت نماذج أكثر زخرفة من الحيوانات المجترة بالاضافة إلى تصوير مشاهد للصراع وتصاميم مرسومة بنقوش أكثر كمالاً ودقة. ومن أكثر المشاهد إثارة المشاهد الطقسية والاحتفالية التي كان البشر والالهةيشاركون فيها. ولقد اعتمد في فهم هذه المشاهد على وثائق الأدب السومري الذي توفر بشكل كبير وبالتالي تم تحديد وتعريف الكثير من مواضيع هذه المشاهد. يشاهد المرء على سبيل المثال اله الشمس «شاماش» (Shamash) وهو يبحر في قاربه في دورة الليل والنهار تحيط به رموز قامت النصوص بتفسيرها. ثم هناك اله الخصب المتربع على عرشه والذي يقف أمامه كاهن يسكب الشراب أو يقدم الاضحيات على طاولة مزخرفة. كما وتم تصوير الزواج الطقسي بين الاله نينجيرسو (Ningirsu) والالهة باو (Bau) في احتفالات بداية العام الجديد. إلا أن مشهد الوليمة الدنيوية وهي الوليمة التي ترافقها فرقة موسيقية من الحيوانات الخرافية تشكل البديل للمواضيع الدينية. ولقد ظهرت موضوعات كثيرة من هذا النوع في أشكال زخرفية أخرى كالمواد التي تم الحصول عليها من القبور الملكية في أور.

أما بالنسبة للمواد التي صنعت منها هذه الأختام فقد استخدمت مجموعة من الأحجار شبه الكريمة ويمكن ان تغطى الأسطوانة بالفضة من أحد طرفيها وكانت في حالات نادرة تصنع من الذهب الخالص.

صناعة المعادن والحرف المركبة Metallurgy and Composite Craftsmanship

تؤكد الكنوز والنفائس التي تم انقاذها من سويات السلالات الباكرة في المواقع السومرية قدرة المختصين في حقول عديدة ومختلفة في مجالات الصناعة الحرفية، كما يتجلى تعاظم وتجمع الخبرة والمهارة في كثير من المصنوعات الفائقة الجمال[١٤٨]. وقد شكل صانعوا المعادن السومريون طبقة كبيرة كانت لها خدمات واضحة ونفوذ كبير في كل مستويات المجتمع. كما وان انتاجهم من الأسلحة والأدوات والأواني قد استمر لفترة طويلة وبأعداد كبيرة جنباً إلى جنب مع أمثلة تصور الأغراض التي تستخدم فيها هذه المنتجات. ففي أحد النقوش النافرلة نلاحظ وجود الرماح والدروع والخوذات المصنوعة من النحاس وفي مكان آخر نشاهد البلطة الحربية على تصاميم الأختام



الشكـل رقم ٨٢: أدوات وأسلحة معدنية من قبور اور. الصف العلوي: رؤوس حراب حادة ومضلعة ـ الصف الثاني: سكاكين وخناجر وحرابين ـ الصف الثالث: مثاقب ودبابيس مستقيمة ومنحنية ـ الصف السفلي: a - b = مكاشط.

c = أزميل. d - e = فؤوس منحنية. f = فأس مسكوب في قالب من قطعتين g - h = فأس حربي أهليلجي.

بالاضـافـة إلى الخنـاجر والقبضات الهلالية الشكل وعلى العربات نشاهد سلاسل الحيوانات في المشاهد الحربية أما في الولائم فهناك كؤوس الشراب المصنوعة من النحاس.

وبالنسبة للأغراض الدينية أو الاحتفالية فهناك نماذج من هذه الأشياء مصنوعة من معادن ثمينة ومزخرفة باتقان ومهارة. لا تقل مهارة صناع الذهب السومريين عن مهارة أفضل الحرفيين في عصور لاحقة فقد كانوا يلمون بالكثير من عمليات سبك المعادن كما كانوا بارعين تماماً في أعمال طرق المعادن والرسوم النافرة والنقش والتخريم وغيرها. وتتجلى مهارة الحرفيين السومريين في صناعة خوذة ميسكالامدوغ التي وصفها وولي (Wooly) كما يلي: «انها عمل فني كامل يدل على البراعة ولاسيما بوجود خصل من الشعر بنقوش نافرة مع شعرات منفصلة على شكل خطوط منقوشة». وفي نفس العصر فان الأشياء البسيطة كالأكـواب المحززة والمزهريات المأخوذة من نفس القبر



الشكل ٨٣: حامل نحاسي لوعاء البخور يمثل كاهنا عارياً ـ الطول: ٥٥,٥ سم. ولقد عثر على ثلاثة منه في المعبد البيضوي في خفاجة ـ عصر السلالات الباكرة رقم ٣ ـ وقطع أصغر من ذلك في تل عقرب.

تظهر ما هو أكثر من المهارة التقنية فقط ففي الانسجام بين الشكل والزخرفة تتفجر العبقـرية الحقيقية وأنـاقـة التصميم. ويمكننـا ان نشاهد أعمال الحرفيين بالذهب والفضة مرة ثانية في زخارف وحلي الوصيفات في قبور أور فهناك غطاء الرأس المصنوع من أوراق الـزان والأمشـاط المـزينـة برسوم نباتية والمصنوعة من الذهب أو الفضة والأكاليل المصنوعة من تمائم صغيرة على شكل ثيران وكباش وطيور وأسماك بالاضافة إلى الأقراط التي سبكت على شكل القوارب(١٤٩).



الشكـل رقم ٨٤: كمثال أعيد بناؤه مجدداً في المتحف العـراقي لمسكـالامدوغ وهو يرتدي خوذته الاحتفالية التي وجدت في قبره في اور. صنعت الخوذة من صفيحة واحدة من الذهب. وثقبت من أجل تعليقها.



الـشكـل ٨٥: تمثـال أعيد تشكيله في المتحف العراقي لاحدى سيدات القصر من المقبرة الملكية في اور. وهي ترتدي غطاء رأس أنيق ومجوهرات من الذهب والعقيق الأحمر واللازورد. عثر على جثث ٦٨ امرأة بنفس الملابس في مدخل قبر عرفه المنقبون باسم «حفرة الموت».

وفي مجال آخر فقد نسبت أهم انجازات فن سكب المعادن إلى صانعي النحاس في عصر السلالات القديمة. ولقد ظهرت أدلة على أعمالهم المتقنة في تل عقرب خلال المرحلة الثانية وتشمل هذه النماذج الفنية العربة التي يجرها أربعة من حمير الوحش ويقودها ملك ذو لحية. يكتسب(١٥٠) هذا العمل أهمية تقنية خاصة لانه يبرز الدليل على سكب المعادن في قوالب بواسطة الشمع للمرة الأولى. كما تم العثور على الكثير من اللقى الأثرية في مواقع ديالى وهي عبارة عن تماثيل مصنوعة من النحاس على شكل كهنة عراة مع حمالات تتيح استخدامها لتعليق الاضحيات ويبلغ طول أحد هذه التماثيل

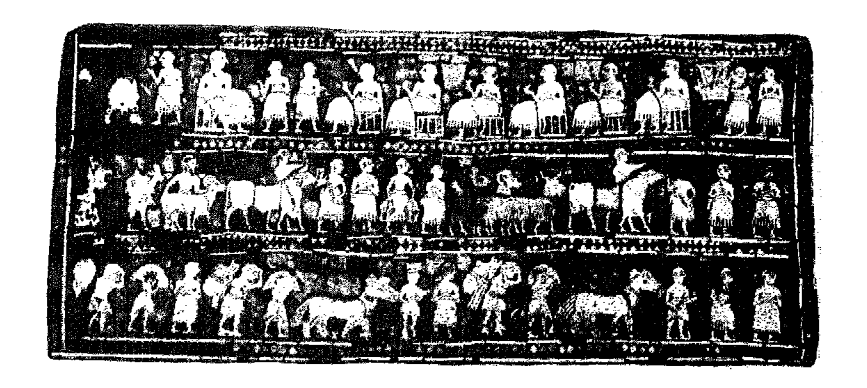


الشكل رقم ٨٦: عربة نحاسية مصغرة تجرها أربعة من حمير الوحش ويقودها ملك سومري ذو لحية. وجدت في غرفة ملابس الكهنة في معبد شارا بتل عقرب. أعيد تشكيل بعض الأجزاء بعد دراسة دقيقة. الطول ٧ سم.

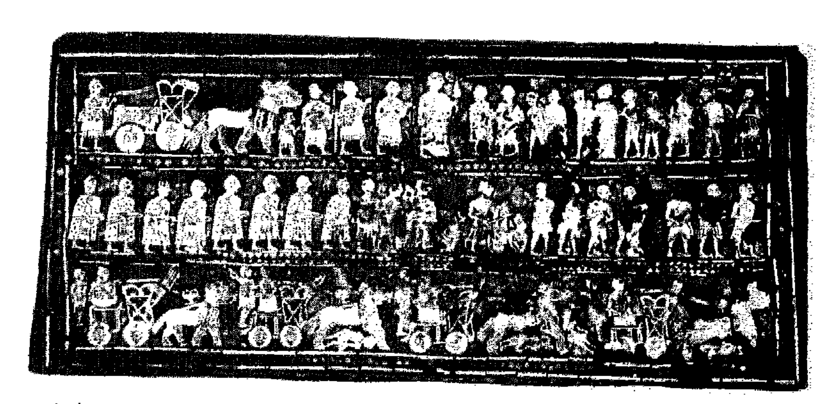
التي عثر عليها ضمن مجموعة في خفاجة (٧٦) سم أما الأجزاء التي عثر عليها في منطقة تعود لعصر السلالات الباكرة (رقم ٣) في تل عقرب فتبين ان التماثيل كانت بالحجم الطبيعي.

الزخارف المطعمة Inlaid - Ornaments

الحقل الآخر الذي برع فيه حرفيو عصر السلالات القديمة هو الزخارف المطعمة بالأحجار الملونة وغيرها. لقد تطورت استعمالات هذه الزخارف عن تقنية مخروط الموازييك في عصر سابق وتنوعت هنا الأشكال من الآفريز التصويري الذي يزين واجهات الأبنية إلى عملية التطعيم بالحجارة الكريمة. وفي الحالة الأولى كانت الأشكال المنحوتة من الكلس الأبيض تثبت على خلفية من الاردواز الرمادي أما في الزخارف الصغيرة فقد استعملوا أنواعاً كثيرة لتكوين قشرة سطحية مثبتة بواسطة القار على نواة خشبية. وفيما يتعلق بالتصاميم المنفذة بهذه التقنية فان الملامح الفردية تنقش بالصدف والعظام واللؤلؤ لتناسب الخلفية الملونة. ولقد وجد عدد قليل من هذه التماثيل في القصر (A) في كيش، لكن الامكانيات الكاملة لهذه الوسيلة في التعبير الفني قد تم اكتشافها في النماذج الوفيرة والسليمة التي ظهرت في قبور أور. فطاولات اللعب وعلب أدوات الزينة وغيرها من الأدوات زخرفت بهذه الطريقة وكثيراً ما كانت الزخارف تحتوي على مشاهد تذكر بمشاهد الأختام الاسطوانية. أما الأشكال الفردية المنحوتة من الصدف وعروق اللؤلؤ فكانت تنقش بتفاصيل إضافية وكانت التخاريم تملأ بمعجون أحمر أو أسود. وتجمع رقائق اللازورد لتشكل الخلفية كما وكان التصميم الناتج يحاط بإطار ملون بألوان أخرى. وفي أور كان العمل الفني الذي يدل على البراعة في هذه المجموعة من الزخارف هو «الراية الملكية» (Royal Standard) ويتميز هذا العمل بوجود عدد كبير من الأشخاص على جانبيه يمثلون مشاهد الحرب والسلم. ولقد ظن البعض ان هذا العمل هو صندوق الصوت لآلة موسيقية[١٥١]. والعمل الفني الأقل شهرة من راية أور الملكية بسبب عدم العثور عليه بشكله الكامل هو لوحة مشابهة مصنوعة من الموازييك عثر عليها في ماري وهي تتألف من العاج والصدف والشست واللازورد والذهب[١٥٢]. في القسم العلوي منها نشاهد أشكالاً بشرية ذكرية بملابس تقليدية في حفلة شراب مع الأواني المناسبة، لكن المشاهد في



الشكل رقم ٨٧ : «الراية الملكية» من قبر في اور وهي تشكيلة متنوعة من تماثيل من الصدف على خلفية من اللازورد. مشهد سلمي يصور مأدبة طعام ونشاط زراعي. ٢٠ سم.



الشكل رقم ٨٨ : الجانب الخلفي للراية الملكية. يصور مشهداً حربياً يظهر فيه 'لك وكتيبة من المشاة.

الأسفـل تقتصر على النساء اللواتي تتميز ملابسهن بأهمية فريدة. وفي الأعلى أيضاً نلاحظ وجود شخصين يجلسان بشكل متقابل في طرفي عربة محمولة على أرجل تشبه أرجل الثور، كما نشاهد امرأتين تقتربان منهما من الخلف وهما تحملان أوعية نذرية وتـرتديان أغطية للرأس. كما نلاحظ في الأسفل وجود امرأتين بتسريحات شعر غير مألوفة تجلس إحداهن على كرسي بثلاثة أرجل وتساعدها الأخرى في عملها في المغزل الذي ينتقل من يد لأخرى. وبدون استثناء كانت الأشكال الانثوية ترتدي فوق ثوبها

العادي شالاً مثبتاً بدبوس معدني طويل مائل الرأس باتجاه اليمين، ومن ثقب في رأس الدبوس يتدلى خيط علقت عليه تميمة أو سحر. ان التفاصيل التي تكمل وصف هذه الأشياء تضيف الكثير من الاثارة إلى هذه المبتكرات التي تدل على المهارة الفائقة.

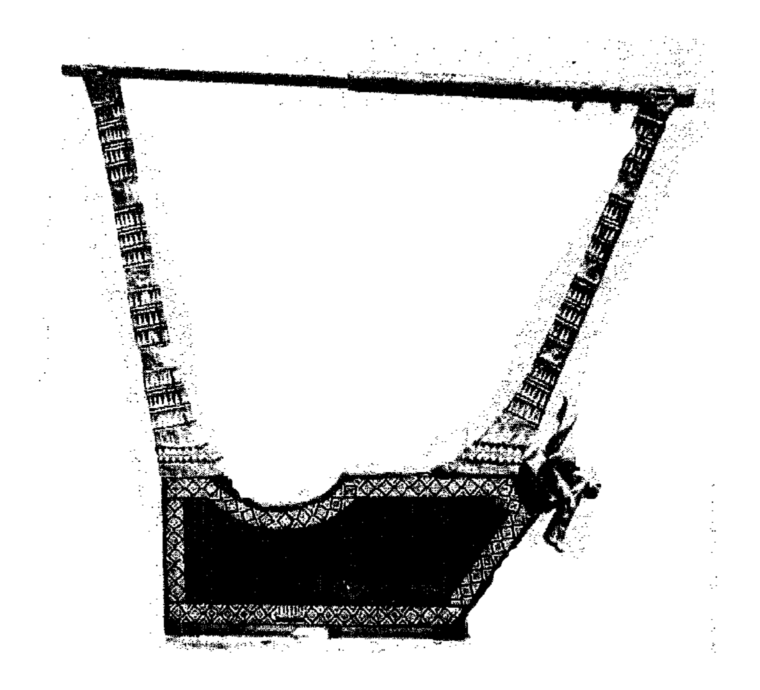


الشكل رقم ٨٩: تمثال لمقاتل مطعم بالصدف ويحمل فأساً حربياً من معبد عشتار في ماري عصر السلالات الباكرة رقم ٣.

الأشياء المركبة Composite - Objects

ويبقى علينا ان ندرس بعض النماذج من الأشياء المركبة التي تبرز بوضوح بين الكنوز الفنية في عصر السلالات القديمة. ان الأدوات الموسيقية التي وجدت في قبور أور والتي أخرجها وولي من التراب بعناية كبيرة تشكل بحد ذاتها مجموعة متكاملة. وللدلالة على هذه الأدوات تستعمل كلمة «القيثار» بشكل غير دقيق (Harp) لأن هذه الكلمة في الواقع تنطبق تماماً على اثنتين من هذه الآلات. ومن أكثر هذه الأدوات شيوعاً آلة القيثارة (Lyre) ذات علبة الصوت المستطيلة والمصنوعة من الخشب المطعم بزخارف ملونة. وهناك ذراع عمودي على كل جانب منها بالاضافة إلى القطعة الخشبية العرضانية التي تثبت فيها الأوتار بأوتاد خشبية لضبط الأنغام الموسيقية. ونلاحظ على

جسم الآلة عادة زخارف أمامية معدنية على شكل رأس ثور وقد كانت هناك قيثارة على شكل القارب مع مجسم لأيل في أعلى المقدمة. وكما نعلم من التطعيم التصويري الموجود هنا وفي ماري فان هذه الآلات كانت تحمل بمستوى صدر العازف الواقف الذي يستطيع استعمالها أيضاً وهي واقفة بين ركبتيه(١٥٣). وهناك أيضاً آلة تعرف باسم القيثارة ولها اثنى عشر وتراً مربوطاً إلى نهاية في الأعلى ورأس ثورء وقد أعاد وولي تشكيلها لمصلحة المتحف البريطاني. إلا ان ر. د. بارنيت (R.D. Barnett) قد أوضح



الشكل رقم ٩٠ : قيثارة من قبر ميسكالامدوغ في اور. نشاهد رأس الثور ذي اللحية وهو مصنوع من الذهب بالاضافة إلى زخارف مواد أخرى. ظهرت مثل هذه الآلة في مشهد السلام على الراية الملكية وكان يحملها رجل يرافقه مغن.

كيف ان دراسة الآثار الفعلية في صور وكراسات وولي كشفت عناصر آلتين موسيقيتين هما علبة الصوت للقيثارة التقليدية، والقيثار ذو الذراع الوحيد(١٥٤). ان اجتماع العناصر الزخرفية المتضمنة تطعيم اللوحات الأمامية بصفائح من الذهب أو الفضة بالاضافة

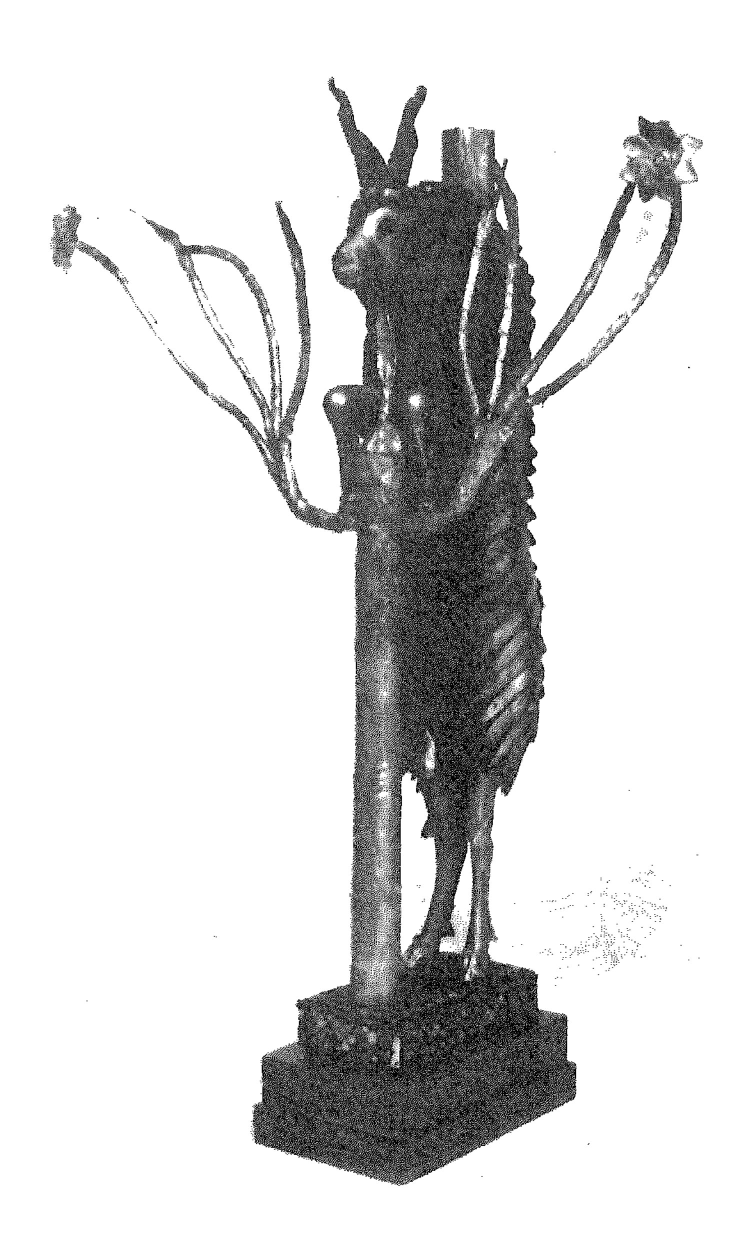
إلى زخارف رأس الثور بالذهب أو حجر اللازورد تضيف عنصراً أخيراً لروعة التصاميم السومرية.

وإذا كان لا بد من نموذج آخر فيجب ان نذكر ما يسمى (بالكبش المأسور من قرنيه) وهو في الحقيقة تيس وليس بكبش، كما انه يرمز إلى الخصوبة الجنسية في مملكة الحيوان[١٥٥]. لقد كانت رأسه وأرجله مصنوعة من الذهب أما بطنه فمصنوع من الفضة وصوفه من حجر اللازورد وكان النبات الذي يستند إليه مكسواً بصفائح ذهبية. ويعتبر هذا الأثر الفني أحد دعامتين زخرفيتين لبعض أنواع الأواني أو الأدوات الدينية.

الفخار Pottery

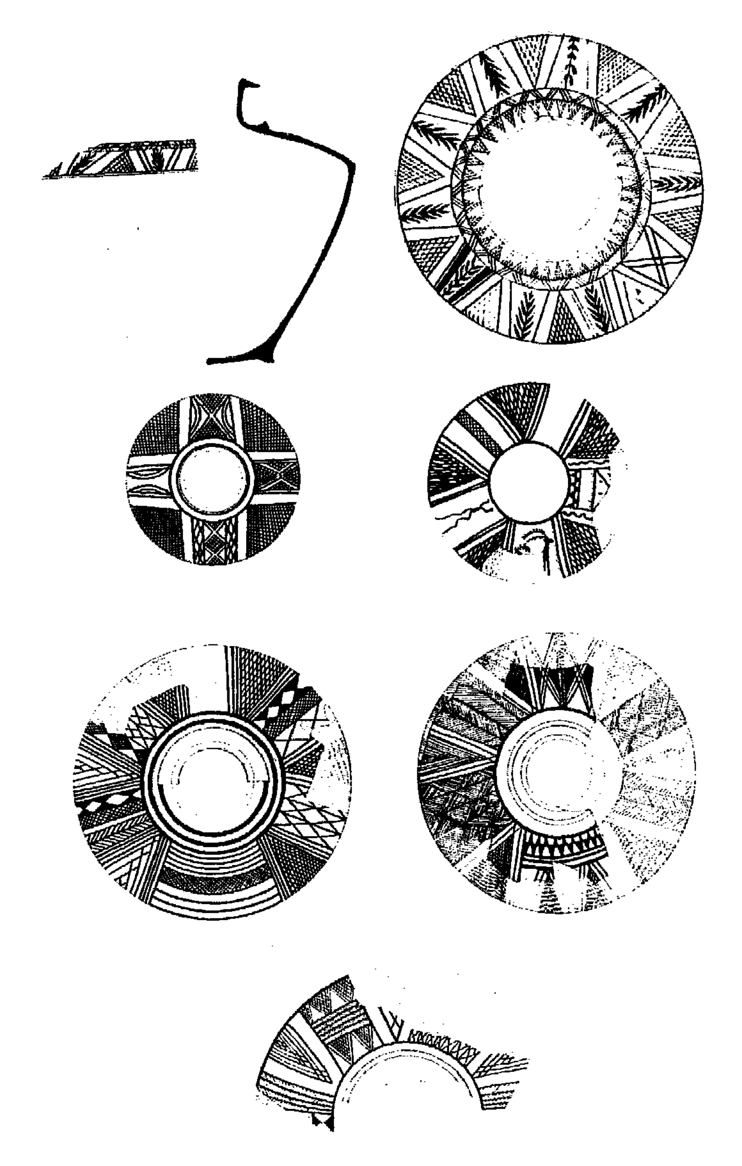
عاد الفخار المدهون ذو التصاميم الهندسية للظهور وللمرة الأخيرة في سومر خلال مرحلة السلالات الباكرة وخاصة في مواقع ديالى انه الفخار القرمزي الذي احتفظ ببعض خصائص الفخار الأحادي اللون الذي سبق ان ظهر في عصر جمدة نصر[١٥٦]. ومن الناحية الفنية فقد كانت الزخارف المطبقة على هذا النوع من الفخار قليلة الكفاءة. فكانت التصاميم مرسومة باللون الأحمر اللامع ومحددة بخطوط سوداء على حافة شاحبة أو ميالة للاصفرار، لكن هذه الألوان كانت سهلة التفتت وتفتقر إلى الألوان الملساء المتوفرة في النماذج الأصلية الأقدم. ومن أكثر أشكال هذه الأواني شيوعاً الاناء الواسع من الأعلى والدقيق العنق والذي يحمل من مسكة أو أكثر موجودة تحت الحافة. تعتبر التصاميم الملونة للفخار فريدة من نوعها من نواح عديدة لأن مجموعات من الأشكال البشرية والحيوانية تملأ اللوحات الصغيرة التي تشكلها أقسام الوردية. وفي أحد النماذج الفخارية المأخوذة من تل عقرب نشاهد ثلاث نسوة عاريات يضربن الطنبور لمساعدة حيوان مقيد وهو على ما يبدو ثور مقدس، كما نشاهد حيوانات أخرى من فصيلة الغزال المعقوف القرنين. وفي نموذج آخر مأخوذ من خفاجه وموجود حالياً في المتحف البريطاني نشاهد تصميماً أكثر طموحاً يمثل عربة ذات دواليب.

وبعد ظهور هذه الأواني الجذابة ولفترة قصيرة في عصري السلالات الباكرة (١ و٢) اختفت الزخارف الملونة ولم تظهر بعد ذلك في أي عصر في بلاد الرافدين الجنوبية. في المرحلة الثانية والثالثة من عصر السلالات الباكرة حلت الزخارف



الشكل رقم ٩١: ذكر الماعز مصنوع من الذهب والفضة واللازورد.. الخ على نواة من الخشب. وهو أحد اثنين وجدا في المقبرة الملكية في اور. يرمز الشكل إلى الخصوبة في الحياة النباتية والحيوانية الارتفاع (٥٠) سم.

المنقـوشـة محل التلوين وأخـذت أشكـال الزخارف تنوعات كثيرة. ان تغير أشكال وزخارف الأواني الفخارية يوفر مقياساً مفيداً في تحديد العصور التاريخية.



الشكل رقم ٩٢: الفخار القرمزي من عصر السلالات الباكرة رقم ١. وقد تطور عن الفخار المتعدد الألوان في عصر جمدة نصر. على الرغم من محاولة صناعة تصاميم أكثر وضوحاً إلا أن مستوى التلوين أقل من الناحية التقنية.

وفي جنوب العراق يبدو ان الفخار القرمزي كان مقتصراً على المناطق السومرية الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة والتي تمتد حتى الحدود الحالية لايران. ومن المفيد ان نذكر هنا انه إذا اتجهنا نحو الشمال ففي منطقة تمتد من نينوى حتى حدود سورية تم تحديد المرحلة الأخيرة من عصر الفخار الملون بظهور شكل جديد من التصاميم. وقد عثر مالوان (Mallowan) على هذا الفخار المزخرف بصورة متقنة للمرة الأولى في سبر عميق حفره تحت أضخم التلال الآشورية وعرف من ذلك التاريخ باسم (نينوى ٥) (Ninevite Five)[١٥٧]. وقد وصف مالوان هذه الأواني بانها أوان ذات قاعدة تشبه قاعدة التمثال، طويلة العنق، ذات أكتاف على شكل الزاوية. وقد أضاف: «تغص الكثير من هذه الأواني بالتصاميم ولاسيما التصاميم الضخمة التي تصور الماعز الطويل العنق وطيور الماء والأسماك والأشكال الهندسية». وبألوانها الارجوانية الغامقة على الخلفية الخالية من الألوان تبدو هذه الأنواع بدون أية صلة مع الفخار القرمزي (Scar-let Ware) الذي يميز المناطق الجنوبية والذي كان معاصراً لها[١٥٨]. وفي المرحلة الثانية وفي الشمال أيضاً حل محل هذا الفخار أو رافقه فخار غير ملون اعتمد على استخدام الغضار الجيد والدقة في الزخارف المنقوشة. وتلقي عمليات التنقيب الأثري الحديثة في «اسكي موصل» وغيرها الكثير من الضوء على هذا الموضوع.

الفصل السابع

سلالة أكاد والنهضة السومرية

ان اصـطلاح «ما قبل السارغوني» الذي يستعمل أحياناً للدلالة على عصر السلالات القديمة يؤكد تلقائياً أهمية الحدث الذي أدى إلى انتهاء ذلك العصر. ان وصـول سارغـون الأكادي إلى السلطة في حوالي عام **٢٣٧٥** قبل الميلاد واخضاعه السريع لدول المدن السومرية القديمة قد أدى إلى تفوق العنصر السامي من سكان بلاد الرافدين بشكل مؤقت وللمرة الأولى.

يعتـبر انتقـال السلطـة من السومريين إلى الأكاديين ثورة في الفكر السياسي وستتجلى عظمة ذلك الحدث إذا تذكرنا للحظة النموذج الثابت في التاريخ السومري خلال القرون السابقة والتقاليد الخاصة التي كانت تملي هذا النموذج التاريخي. لقد كانت هذه التقاليد مفهومة ضمناً حتى في العبارات الرسمية التي تتألف منها قائمة الملوك ويمكن التعـرف على هذه التقـاليد بقليل من الكلمات. من حيث الأساس يفترض أن أرض سومر كانت تتألف من عدد من دول المدن وان واحدة من هذه المدن كانت خلال فترة من الزمن تتمتع بمنزلة أسمى من كل المدن السومرية الأخرى.

وتبقى السلطة الملكية في هذه المدينة حتى تنتزعها مدينة أخرى بقوة السلاح. وكان لكل مدينة إله يملك الأرض مع ان الآلهة لم تكن تتأثر بالنزاعات الداخلية وبالتالي لا يمكن اعتبار الآلهة مسؤولة عن التنافس بين الملوك الذين كانوا وكلاء لها بالرغم من ان الصراعات بين الآلهة كانت تحدث أحياناً. وأخيراً مع ان المدن كانت في حالة صراع دائم من أجل السيادة أو من أجل تنظيم الحدود فيما بينها فقد بقي بين حكامها شعور قوي بالفخر والكبرياء بسبب وحدة الأرض والشعب. لقد شغلت دول المدن الاثنتي عشرة منطقة محدودة وهي أكبر مساحة بقليل من جمهورية ايرلنده الحديثة، ولم تصل في حدودها الشمالية إلى أبعد من حدود المدن السورية في الشمال والتي كانت تشترك في نفس الحضارة والثقافة. لم تتجاوز الطموحات السومرية هذه الحدود ولم تكن للبلاد والمناطق البعيدة أهمية كبيرة باستثناء ما يخص العلاقات التجارية.

وبإنشاء مملكة أكادية في الشمال تغيرت كل الظروف فبوجود سلطة فاعلة وديناميكية ومع ظهور حاكمها الأول كرجل دولة عظيم برزت عوامل جديدة بشكل واضح تماماً. ودون ان تعيقه التقاليد السومرية والقيود التي فرضتها على الملوك السابقين كان مفهوم أكاد للسلطة الملكية مطلقاً وكانت طموحاته تتجاوز عملية توحيد سومر وأكاد. لذلك فمن المفيد قبل العودة إلى السجل الآثاري ان نلخص الحقائق المعروفة عن أصل وتاريخ السلالة الأكادية.

الساميون في بلاد الرافدين

لا بد في البداية من الحديث قليلاً عن الساميين الذين يمكن ان نستدل على وجودهم في عصر مبكر من خلال أسماء بعض المدن في منطقة بلاد الرافدين[١٥٩]. وفيما يتعلق ببلد نشأتهم فان الفكرة القديمة التي اعتبرت الصحراء السورية مركزاً لانتشار الأقوام البدوية قد نبذت لأن القسم الأكبر من هذه الصحراء بقي غير مأهول بالسكان منذ العصر الحجري الوسيط حتى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد عندما استعمل الجمل للمرة الأولى كوسيلة للنقل في الصحراء. ولعدم توفر سرعة الحركة الموجودة لدى البدو في العصر الحاضر فان الرعاة البداة في الماضي البعيد يجب ان يكونوا قد اقتصروا في تحركاتهم على أراضي المراعي الهامشية المجاورة للمناطق التي سكنتها أقوام أكثر استقراراً لاعتمادهم على الزراعة، ثم استطاعوا ان ينفذوا إلى هذه

المجتمعات الزراعية بشكل تدريجي. وبالتأكيد كانت تلك هي الحالة على أطراف بلاد الرافدين المجاورة للصحراء السورية ولا تتوفر إلا أدلة قليلة على الكيفية التي تم فيها هذا التسرب. تظهر الأسماء الشخصية السامية في النصوص المكتوبة طوال عصر السلالات الباكرة ويدل التوزع الجغرافي على انه في الوقت الذي كان فيه الساميون يشكلون أقلية في المدن السومرية الجنوبية فان أعدادهم كانت تتزايد كلما اتجهنا نحو الشمال فقد شكلوا الأكثرية من السكان في ماري وآشور.

وبالنسبة للأكاديين فيبدو ان أصلهم البدوي قد نسي بسرعة، ولا توحي النصوص القديمة ان السومريين قد قاوموا دخلوهم إلى البلاد أو استاؤوا من وجودهم. وفي أيام سلطة سارغون عرف القسم الأوسط من بلاد الرافدين من نيبور



الشكل رقم ٩٣: رأس من البرونز بالحجم الطبيعي للملك أكادي ربما يكون سارغون ٢٣٧٠ ـ ٢٣١٦ قبل الميلاد. وقد وجد في معبد عشتار في نينوى. الارتفاع ٣٠ سم.

في الشمال حتى خط هيت ـ سامراء بما فيها منطقة ديالى ولفترة طويلة من الزمن باسم بلاد أكاد. ولهذا السبب فان اسم «أكادي» قد أطلق على كل الشعوب غير السومرية في بلاد الرافدين. ومن أكثر الفوارق الحضارية وضوحاً بين هاتين المجموعتين العرقيتين الفارق اللغوي. لقد حافظ الأكاديون على طريقة الكلام السامية اما من أجل الكتابة فقد اضطروا لاتباع طريقة النسخ المسمارية القديمة وبشكل بدائي. وعندما اتقنوا طريقة الكتابة أصبحت الطريقة الأكادية في الكتابة لغة مشتركة لمنطقة الشرق الأدنى ولغة للمراسلات التجارية والدبلوماسية. وفيما عدا ذلك فان رعايا سارغون قد شاركوا ومارسوا نفس المعتقدات الدينية والنشاطات الاجتماعية للسومريين.

سارغون وخلفاؤه

ان اسطورة الأصل المتواضع لسارغون أو شاروكين قد أصبحت موضوعاً مألوفاً في أدب العصور التالية، وهو يتلخص في قيام بعض الفلاحين بتربية طفل يتيم، ثم استخدم ملك كيش هذا الطفل كساقٍ إلى ان حل الطفل مكان الملك. كانت هذه الأحداث تمهيداً لسيرة عسكرية مذهلة بدأت بتغلبه على «لوغال زاغيزي» في أوروك وهو الحاكم الأعلى لكل بلاد سومر. وبعد ان أخضع المدن لسيطرته واحدة بعد أخرى وغسل أسلحته في البحر أنشأ عاصمته الجديدة في منطقة تدعى «اغاد» (Agade). ولسوء الحظ فان هذه المدينة هي واحدة من المراكز السياسية الهامة والقليلة في بلاد الرافدين التي لم يتم تحديد موقعها حتى الآن. ويبدو على أية حال انها تقع إلى الشمال تماماً من إحدى المواقع السومرية ويمكن الوصول إليها بالمراكب عن طريق النهر. ويلاحظ المرء عند هذه النقطة الدليل على وجود تمييز لمصلحة العنصر الأكادي بين أتباع سارغون. فقد تم تعيين حكام أكاديين في المدن السومرية وتوقف استعمال اللغة السومرية في الأعمال الإدارية والحكومية. ومن جهة ثانية بذل سارغون الكثير من الجهد والزمن في عملية إعادة بناء الآثار الدينية السومرية ولا يغيب عن الذهن ان ابنة سارغون أصبحت كاهنة «نانار» (Nannar) اله القمر في أور.

وبالنسبة لسارغون وطموحاته فلم تكن السيطرة على سومر أكثر من مقدمة لامتداد فتوحاته إلى ما وراء الحدود الطبيعية لبلاد الرافدين. فقد حملته أول مغامرة

عسكرية باتجاه الشرق إلى عيلام (Elam) حيث تمكن من التغلب على قوى تجمعت لأربعة من الحكام بقيادة ملك «أوان» (Awan) وقد أسس هناك مركزاً لنائب الملك في مدينة سوسا التي أصبحت تتبوأ مكانة سياسية جديدة. أما حملته الثانية فقد سلكت طريق نهر الفرات إلى شمال سورية ووفقاً لتقريره الخاص «فان الاله داغان قد منحه المنطقة العليا من بلاد الرافدين». ويمكن ان يعني هذا الأمر وصوله إلى غابات الأرز في الأمانوس ومناجم الفضة في جبال طوروس. أما حملاته الأخيرة فقد كرسها لتأكيد ولاء المستوطنات الواقعة حول وخلف نينوى، وهناك نص مشهور باسم «ملحمة ملك المعركة» يصف الملك وهو يتوغل عميقاً داخل بلاد الأناضول لحماية تجاره من ابتزاز أحد الحكام المحليين، وهو ملك بوروشاندا، الواقعة إلى الجنوب من منطقة الكايساري (Kayseri). ولقد قُبِلَ أيضاً مع بعض التحفظات، تقرير عن حملة سارغون قرب البحر والتي قادته إلى أطراف الخليج العربي الجنوبية كما وتم تأكيد ادعائه بانه قد عبر البحر في الغرب ليصل إلى قبرص وكريت.

ومن الواضح ان مغامرات سارغون العسكرية المتتالية قد أدت وللمرة الأولى في تاريخ بلاد الرافدين إلى ايجاد امبراطورية بالمفهوم السياسي سهلت النشاطات التجارية بين أقطار كانت غير معروفة تقريباً حتى ذلك التاريخ. وبالاضافة إلى المصادر الجديدة للأخشاب والمعادن الأساسية التي أصبحت في المتناول بعد افتتاح الطرق الشمالية، والبضائع الكثيرة التي لا يمكن الحصول عليها من الشرق عن طريق عيلام فان امكانيات التجارة البحرية في الخليج العربي قد نمت بشكل متزايد وواضح. ولقد عرفنا على سبيل المثال أنه في عصر سارغون كانت سفن «ديلمون» (Dilmun) و«ماجان» (Magan) و«ميلوحا» (Meluhha) ترسو على رصيف ميناء اجاد (Agade) العاصمة[١٦٠]. ولقد تم التأكد ان الاسم الأول يمثل جزيرة البحرين التي سبق ان ذكرت كمركز تجاري في نصوص عصر السلالات الباكرة. وإذا اعتبرنا ان ماجان هي عمان فيمكن اعتبار ميلوحا موقعاً بعيداً كان يستخدم كحلقة اتصال مع حضارات وادي الهندوس. وبواسطة التجارة على الأقل امتدت الامبراطورية الأكادية إلى آخر أطراف العالم المعروف في ذلك العصر.

استمر حكم سارغون زهاء خمس وخمسين سنة، لكنه قبل ان يموت وجد أنه من الضروري ان يكبح التمرد الأول في سلسلة من الثورات التي عكرت استقرار

النظام في عصر خلفائه ومن الجدير بالذكر ان «ريموش» الابن الأول لسارغون لقي حتفه نتيجة عصيان في أحد القصور. أما ابنه الثاني «مانيشتوسو» وحفيده «نارام سن» فقد تمكنا من متابعة توسيع الامبراطورية الأكادية. ويبدو ان «نارام سن» كان حاكماً من نفس طراز جده سارغون فأصبح مثله بطلاً لاحدى الأساطير. امتلأت فترة حكمه الطويلة ما بين (٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥) قبل الميلاد بسلسلة من العمليات العسكرية الظافرة وتم تصوير بعضها في الآثار الباقية حتى الآن من عصره. ففي الشمال مثلاً خلدت حملته ضد ملك حوري بواسطة نقش نافر ملكي نحت على سطح صخرة في «بير حسين». وهناك تمثال حجري آخر في «دارباند ـ اي ـ غاور» (Darband - i - Gawr) يسجل انتصاره على شعب لولوبي (Lullubi) وهو أحد الشعوب القليلة في لورستان التي كانت تشكل تهديداً لحدود بلاد الرافدين[٦١] كما وتم تخليد انتصار مماثل بتصميم شهير يدعى (نصب نارام سن) وقد اكتشف النصب في سوسا وحفظ في متحف اللوفر.

أما بالنسبة للسجلات المكتوبة فانه من المتوقع العثور على تفصيلات عن الملوك الأكاديين في أرشيف «إيبلا» وهي مدينة غزتها وسلبتها جيوش سارغون.

وفي نهاية الأمر استطاع «الجوتيون» وهم جيران شعب لولوبي ان يكتسحوا موطن الأكاديين ولقد حدث ذلك أثناء حكم «شار كالي شاري» (Shar - gali - sharri) خليفة نارام سن. ولأن انقضاضهم تزامن مع انتفاضة عارمة قامت بها المدن السومرية فقد تم تدمير مدينة أجاد عاصمة الأكاديين وانتهت بذلك امبراطوريتهم. ان الفوضى السياسية التي نتجت عن ذلك كانت كبيرة جداً وعظيمة الشأن بالنسبة لجامعي محتويات قائمة الملوك الذين لم يستطيعوا معرفة من كان الملك ومن لم يكن. وتبقى حقيقة راسخة هي أن بلاد الرافدين كانت ولفترة تقارب القرن واقعة تحت سيطرة حكام بربريين شبه مجهولين لم يتركوا سوى القليل من الآثار والنقوش التي يمكن فهمها.

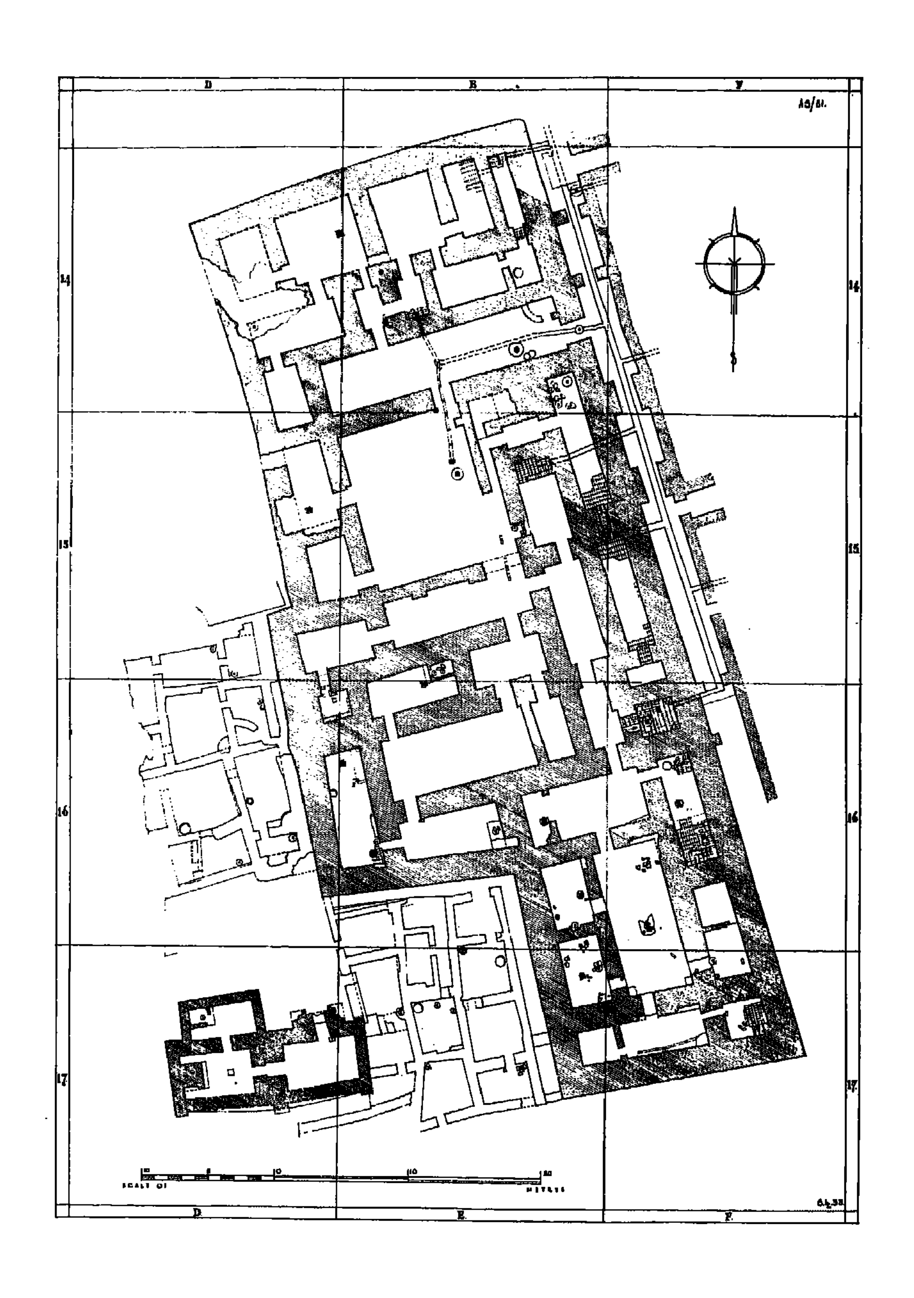
الآثار

لقد سبق ان ذكرنا في هذا الفصل شيئاً عن النشاط الذي بذله الملوك الأكاديون لاعادة بناء الهياكل والمعابد السومرية القديمة. وإذا وضعنا هذا الأمر في الذهن فانه

لمن الغريب ألاّ نلاحظ إلا القليل من آثارهم التي ظهرت نتيجة الحفريات الأثرية في هذه المواقع. ان أحد التفسيرات التي توضح أسباب ندرة الآثار هي ان عملية إعادة البناء كانت تجري كل مئتي سنة بواسطة ملوك السلالة الثالثة في أور الذين كانوا يخفون كل ما يدل على انجازات أسلافهم. ويجب ألا ننسى ان بعض هذه المواقع كانت من أول المواقع التي تم التنقيب عنها في عصر كانت فيه عملية انقاذ الوثائق والنصوص المكتوبة والقطع الأثرية موضع اهتمام أكبر من دراسة البقايا الأثرية. وان كان من غير الضروري ان نؤكد على عيوب الطرق القديمة في التنقيب فلا بد من التأكيد على إبراز صلة الموضوع بالبيئة المحلية الحالية من خلال بعض النماذج المختارة.

الأبنية

اكتشف «هـ. ف. هيلبرخت» (H. V. Hilprecht)، أثناء قيامه بالتنقيب في نيبور خلال عامي ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠، ان الزيقورة التي ترجع إلى عصر السلالة الثالثة كانت تغطي بقايا زيقورة أقدم كان قد انشأها «نارام سن» الملك الأكادي، لكنه اعتبر البحث فيها امراً غير عملي(١٦٢). كما صادف «فنسنت شايل» (Vincent Scheil) في موقع سيبار (ابوحبه) المجمع الديني الضخم الذي أسسه أصلاً سارغون ملك أكاد، واستطاع تسجيل بعض الآثار لجزء من الأبنية التي أقيمت فوق المجمع بعد حوالي ألف سنة(١٦٣). أما «ي. هـ. بانكس» (E.H. Banks) فقد لاحظ أثناء بحثه في «بيسمايا» (اداب) خلال عامي ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ عن تماثيل وألواح، وجود قصر وبيوت خاصة ومقبرة ترجع كلها إلى العصر الأكادي(١٦٤). وخلال الفترة الواقعة بين ١٩٢٣ ـ ١٩٣٣ أصبحت الأمور أفضل بقليل عندما لاحظ «واتلين» (Watelin) أثناء عمله في هضبة انكارا بموقع كيش الأثري وجود اصلاحات وإضافات لزيقورة قديمة في العصر الأكادي كما سجل وجود قبور في المقبرة (آ)(١٦٥). وفي أور دفنت كل آثار الأبنية المؤرخة على عصر سارغون تحت آثار عصور لاحقة. إلا ان «وولي» (Wooley) استطاع ان يدرس ويسجل بدقة ما يقرب من (٤٠٠) قبر أكادي(١٦٦). وكان على المنقبين الأثريين البريطانيين والأمريكيين ان يلقوا مزيداً من الأضواء على خصوصيات فن العمارة الأكادي خلال الثلاثينات من القرن الحالي.



الشكل رقم ٩٤: مخطط قصر أكادي في تل أسمر مع الأجنحة الملكية والجناح الخاص بالنساء. أعيد بناء معبد آبو المجاور مع مزار مزدوج في عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد. (لويد، ١٩٣٣).

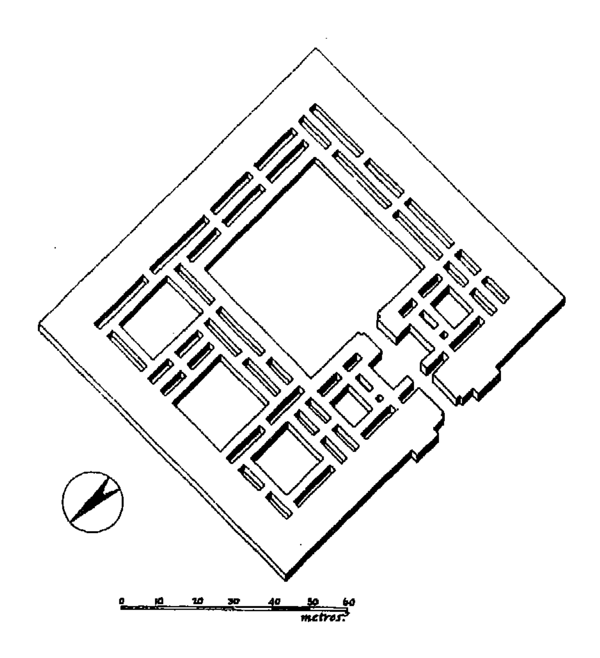
تل أسمر

أشارت المصادر إلى اكتشاف بناء سكني ضخم وحسن التصميم في تل أسمر من منطقة ديالى يرجع إلى المرحلة الثالثة من عصر السلالات الباكرة. وبعد وقت قصير أعيد بناء هذا القصر بحجم أكبر وبجدران تزيد سماكتها على المترين وقد بلغ طوله (٧٣) متراً(١٦٧). لقد سمي هذا البناء «بالقصر الشمالي» وتم تصميمه، على غرار القصور التي سبقته، بما يتلاءم مع الموقع غير المنتظم الأبعاد. وتدل الدراسة التحليلية لمخطط القصر انه كان مقسماً إلى ثلاث وحدات مستقلة ويتمركز في الوسط جناح يشمل غرف الاقامة والاستقبال التي لم تكن هناك أي صعوبة في التعرف على وظيفتها. وفي الجهة الغربية من هذا الجناح تجمعت مجموعة أخرى من الغرف حول باحة خاصة وتؤكد محتويات هذه الغرف التي تشمل المرايا والحلي وأدوات الزينة انه كان مخصصاً لاقامة نساء القصر. وأخيراً وإلى الشمال، يقع بناء مفصول عن الجناح الرئيسي بمجموعة من الممرات تؤدي إلى المدخل الرئيسي، وكان يستعمل من أجل وسائل الراحة. ومن أكثر المظاهر غرابة وإثارة في هذا البناء، مجموعة الغرف المختلفة الأشكال والموجودة على الجانب الشرقي والتي تتميز بوجود تحصينات داخلية مبنية من القرميد المشوي. ويبدو ان هذه الغرف كانت تستعمل لأغراض تستدعي استعمال الماء فقد كان لكل منها مصرف للمياه ممتد إلى خارج البناء. ويلاحظ أيضاً وجود أماكن صغيرة الحجم لامعة أو دورات مياه ملحقة بالغرف الكبيرة الموجودة في الطرف المقابل من البناء. ان الغرف الأكثر طولاً والتي شغلت الجانب الشرقي من البناء فقد كان لها على ما يبدو وظيفة مختلفة مما دعى بعض الجهات إلى الاعتقاد بأن اعتبار هذه الأبنية قصراً كان من قبيل الخطأ(١٦٨). تم تحديد تاريخ هذا البناء بالاستفادة من أشكال القرميد وأدلة أخرى أكدت بناءه في السنوات الأولى من العصر الأكادي.

خفاجه وبراك

ظهرت أدلة أخرى على وجود عملية استيطان بشري كثيفة في مواقع ديالى خلال العصر الأكادي، حيث تم الكشف عن منطقة واسعة مغطاة بالأبنية السكنية الخاصة في تل أسمر قرب القصر الشمالي ولقد تمت دراسة هذه المنطقة بعناية كبيرة(١٦٩). وفي خفاجه، وفي منطقة بعيدة عن الموقع الرئيسي، أقيم جدار حول

مجموعة من الأبنية الأكادية لم يبق منها سوى الأساسات(١٧٠) كما وان هناك آثار تدل على مستوطنة إكادية تحت سطح الأرض مباشرة في تل عقرب. وفي موقع تل براك المجاور للحدود السورية في منطقة بلاد الرافدين الشمالية في سورية اكتشف «مالوان» أحد أهم الأبنية المؤرخة على هذه الفترة. دعي هذا البناء قصراً وان كان يرجح ان موقع عسكري أو مركز تجاري يشغل موقعاً استراتيجياً على الطريق التجاري المؤدي إلى جنوب بلاد الأناضول في عصر (نارام سن). لقد بني هذا القصر فوق «معبد العيون»



الشكل رقم ٩٥: مخطط أساسات قصر نارام سن في تل براك. وهو موقع أمامي حصين على الحدود الشمالية لبلاد الرافدين. (ب. ب. برات عن مالوان).

الذي سبقت الإشارة إليه عند دراسة مراحل ما قبل التاريخ. لم يبق من هذا القصر سوى قسم من الأساسات التي تم بالاستفادة منها إعادة تصميم البناء على سطح مربع تقريباً يصل طول ضلعه إلى (١٠٠) متراً وتميز البناء بجدرانه الخارجية السميكة. ويتألف هذا البناء، كما يفترض، من غرف طويلة مخصصة للخزن مجمعة حول عدد من الساحات. سلب القصر بعد سقوط الامبراطورية الأكادية ثم التهمته النيران وحل مكانه في عصر «اور نامو» (Ur - Nammu) بناء أقل متانة وذلك في الفترة الواقعة ما بين ٢١١٣ ـ ٢٠٩٦ قبل الميلاد.

فن النحت

ان النماذج الباقية بحالة جيدة من آثار فن النحت الأكادي ليست أكثر من الأبنية الباقية من ذلك العصر ويعتبر هذا الأمر حقيقة مؤسفة بالنسبة للانجازات البارزة وذات المواصفات الرفيعة المستوى في تلك الفترة. ولقد حفظت المصادفة فقط أثرين بارزين وهامين في هذا المجال. الأثر الأول يمثل رأساً بشرياً بالحجم الطبيعي لأحد الملوك الأكاديين وقد تم اكتشافه بعيداً عن مكانه الأصلي، ضمن الآثار الآشورية لمعبد عشتار في نينوى وهو محفوظ في المتحف العراقي[١٧٢]. أتاحت الظروف فرصة سعيدة لمالوان باكتشاف،هذا الأثر الذي اعتبره يمثل رسماً لسارغون أكاد كان قد قام بتكريسه ابنه «مانيشتوسو» الذي سجل اسمه كمنشىء للمعبد. في التمثال نرى الملك وهو يضع على رأسه شعراً مستعاراً تزيينياً يشبه في تصميمه خوذة «ميسكالامدوغ» أو تلك التي كان يرتديها «اياناتوم» في نصب العقبان. ومن الجدير بالذكر ان شكل الشارب وطريقة تصفيف شعر اللحية وتشكيل الوجه تبرز تطوراً ملحوظاً في أعمال النحاتين السومريين ولقد أتلفت إحدى عينيه نتيجة انتزاع جوهرة طعمت بها.

أما الأثر الهام الثاني في مجال فن النحت في العصر الأكادي فهو نصب «نارام سن» الذي عثر عليه «مورغان» (Morgan) في سوسا حيث كان الملك العيلامي «شوتراك ناخانت» (Shatruk - Nakhkhunte) قد أحضره كقسم من غنائم سيبار[١٧٣]. كانت الغاية من صنع هذا النحت النافر تخليد انتصار الأكاديين على قبائل لولوبي البدوية. يصور النحت بمهارة واتقان إحدى الحملات العسكرية في منطقة جبلية كثيفة الغابات، وأول ما يلفت النظر في هذا العمل الفني شكل ضخم للملك، واقف فوق جنوده، تحميه رموز الالهة. يحمل الملك قوسه ويضع على رأسه قبعة ذات قرون للدلالة على قدسيته. انه يسحق اعداءه بقدميه. ومن الناحية الجمالية يمثل النصب تصميماً فنياً رائعاً مما يمكنه من ابراز القدرة الابداعية لدى الفنانين الأكاديين. وإذا كان لا بد من وثيقة أخرى في هذا المجال فيجب البحث عنها في البقايا الأثرية المحطمة في سوسا وغيرها. وتبرز بعض الاجزاء للقطع الفنية وألواح الديوريت في اللوفر مشاهد من آثار ونتائج انتصارات سارغون على اعداء مجهولي الهوية[١٧٤]. ولعدم تحديد تاريخ هذه الآثار بصورة ثابتة فيمكن ان تنسب تاريخياً إلى المرحلة المبكرة من



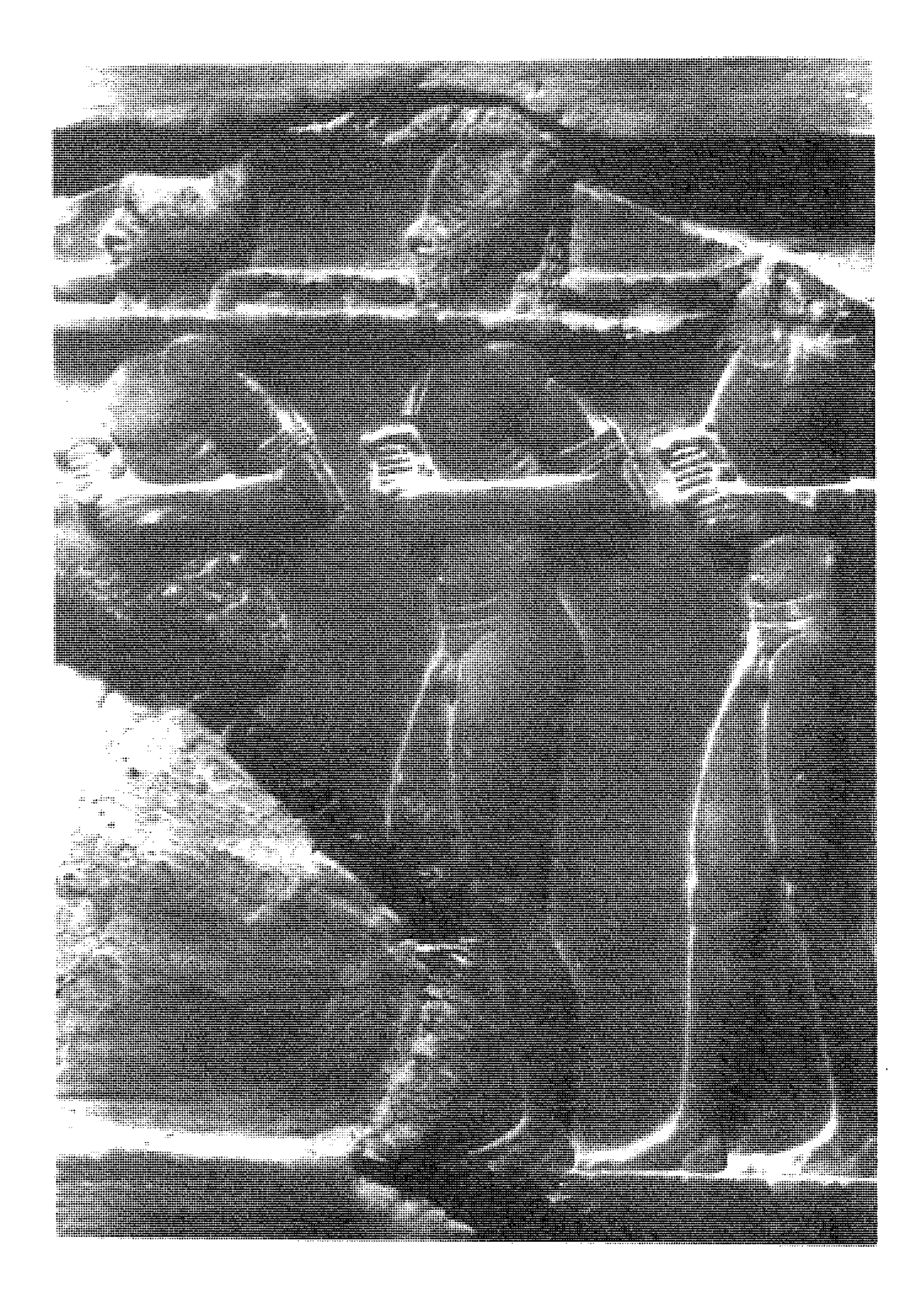
الشكل رقم ٩٦: نصب نارام سن ملك أكاد ٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ قبل الميلاد يحتفل الملك بانتصاره على لولوبي في منطقة جبلية مشجرة كما نرى صورة ملك أكاد وهو يقود جنوده الذين تحميهم رموز الآلهة. يظهر التصميم التطور في صناعة المنحوتات النافرة عند السومريين القدماء. الارتفاع ١٩٨ سم.

مراحل تطور أسلوب النحت الأكادي. ولان هذه الأعمال الفنية تحتوي على تماثيل مرتبة بشكل أفقي فهي بذلك تحافظ على الكثير من خصائص النماذج المتكررة السومرية على الرغم من قلة ظهور ملابس الكوناكس. ان الاجساد العارية للأعداء المهزومين في المعارك تدل دلالة واضحة على الفهم المتطور للجهاز العضلي عند الانسان. ويبدو ان تطوراً مذهلاً في اتقان مثل هذه التصاميم قد حدث في عصر سارغون ومن جاء بعده ويمكن التأكد من ذلك بواسطة أجزاء من لوحة مشابهة موجودة في المتحف العراقي تعاصر تقريباً مرحلة حكم نارام سن. نلاحظ هنا عملية تطوير شاملة لفن نحت النقوش النافرة تضاهي انتاج المثالين المصريين الذين عاصروا تلك الحقبة التاريخية[١٧٥].

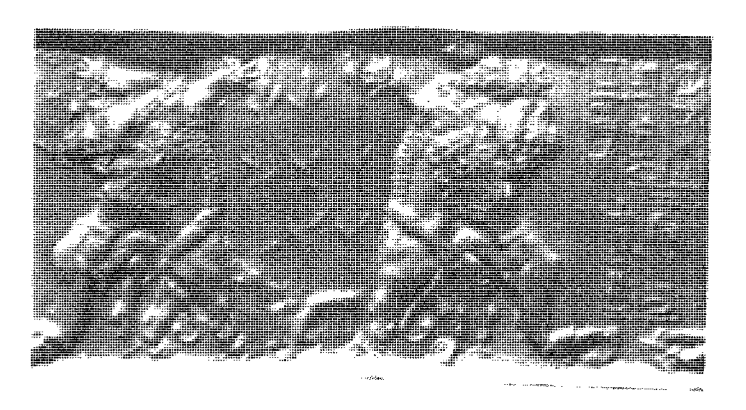
الأختام الاسطوانية

تشكل الأختام الاسطوانية التي تم الحصول عليها من المقابر والمنازل الخاصة في بعض المواقع الأثرية التي أشرنا إليها سابقاً التعويض عن ندرة الأعمال الفنية الأكادية في مجال النحت. ان مهارة صانعي الأختام الأكاديين وموهبتهم في ابتكار التصاميم وقد وضعت أساساً جديداً لفن نقش المجوهرات في بلاد الرافدين[١٧٦]. في الدرجة الأولى نلاحظ وجود بعض الحداثة في اختيارهم للموضوعات، لكن الشيء الأهم من ذلك هو التغيير الشامل في مبدأ التصميم وفي أسلوب النحت. كان هدف الفنانين القدماء ربط هذه التماثيل مع بعضها على شكل أفريز متصل، ولقد تم في هذا العصر الابتعاد عن تلك الطريقة وابتكار تصاميم جديدة تجعل حركة الختم الدورانية تؤدي إلى انتاج سلسلة من اللوحات تفصلها عن بعضها في كثير من الأحيان نقوش متنوعة. كما شمل التغيير الكبير الأشكال نفسها فأصبحت أكبر حجماً كما أصبحت نقوشها أكثر عمقاً مما يعطي الرسوم النافرة بروزاً. وقد أعطيت التفاصيل الزخرفية اهتماماً كبيراً. ان الفواصل الفارغة بين هذه الرسوم تزيد من جمال الأشكال وصفاء الخطوط بينما يؤكد التضاد دقة التكوين وبراعة النماذج والأشكال التي تكونها هذه الأعمال الفنية.

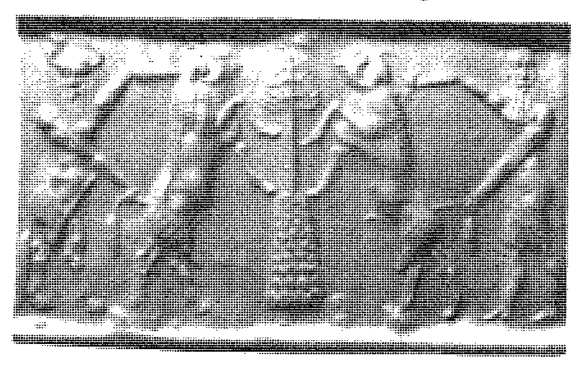
ومن أهم التماثيل الاسطورية «البطل العاري» (the Naked Hero) الذي نشاهده مع صديقه «الثور ذي الرأس البشري» (Man - Headed Bull) وهما يتعاركان



الشكل رقم ٩٧: جزء من نحت أكادي نافر يظهر فيه الأسرى العراة بعد النصر. نموذج نادر يؤكد المستوى العالي للنحاتين في بلاد الرافدين.



الشكل رقم ٩٨: ختم اسطواني أكادي ـ يمثل موضوع الصراع ـ تفصل الرسوم قضبان قصب عمودية ونقوش كتابية ـ التصميم والتنفيذ في مستوى رفيع.



الشكل رقم ٩٩: «الرجل ـ الثور» والبطل يتصارعان مع ثيران وحشية ونشاهد رمز الشجرة بين المشهدين.



الشكل رقم ١٠٠: مشهد اسطوري لاله الشمس «شمش» وهو ينهض بين جبلين. كما يظهر اله الماء وآلهة أخرى.

مع حيوانات ذات قرون أو مع الأسود. إلا ان الحيوانات في هذا العمل مرتبة بشكل تضادي وبطريقة تشبه الدعائم التي لاحظناها في بعض التصاميم بالاضافة إلى ذلك فان هذه الأعمال لا تخلو من فكرة مركزية وأساسية لكامل العمل الفني. ان المشاهد الدينية والاسطورية التي شاعت في هذا العصر أصبحت موجودة ضمن اطار متكامل لتصميم ثابت وسكوني. وباستثناء المواضيع التقليدية للعبادة والطقوس الدينية فتشير المصادر الرئيسية إلى علاقة هذه الأعمال بأساطير الأدب السومري. مرة أخرى يظهر اله الشمس في قاربه، واله الماء مع الجداول المتدفقة من جسمه. وهناك الرجل الطائر «زو» (Zu) الذي سرق لوحة القدر، «واتيانا» الذي حاول الوصول إلى السماء على ظهر نسر والكثير من الكائنات الخرافية التي تم التعرف عليها عبر دراسة طويلة كرست لموضوع هذه الأختام[١٧٧]. وبين هذه الأعمال يحتل المكانة الفريدة النموذج المؤرخ على زمن المستوطنة الأكادية في (معبد آبو) في تل أسمر. فقد استطاعت صوره ورسومه وخصائصه المأخوذة من وادي الهندوس أن تدل على إنشاء أولى الصلات مع المدن المعاصرة لكل من «موهينجور دارو» (Mohengo - daro) و«هارابا» (Harappa) [١٧٨].

جاسور Gasur

وأخيراً يجب ان نأتي على ذكر موقع هام وبعيد حصلت منه بعثة أثرية أمريكية على مادة هامة من العصر الأكادي وذلك في أواخر العشرينات من هذا القرن. انه موقع «نوزي» (Nuzi) القريب من مدينة كركوك، والذي أصبح مدينة عظيمة الشأن تحت حكم الحوريين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. لقد أثبتت الحفريات تحت قصر الحوريين وجود عملية استيطان متواصلة خلال الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد، وخلال هذه الفترة الطويلة عرف المكان باسم «جاسور». وفي فترة سابقة من عصر السلالات الباكرة بني في المكان معبد مكرس للالهة «عشتار» يشبه إلى حد بعيد المعبد الموجود في آشور. ولقد اشتملت اللقى التي عثر عليها بجوار البناء على مجموعة كبيرة من الألواح تلقي الكثير من الضوء على التجارة والعلاقات التجارية في العصر الأكادي. كما وعثر بين النصوص الآشورية القديمة على أدلة على مؤسسات تجارية في الأنـاضول، مما قدم مادة جديدة للاساطير السارغونية المرتبطة بهذا الموضوع. ولقد

ساهمت اللقى الأثرية الأخرى في التعرف على النماذج التي كانت مجهولة حتى ذلك التـاريخ من التجهيزات المنزلية والمعدات الحربية في العصر الأكادي. كانت المواد المعـدنية والأختام الاسطوانية والفخار وفيرة لدرجة جعلت من الممكن مقارنتها مع مثيلاتهـا في السـويات المعـاصرة في تل براك والتي تلتقي معها في الكثير من المزايا والخصائص أكثر مما تلتقي مع نظائرها الجنوبية(١٧٩).

الجوتيون و لاجاش Gutians and Lagash

كان الوضع في بلاد الرافدين خلال فترة الفراغ الطويلة الناتجة عن استيطان الجوتيين مغلفاً بالغموض بسبب ندرة النصوص المكتوبة، لكنه يبدو من غير المعقول عدم وجود أية سلطة منظمة فوق كامل البلاد. ولقد انتهت هذه الفترة في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد بعصيان مسلح قاده حاكم مدينة أور، ومما يلفت الانتباه حدوث النهضة في مدينة لاجاش. قبل عصيان أور بحوالي ستين عاماً. جرت هذه النهضة في ظل أحـد الحكـام السـومريين الذين حصلوا على الاستقلال وتوفرت لديهم الثروة الكافية لاعادة بناء المعابد وإعادة تنظيم الري في المقاطعة. كان اسم هذا الحاكم «أور بابا» (Ur. baba) وقد استطاع خلفه «غوديا» (Gudea) ان يحتل مكانة رفيعة في تاريخ بلاد الرافدين نتيجة للعدد الكبير من النصوص المكتوبة والتي تدل على انجازاته التي لم تندثر، وبسبب رعايته لمدرسة من المثالين الذين ورّثوا إلى الاجيال التالية أهم وأروع الأعمال الفنية وأكثرها كمالاً ونضجاً في فن النحت الخاص ببلاد الرافدين. ومن خلال النصوص وسجلات غوديا عرفنا الكثير عن الحملة العسكرية الناجحة التي قادها ضد العيلاميين وعن تخصيص غنائم هذه الحملة إلى الاله «نينجيرسو» (Ningirsu) الذي وصف معبده بكثير من الاسهاب(١٨٠).

دي سارزيك DE SARZEC

لقـد جاءت غنـائم لاجاش الموجودة في متحف اللوفر نتيجة حفريات أثرية أجراها العالم والمكتشف الفرنسي دي سارزيك في الربع الأخير من القرن الماضي في موقع يسمى (تلّو «Telloh» (١٨١). ولكي نفهم الشعور الذي خلقه وصول هذه اللقى إلى باريس يجب ان نذكـر هنا انها وفرت الدليل المادي على وجود حضارة في بلاد

الـرافـدين سبقت الحضارة الآشورية وانها بقيت الفريدة من نوعها في مجال اللقى الأثـرية الى ان أستؤنفت الحفـريات الأثـرية في جنوب العراق بعد الحرب العالمية الأولى. وسيكون من المناسب هنا تقديم عرض سريع لاكتشافات دي سارزيك(١٨٢).



الشكل رقم ١٠١: قطعة من تمثال من الديوريت في المتحف البريطاني، يحتمل ان تكون من تلوّ ونلاحظ ان أسلوب النحت منسجم مع خصائص المادة. الارتفاع ٧٣ سم.

تلّو Telloh

هي موقـع كبـير قرب قناة شط الهاي، ويبلغ طول قطر الموقع (٠,٩) ميلاً تقريباً. ويعتبر (التل آ) A ـ القصر (والتل ك) K بيت الفواكه (والتل ف) F أو بيت الرقم (Tell des Tablettes) من أكثر أقسام الموقع انتاجاً للمواد الأثرية ضمن الهضاب الرئيسية المحيطة بمركز الموقع. لقد أثارت اللقى الأثرية التي حصل عليها لصوص الآثار اهتمام دي سازريك بهذا الموقع. وخلال عامي ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ تأكدت أهمية التلين A و K عند الاعلان عن اكتشاف أجزاء من تمثال ومستودعات للألواح الحجرية وتماثيل برونزية صغيرة الحجم واسطوانتين كبيرتين تحملان نقوشاً وأجزاءاً من نصب العقبـان بالاضـافـة إلى تمثـال كبير ترك في مكانه. وفي عام ١٨٧٩، وأثناء غياب



الشكل رقم ١٠٢: تمثال من الديوريت وجد قرب تلوّ ربما يمثل غوديا نفسه كما يستنتج من غطاء الرأس. ونلاحظ تأثير قساوة المادة على مواصفات العمل الفني. الارتفاع ١٠٥ سم.

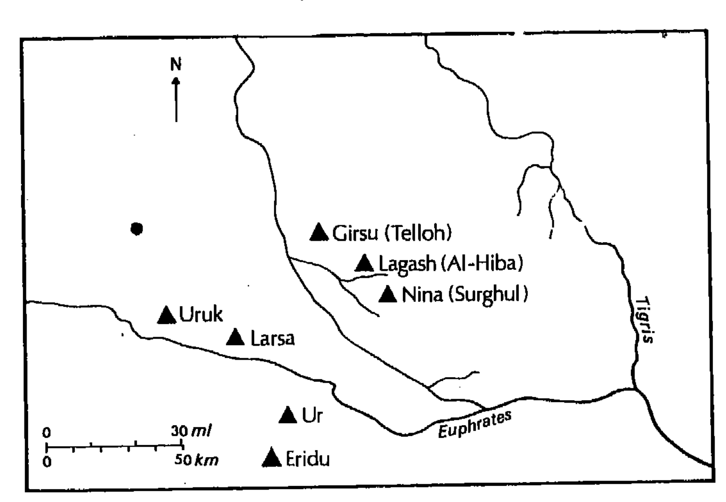
المكتشف الفـرنسي في اجـازة، تسلل هـ. راسـام (H. Rassam) ممثـلاً للمتحف الـبريطاني وأجـرى بعض السبـور الخـاصـة به لكن مصاعب العمل أحبطت من عزيمته. وبعد عام عاد سارزيك ثانية وبدأ الموسم الثالث من حفرياته في (التل آ) وكـان نجاحه عظيماً في هذه المرة فكتب يقول: «مجموعة كاملة من التماثيل الكبيرة لغوديا ولِاور بابا وقطع عديدة من نصب العقبان وتماثيل حجرية صغيرة وتماثيل من البرونز وأوان، وكمية كبيرة من النقوش الكتابية. . انها غنيمة ضخمة وصلت فرنسا في أيار عام ١٨٨١».

ومنذ بداية عمله وخلال الحملة الرابعة كان دي سارزيك يتعامل مع آثار من العصر ما قبل الأكادي في تاريخ لاجاش. وخلال الحملتين الخامسة والسادسة عندما نقل مركز نشاطه إلى (التل ك) شغل ببقايا أثرية تعود إلى عصر أقدم من ذلك. ولقد عثر على نقوش حجرية تذكر أسماء حكام لاجاش مثل «اور نانش» (Ur - Nanshe) و«ايانـا توم» (Eanna tum) و«اينتيمينا (Entemena) و«اورو كاجينا» (Uru Kagina) الـذين حكموا البلاد في عصر السلالات الباكرة. ومن ابرز اللقى في هذه المرحلة المزهرية الفضية التي تحمل اسم اينتيمينا والتي تتميز بأناقة تصاميمها الرمزية. وقبل وفـاة دي سارزيك في عام ١٩٠٤ قامت أربـع حملات أثرية إلا انه بعد اكتشاف المصدر الذي حصل منه لصوص الآثار على كمية كبيرة من الألواح الكتابية المسمارية وهو (التل ٧) انشغل المنقبون الفرنسيون بمحاولة منع سرقة آثار هذا الموقع. ولسوء الحظ ونتيجة لاعتلال صحة دي سارزيك وظروف أخرى، مرت فترة طويلة بقي فيها الموقع دون حراسة مما أتاح الفرصة للصوص الآثار للتصرف كما يشاؤون. ولقد قدر عدد الألـواح الأثـرية التي وجـدت طريقهـا إلى أسـواق بغداد ما بين (٣٥٠٠٠ - ٤٠٠٠٠). وبذلك يكون عدد الألواح التي حصلت عليها البعثة الفرنسية من الموقع والبالغ (٣٨٠٠) لوحاً قليلاً جداً بالمقارنة مع الألواح المسروقة.

غوديا GUDEA

تم التأكد من تماثيل غوديا وابنه أور نينجيرسو (Ur - Ningirsu) المصنوعة بحجم أقل من الطبيعي بقليل من خلال النقوش المكتوبة عليها. ويظهر الملكان في هذه التماثيل بأوضاع مختلفة. نحتت هذه التماثيل من صخور ضخمة من حجر الديوريت

الصلب نقلت بواسطة السفن من «ماغان» في الطرف الجنوبي من الخليج العربي. وتبـدي الأجـزاء المكشوفة من الجسم دقة في التكوين تناسب المادة التي صنع منها التمثـال، كما وتعطي معالجة النحات لموضوع عمله انطباعاً واضحاً يعبر عن قوة في التنـاسب. فالرؤوس وكانت أحياناً خالية من الشعر وضعت في مكان خفيض بين الكتفـين بينـما يلاحظ ان العيون كانت أيضـاً خالية من أي أثر للتطعيم بالحجارة الكريمة[١٨٣]. وإذا كنا لا نستطيع ان نخفي اعجابنا الشديد بالتصاميم المتقنة لهذه الأعمال الفنية فان شعوراً بالندم والأسف يملأ النفس لفقدان المعابد التي وضعت فيها هذه التـماثيل ولضياع التجهيزات الأخرى في هذه الأبنية الدينية، وخلال حفرياته الأثـرية أعـطى دي سارزيك القليل من الاهتـمام للآثار المعمارية. وبعد وفاته تم استئناف العمل في (تلو) بشكل متقطع حتى عام ١٩٠٩ بإدارة «غاستون كروس» (gaston Cros) الذي استوعب بسرعة تقنية البحث عن الأسوار والجدران. ونستطيع الحصول من الموجز (A) لبارو على تقاريره التي تدل على انه قد فعل الكثير لتوضيح طبوغرافية الموقع. ففي التل (آ) وتحت خرائب القصر الذي بناه الحاكم الآرامي في القرن الثاني قبل الميلاد، قام بتحديد ما اعتبره بقايا معبد نينجيرسو. وفي التل (K) عثر على التحصينات التي بناها غوديا. ومن اللقى التي عثر عليها في مكان آخر تمثال بلا



الشكل رقم ١٠٣: خريطة تبين موقعي تلوّ والحيبه في دولة لاجاش القديمة. (س. ابراهيم، عن و. س. توماس).

رأس تمت عملية اعادة رأسه من قطعة وجدت في متحف اللوفر وكانت معروفة حتى ذلك الوقت باسم (الرأس ذو العمامة).

الحيبه AL. HIBA

في عام ١٩٧٢ وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة دي سارزيك حدثت اكتشافات غير عادية أثناء عملية مسح أجراها «ث. جاكوبسن» (Th. Jacobsen) وفؤاد صفـر، الأمـر الـذي أدى إلى قيام عملية تنقيب أثري أشرف عليها متحف العاصمة وجامعة نيويورك بإدارة ف. ي. كروفورد (V.E. Crawford) في موقع يدعى «الحيبه» يقع على بعد ١٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من «تلّو». لقد عثر على الكثير من النقـوش المكتـوبة وقطع القرميد المختومة وأشياء أخرى يرتبط بعضها ببناء المعبد. تشكل هذه اللقى الدليل القاطع على ان الحيبه كانت إحدى مواقع مدينة لاجاش القـديمـة. ولقـد ألقت التنقيبـات الأثـرية التـالية ضوءاً جديداً على هذا الوضع المتنـاقض. ولكن ما يكمن استنتـاجـه حتى الآن هو ان المدينة التي اكتشفها دي سارزيك في تلّو والتي تعرف الآن باسم جيرسو (Girsu) كانت مركزاً دينياً وسياسياً ثانوياً في دولة لاجاش[١٨٤].

السلالة الثالثة في أور

يعتقـد ان النهضة السومرية قد بدأت في حوالي عام (٢١٢٠) قبل الميلاد، عندما بادر «أوتو هيكال» (Utu - Hegal) ملك أور إلى اعلان أول عصيان واسع النطاق على الحكام القبليين. وقد سانده في هذا العمل الحكام السومريون في بعض المدن ومن بينهم «اور نامو» (Ur - Nammu) الذي حل محله بعد ان حقق انتصاراته الأولى. ثم أتم «أور نامو» تحرير سومر وأسس السلالة الثالثة في أور مدشناً بذلك ما يسمى أحياناً بالعصر السومري الحديث. وطوال فترة تزيد على القرن في عصر هذا الملك وأربعة من خلفائه، كانت أور مثل اغاد عاصمة للامبراطورية. كما تم فيها انجاز برامج طموحة في البناء تركت آثارها في المدن على شكل زيقورات ومعابد وقصور. لذلك لا بد لنا الآن من التركيز على مدينة اور حيث قام وولي في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٢ - ١٩٣٤ بالتنقيب في موقع يسمى «تل المقير»[١٨٥] بشكل شامل.

الأبنية في أور

نشر وولي مخططاً كاملاً لمدينة أور كما وجدها يحتوي على تفاصيل التحصينات التي استطاع استعادة أجزاء منها[١٨٦]. وتتمثل هنا بالطبع أسوار المدينة عندما أعاد بناءها ملوك الدولة البابلية الحديثة في القرن السادس قبل الميلاد. وليس هناك أي سبب يدعونا إلى الافتراض بان حدودها الخارجية تختلف كثيراً عن الحدود التي بنيت في عصر الملك أور نامو قبل ١٥ قرناً من الزمن. تتخذ المدينة التي تحيط بها هذه الأسوار شكلاً شبه بيضوي ويبلغ أقصى طول لها (١٢٠٠) متر. وفي عصر الملك اور نامو أحيطت المدينة بسور واستحكامات وصفها وولي على النحو التالي:

«لقد بني المتراس من القرميد الطيني، وكان السطح الخارجي له منحدراً بشكل مائل جداً. وكان القسم السفلي من البناء يشكل ساتراً على جانب الهضبة التي شكلتها المدينة القديمة. بينما يمتد القسم العلوي منه نحو الداخل فوق قمة الآثار ليشكل مصطبة صلبة البنية... وفي الأعلى من كل ذلك هناك جدار مبني بشكل مناسب من القرميد المشوي.... ويزيد من قوة هذه التحصينات في الواقع مرور مياه نهر الفرات في أسفل المتراس. بينما حفرت قناة واسعة على بعد (٥٠) ياردة من السور من الجهة الشرقية مما جعل الماء يغطي الطرف الشمالي من المدينة. لذلك فقد كانت اور محاطة بالماء من جهات ثلاث وكان الاقتراب منها على أرض يابسة ممكناً من الجهة الجنوبية فقط».

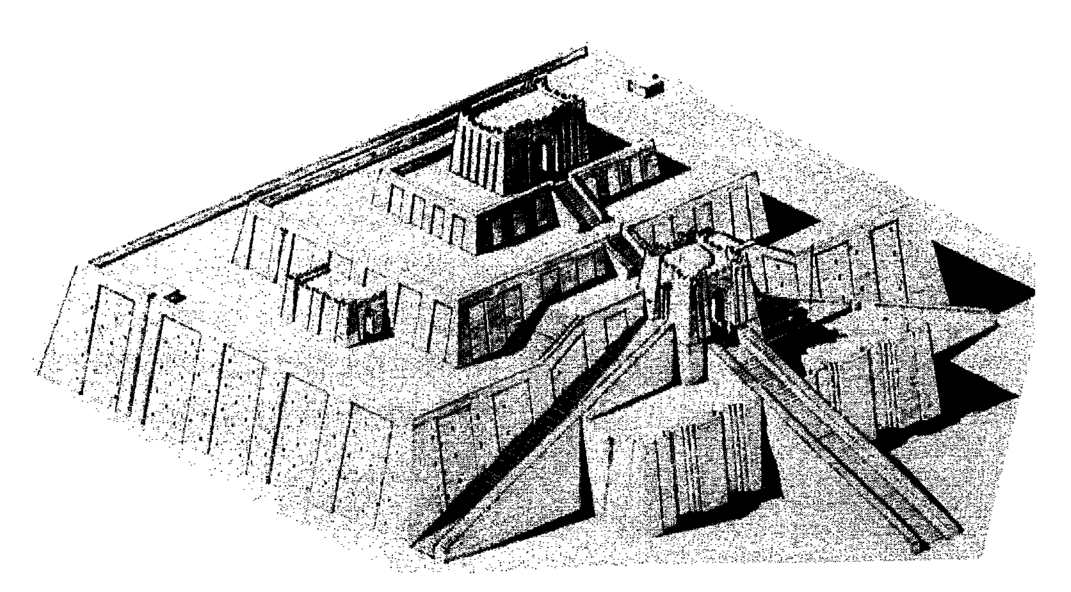
ويفترض ان جيش العيلاميين قد هاجم أسوار المدينة من هذه الجهة في عام (٢٠٠٦) قبل الميلاد حين دمرت المدينة.

ويضيف وولي:

«لم يبق لسور مدينة اور أي أثر. ويمكن ان نصادف نماذج من أحجار ضخمة من القرميد المسكوب في قوالب طبع عليها اسم الملك ولقبه. وقد استعملت هذه الأحجار ثانية في بناء أحدث ولكن ليس بين هذه الأحجار القرميدية واحدة في مكانها. ولان دفاعات اور كانت على قدر كبير من القوة فقد قام العدو المنتصر بتفكيكها بعناية خاصة».

الزيقورة

كان السور المحصن الثاني يحيط بالمجمع الديني في الجزء الشمالي الغربي من المدينة. وفي مصور وولي لهذه المنطقة يلاحظ توسيع المجمع في عصر نبوخذ نصر حيث اخترق السور الجديد المبنى الضخم لقبور السلالة الثالثة التي كانت خارج المجمع الديني مباشرة قرب القبور الملكية القديمة. أما الأبنية الموجودة في داخل السور فقد كان أبرزها الزيقورة التي بناها الملك اور نامو وأكمل بناءها ابنه «شولغي»



الشكل رقم ١٠٤ : زيقورة اورنامو في اور من عصر السلالة الثالثة اعاد وولي تشكيلها بطريقة مناسبة باستثناء شكل المعبد في الأعلى فهو افتراضي. الابعاد ٦١ × ٤٥,٧ متراً.

(Shlgi) [١٨٧]. ان هذا الأثر الهام والذي حافظ على بنيته أكثر من أي أثر آخر من نفس النوع في بلاد الرافدين، قد قام المكتشف الأثري وولي بدراسته وتسجيله وإعادة تشكيل مظهره وتصميمه بطريقة سهلت على الحكومة العراقية إعادة بنائه بشكل جزئي. انه بناء متين مبني على ثلاث مراحل، فنواته مصنوعة من اللبن الطيني المرتب حول وفوق آثار برج قديم. وهو مكسو بواجهة من القرميد المشوي المثبتة بالقار وتبلغ سماكتها (٢,٤) متراً أما المرحلة الأدنى وهي الباقية بحالة جيدة فتبلغ أبعادها عند القاعدة (٦١ × ٤٥,٧) متراً ويبلغ ارتفاعها حوالي (١٥) متراً. ويتألف المدخل الذي يؤدي إلى قمة البناء من درج ثلاثي المراحل مع حصن غير مرتفع له أبراج في زواياه.

ولقد أوحت نقطة التقاء الزوايا عند مستوى المصطبة الأولى وبقايا الأعمدة القرميدية الأربعة بافتراض وجود سقف على شكل القبة. ولقد أمكن التحقق من ارتفاع وأبعاد المرحلتين العلويتين من البناء اللتين تعرضتا لكثير من الحت والتعرية.

لاحظ وولي وجود ثلاث خصائص للزيقورة وبنيتها وقد أولى هذه الخصائص الكثير من الدراسة والشرح. تتألف مادة البرج من القرميد المجفف بأشعة الشمس والمدعم بعدة طبقات سميكة من القصب المنسوج. أما في نواة البناء فقد تمت تقوية القرميد وإزالة لونه بواسطة النار وهي ظاهرة عزاها إلى تشبع البنية بالرطوبة وإلى حدوث احتراق داخلي في المادة النباتية التالفة. وعلى العكس من ذلك فقد ذهل من العدد الكبير من الفجوات التي تخترق الكسوة الخارجية من المراحل الدنيا للبناء وتساءل ما إذا كان الرصيف العلوي قد غرس بأشجار كانت تحتاج للري وذلك لانه عثر على جذوع أشجار متفحمة قرب قاعدة البرج[١٨٨]. وأخيراً فقد اكتشف وولي وجود انحراف نحو الخارج في خط الواجهات الرئيسية على مستوى الرصيف. قارن وولي هذه الحالة بالتشوه الكبير في المنظور الذي ارتكبه البناؤون الاغريق للمعابد بعد حوالي (١٥) قرناً من الزمن. شكك البعض بهذه التفسيرات عند تذكرهم الثقل الكبير للبرج ومرونة القرميد الطيني.

المصطبة The Terrace

باستثناء بناء الضريح التي أتينا على ذكره من قبل، فان كل الأبنية الرئيسية التي أسسها أصلاً ملوك السلالة الثالثة تقع داخل منطقة المجمع الديني كما وجد في ذلك العصر. ولقد اعيد بناء هذه الأبنية مرات عديدة وأدخلت عليها تعديلات جعلت من عملية دراستها أمراً يحتاج إلى الكثير من المهارة والصبر. وفي الواقع-لو لم تكن العادة ان تدمغ حجارة القرميد المستعملة في البناء منذ العصر الأكادي بنقوش مكتوبة لكانت عملية الدراسة مستحيلة. لقد بنى الملك اور نامو زيقورته على مصطبة عالية محاطة بسور مزدوج يحتوي على غرف داخلية. ثم أضاف إلى البناء باحة أخرى ذات بوابة عظيمة على نفس مستوى المجمع الديني الذي كرسه لكبير الهة اور «نانار» (Nannar). وعلى الجهة الجنوبية الشرقية من مصطبة الزيقورة أقيم بناء قوي التحصين سمي «جي ـ بار ـ او» (Gi - Par - U) كان مكرساً لنينجال (Ningal) رفيق الاله نانار

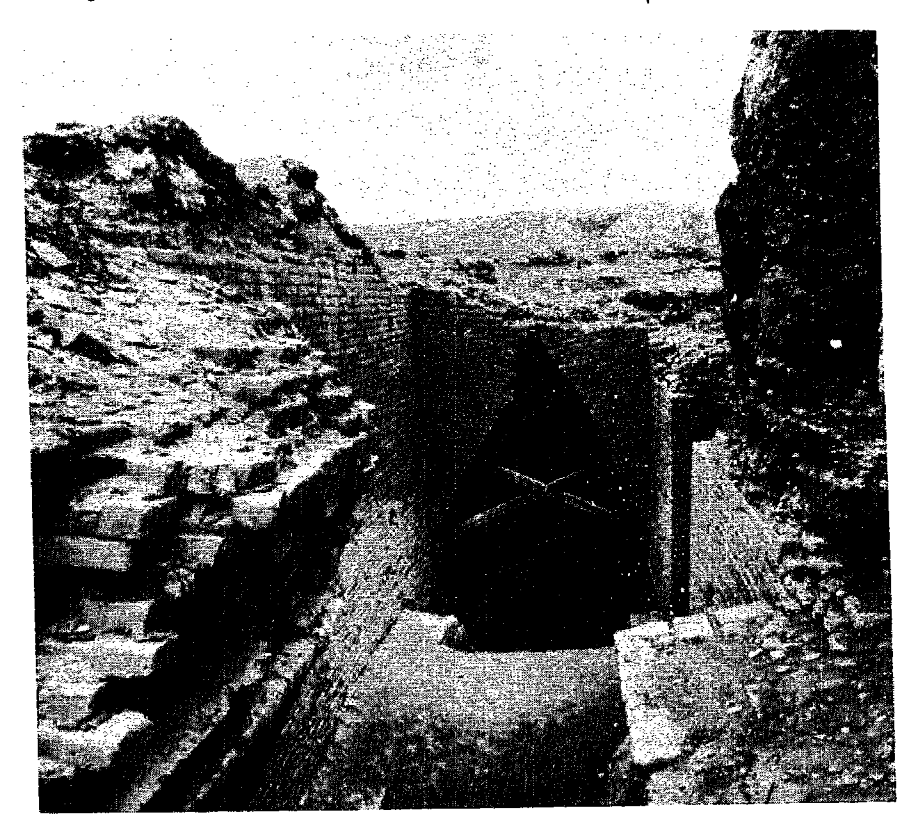
كما كان يحتوي على عدة معابد ثانوية دمجت مع بعضها خلال تاريخها المعماري الطويل والمعقد. وربما يكون هذا البناء معبداً بمستوى الأرض. أما البناء الأصغر حجماً ذو الشكل المربع المسمى «أي ـ نان ـ ماخ» (E - Nan - Makh) والذي يقع في زاوية بين باحتي الزيقورة فقد اعتبر قصراً أو معبداً أو خزينة للمال.

يتكـون المدخل الرئيسي إلى مصطبة الزيقورة في عصر اورنامو من بوابة غير واضحة المعالم موجودة في الزاوية الشرقية وقد عرفت باسم «أي ـ داب ـ لال ـ ماخ» (E - dul - lal - makh). وكان الرواق الخارجي يطل على الجنوب وفيه تمثال للاله نانار. استعمل الملوك هذا المكان كمجلس للقضاء، ثم قام الحكام بفصله عن المصطبة وتحويله إلى محكمة ألحقت بها من حولها مجموعة من الغرف. وبعد سبعة قرون كان ملك الكـاشيين (Kassite) كوريجـالـزو (Kurigalzu) مايزال يشير إليه باسم «البوابة العظيمة ـ البوابة القديمة». أما عن أبنية عصر السلالة الثالثة فقد بقي منها بناءان فقط في شكلهما الأصلي. كان أحدهما البناء الموجود في الزاوية الجنوبية الشرقية من المنطقة القديمة وهو البناء المسمى «أي ـ خارساغ» (E. Kharsag) ، مقر اقامة الملك اور نامـو وخلفـائـه. وكـان البنـاء الثـاني «الضريح» الذي سنتحدث عنه ببعض التفاصيل[١٨٩]. لقد اشتملت هذه الكتلة الهائلة من البناء على قبر كل من الملك اور نامو وقبور خلفائه المباشرين. وكانت تحت مستوى الأرض مباشرة مع غرف الدفن بدهاليزها وأدراجها التي تؤدي إلى هذه القبور. وفوق هذه البقايا نشاهد مكاناً للصلاة خاصاً بشعائر الدفن وكان على قدر كبير من دقة التصميم والبناء.

الضريح The Mausoleum

لا بد من الاشارة في بادىء الأمر إلى ان عملية نهب هذه المقبرة التي وقعت في الماضي هي مأساة حقيقية. وإذا أردنا تقدير هذا الأمر بمقياس الثروة المذهلة الموجودة في قبور السلالات القديمة والتي تعتبر أكثر تواضعاً فان هذه القبور التي دفن فيها الملوك العظماء كانت وبدون أي شك تحتوي على كنوز ضخمة يتعذر حصرها. لم يبق من أبنية هذه المقبرة إلا الهيكل والدهليز بحالة سليمة جزئياً. ولم يجد «وولي» سوى أجزاء من صفائح ذهبية تؤكد وجود كنوز مسروقة. لم يتم تحديد موقع لأي قبر من قبور الملوك اللاحقين في بلاد الرافدين.

أما الغرف ذات الدهاليز فكانت تتميز بوجود مجموعة من الدرجات تؤدي إليها وكانت مسقوفة بقناطر ذات أطناف مصنوعة من القرميد المشوي. وفي تقديره لارتفاع الغرف لاحظ «وولي» وجود حالات غريبة. لقد كان واضحاً فيها يتعلق بقبر «اور نامو» ان الرصيف الموجود داخل القبر كان من نوع رديء جداً فقد ترك فيه فراغ يكفي لوقوف رجل. ثم لاحظ «وولي» درجاً يؤدي إلى منطقة دون ذلك بعدة أمتار وإلى رصيف مبني من طبقات متعددة من القرميد المشوي المثبت بالقار. ويبدو ان حقيقة ما حدث هي انه عندما بني القبر لم يحسب البناؤون حساباً لمستوى ماء النهر، لذلك فعندما توفي الملك وحان وقت استعمال القبر وجدوه مملوءاً بالماء إلى ارتفاع كبير. وكان الحل الوحيد بالنسبة لهم ان يملؤوه بحجارة غير مصقولة وان يعيدوا عملية الرصف.



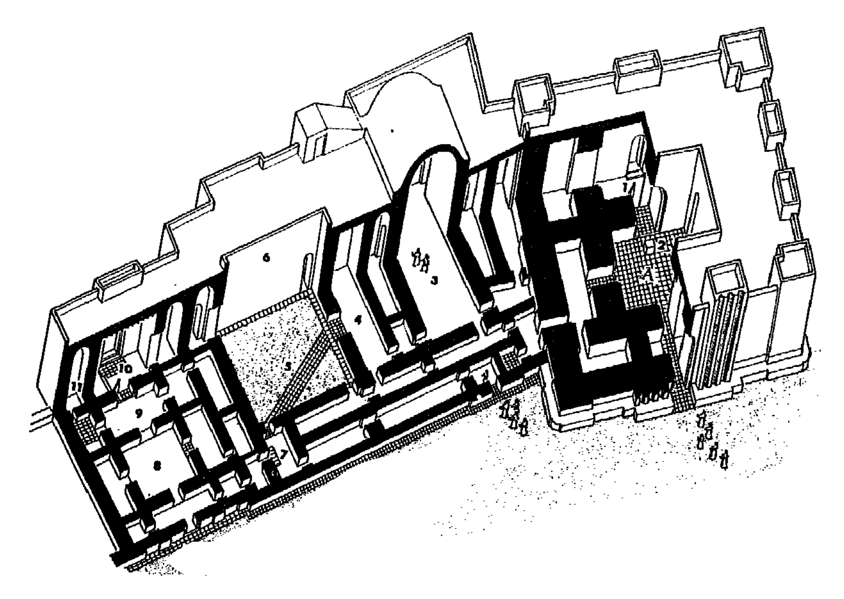
الشكل رقم ١٠٥ : مدخل قبر وقناطر من القرميد في المقبرة الملكية في اور نامو.

ومن الواضح ان مستوى ماء النهر قد تراجع منذ ذلك العصر لأن وولي استطاع ان ينقب عن كل غرف القبـور هبوطاً حتى المستوى الأصلي للرصيف. وبعد تدعيم القناطر بالأعمدة الخشبية أصبح من اليسير على الزوار التجول في المكان. واليوم بعد ان تمت اعادة تشكيل هذه الدهاليز صارت في حالة تجذب السواح.

لقد أجرى «وولي» دراسة عميقة وشاملة لموقع مقبرة اور وللآثار الباقية فيها. واستـطاع تسجيل تفـاصيل عن وجود بناء فوقي مؤقت يرتبط فقط بطقوس الدفن واستبدل فيها بعد بمعبد دائم لنفس الغرض.

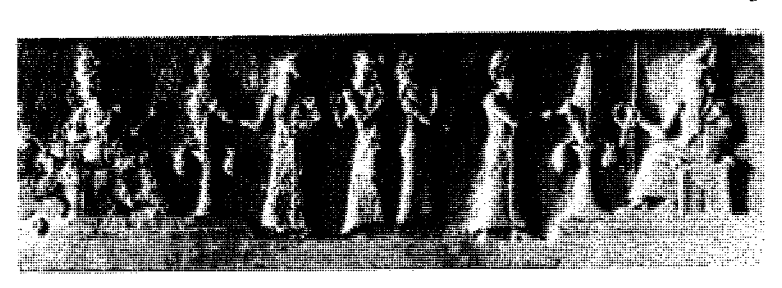
المعابد وفن النحت

تميز عصر النهضة السومرية بظهور تغير ملحوظ في تصميم ومخططات المعابد العادية، فالمدخل المنحني للمعبد والذي لاحظناه في العصور السابقة تخلى البناؤون عنه لمصلحة التناسق في البناء. ان التصميم الجديد عاش مع قليل من التعديلات طوال الفترة الباقية من تاريخ المملكة البابلية. يتجلى هذا التصميم بأبسط صورة في تل أسمر «اشنونه» (Eshnuna) حيث كرس أحد الأمراء معبداً لـ (شو- سن) (Shu - sin) ملك اور المؤله(١٩٠). المداخل ذات الابراج والردهات المسقوفة والمزارات الداخلية وأماكن العبادة أصبحت مرتبة في اتجاهين متضادين من الساحة المركزية لتكوين مشهد فريد ينتهي بالتمثـال الـديني. ولقد كان ممكناً مضاعفة عدد أماكن العبادة إلا أن الملامح المعمارية التي تطورت الأبنية الملحقة من حولها ظلت ثابتة منذ ذلك العصر. أمـا التمثـال الديني نفسه والذي تركزت حوله طقوس العبادة في العصر السومري فيمكن البحث عن مفاتيحه في المنحوتات النافرة التي تصور الالهة. ويمكننا مشاهدة نموذج نادر عن ذلك التمثال في نصب «اور نامو» الذي عثر وولي على أجزاء منه بين الآثار والبقايا القديمة في «أي ـ داب ـ لال ـ ماخ» (E - dub - dal - makh). فهو يمثل قطعـة أثرية ضخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار، مقسمة بشكل أفقي لتصوير مشاهد مرتبطة ببناء المعبد. في اللائحة الوحيدة السليمة نشاهد الملك في صورتين الأولى وهو يقابل الاله «نانار» وفي الثانية وهو يقابل الاله «نينجال» ويسكب السائل المقدس فوق نوع من النبات. ولقد عثر على أجزاء محطمة من وعاء يشبه الوعاء الذي يحمله الملك قرب



الشكل رقم ١٠٦ : مقطع في معبد تل أسمر، القسم (A) مخصص للملك اور المؤله بالاضافة إلى قصر الحاكم المجاور وكنيسته الخاصة في عصر ايلوشويليا ٢٣١٧ ـ ٢٢٨٣ قبل الميلاد . وكانت عملية بناء قناطر فوق القاعة الكبرى أمراً ممكناً في ذلك العصر.
١ = الحرم ٢ = المذبح ٣ = القاعة الكبرى ٤ = قاعة العرش ٥ = الساحة ٦ = باحة خاصة ٧ = الموضأ ٨ = معبد القصر ٩ = غرفة داخلية ١٠ = الحرم ١١ = دورة مياه . (رسم ر. ليكروفت).

المذبح في معبد «شو ـ سن» (Shu - sin). وبعكس النشاط والحيوية الدنيوية التي تصورها الأعمال الفنية في عصر سارغون فان الهدوء والسكينة الدينية هما أهم ما يميز الأعمال الفنية السومرية. وتصور الأختام الاسطوانية في هذا العصر نفس المواضيع الدينية التي تظهر فيها صفة الاستقرار والثبات.



الشكل ١٠٧ : تفاصيل لوح من اور نامو عثر عليه في اور وقد تمت إعادة تشكيله من قطع محطمة. الآلهة تأمر الملك ببناء معبد. الارتفاع ٣٠٤ سم.

الفصل الثامن

الألف الثاني قبل الميلاد

في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ومع تفسخ الامبراطورية السومرية حين استقلت عنها بعض الدول الجديدة فاننا نجد أنفسنا أمام مرحلة تغيير في تاريخ بلاد الرافدين. هذه المرحلة تبرر لنا ان نقوم بعملية سرد تاريخي قصير[١٩١].

دول متنازعة

يشترك شعبان اثنان في تحمل مسؤولية سقوط السلالة الثالثة في اور، وهما الآموريون من سورية وقد استقروا في بابل وغيرها من المدن في الشمال، والعيلاميون الذين ارتدوا نحو الشرق عبر جبال زاغروس بعد ان قاموا بتنصيب حاكم كانوا قد اختاروه بأنفسهم في دولة منطقة ديالي «اشنونا» (Eshnunna) وذلك لحماية مصالحهم في بلاد الرافدين. وفي تلك الاثناء وفي سومر نفسها وطوال القرن العشرين قبل الميلاد نلاحظ وجود دولتين هما دولة «ايسين» (Isin) ودولة «لارسا» (Larsa). وكانت هاتان الدولتان تتنافسان من أجل السيطرة على المدن والمعابد المقدسة. وفي البدء تهيمن دولة

ايسين لكن الاعداء الكثيرين تظهر قوتهم في تحالف لارسا واشنونا والعيلاميين. يضاف إلى ذلك انه في نهاية القرن ظهرت من الظلمة إلى الوجود دولتان عظيمتان وأخذتا موقعاً بارزاً في الوضع السياسي. لقد ظهرت دولة «ماري» في تل الحريري ودولة «آشور» وهما تقعان على التوالي في منتصف نهر الفرات ونهر دجلة. وفي حوالي عام ١٩٠٠ قبل الميلاد عندما كانت لارسا هي الدولة الأقوى في المنطقة، ظهرت سلالة جديدة في بابل. وقد حتم القدر على الحاكم السادس «حمورابي» ان يعيد ترتيب الأوضاع السياسية في المنطقة بكاملها.

وعن الدول في الشمال سندرس بإمعان كبير مملكة ماري. تقع آثار هذه المملكة على الضفة الغربية لنهر الفرات في مكان قريب جداً في شمال الحدود السورية. وتنسب لائحة الملوك السومريين إلى هذه الدولة منزلة رفيعة لاحتوائها على سلالة من الملوك والحكام. بدأت البعثة الفرنسية التي يقودها بارو (A. Parrot) تنقيباتها الأثرية في الموقع في عام ١٩٣٣. وكان أول الآثار التي عثرت عليها البعثة معبداً للسلالة القديمة مكرساً للالهة عشتار يشبه إلى حد بعيد معبد آشور. في بداية الألف الثاني قبل الميلاد اكتسب الموقع أهمية خاصة كمحطة على الطريق التجاري الذي استعمل لنقل الأخشاب والمعادن من سوريا ومن مناجم جبال طوروس. وفي مرحلة انشاء حكم السلالة الأولى في بابل كان حكامها على درجة كبيرة من الثراء والرفاهية. فقصرهم، وقد أتيحت الظروف المناسبة لبارو لاجراء عملية تنقيب أثري فيه، كان بناءً ضخماً سنأتي على وصفه فيما بعد. كما كان القصر يحتوي على أرشيف مكون من (٢٠٠٠٠) لوح يروي تاريخ المدينة قبل ان يدمرها حمورابي في عام ١٧٦٠ قبل الميلاد[١٩٢].

تعرض ألواح مملكة ماري أسماء غامضة لعدد من الملوك الساميين ثم اسم حاكم معروف تاريخياً هو «يحدون ـ ليم» (Iakhdanlim) الذي فقدت المدينة خلال الفترة الأولى من حكمه استقلالها وأصبحت مرتبطة بآشور. كما وذكر في هذا المجال أحد الملوك الآشوريين البارزين وهو «شمشي ـ حدد الأول» (Shamshi - Adad I) الذي سنعرف عنه الكثير من خلال أرشيف المملكة. أما مدينة آشور فقد شغلت موقعاً جبلياً استراتيجياً حيث كانت تطل على نهر دجلة من نقطة واقعة خلف السهل الطموي[١٩٣]. ولقد كانت، مثل ماري، مركزاً تجارياً هاماً للاتصال بين المدن الجنوبية ومصادر المواد الخام في الأناضول. وبين عامي ١٩٤٠ ـ ١٨٠٠ قبل الميلاد احتفظت

بمستعمرة تصل إلى «كانيش» في «كابادوكيا» (Cappadocia). وفي ظل حكم «شمشي حدد» امتدت رقعة أرضها نحو الشمال حتى وصلت إلى المناطق المرتفعة المحيطة بنينوى وبذلك شكلت مع امتدادها نحو الغرب وصولاً إلى نهر الفرات مملكة مترامية الأطراف. ونتعرف من خلال أرشيف ماري كيف أدار «شمشي حدد» وإبناه هذه المملكة، وكان أحدهما واسمه «ايشمع - حدد» قد عينه والده حاكماً لمدينة ماري. ولقد فضل هذا ان يبقى متنقلاً من مدينة صغيرة إلى أخرى، ويبدو انه قد أمضى وقتاً طويلاً في مكان يسمى «شوباط انليل» (Shubat - Enlil) يعتقد انه كان على نهر الخابور واعتبره البعض مساوياً لشاغر بازار حيث صادف مالوان لوحاً اثرياً يبحث في مسائل مالية[194]. أما الكتابات الأثرية المعاصرة الأخرى التي ذكرت فيها العائلة الملكية الآشورية فقد وجدت قبل وقت قصير في «تل الرماح» وهو موقع لمركز ريفي في منطقة سنجار. لقد ساعدت محتويات هذه النصوص في رسم صورة واضحة وممتعة أحياناً عن الادارة العامة والعلاقات بين الأسر الحاكمة، ولهذا السبب تعتبر هذه النصوص وثائق تاريخية ثمينة.

وليس من السهل تحديد نهاية حكم «شمشي - حدد»، فقد سحقت جيوش اشنونا وعيلام حامياته الجنوبية التي انسحبت نحو الغرب باتجاه نهر الفرات، ويحتمل ان الملك قد قتل اثناء مقاومته لهجوم الآشوريين. وعندما استقرت الاوضاع خلفه ابنه «ايشمع - حدد» كملك لآشور في عام ١٧٨١ قبل الميلاد، لكن ماري استعادت استقلالها وحكمها «زيمريليم» ابن الملك «يحدون - ليم» وكان الابن قد نفي إلى حلب. وفي عصر «زيمريليم» أجريت التحسينات الأخيرة على القصر الذي قام بارو بإجراء عملية التنقيب الأثري فيه.

ان علاقات «زيمريليم» السياسية مع الجنوب وهي علاقات تعتمد على تحالفات مؤقتة مع بابل واشنونا تبدو مقنعة في ذلك العصر. أما في الشمال فهناك الدول السورية مثل دولة «يمحاض» (lamkhud) وكانت عاصمتها حلب، ودولة «الالاخ» (Alalakh) و«قطنه» (Qatnah) في سهل حمص، وقد بقيت هذه الدول تحافظ على علاقات صداقة وحسن جوار مع مملكة ماري. وفي الشرق من نهر الفرات بدأ وصول مهاجرين جدد إلى المنطقة في عام ١٨٠٠ قبل الميلاد يعكر الأوضاع. كان هؤلاء المهاجرون يسمون (بالحوريين) وهم شعب من أصل غير معروف لكنهم لم يكونوا من

الشعوب السامية أو الهندية الأوربية. منذ السلالة الثالثة في اور وجدت مراكز صغيرة في بلاد الرافدين الشمالية يحمل حكامها اسماء من هذا الشعب. وفي عصر «زيمريليم» وجدوا في «كركميش» (Charchemish) وامتدوا بعد ذلك إلى دولة «الالاخ» في وادي نهر العاصي. ومع ذلك فان معظم معلوماتنا غير الكافية عنهم قد وردت من تنقيبات أثرية أمريكية أجريت في «نوزي» قرب كركوك.

ونتيجة لتفكك الحوريين في ذلك العصر فانهم لم يشكلوا أي خطر يهدد مدن بلاد الرافدين العليا. وفي النهاية وعندما وصل إلى العرش في بابل رجل دولة عظيم انتهت فترة السلام في المنطقة. وفي عام ١٧٥٩ قبل الميلاد استطاعت جيوش حمورابي ان تتغلب على تحالف عسكري ضم ممالك لارسا واشنونا وعيلام وماري. وبعد ذلك ثارت ماري لكن المملكة كانت في حالة دمار تام، أما الدولة الآشورية التي تضاءلت رقعتها فقد أصبحت خاضعة لمملكة بابل. وكما كانت عليه الحال في عصر سارغون الأكادي توحدت المنطقة بقيادة حاكم واحد وفي ظل نظام جديد في الادارة والحكم. ان انجازات حمورابي في هذا المجال تنعكس في شريعته المشهورة المنقوشة على لوح بازلتي يبلغ طوله ثلاثة أمتار ويمكن مشاهدته في متحف اللوفر.

وخلال حكم خلفاء حمورابي وقعت ثلاث تطورات أنذرت بتفسخ وانهيار الامبراطورية. ففي الجنوب قام شعب يسكن منطقة تسمى «الأرض البحرية» وتقع عند رأس الخليج العربي بالاعتداء على المدن السومرية القديمة وتأسيس مملكة جديدة. وفي الشمال الشرقي جاءت مجموعات من شعب «الكاشيين» (Kassites)، كانت قد طردت من أرضها نتيجة حركة الشعوب الهندوأوروبية التي جاءت بالحثيين إلى الأناضول. وفي عام ١٥٩٥ قبل الميلاد قام الحثيون بقيادة ملكهم «مورسيل الأول» (Marsilis I)، وذلك بد ان نهبوا كركميش وماري، بالاندفاع جنوباً على طول نهر الفرات حتى بابل التي قاموا بإحراقها بعد نهبها. ووضعوا بذلك نهاية لسلالة حمورابي.

ويعتبر غزو الحثيين للدولة البابلية أحد أغرب الظواهر في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه بعد الهجوم مباشرة استدعى ملكهم مورسيل الأول إلى بلاده لمعالجة هجوم شنه الأعداء على عاصمته في بلاد الأناضول. هذا الأمر حقق فائدة كبيرة



الشكـل رقم ١٠٨ : القسم العلوي من نصب بازلتي يدون شريعـة حمورابي. نقل إلى سوسا خلال الغزو العيلامي وهو موجود الآن في متحف اللوفر. يظهر الملك وهو يقابل تمثال الاله شمش إله العدل. وتحت النحت (١٦) عموداً من الكتابة المسمارية وفيها صياغة جديدة ودقيقة لقوانين بابل. ارتفاع القسم العلوي من اللوح ٧١ سم.

للكاشيين الذين استطاعوا بسلام ان يتولوا أمر السلطة في بابل. لقد تبنوا ديانة وثقافة بلاد الرافدين بشكل كامل لدرجة انه خلال فترة الـ (٣٦٠) سنة التالية لا يستطيع

أحد ان يدرك ان معظم المنطقة كانت تحت حكم سلالة من الملوك الغرباء تماماً عن هذه المنطقة. وفي تلك الأثناء حدث أمر مشابه بالنسبة للحوريين في الشمال والذين انتشروا في منطقة تمتد من المرتفعات خلف نينوى حتى الفرات في الغرب. فما ان وصل هؤلاء الحكام إلى السلطة حتى حلت محلهم طبقة ارستقراطية هندوأوربية، استطاعت بالحنكة السياسية ان تحقق لشعبها هوية قومية. وفي المنطقة الواقعة بين الدولة الآشورية ودولة الحثيين ظهرت إلى الوجود مملكة قوية عرفت باسم «ميتاني» (Mitanni) واتخذت من مدينة «واشوكاني» (Washshükanni) عاصمة لها ويعتقد ان هذه المدينة تقع إلى الغرب من «نصيبين»[١٩٥]. وفي الفترة الأولى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد نلاحظ ان ملوك بلاد الرافدين يتزامنون مع فراعنة السلالة الثامنة عشرة في مصر.

وفي هذا القرن أيضاً عادت الدولة الآشورية للظهور إلى حيز الوجود كقوة رئيسية وكانت آشور ماتزال عاصمة لهذه الدولة. ونتيجة لتعاقب حكام أقوياء على الدولة استقرت أوضاع الحدود الجنوبية في وقت خفف فيه الميتانيون من قبضتهم على المناطق الشمالية بسبب ضغط الحثيين. وفي النهاية وبعد نزاعات داخلية فقدت الأسرة الحاكمة سلطتها ولم يعد بإمكان جيشها ان ينافس الجيش الآشوري. وفي عام ١٢٥٠ قبل الميلاد وبعد سلسلة من الهزائم قتل آخر الملوك الميتانيين على يد «شلمنصر الأول» وتحولت المنطقة إلى مجرد أقليم تابع للدولة الآشورية. أما في الفترة ما بين عامي (١٢٤٤ ـ ١٢٠٨) قبل الميلاد فقد استطاع خليفة شلمنصر الأول، «توكولتي نينورتا الأول» (Tukulti - Ninurta I) ان يفتح باب بابل وخلال الفترة الباقية من الألف الثاني قبل الميلاد بدأت المراحل المبكرة في عملية تكوين الامبراطورية الآشورية.

وعلى ضوء هذه الأحداث التاريخية يمكننا ان نفهم وبسهولة ان آثار الألف الثاني قبل الميلاد يمكن تقسيمها إلى أربع مراحل أساسية تعطي نتائج عمليات التنقيب الأثري صورة محددة على كل مرحلة. في البداية هناك عصر «ايسين ـ لارسا» في الفترة الواقعة ما بين عامي (٢٠٢٠ ـ ١٧٦٣) والذي انتهى بتوحيد حمورابي لبلاد الرافدين. تتمثل هذه المرحلة بمواقع ديالي وهي «تل أسمر» (Tell Asmar) «ايشجالي» (Ischali) و«تل حرمل» (Tell Harmal). وتتلو تلك المرحلة عهود حمورابي وخلفائه وتسمى بالعصر البابلي القديم الذي انتهى بسقوط بابل عام ١٥٩٥ قبل الميلاد. وتبرز

هذه المرحلة اللقى الأثرية التي عثر عليها بارو في مدينة ماري. أما المرحلة الثالثة فتتمثل في الجنوب بعصر سلالة الكاشيين الممتد بين (١٥٩٥ ـ ١٢٣٥) قبل الميلاد ولقد قامت السلطات العراقية من خلال حفريات أثرية في منطقة «دور كوريجالزو» بتوثيق هذه المرحلة. وتتزامن هذه المرحلة في الشمال مع عصر سيطرة الحوريين والميتانيين وسنجد أدلة على ذلك في «نوزي» (Nuzi) وغيرها. وأخيراً هناك مرحلة نمو القوة الأشورية أو ما يسمى بالعصر الآشوري الوسيط التي تذكرنا بالحفريات الأثرية التي قام بها الألمان في آشور نفسها.

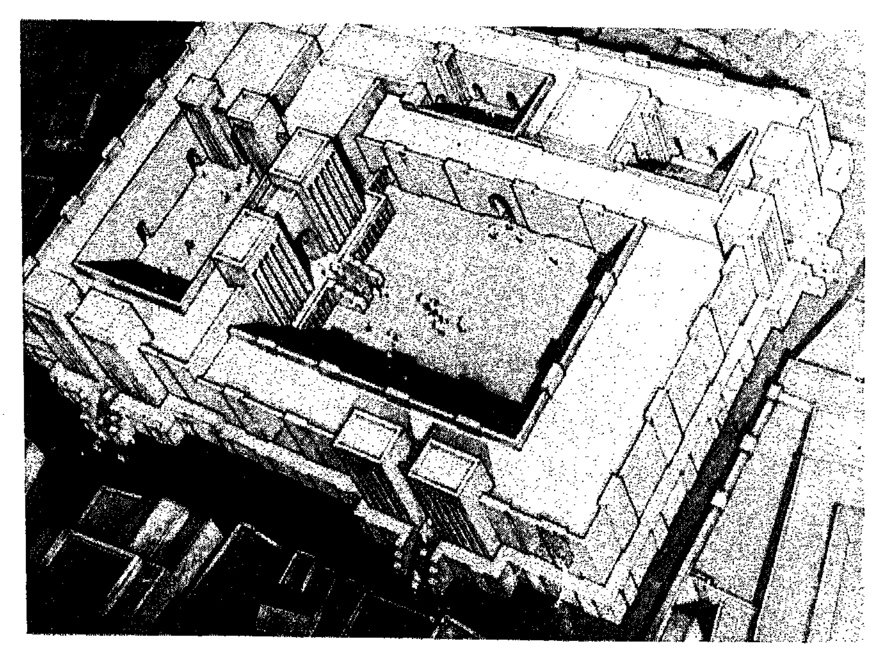
الأبنية في عصر ايسين ـ لارسا

في عام ٢٠٢٧ قبل الميلاد لم تعد اشنونا عاصمة لمملكة اور وبعد بضع سنوات قام حاكمها المستقل «ايلو شويليا» (Ilushuilia) بإضافة قصر إلى المعبد الذي كرسه أسلافه إلى «شوـ سن» (Shu - Sin) ملك اور المؤله[١٩٦]. ثم ألحق بالقصر بناءً دينياً أصغر حجماً ربما كرسه إلى «تيشباك» (Tishpak) الاله المحلي. يتوافق هذا البناء (المعبد القصر) مع المعابد القديمة في المخطط فهو يحتوي على مدخل وباحة ومعابد صغيرة وهيكل وجميعها مبنية على نفس المحور. ويتمتع القصر بأهمية أكبر لأنه يحتل مكاناً بين مجموعة كبيرة من الأبنية الدنيوية المصممة لنفس الغرض[١٩٧]. وتجاه الباحة المربعة نجد غرفة العرش المستطيلة الواسعة ولها درج يؤدي إلى سقف منبسط قرب أحد أطرافها. وتفصل هذه الغرفة عن القاعة الكبيرة غرف صغيرة ربما كانت تستعمل للاجتماعات. وسنلاحظ وجود ما يشبه ذلك في مملكة ماري بعد أكثر من ألف سنة وفي أجنحة الاستقبال في قصور العصر الآشوري الأخير. وفي اشنونا وجدت بقايا أرشيف الدولة الرسمي في (بئر السُلَّم) إلا ان بعض أهم الادلة التاريخية قد استنبطت من القرميد المدموغ الذي استعمل في عمليات اعادة البناء المتكررة حيث وفر هذا القرميد سلسلة كاملة لأنساب الحكام المحليين.

لقد عرفنا بهذه الطريقة ان آخر حكام دولة اشنونا «ايبق حدد» الثاني (Ibiqadad II) قد بنى قصراً هائلاً تجاه الأبنية القديمة في شارع واسع[١٩٨]، ولم يبق من هذا القصر سوى الأساسات ومن المحتمل ان الملك لم ينه عملية البناء. ومما يذكر أيضاً ان الترتيب الأساسي للقصر المكون من غرفة العرش والقاعة الكبيرة قد تم

توسيعه ومضاعفة عدد غرفه. وفي مكان آخر في الشمال بنى ابن «ايبق حدد» قاعة منفصلة للجمهور كانت مختلفة التصميم ويفترض انه فعل ذلك بعد ان ادعى لنفسه حق الألوهية.

وفي ايشجالي الملاصقة لنهر ديالى بنى «ايبق حدد» معبداً يعتبر من أروع آثار



الشكل رقم ١٠٩: معبد عشتار كيتيتوم في نيريبتوم القديمة من دولة اشنونه. وهو يرتفع إلى مستوى أعلى من الأبنية المحيطة به على رصيف مكسو بالقرميد المشوي. ويتكون من ثلاثة مزارات منفصلة أكبرها أكثر ارتفاعاً من المزارين الآخرين. انه نموذج رائع لفن العمارة في عصر ايسين لارسا (٢٠١٧ - ١٧٩٤) قبل الميلاد. (رسمه بالألوان المائية: و. سودابي).

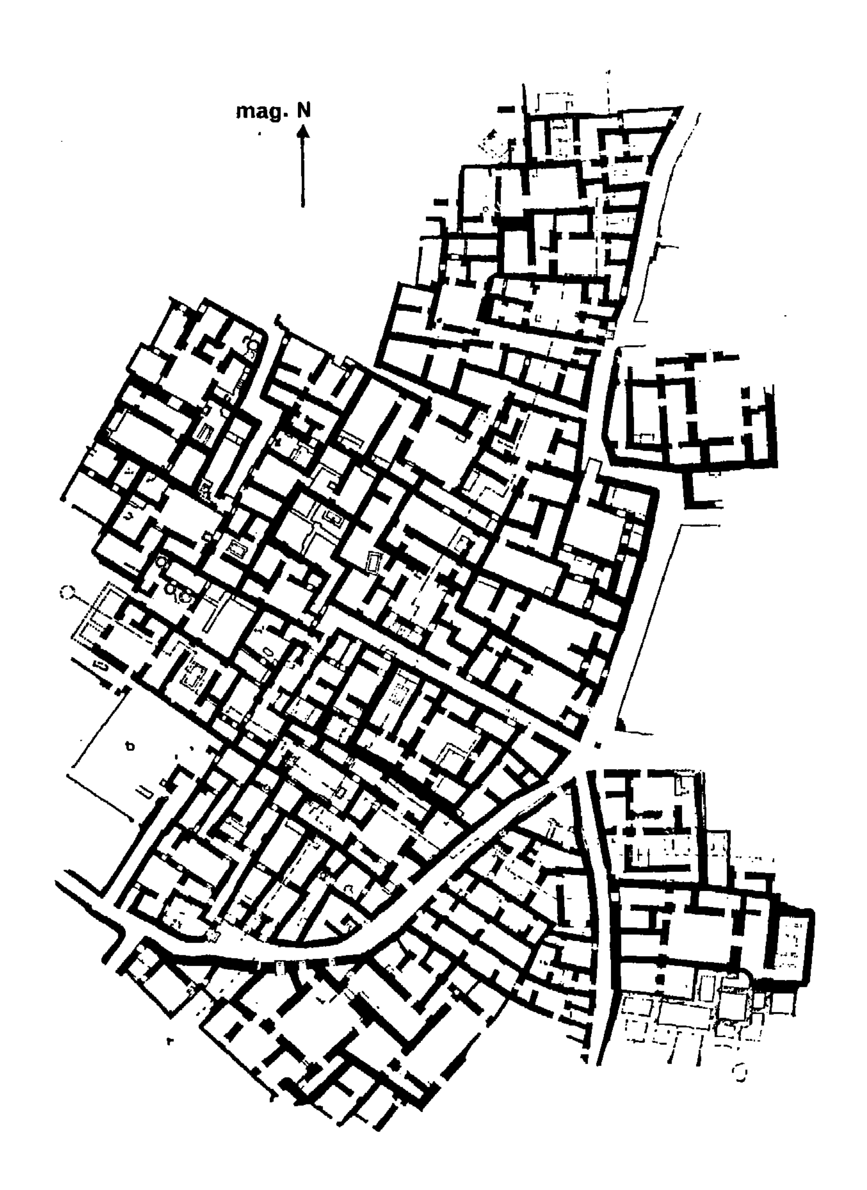
عصر ايسين لارسا[١٩٩]. كان شكل البناء مستطيلاً منتظماً تبلغ أبعاده (١٠٠ × ٦٠) متراً وهو يشمل ثلاثة هياكل منفصلة كرس أكبرها إلى «عشتار- كيتيتوم» (Ishtar Kititum) وهي النسخة المحلية للالهة العظيمة عشتار. بني هذا المجمع الديني على ارتفاع ثلاثة أمتار عن الأرض وعلى رصيف مكسو الواجهات بمادة القرميد المشوي المثبت. بالقار. كما استعمل القرميد المشوي بوفرة في مكان آخر حيث بني درج واسع يؤدي من الباحة الخارجية إلى باحة الهيكل الرئيسي الذي ينتصب على مستوى أعلى،

وفي ممر البـوابـة ذات الأبـراج الثلاثة. وكمظهر غير عادي نشاهد في أحد الهياكل الاضافية ان الحرم قد بني بشكل طولاني على المحور الرئيسي وهو تقليد معماري اتبعه البناؤون في المعابد الآشورية اسماه الألمان «Longraum» كما تم الاحتفاظ بالحرم العـرضـاني «Breitraum» في منـاطق أخرى ويمكننا أيضاً التأكد من عملية إعادة تشكيل رائعة لهذا البناء لرسم نشره «هارولد هيل» (H. Hill) يمثل هذا البناء النقيض «لشادوبوم» (Shaduppum) وهي المركز الاداري المحصن على تخوم مدينة بغداد[٢٠٠]. لقد كان هذا البناء مزوداً بأربعة معابد صغيرة كان لأكبرها بوابات داخلية وخارجية وعلى جوانبها تماثيل لأسود بالحجم الطبيعي تقريباً. ان ارشيف الألواح الذي وجد في هذه الأبنية الادارية قد شمل نصوصاً هامة ومجموعة قوانين سبقت شريعة حمورابي.

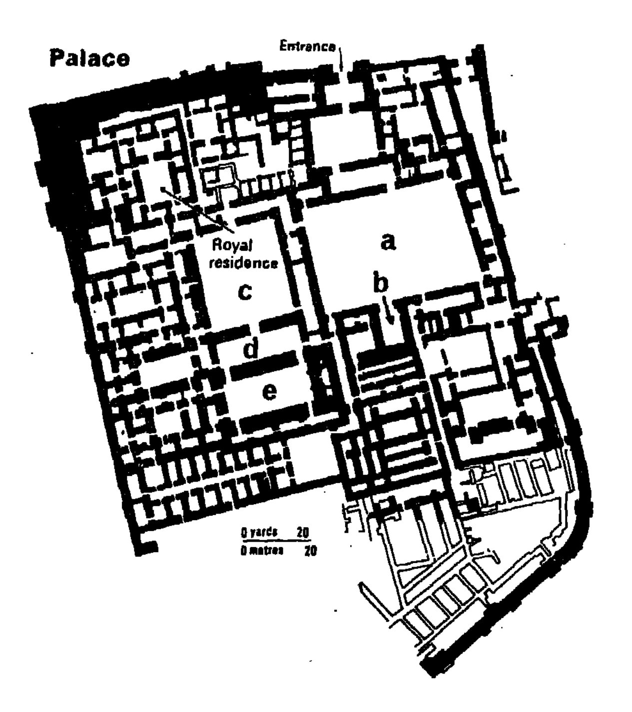
المنازل الخاصة

تحت هذا العنوان لا بد من الحديث قليلاً عن المنازل السكنية العادية في عصر لارسا. وتمثل السويات المعاصرة في ديالي هذه المنازل بشكل جيد وان كانت تظهر بشكل أفضل في عمليات التنقيب الأثري التي أجراها «وولي» في المنطقة السكنية التي تقع إلى الجنوب الشرقي من منطقة المعبد في «اور»[٢٠١].

توجد هنا شبكة من الشوارع الضيقة مع بيوت متواضعة على جانبي كل شارع بالاضـافة إلى مفترقات طرق حيث تلتقي الأزقة، وأماكن دينية صغيرة تشغل مواقع مخصصة لها. تشبه هذه البيوت وبشكل دقيق بيوت أية قرية في العراق في بداية القرن الحالي لدرجة تجعل وصفها غير ضروري؛ جدران مصمتة بلا نوافذ تواجه الشارع. غرف من طابقين تطل على فسحة غير مسقوفة. كما نلاحظ في بيت أعاد وولي صياغة مخططه وجود مخزن مسقوف بالأخشاب مع أعمدة تدعم السقف[٢٠٢]. ومن المظاهر القليلة الواضحة في هذه البيوت وجود قبور لسكانها تحت رصيف أرضية المنزل.



الشكل رقم ١١٠ : الحي السكني في اور في القرن العشرين قبل الميلاد. شبكة معقدة من الأزقة الضيقة المؤدية إلى شوارع أكثر اتساعاً. المساكن الأكثر ثراء مؤلفة من طبقتين وتتلقى الاضاءة من ساحة في الوسط. (عن وولي).



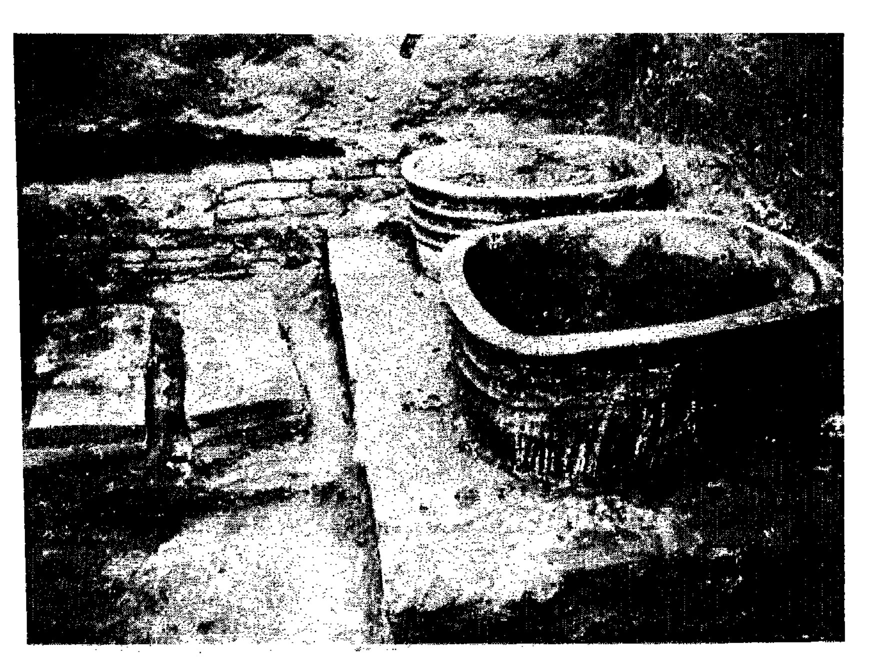
الشكل رقم ١١١ : القصر الملكي في ماري بعد ان أكمله زيمرليم ١٧٧٩ - ١٧٦١ قبل الميلاد. وقد عثر على الأرشيف الملكي قرب مدخل الجناح الملكي السكني كما وجدت بعض وسائل الراحة. a = الباحة الخارجية b = قاعة الجمهور وفيها لوحات جدارية c = ساحة الاحتفالات وفيها رسوم جدارية أيضاً d = غرفة العرش e = المقدس الداخلي وقاعة. (عن هوكس، ١٩٧٤).

قصر ماري

لقد كان قصر ماري دون شك مقر أقامة الملك «يحدون - ليم» والد الملك «زيمر يليم»، ثم استعمله ابن «شمشي حدد» خلال الفترة الانتقالية في العصر الآشوري. وبما ان القسم الأعظم منه بني من قرميد مدموغ باسم «زيمر يليم» نفسه فان ذلك يدل على ان القصر قد تم توسيعه وإعادة بنائه في عهده. وكما نعلم فقد دمر القصر في نهاية الأمر عندما دكت أسوار المدينة في السنة الخامسة والثلاثين من حكم حمورابي في عام ١٧٥٧ قبل الميلاد. وبالرغم من ذلك فعندما اكتشفه الفرنسي «بارو» كانت جدرانه التي بلغت سماكتها أربعة أمتار ماتزال قائمة على ارتفاع يصل إلى خمسة أمتار وكانت عتبات الأبواب ماتزال بحالة سليمة[٢٠٣]. تبلغ أبعاد البناء (٢٠٠ × ١٦٠) متراً وهي تعادل ضعف أبعاد معبد عشتار كيتيتوم، ويتألف معظمه من عملية مضاعفة للمنزل السكني البابلي، أي انه يتألف من عدد من الغرف مبنية حول ساحة مكشوفة وتعتبر هذه الغرف مجموعة ثانوية عندما نقارنها مع المجموعة المركزية الكبيرة من البناء والمكونة من غرف الاستقبال والمعابد الدينية.

من المدخل الرئيسي وغرفة الحرس يدخل الإنسان إلى ساحة خارجية واسعة من أهم ملامحها وجود غرفة ذات ثلاثة جدران يتم الاقتراب منها بواسطة عدد من الدرجات، اعتقد البعض أنها المظاهر الباقية من بناء قديم. وهناك ساحة داخلية أصغر بقليل تقابل جناح الاستقبال الرئيسي ويتألف هذا القسم من القصر من غرفة العرش مع منصة باتجاه الممر المركزي، ثم الردهة المسقوفة بما ينسجم مع القاعة الكبرى. أما القسم الآخر من القصر وهو القسم الديني حيث نشاهد في أحد أطرافه درجاً يؤدي إلى حرم يقابله من الجهة الأخرى موضع العرش. ولقد لاحظ الفرنسي «بارو» ان هذه العناصر تعطي الجناح المركزي من القصر صفة غير دنيوية وسنرى ان هذا الشعور قد نشأ بسبب بقايا التماثيل واللوحات الجدارية التي عثر عليها فيه.

أما الأجنحة السكنية الخاصة بإقامة الأسرة المالكة والموجودة في الزاوية الشمالية الغربية من البناء فكانت زخارفها أكثر بساطة بينما كانت جدرانها الخارجية أكثر متانة من غيرها. ولم يكن صعباً تمييز غرفة الملك عن غرفة الملكة وفي الفناء الفاصل بين



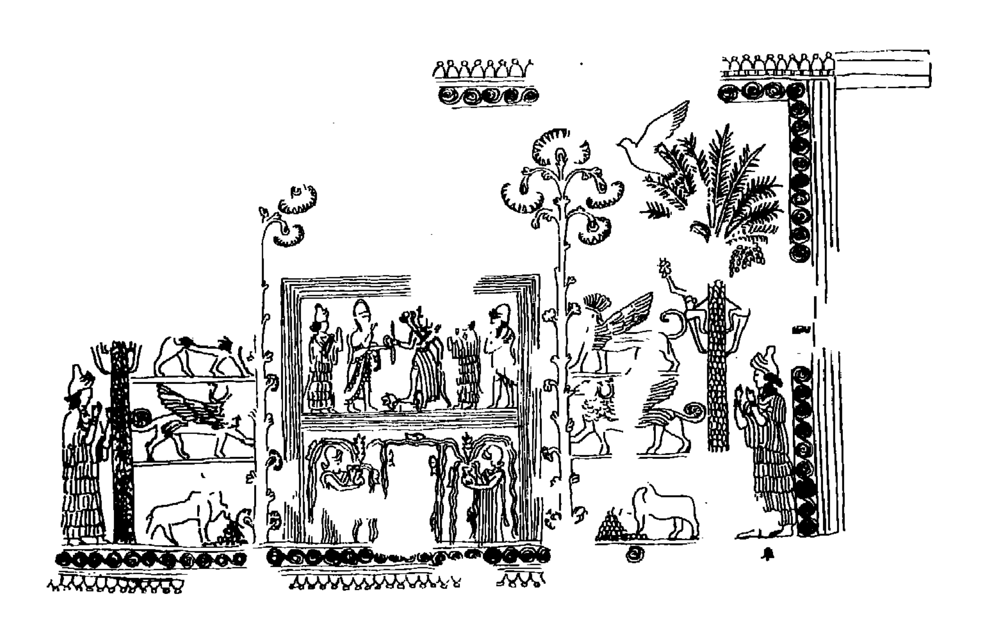
الشكل رقم ١١٢: قصر الملك زميرليم في ماري ونشاهد دورة للمياه وحمامات مبنية من الطين ضمن الأجنحة السكنية.

الغرفتين نقشت رسوم لبعض أنواع الألعاب على الرصيف. وفي مكان قريب جداً من هذه الوحدة السكنية وجدت غرفتان وفيهما ارتال من المقاعد الفخارية وقد اعتبرت هاتان الغرفتان مدرسة أو مكتباً للنقوش الكتابية. ويمكن الوصول من هاتين الغرفتين إلى غرف استعملت كمخازن لحفظ الأرشيف الذي كان يرتب فوق الرفوف. أما غرفة الأرشيف الثالثة وهي الأكثر أهمية فتقع بين الباحتين الداخلية والخارجية. وفي مكان آخر وبين مجموعة مؤلفة من (٢٠٠) غرفة مبنية حول وحدة بنائية مركزية أمكن التعرف على مجموعات من غرف الخزن وهي مجمعة حول غرفة عرفها المنقبون الأثريون باسم «دائرة الضباط» (Circle des Officiers) وكانت تتميز بجدرانها المدهونة. وبالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية للبناء كانت هنالك غرفتان تحويان مزارات صغيرة ترتبط بطريق المواكب التي كانت تتجه نحو قاعة الجمهور.

الرسوم الجدارية

كانت الرسوم واللوحات الجدارية موضوع العديد من الدراسات المتخصصة[٢٠٤]، وكما لاحظ «بارو» فان أهمية هذه الرسوم تنبع من كونها تصور وبوضوح الروح الابداعية التي ألهمت الفنانين في منطقة الفرات الأوسط في ذلك العصر. فجاءت نتيجة بنية فنية غريبة دمجت ما بين الارث السومري الباقي من العصور القديمة والمذهب الطبيعي الواضح في المفهوم السامي للفن بشكل عام. وكما يقول «بارو» فقد ساهمت هذه العوامل في إيجاد مدرسة جديدة في فن الزخرفة لو أتيح لها الزمن الكافي للنضوج لانتجت أحد أرقى العصور الفنية في تاريخ منطقة الشرق الأدنى. لقد رسمت الصور الجدارية مباشرة على طبقة رقيقة من الجص وبطريقة تدل على فهم واستيعاب كاملين لتقنية الرسوم على هذه المادة.

أضخم الأعمال الفنية الجدارية وأكثرها طموحاً هي لوحة «تنصيب ملك ماري» (L'Investiture de Roi de Mari) التي وجدت في مكانها الأصلي على الجدار الخارجي المحاذي للمدخل المؤدي لغرفة العرش، في أحد أجزاء الباحة التي كانت محمية من عوامل الطقس بواسطة سقف مدعم بالأعمدة. ويتألف التصميم من لوحتين علوية وسفلية، وفي اللوحة العلوية نشاهد الملك وهو يرتدي زياً أنيق الزخرفة وقبعة. يستلم الملك في اللوحة شعار الالهة عشتار التي تضع إحدى قدميها على ظهر





الشكل رقم ١١٣: رسم جداري على الجدار الخارجي لغرفة العرش في قصر الملك زمريليم في ماري - نشاهد في الأعلى الملك وهو يؤدي القسم أمام الآلهة عشتار وغيرها ويده موضوعة على الشعار المقدس - وفي الأسفل تمثالان للالهة والمزهرية المتدفقة بالماء. كما نرى الشجرة المقدسة على الجانبين وأشكال رمزية أخرى. تمت مقارنة المشهد بمدخل المعبد الآشوري في خورسباد الذي تحيط به أشجار النخيل. (س. ابراهيم عن بارو، ١٩٥٨).

أسد. . ويحضر المشهد عدد من الألهة والالهات. في المشهد السفلي نشاهد شكلين للالهة والمزهرية التي يتدفق منها الشراب. ترتدي الآلهة ثوباً له أهداب وتحمل اناءً يتدفق منه جدول من الماء، تسبح فيه الأسماك، يحيط بالصورة. ولكل من هذين المشهدين إطار مصنوع بواسطة ألواح طويلة تصور النخيل وأنواعاً أخرى من الأشجار تظهر بين أغصانها الطيور والحيوانات الاسطورية والالهة. فسر أحد المختصين هذا الرسم بأنه يمثل احتفالاً في مقدس أحد المعابد التي كان الدخول إليها في العصور الآشورية الأخيرة بين تماثيل المزهريات التي يتدفق منها الماء، والنخيل الصناعي(٢٠٥). وسواء أكان الأمر على هذا النحو أم لم يكن فان الجوهر التزييني لهذا التصميم مع

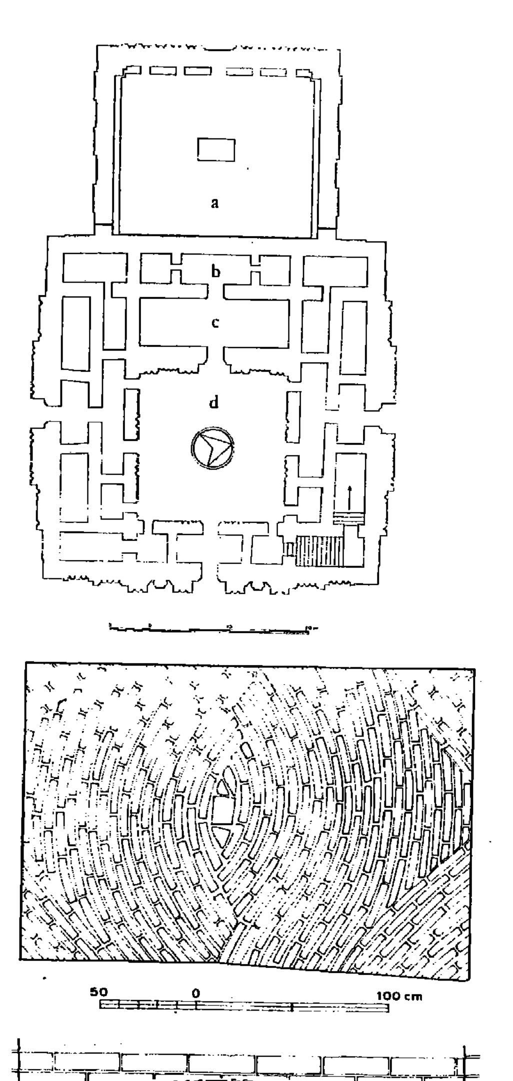
الاطار التزييني والألوان البراقة يجب ان يكون عظيم القيمة الفنية.

وهنـاك رسم جداري آخـر يزين أحـد الجدران في قاعة الجمهور في الباحة الخـارجية للقصر ويعتقـد انه يعود لعصر أقدم. أطلق المنقبون الأثريون على هذا المشهد اسم «تضحية الماء بالنار» وهو يمثل مشاهد للعبادة وتقديم الشراب وتظهر فيه أشكال مروعة وهائلة تصور الاساطير السومرية كأسطورة «تيامات» من ملحمة «إينوما ايليش» بالاضافة إلى «شاماش» الذي ينهض من وراء الجبل ليبعثر النجوم في السماء. كما يظهر الملك «شمشي حدد» الأول في قطعة من أحد المشاهد النذرية التي لم يمكن تحديد موضعها الأصلي في البناء بشكل دقيق.

لقد لاحظنا فيما سبق انه قد تم العثور في مركز المدينة، عند المدخل الجنوبي الشرقي للقصر، على مجموعة من المعابد الصغيرة من عصر السلالات الباكرة، وان هذه المعابد كانت مكرسة للاله «نين ـ كورساغ» (Nin - Khursag) وغيره من الالهة المحلية مثل «عشتروت» (Ishtarat) و«نيني زازا» (Ninni - Zaza) [٢٠٦]. لقد استمرت هذه المعابد ومثيلاتها حتى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، لكنها أصبحت أصغر حجماً ومنها معبـد «داغـان» (Dagan) الذي الحقت بهيكله زيقورة صغيرة فيما بعد. وتدل الألواح الأثرية ان «ايشتوب ايلوم» (Ishtup - Ilum) الذي حكم ماري في عصر لارسا الأخير قد بنى هذا المعبد في عام ١٨٩٠ قبل الميلاد. وقد وجد تمثال رائع لهذا الحاكم في المزار الكبير في قصر «زيمريليم». وسندرس هذه التماثيل وغيرها من تماثيل مملكة ماري بالمقارنة مع ما أنتج في عصر «ايسين ـ لارسا» والعصور البابلية القديمة.

تل الرماح

في عملية التنقيب الأثري عن الأبنية التي أشرنا إليها تم الحصول على معلومات قليلة عن الـواجهـات وزخـارفها وعن طريقة سقف هذه الأبنية. وفي عام ١٩٠٦ استطاعت بعثة بريطانية يقودها «دافيد اوتس» (David Oates)، اثناء عملها في موقع تل الرماح في منطقة سنجار، أن تلقي مزيداً من الأضواء على هاتين المسألتين[٢٠٧]. في هذه المنطقة، حيث غطى تل كبير نسبياً، بقايا مستوطنة قديمة قام أحد الحكام المحليين في زمن الملك «شـامشي حدد» الأول ببنـاء مدينـة وأحاطها بالتحصينات مشكلاً من التل نفسه معبداً رائعاً. وقد كتب المنقب الأثري في وصف البناء:



الشكل رقم ١١٤: مخطط المعبد في تل الرماح من منطقة سنجار وهو موجود في أسفل زيقورة صغـيرة من أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. واجهـات المعبـد مزخرفة بأعمدة من القرميد الطيني. ومازالت هنالك بقايا لقناطر هذا المعبد. a = الزيقورة. b = المزار. c = غرفة مجاورة. d = ساحة. (عن د. اوتيس، ١٩٦٤).

الشكل رقم ١١٥: مخطط لمقطع من قناطر مصنوعة من القرميد المحدب في تل الرماح، أواخر الألف الثالث قبل الميلاد. (عن د. اوتيس، ١٩٧٣).

«يتم الاقتراب من البناء بواسطة درج محمول على قناطر، وعلى السقف نفسه نلاحظ وجود أدراج تؤدي إلى شرفة عالية ينتصب عليها مزار مرتفع. تشبه بنية هذا البناء الزيقورة. وقد بني المعبد على رصيف عالٍ يطل على المدينة حسب المخططات البابلية وزخرف بأسلوب يشبه أسلوب الزخرفة في الجنوب على الرغم من ان التشكيلة الزخرفية فيه فريدة من نوعها. كل الواجهات الخارجية والواجهات المطلة على الساحة كانت مزينة بمجموعة من الأعمدة المبنية على شكل مجموعات أو على شكل افرادي. يبلغ عدد هذه الأعمدة (٢٧٧) عموداً منها (٥٠) عموداً ضخماً بنيت من القرميد المنقوش ورتبت بطريقة معقدة لتمثل أشكالاً لولبية أو جذوع نخيل»[٢٠٨].

لكن أكثر الملامح المعمارية غرابة هي استعمال أقواس القرميد الطيني والقناطر لأغراض بسيطة يمكن معها استبداله بالخشب[٢٠٩]. إن نظام القناطر المعقدة واستعمال القرميد المعلّق قد استخدم بسهولة لدرجة ان التقليد القديم والواسع الانتشار للبناء بهذه الطريقة قد ظهر بصورة واضحة.

فن النحت

من بين تماثيل مملكة ماري، كان التمثال الوحيد الذي يعاصر القصر هو تمثال الهة «المزهرية المتدفقة»، الذي عثر على قطع منه في غرفة العرش وفي الباحة خارج الغرفة. ولا بد ان يكون هذا التمثال ثابتاً لأن الماء كان يوزع من خلال أنابيب ممدودة في داخله. ومن ناحية الأسلوب فليس للتمثال أهمية كبيرة لأن التصميم في معظم جوانبه يوحي بمعالجة تقليدية للموضوع الفني. أما الأعمال الفنية الأكثر تميزاً فهي تلك التماثيل الخاصة بالأمراء المحليين كتمثال «ايشتوب ـ ايلوم» (Ishtup - Ilum) الذي عثر عليه في المعبد العظيم وتمثال «ايدي ـ ايلوم» (Idi - Ilum) المأخوذ من الهيكل الجنوبي الشرقي وتمثال «بوزور ـ عشتار» (Puzur - Ishtar) وهو واحد من مجموعة إثرية. جمعها آخر ملوك بابل وهي موجودة للآن في متحف استامبول. وتشبه هذه التماثيل إلى حد كبير تماثيل حاكمي اشنونا التي أخذت غنيمة إلى سوسا. وفي عصر لا يمكن فيه نسيان زي «الكوناكس» (Kaunakes) فقد ألبست هذه التماثيل أثواباً فضفاضة مما يشكل تناقضاً محيراً من حيث التفاصيل الزخرفية وغيرها[٢١٠].

كانت أعمال النحت الأخرى في هذا العصر نادرة. وهي ان وجدت فذات



الشكل رقم ١١٦ : تمثال اشتوب ايلوم حاكم ماري وهـو مصنـوع من الحجر الأسود. قصر زمريليم ٢٢٠٠ قبل الميلاد. الارتفاع ١٥٢ سم.

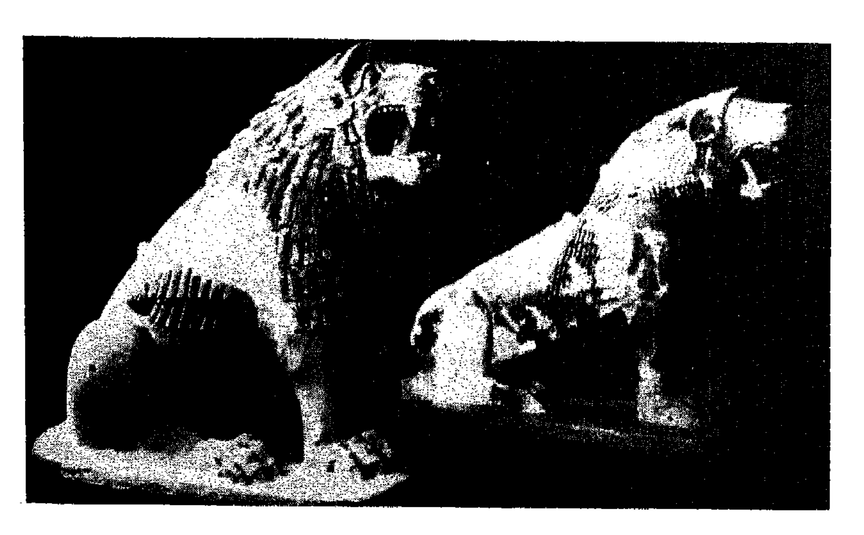
الشكل رقم ١١٧ : تمثال الملك مؤله، وقد كرسه بوزور عشتار حاكم ماري عثر عليه في قصر بابل الذي يعود للقرن السادس قبل الميلاد. ونلاحظ ان الثوب يشبه ثوب اشتـوب ايلوم الـذي نشـاهـده أيضـاً في تماثيل اشنونه. الارتفاع ١٧٥ سم.

مواصفـات متـواضعـة. أما بالنسبة للنقوش النافرة فان المشهد المرسوم في أعلى لوح شريعة حمورابي فريد من نوعه. فالملك، ذو الوجه الجانبي وغطاء الرأس المألوف في منحوتات وجدت في أماكن قريبة، يقف أمام اله جالس يحمل في يده شعار القدسية والعدالة وهو يشبه عشتار في «لوحة التنصيب». وإذا استخدمنا كلمات «هنري فرانكفورت» فان المشهد لا يعبر عن الشعور بالمواجهة فقط بل بالتواصل مع ملك العدالة وصانع القـانون. ونلاحظ في هذا العصر نوعاً آخر من الرسوم النافرة المصنوعة من الطين النضيج ومن هذه المنحـوتـات لوحـة نافرة تظهر الالهة العارية «ليليث» (Lilith) مع أسـودهـا وطيور البـوم[٢١١]. أمـا اللوحـات النـذرية المصنوعة من الغضار المشوي



الشكل رقم ١١٨ : لوح مرسوم من الطين للالهة ليليث ـ الهة الموت وهي مزودة بالأجنحة وتحمل رموز العدالة. يرتبط اسمها بطائر البوم في ملحمة جلجامش والعهد القديم من الكتاب المقدس. الارتفاع ٥٠ سم.

والمسكوبة في قالب مفتوح فكانت أكثر شيوعاً، وكانت هذه النماذج تباع للمصلين في المعابد، تتنوع هنا المواضيع فتشير بعضها إلى كليَّة الوجود «الالهة الام» بالاضافة إلى تماثيل الموسيقيين ونساء المعابد حتى تصل إلى مواضيع تافهة كموضوع الكلبة التي ترضع جراءها. ويتوافق موضوع الأسود المصنوعة من الطين والموجودة عند بوابة المعبد

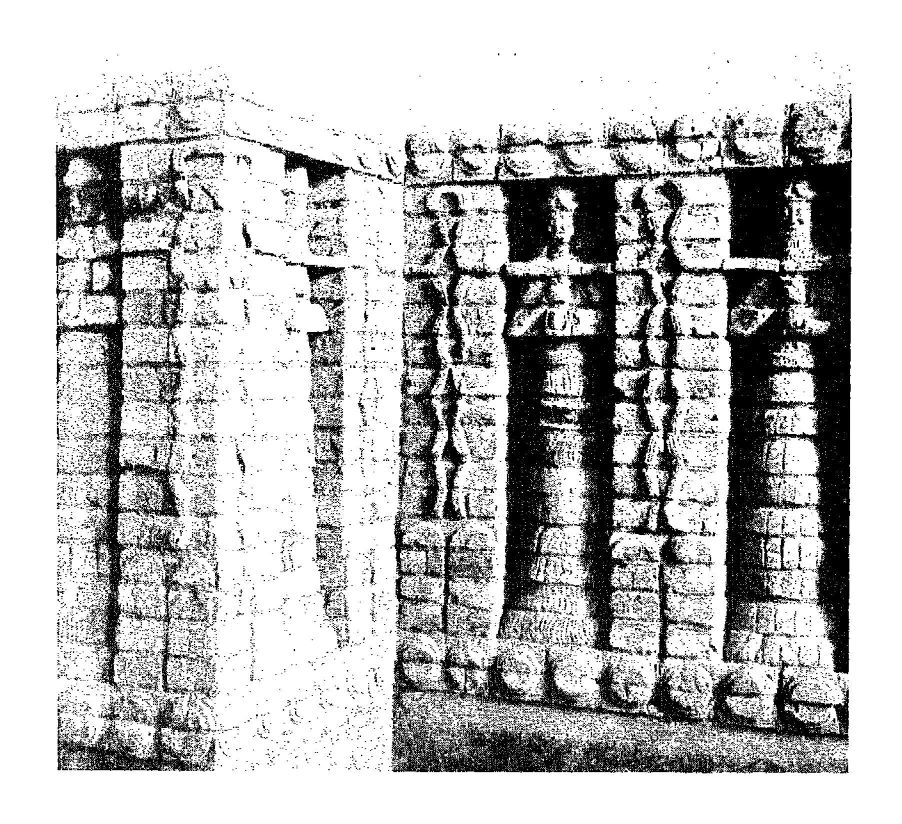


الشكل رقم ١١٩ : أسود حراسة مصنوعة من الطين في مدخل معبد تل حرمل وهي مدينة صغيرة في دولة اشنونه. وقد تمت إعادة تشكيل التمثالين من مئات من القطع المحطمة. ١٩٠٠ قبل الميلاد. الارتفاع ٦٣ سم.

في تل حرمل مع تماثيل لوجوش مشابهة مصنوعة من البرونز كانت تحرس معبد داغان في مدينة ماري[٢١٢] ولهذه الأخيرة أعين مطعمة بأنواع مختلفة من الحجارة.

الكاشيون The Kassites

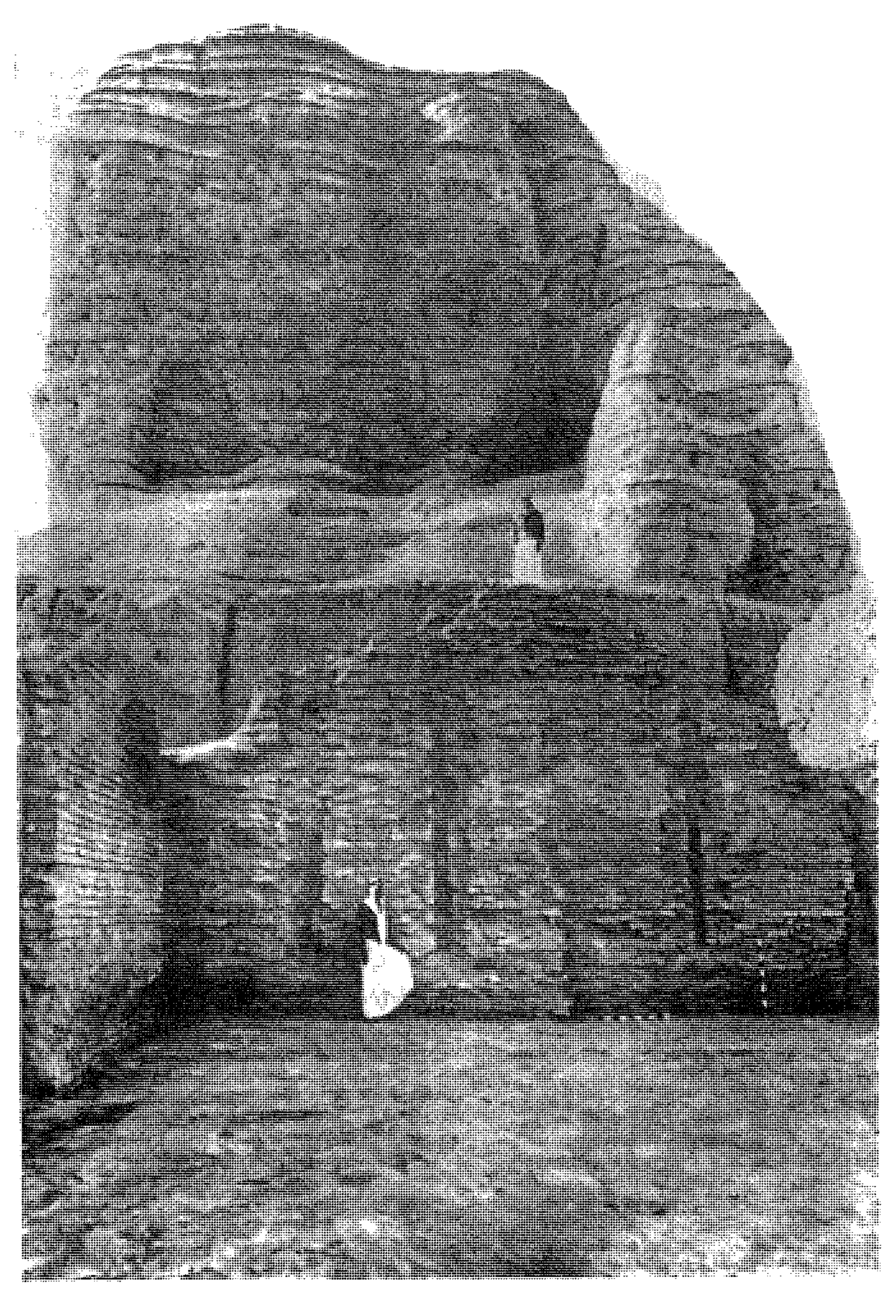
إستناداً إلى حقيقة ان الكاشيين قد حكموا الدولة البابلية لمدة تزيد عن أربعة قرون فانه لمن المدهش أن نلاحظ ان القليل من خصائصهم القومية قد انعكس في البقايا المادية لمستوطناتهم. يوضح هذا الأمر بشكل كبير أنهم قد تبنوا التقاليد القديمة لمنطقة بلاد الرافدين في الشؤون الدينية والادارية والتطبيقات الفنية. لقد أعادوا بناء المعابد وقدسوا وعبدوا نفس الالهة السومرية. والاستثناء الوحيد في هذا المجال هو



الشكل رقم ١٢٠ : زخارف جدارية لمعبد كاريانداش في اوروك. نموذج نادر لفن العمارة عند الكاشيين. القرن الرابع عشر قبل الميلاد. الارتفاع ١٩٨ سم.

معبـد «كاريـنداش» (Karindash) في اوروك الذي يتميز بوجود دعائم ضخمة جداً لزوايا البنـاء تبـدو مختلفة تماماً عن الأبنية المجاورة له. ومع ذلك فان واجهة البناء المزخرفة باتقان تجسد موضوعاً واحداً مألوفاً. الفجوات الطويلة الموجودة بين الأعمدة تغص بتماثيل الالهة البابلية التي تحمل المزهرية المتدفقة. وفيما عدا ذلك فان هذه الآثار توفر لنا نماذج من زخارف القرميد المسكوب ضمن قوالب. وقد وصل هذا القرميد إلى درجة الكمال على أيدي الحرفيين الآشوريين وحرفيي الدولة البابلية الجديدة[٢١٣].

أما العاصمة الجديدة والمتسمة بالمبالغة التي أنشأها الكاشيون وأطلقوا عليها اسم «دور ـ كوريكالزو» (Dur - Kurigalzu) فهي تتميز عن باقي المدن البابلية بطبيعة الموقع الذي اختاروه لها. لقد بنيت على منطقة بارزة من صخور الحجر الكلسي عند



الشكل رقم ١٢١ : آثار تعرضت للحت للزيقورة العظيمة في (عقر قوف) إلى الغرب من بغداد وموقع عاصمة الكاشيين المعروفة باسم دور كوريكالزو. تمت تقوية النواة القرميدية بطبقات من القصب. السلالة الكاشية القرن الخامس عشر حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

الطرف الشمالي من السهل الطموي إلى الغرب من مدينة بغداد حيث تشكل النواة المتآكلة للزيقورة أحد المعالم الواضحة في الموقع. ان عمليات التنقيب الأثري التي قامت بها السلطات العراقية ما بين عامي ١٩٤٢ ـ ١٩٤٥ قد كشفت مجمعاً دينياً عند أسفل البرج، كما كشفت على شبه الجزيرة الممتدة إلى مجرى الفيضان بقايا ما لا يقل عن أربعة قصور[٢١٤]. ومن الملامح المعمارية الغريبة لمنطقة المعبد وجود المنصات المستطيلة المكسوة بالقرميد المشوي والتي تدعم المزارات الرئيسية. إن حجارة المحاور



الشكل رقم ١٢٢: حجر حدود من النموذج الكاشي (Kudurru)، وهو يحدد أرض الموظف (مردوخ نصر). الملك المسلح تعلوه رموز دينية. الارتفاع (٥٣) سم.

المنقوشة والألواح التي عثر عليها في هذه المنطقة قد أرِّخ معظمها إلى عصر الملك «كوريكالزو». وان وجود عدد من طبقات البناء وإعادة بناء بعض القصور مرات عديدة يوحي بوجود ملك آخر يحمل نفس الاسم.

ولسوء الحظ فان القصر الذي يرمز إليه بالحرف (H) [٢١٥] والذي تمت تعريته جزئياً بسبب ظروف الطقس لا يبدي أية دلالة على وجود ترتيبات معمارية خاصة

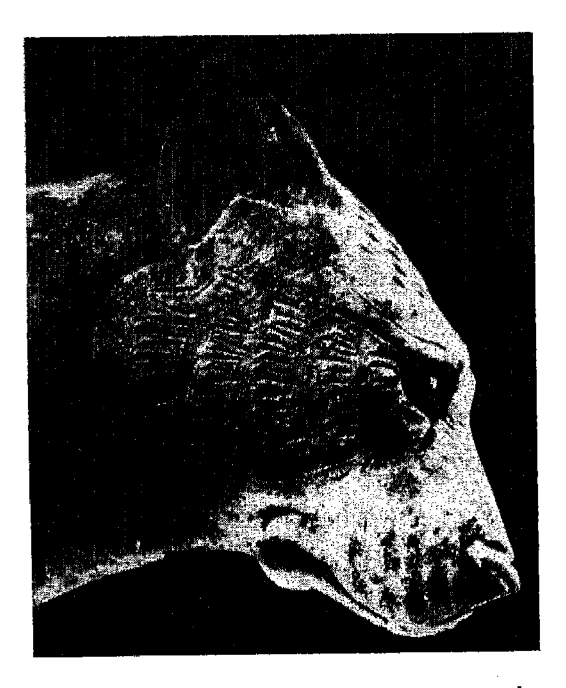
بالكاشيين. فالباحة الخارجية كانت محاطة بعدد من الممرات تؤدي إلى أروقة طويلة تشبه الأروقة الخاصة بالأديرة. لقد كانت إطارات هذه الممرات مزخرفة حتى ارتفاع متر واحد بالرسوم الجدارية التي تصور مواكب الأشخاص الرسميين في القصر[٢١٦]. وكـان هؤلاء يرتـدون أثواباً قصيرة الأكمام ذات حواشٍ وقبعات للرأس على شكل الطربوش فوق شعر طويل على الطراز الآشوري. كان العلماء ميالون إلى الافتراض بأن التزيينات بأشكال مختلفة مرسومة على الجزء السفلي من الجدران قد كانت نقطة



الشكل رقم ١٢٣ : رأس مصنوع من الطين لرجل ملتح من دور كوريكالزو. يذكر النموذج بالسلالة الثالثة عشرة في مصر. الارتفاع ٤ سم.

البداية لاستخدام الألواح المنقوشة والمكتوبة لنفس الأغراض في قصور العصر الآشوري الأخير. وفي عصر الكاشيين كانت المنحوتات النافرة تقتصر على أطراف الحجارة وتمثل رموزاً للالهة كشواهد على الاستقرار في الأرض أو رمز الملك الذي فوضته الآلهة بأمور السلطة[٢١٧].

القصر الآخر (A) والذي يرجع لعصر أكثر قدماً كان يتميز بوجود رواق طويل، مدهون باللون الأبيض بالاضافة إلى ثلاثة أرتال من قواعد الأعمدة الصغيرة المدهونة بالجص. إن القطع الكثيرة من الصفائح الذهبية والأشياء الثمينة الأخرى تؤكد استخدام هذا الرواق خزينة للنفائس. بعد ذلك استبدل الرواق بمجموعة من المخازن المبنية من القرميد التي استخدمت لنفس الغرض كما يعتقد[٢١٨]. لقد تبعثرت كل الأشياء الثمينة في هذه المستودعات وفي بئر السلم المؤدي إلى سطح القصر وربما حدث ذلك عندما سلبت محتويات القصر. وضمن كمية كبيرة من الحلي الذهبية المحطمة وجد عقد ذهبي بحالة جيدة وقد لوحظ في زخارفه تناوب الزخارف المبرغلة مع تطعيمات بمعجون أزرق اللون، كما وجدت زخارف الفسيفساء بالزجاج الملون. وربما يكون هذا الزجاج من عصر زجاج السلالة المصرية الثامنة عشرة الذي عثر عليه في تل العمارنة ويحتمل ان يكون من تاريخ أقدم من ذلك. ان المهارة الحرفية في مصر في ذلك العصر تظهر جلية عندما نشاهد رأساً ملوناً لانسان، مع لحية كاملة، مصنوعاً من الطين النضيج بالاضافة إلى تمثال اللبؤة المصنوع بكثير من الدقة والمهارة[٢١٩].



الشكل رقم ١٢٤ : رأس لبوة مصنوع بطريقة مرهفة الحس الفني من دور كوريكالزو. الارتفاع ٥٠ سم.

ميتاني Mitanni

نوزي Nuzi

لقد عاصر الاستيطان الميتاني في منطقة شمال بلاد الرافدين عصر سلالة الكاشيين في بابل لفترة من الزمن. حكم الميتانيون المنطقة من عاصمتهم «واشاكاني» (Washshukanni) قرب منا بع نهر الخابور في فترة بدأت حوالي عام ١٥٠٠ قبل الميلاد واستمرت حتى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد عندما انهارت مملكتهم. وخلال ذلك العصر كانت مدينة «نوزي» الواقعة على بعد (١٢,٥) ميلاً إلى الجنوب الغربي من مدينة كركوك أحد أهم حصونهم الجنوبية. ولقد قامت بعثة أثرية أمريكية من بنسلفانيا كان على رأسها «ر. ف. س ستار» (R. F. S. Starr) وآخرون في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات[٢٢٠] من هذا القرن بإجراء عمليات التنقيب في هذا الموقع. وبالنسبة للباحث عن معيار للحضارة الميتانية فقد كانت نتائج هذه العمليات مجزية ومخيبة للأمل في نفس الوقت. فلقد عثرت البعثة الامريكية على قصر ومعبد بالاضافة إلى عدد كبير من المنازل الخاصة. لم يعثر على أي عمل فني، لكن العدد الكبير من اللقى الأثرية الصغيرة الحجم تعطي صورة عن شعب استطاع إغناء أسلوب حياته بواسطة التجارة والعلاقات الحسنة مع الشعوب المجاورة وحتى مع مصر. إلا أن أهم اكتشافات البعثة الامريكية العدد الوفير من الألواح التي وصل مجموعها إلى (٥٠٠٠) نص وهي تشمل أرشيفاً كاملاً لعائلة واحدة امتد حكمها لفترة طويلة من الزمن وصلت إلى خمسة أجيال[٢٢١].

يسمى التل الرئيسي «يورغان تبه» (Yorgan Tepe) وتحت هذا التل ترقد مدينة محصنة مع قصرها ومعبدها[٢٢٢]، يضاف إلى ذلك وجود بعض التلال البعيدة التي تغطي بقايا القصر الملكي. سبق ان أشرنا إلى انشاء هذا القصر في عصر السلالة القديمة في زمن كان فيه المكان يعرف باسم «جاسور» (Gasur)، كما أعيد بناء المعبد في عصر الميتانيين بصورة اشتمل فيها على حرمين. وقد تم تحديد تاريخ هذا الأثر بواسطة رسالة كتبها الملك «شوشاتار» (Shaushattar) في عام ١٤٦٠ قبل الميلاد.

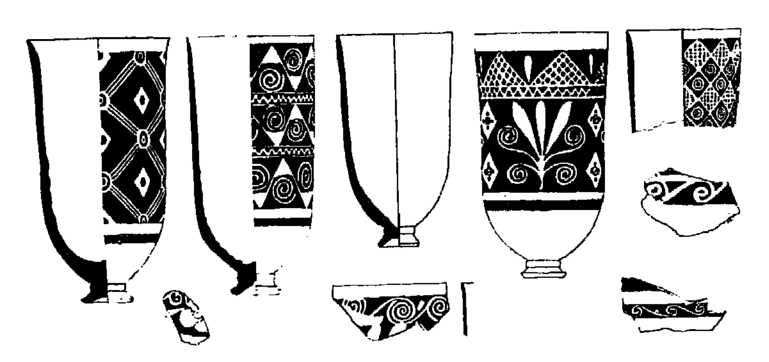
كان لأحد المزارات جدران داخلية مكسوة بألواح خشبية تشبه ألواح المصفقات مثبتة على القرميد، بينما زينت واجهات الجدران في أماكن أخرى ببروزات من الطين المصقول وعلقت عليها بعض قطع النسيج المزودة بالخرز. كما طبقت زخارف مصنوعة

من سطوح زجاجية ملونة من نوع عرف في مصر في ذلك العصر. وكانت الزخارف على هيئـة تماثيل أسود الحراسة الصغيرة كما استعمل شكل رأس الخنزير كزخارف جدارية في حالة وحيدة. أما عن فن النحت فلم تعثر البعثة إلا على طعم لعين تمثال بالحجم الطبيعي.

وكما كانت العادة فقد بني القصر حول باحات واسعة مكشوفة. وفي أضخم هذه الساحات عند مدخل جناح الاستقبال تميزت الجدران بوجود نوع من السقوف الخشبية القـائمـة على أعمدة تحت الأفاريز بالاضافة إلى وجود أعمدة من القرميد لتدعيم الأروقة أو المظلات الخاصة بالمعابد. وفي كل مكان تقريباً يمكننا ملاحظة وجـود تجهيزات الصرف الصحي للمياه بما فيهـا دورات مياه تجري فيهـا المياه عبر الأنابيب. وقد ألحقت بالجناح الملكي مغسلة وحمام كما زيِّن مدخل هذا المكان بالرسوم الجدارية المعبرة التي تدمج بين موضوعات غريبة كالتزيينات المضفورة ورؤوس الثيران وأشكال لرأس الربة «حاتور» (Hathor) [٢٢٣]. وكان لبوابات الممرات الرئيسة أحجار محورية وقد بقي أحد هذه الأحجار في مكانه وكان مغلفاً بالبرونز. ان سماكة جدران أجنحة الاستقبال تعطي دلالة واضحة على ارتفاعها من أجل توفير الاضاءة الطبيعية وان كان بعض المنقبين الأثريين يفضلون اعتبار سماكة الجدران مجرد تدبير أمني.

لقد كان العديد من المنازل في الضاحية الشمالية، بما فيها قصر الأمير المتوج وهـو حاكم مدينـة «أرافا» (Arrapha)، موضع دراسة عميقة. فقد عثر في المنزلين العائدين للأخوين «تيهيب وسوركي تيلا» على ألف من الألواح، أما بيت «زيجي» فكان يحتوي على مجموعة هائلة من الأدوات النحاسية من بينها رؤوس نصال ورؤوس سهـام وسكـاكين وصفائح من الدروع المنصهرة في كتل ثقيلة. ومن هذه الأدوات المناجل والمثاقب والأزاميل والفؤوس وكانت جميعها ملقاة على الأرض في أبنية دمرتها نيران الحرائق.

ومن اللقى التي وجدت في أبنية مدينة نوزي نموذج غير عادي من الفخار[٢٢٤]. لقد زخرفت هذه الأواني الفخارية الجميلة بتصاميم بيضاء اللون على خلفية ذات ألوان قاتمة. ومن أكثر هذه الأشكال شيوعاً الكوب الطويل المزخرف بأشكال ورسوم أفقية ذات مواضيع لم تكن معروفة في بلاد الرافدين حتى ذلك العصر ومنها الأزهار واللوالب والضفائر عدا عن الطيور والنباتات. وبالرغم من ان هذه الأنواع قد وجدت



الشكل رقم ١٢٥ : قطع من الفخار من نموذج يعرف باسم فخار نوزي . صنعت تصاميمه من اللون الأبيض على خلفية سوداء . تنتمي هذه الأواني إلى عصر مملكة الميتانيين ١٤٧٥ ـ ١٣٥٠ قبل الميلاد. وقد انتشت في شمال شرقي سورية . (عن ستار، ١٩٣٨).

في أماكن بعيدة في الجنوب كعاصمة الكاشيين وفي «تل بيلا» خلف الموصل في الشمال فإنها قوية الصلة مع شمال سورية فقد ظهرت في موقع «تل العطشانة» . ويفترض «وولي» ان هذا الفخار نشأ في الأصل في جزيرة كريت. أما الأختام الاسطوانية المتباينة فلها الكثير من الصفات المشتركة مع أختام شمال سورية أيضاً. فقد كانت تصاميمها ورسومها مزدحمة ومرتبكة إلا ان بعض الموضوعات مثل «الشجرة المقدسة» و«الأسد المجنح» قد استمرت في زخارف العصر الآشوري الأخير[٢٢٥].

وأخيراً فقد توفرت في نوزي مجموعة مشهورة من النصوص. حيث أخرجت التنقيبات الأثرية إلى الضوء ما لا يقل عن (٤٠٠٠) لوح مسماري وجد أكثر من ألف منها في منزل «تيهيب تيلا». وتعرض محتويات هذه الألواح صورة مفصلة للحياة اليومية للمواطن والمجتمع. فالمعاملات القانونية والتجارية التي تسجلها هذه الألواح ذات أهمية كبيرة بحد ذاتها، كما وان ما تضفيه من معلومات عن الأماكن والأشياء والناس تعمق دائرة الفهم للخلفية الاجتماعية والبيئة التي كتبت بها. بالاضافة لكل ما تقدم فهي تساهم في زيادة الأدلة التي توفرها اللقى الأثرية.

وفي ملحق لتقرير «ر. ف. س. ستار» (R. F. S. Starr) عن عمليات التنقيب الأثري في نوزي عام ١٩٣٩ يلخص «ي. ر. لاخمان» (E. R. Lacheman) أهم الأدلة المادية عن الحضارة في ذلك العصر والتي يمكن استنباطها من النصوص ويكون

بذلك قد قدم إضافة مفيدة لذلك التقرير. ويظهر الملحق تحت عناوين متنوعة ويقدم للقارىء ثروة من المعلومات.

للمرة الأولى إذاً، تظهر نوزي كمدينة محصنة بالأسوار ذات الأبراج العالية والبوابات التي وردت أسماؤها في النصوص. فالقصر مجمع ضخم من الأبنية تتبع له ملحقات من البناء لكل منها وظيفة محددة وتاريخ معماري عريق. أما المعبد الذي استطاع المنقبون التعرف عليه فكان له عدة مزارات وكانت الأسرة الحاكمة تقوم بخدمته بكثير من الاجلال من خلال تقديم الاعطيات المناسبة وتوفير العبيد للعناية به. ولقد وفرت عملية وصف الأبنية والمساكن الخاصة مجموعة من المصطلحات المعمارية مع شرحٍ لها، وكثيراً ما ذكرت الشوارع مع تحديد أسمائها. وتوضحت الصورة الطبوغرافية للموقع بواسطة عملية توزيع المياه، فالنهر الصغير وشبكة الأقنية والخزانات والجسور ذكرت جميعها بالاسم، أما الآثار فكانت تمثل معالم كبيرة وواضحة. لقد كشفت عمليات التعامل بالعقارات ونقل ملكية الأرض تفاصيل عن الأعمال الزراعية في منطقة مروية تحيط بها أرض هامشية غير صالحة للزراعة وهناك مجموعة دقيقة من المفردات اللغوية التي كانت تستعمل في هذا المجال. ونستطيع ان ندرك الانتشار النسبي لمحصول الشعير وان نعرف مدى انتشار محاصيل أخرى كالقمح والكتان والخشخاش. وفي مجموعة أخرى من الألواح نتعرف على البساتين والحدائق وأسماء أنواع الفاكهة والخضار والأزهار أيضاً. وهناك اشارات إلى استخدام أخشاب أشجار الفواكه في أغراض خاصة. كما وقدم الملحق معلومات عن الخصائص والأساليب التقنية تحت عناوين مثل «العربات والمركبات» «الاثاث» و«الملابس» وهناك فصل خاص عن الأدوات والأسلحة والدروع.

وضمن قائمة المواضيع التي تعالجها النصوص في نوزي يأسف المرء لندرة المراجع عن الموضوعات السياسية والتاريخية. ان قطعة النحت المنقوشة والوحيدة التي توفر دليلاً عن تاريخ حضارة نوزي هي وثيقة أخذت من إحدى غرف منزل «شيلوي ـ تيشوب» (Shilwi - Teshup). وهذه الوثيقة هي رسالة من «شوشاتار» (Shaushattar) الملك الميتاني الذي حكم في القسم الأخير من القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

العصر الآشوري الوسيط

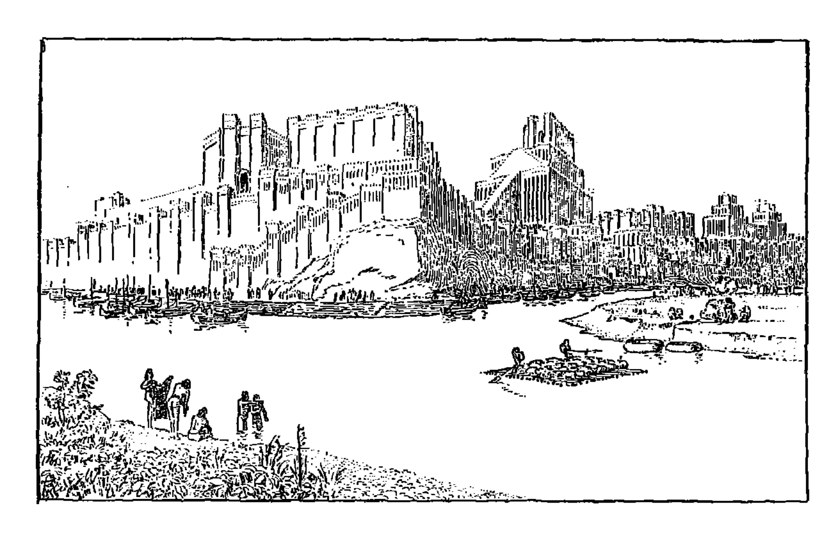
اننا ندين بمعلوماتنا بشكل كامل تقريباً، عن العصر الآشوري الوسيط لأعمال

المنقبين الأثريين الألمان التي قاموا بها في قلعة الشرقاط الواقعة على نهر دجلة . لقد اتخذ قرار المبـاشرة بهذه العملية الأثرية هنا في عام ١٩٠٣ عندما أمضت بعثة «روبرت كولديوي» (R. Koldewey) أربع سنوات في الجنوب وهي تعالج المشاكل التي سببتها حقول آثار بابل . استطاعت البعثة ان تكشف وتوضح مخطط الموقع وان تتحقق من معـظم الأبنية الرئيسة وان تتأكد من نجاح جهودها في بعث بقايا عاصمة «نبوخذ نصر» . ان المنسوب العالي وغير المتوقع للأرض المشبعة بالماء في تلك السنة فقط جعل من المستحيل البحث في مستويات الاستيطان التي سبقت القرن السابع قبل الميلاد .

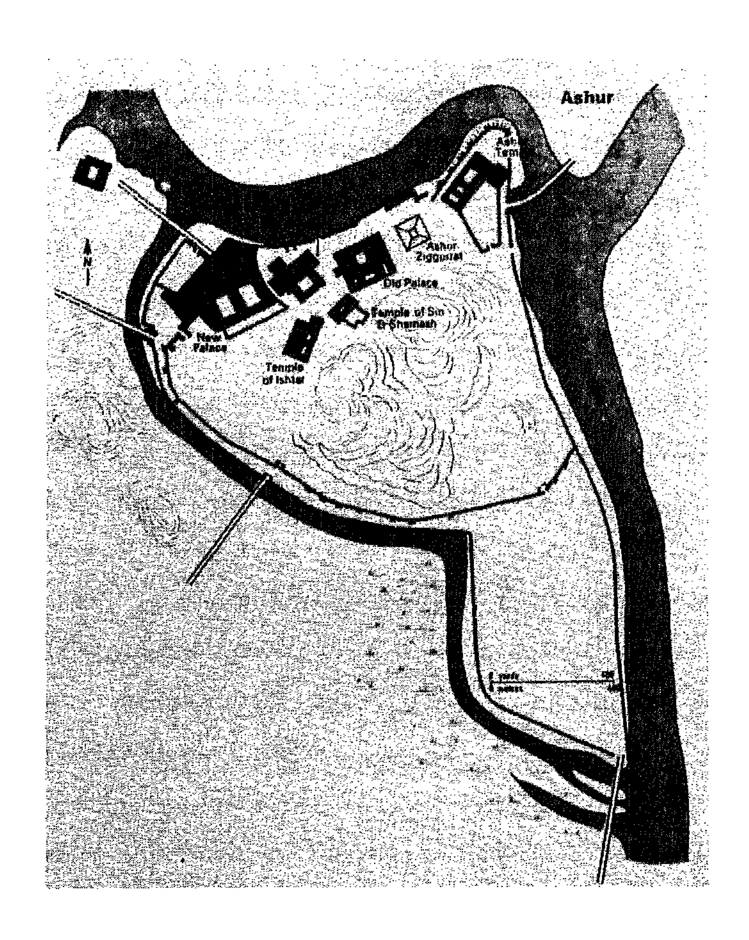
درست البعثة مسألة القيام بعملية تكميلية في موقع يمكن فيه الوصول إلى هذه الآثار . وعندما تم اختيار موقع مدينة آشور عهد إلى «والتر اندريه» (Walter Andrae) بانجاز هذا المشروع الجديد . ومنذ ذلك الوقت حتى عام ١٩١٣ استمر العمل في وقت واحد في موقعين يبعدان عن بعضهما (٣٥٠) ميلاً . ولقد أصبح معروفاً وبصورة عامـة العمـل المشترك في عمليتي استعادة وانقاذ المعلومات التاريخية وتطوير طريقة التنقيب الأثري على يد البعثة الألمانية[٢٢٦] .

مدينة آشور

لقد سبق ان ذكرنا مدينة آشور التي تقع على بروز من الصخر الكلسي ، كبير



الشكل رقم ١٢٦ : مدينة آشور على نهر دجلة في العصر الآشوري الوسيط كما تظهر من الشمال الغربي . رسم والترأندرية بعد فترة عشرة سنوات من التنقيب الأثري .



الشكل رقم ١٢٧ : مخطط لمدينة آشور المبنية على مرتفع عند نقطة التقاء فرعي نهر دجلة . (بيت اكيتو) في الجهة الشمالية الغربية خارج المدينة . (عن هوكس، ١٩٧٤) .

الارتفاع ، في الزاوية التي يشكلها مجريا نهر دجلة .

يوفر هذا الموقع حماية طبيعية للمدينة من جهتين أما في الجهة الثالثة فقد أقيمت أسوار على شكل قوس يبلغ طوله ثلاثة أرباع الميل[٢٢٧]. تركزت عمليات التنقيب التي قام بها «اندريه» في القسم المرتفع من المدينة والواقع إلى الشمال الغربي منها، حيث كانت مواقع المعابد والقصور. ولقد تأكد من ذلك بنفسه من خلال اتباعه الطريقة الألمانية التي اعتمدت على حفر خنادق تحريات اخترقت الموقع من الشرق إلى الغرب تفصل بين الخندق والآخر مسافة (١٠٠) متر وتنسجم بذلك مع شبكة عملية المسح

الأولية. وفي نفس الوقت تم التعرف على مجموعة كاملة من التحصينات والكشف عن البوابات الرئيسة والأرصفة المحاذية للنهر وغيرها من المعالم. أما أعمق اختراق قام به فكان السبر الذي كشف أساسات معبد عشتار الذي بني قبل عصر سارغون. ويمكن تأريخ آخر البقايا المعمارية التي صادفها على المرحلة الأخيرة من عصر «الفارثيين» أي حوالي العام (٢٥٠) بعد الميلاد.

كان «اندريه» و«كولديوي» مهندسين معماريين لذلك فقد أدت نزعتهما لتصحيح أخطاء المنقبين السابقين إلى تركيز دراستهما على الأبنية من النصوص المكتوبة[٢٢٨]. وفي آشور تميزت مهمة مستشار «اندريه» بعلم دراسة النقوش المكتوبة بأهمية كبيرة لأسباب اتضحت بشكل سريع. خلال فترة وصلت إلى (٢٠٠٠) عام ساهم ملوك متعاقبون بإصلاح ومضاعفة حجم الأبنية وهذا ما اتضح من خلال النقوش المكتوبة. كما أظهرت هذه النقوش أن الكثير من الأبنية قد استؤنفت عملية إعادة بنائها في عصر ملوك العصر الآشوري الأخير وفي وقت لم تكن فيه آشور عاصمة إدارية للدولة. ولهذا السبب فاننا سنأتي في الفقرة القادمة على ذكر أسماء ملكية تنتمي إلى عصور لاحقة.

التحصينات

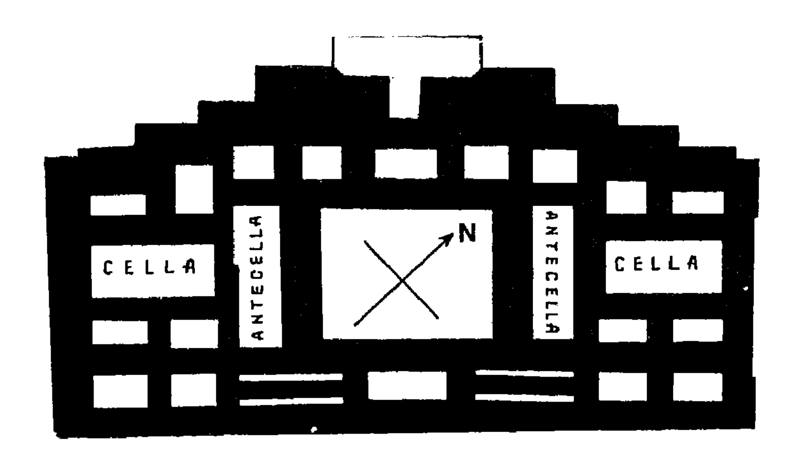
أجريت عمليات بناء وإعادة بناء الحصن المقابل لليابسة في عهد عدد من الملوك منهم «شمشي ـ حدد الأول» في عصر حمورابي. ثم أضاف الملك «توكولتي نينورتا الأول» لهذا السور خندقاً مائياً بعرض (٢٠) متراً ما بين عامي ١٢٤٤ ـ ١٢٠٨ قبل الميلاد. ويثبت أحد النصوص المنقوشة أن «شلمنصر الثالث» ٨٥٨ ـ ٨٢٤ قبل الميلاد قد أعاد انشاء السور وأضاف إلية جداراً خارجياً موازياً له، لكن هذا الجدار انحرف عند طرفه الجنوبي لكي يحيط بامتداد المدينة. في عام ١٣٠٠ قبل الميلاد كان الملك «حدد نيراري الأول» قد انشأ رصيفاً ضخماً من الآجر المشوي على الواجهة الشرقية للنهر وتمت تقوية الرصيف فيما بعد لحماية المدينة من خطر الفيضانات. وتؤكد عملية وصف للمدينة في زمن الملك «سنحاريب» ٧٠٤ ـ ٦٨١ قبل الميلاد وجود (١٣) بوابة في هذه الأسوار استطاع المنقبون تحديد مواقع ثمانية منها فقط. وتعتبر من أكثر هذه البوابات أهمية البوابة الشمالية التي كان المسافرون

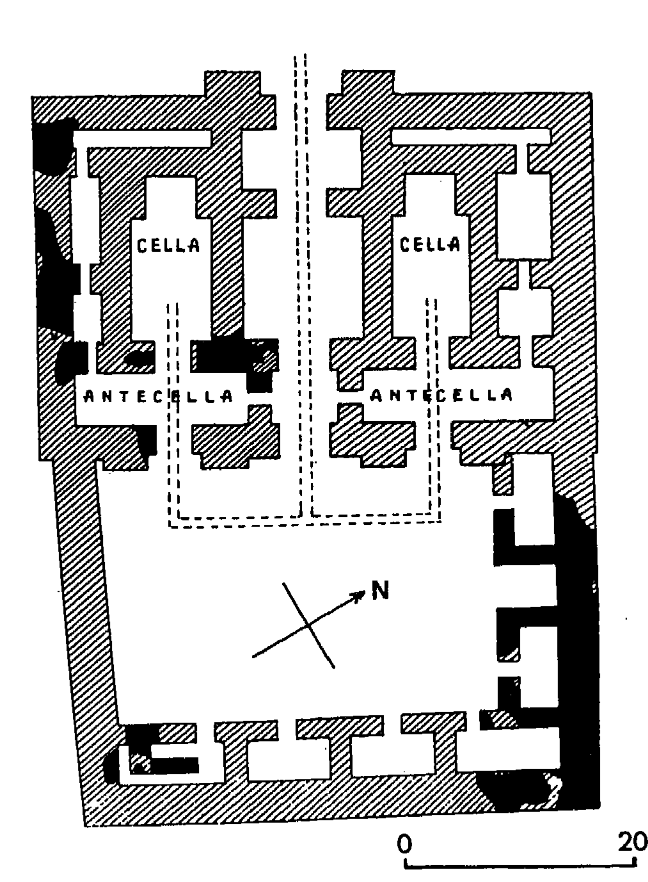
يستعملونها والتي عرفها الآشوريون باسم «غورغوري» (Gurgurri). وبين هذه البوابة والسرير الغـربي للنهـر يوجـد حصن له بوابـات من طرفيه كانت تمر عبرها مواكب احتفالات السنة الجديدة. كما كانت هنالك بوابات في السور الشمالي، عرفت البوابة الغربية باسم «ايللات» (Illat) بالاضافة إلى البوابات الصغيرة عند الطرف الجنوبي من المنطقة ومنطقة توسعها الأخيرة.

المعابد والقصور

إذا اقـتربنا نحو المدينة من ناحية النهر في الشمال وجدنا أن أبنيتها الضخمة تشكل صورة ظليلة معبرة، كما يتأكد لنا بواسطة الصورة المشهورة التي رسمها اندريا بنفسه[٢٢٩]. ترتفع المعابد إلى الأوج على الكتف الشمالي الصخري حيث بنيت ثلاث زيقورات، أضخمها وهي تلك التي أعطاها الملك «شمشي ـ حدد» الأول شكلها النهائي، تبلغ مساحتها ٦٠ متراً مربعاً. لقد كان هذا المعبد مكرساً في الأصل إلى الالـه السومري «انليل» والذي استبدل كرب للدولة الآشورية باله المدينة «آشور» نفسه. تعرض البرج للكثير من الحت بسبب العوامل الجوية ولم يبق شيء من أدراجه أو أبنيته الملحقة. ومن بين (٣٨) معبداً ذكرت في النقوش المكتوبة تم التنقيب عن أربعة معابد بشكل كامل. ولقد كرس «شمشي ـ حدد» أكبر هذه المعابد للاله آشور أيضاً. وكما هي الحال في الأبنية الأخيرة لمعبد عشتار القديم لا بد من التعرف على ظاهـرة التغيير في التقاليد التي أملت تصميم الأبنية الدينية. فمعبد آشور كما بناه «شمشي ـ حدد» كان له حرمان رئيسان يطابق أحدهما على الأقل حالة وجود الحرم العرضاني (Breitaraum) للمعبد وهو تقليد اتبع في بابل في ذلك العصر. وبعد عدة قرون أضاف إليه الملك «سنحاريب» ملحقاً شرقياً مع مقدس على المحور الرئيس على الطريقة الآشورية. أما بالنسبة لمعبد عشتار فبعد تدمير الهيكل القديم وجد الألمان آثاراً لست مرات أعيد فيها بناؤه وأثناء هذه العمليات تم تغيير الجهة التي كرس لها. ومع ذلك فقد كان يلحق به دائماً مزار ثانوي كانت الالهة عشتار تعبد فيه كما وكان مدخله ذو المحور المائل والحرم الطولاني (Longraum) أي انه يتبع النموذج القديم بما يتفق مع التقاليد السومرية.

أما عن المعبدين الرئيسين فقد كان كلاهما مزدوج التكريس ويتميز بمخطط غير





الشكل رقم ١٢٨ : معبد سن وشمش في آشور ومخطط الأساسات في عصر آشور نيراري الأول عام ١٥٠٠ قبل الميلاد وفي الأسفل المخطط في عصر سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١) قبل الميلاد. المزارات المحورية الطويلة كانت شائعة في معظم المعابد الآشورية. (عن بارو، ١٩٤٦).

عادي. كان أحدهما معبد «انو ـ حدد» وله زيقورتان ومعبدان أرضيان (Tieftempelt) مبنياً على الطريقة الآشورية، وباحة أمامية مسورة تعتبر وحدة معمارية مستقلة. أما المعبد الثاني فقد كرس لالهي «الشمس والقمر» (Sin - Shamash). وقد بنى هذا المعبد لأول مرة الملك «آشور نيراري الأول» (Ashur - mirari I) عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، ثم أعاد بناءه الملك «سنحاريب» بمخطط مختلف. لقد كان لكلا المعبدين حرمان آشوريان مزدوجان يتم الدخول إليهما عبر مزار أمامي. البناء الديني الخامس والذي يكاد يعتبر معبداً عرف باسم «بيت اكيتو» (Bit - Akitu). لقد كانت التماثيل الدينية تحمل إليه في المواكب خلال احتفالات العام الجديد. ويقع هذا البناء على بعد (٤٠٠) متر خارج المدينة في الجهة الشمالية الغربية. وكان يتألف من باحة مربعة الشكل واسعة مع مدخل مسقوف وحرم على المحور الرئيسي وهو يشبه بذلك غرفة العرش.

ولا بد من بعض الايضاحات عن الـ (اكيتو) أو احتفالات العام الجديد التي وصلت إلى صيغتها الطقسية الكاملة في القرون الأولى من الألف الأول قبل الميلاد. في ذلك الوقت حلت هذه الاحتفالات مكان احتفالات الربيع السومرية أو أنها كانت تشبهها تماماً. وكانت هذه المهرجانات مرتبطة «بالزواج المقدس» (Sacred Marriage) للاله والالهة ويرمز هذا الزواج إلى الدورة المتواترة للخلق والخصوبة. كان المهرجان يقام في زمن الاعتدال الربيعي ويستمر لمدة (١١) يوماً، يمثل كل يوم منها مرحلة من مراحل تأدية الطقوس المعقدة والطويلة. ولقد كان هذا البناء البيئة المناسبة للمراحل المتعاظمة من الاحتفالات والمهرجانات. وكان المحتفلون يحملون معهم تماثيل الالهة المحمولة على عربات أو قوارب وذلك للمشاركة في الطقس المعروف باسم «تحديد الأقدار» (Fixing Destinies) وكان الملك يلعب دوراً رئيساً في هذا الطقس الديني. ولقد تم التعرف على الكثير من هذه الطقوس بواسطة النصوص المكتوبة الباقية، كما وتم في آشور وبواسطة التنقيب الأثري الكشف عن الطريق المرصوف الذي كانت تسلكه المواكب الخارجة من المدينة.

وعلى نقيض المعابد فلا يتوفر لدينا سوى القليل من المعلومات عن الأبنية الدنيوية في آشور. ان ما يسمى بالقصر القديم والذي يقع إلى جوار الزيقورة الرئيسة يمثل متاهة من الغرف المستطيلة ومجموعة من غرف التخزين التي كان الدخول إليها

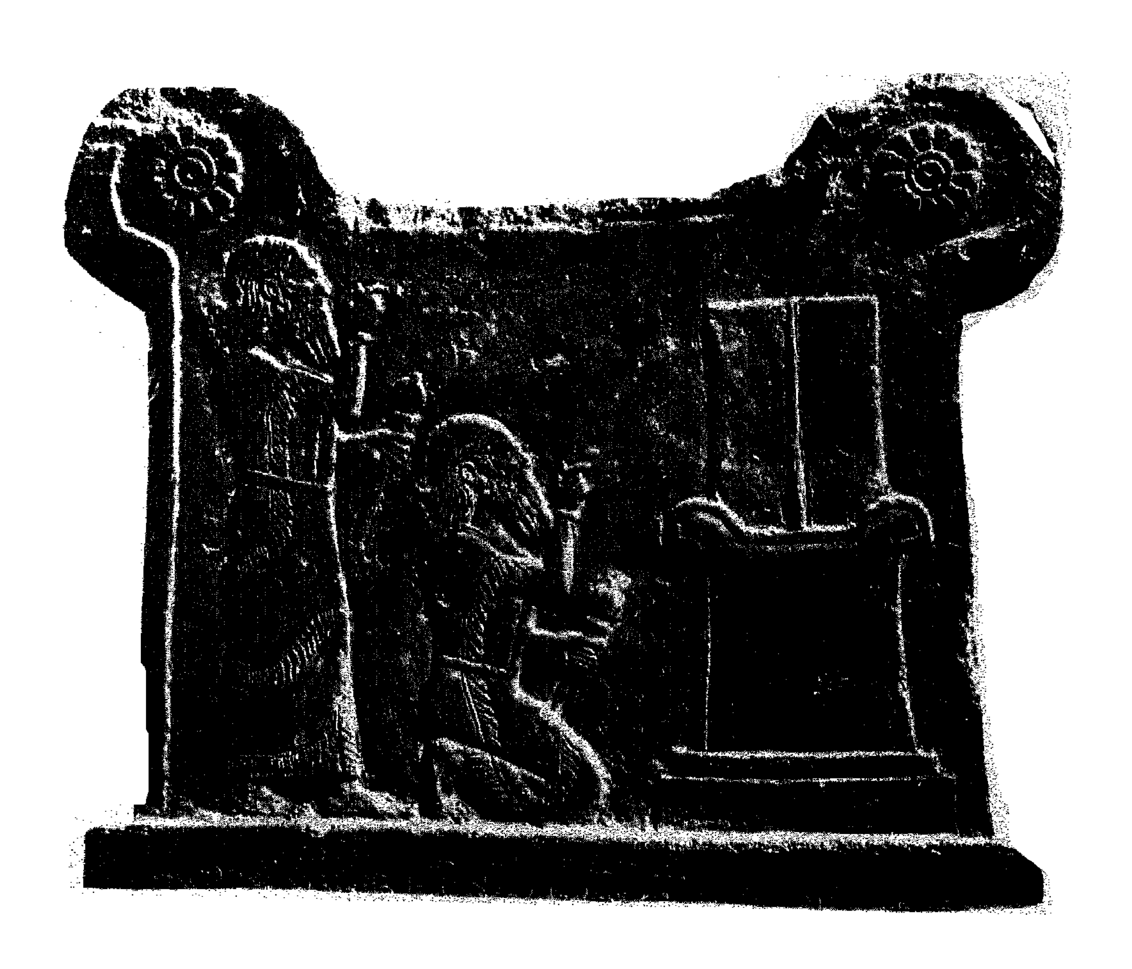
وإضاءتها تتمان بواسطة عدد من الساحات المكشوفة. وهو في هذا المجال يشبه القصر الموجود في اشنونا من عصر لارسا كما كان معاصراً له بالفعل. وكما هي الحال في قصور ماري وآشور نلاحظ ان الأبنية الخاصة الدينية كانت مندمجة مع بعضها. كان قصر آشـــور مايزال مستعمـلاً في عصر «تيغـلاث فيلاصر» الأول (Tiglath - Pileser I) (١١١٥ - ١٠٧٧) قبـل الميلاد لكن ما بقي منه تم تحويله إلى مقبرة خلال العصر الآشوري الأخير. ولقد قام «آشور ناصربال» (Ashur - Nasirpal) (٨٨٣ - ٨٥٩) قبـل الميلاد بتزيين أحد المداخل بتماثيل الثور المجنح وأنشأ تحت هذا المدخل غرفاً للدفن. اكتشف المنقبون الألمان ان هذه الغرف تحتوي على توابيت حجرية سرقت محتـوياتهـا في العصـور القـديمـة لكنها مازالت تحمل أسماء أشخاص منهم «آشور ناصربال» وشمشي - حدد الخامس ٨٢٣ - ٨١١ قبل الميلاد وآخرين غيرهما. وفي تلك الأثناء وفوق رصيف صناعي في الزاوية الشمالية الغربية من سور المدينة، بنى «توكولتي نينورتا الأول» بعد فتحه لبابل قصراً جديداً لم يبق منه سوى الأساسات الحجرية. ولم يكتف بذلك بل بنى ضاحية سكنية تقع على بعد (١,٨) ميلاً إلى الشمال من المدينة على الضفة اليسرى لنهر دجلة وأطلق على هذه الضاحية اسم «كار - توكولتي نينورتا». وهنا أيضاً بنى زيقورة صغيرة وبنى بجوارها معبداً مع مزار بابلي ومشكاة دينية تخترق واجهة البرج نفسه. ولقد ظن «اندريه» ان الوصول إلى الأرصفة العلوية يصبح ممكناً عن طريق بنـاء جسر على الشارع الخلفي. وان أهم المكتشفـات الأخرى في «كار توكولتي نينورتا» هي نماذج الزخارف المكونة من سطوح مزججة على الطين النضيج، كما وكانت الزخارف أحياناً على شكل ألواح جدارية ولوحات مصنوعة من القرميد المصقول والمتعدد الألوان[٢٣٠].

بعض اللقى في آشور

ويجب ان ندرس دراسة وافية بعض اللقى في آشور وما تدل عليه من أفكار وابتكارات يمكن اعتبارها آشورية. وفي بحث حول هذا الموضوع يقول «هنري فرانكفورت»:

«في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ظهر إلى حيز الوجود فن كان يتميز بهويته الخاصة ليس في الأسلوب فحسب بل في المواضيع أيضاً. لقد صور هذا الفن مواضيع

دنيوية مع اهتمام رغباته بالواقعية بطريقة لا تبدو فيها أية حادثة مبتذلة وعادية. أما بالنسبة للمواضيع الدينية فقد عرض هذا الفن تمسكاً بالشكليات لم يسمح معها للإنسان بمواجهة الآلهة وجهاً لوجه بل سمح له بتأدية الطقوس الدينية أمام تماثيل هذه الآلهة وشعاراتها»[٢٣١].



الشكل رقم ١٢٩ : مذبح توكولتي - نينورتا الأول ١٢٤٤ - ١٢٠٨ قبل الميلاد من آشور. ونلاحظ الرسم النافر فيه طقس تقديم الولاء والطاعة للاله نوسكو. الارتفاع ٥٣ سم.

ويشكل النحت النافر على مذبح أنشأه الملك «توكولتي نينورتا الأول» نموذجاً عن هذه الأعمال والنزعة الفنية. وإذا أعدنا إلى الذاكرة المواجهة المباشرة بين الإنسان والإله في المشاهد المنحوتة على نصب حمورابي الشهير فان ما لدينا هنا يمثل النقيض المباشر. يشاهد الملك الآشوري هنا يقترب من المذبح ثم يركع أمامه، ولا يعلو المذبح تمثال للإله بل رمز تقليدي له. كما يظهر هنا أيضاً الاله «نوسكو» (Nusku) أحد آلهة النار الثلاثة على صورة اللهيب فقط. وربما ينعكس هذا الموقف نحو الاله في تصميم المعابد الآشورية التي وصفناها من قبل حيث يسحب التمثال الديني إلى طرف بعيد من المزار. أما الاله آشور فانه يظهر في مرات عديدة كرمز وليس كشكل إنساني، وكان لجسمه أجنحة على غرار قرص الشمس رمز الاله «حورس» (Horus) المصري وكان للقرص ذيل طير.

التطور المعاصر الآخر يمكن ان نلاحظه في نحت الأختام الاسطوانية التي تظهر فيها الآن زيادة العناية والاهتمام بالتصميم[٢٣٤]. في العصور البابلية القديمة وعصر لارسا وصلت مشاهد (الاهداء ـ التجلي) درجة من الرتابة في الشكل ما جعل



الشكل رقم ١٣٠ : نموذج لمشهد التقديم ووفقاً للكتابة المنقوشة فان صاحب الختم هاشامار حاكم اشكون سن قد احضرته الالهة لمقابلة ملك اور ـ مطلع القرن العشرين قبل الميلاد.

إضافة نقوش تحمل أسماء أصحاب هذه الأختام أمراً ضرورياً. ولقد تم التخلي عن هذا التقليد واستبدل بتشكيلات مميزة للصيغة الأصلية ومع ذلك ان بعض مشاهد الصراع التقليدية قد عادت إلى الظهور إلا ان المواضيع الجديدة كانت وفيرة. ومن

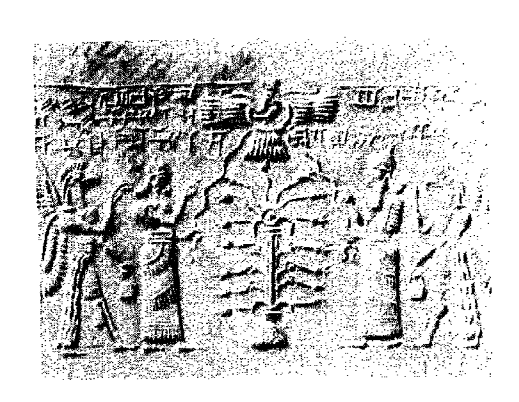
المواضيع الجديدة مشهد الملك الذي يصيد طائر النعام والحصان المجنح الذي يحمي مهره من خطر الأسد ومشهد الأيائل وهي ترعى بين الأشجار والجبال. وتضاف لكل ما ذكر الموضوعات الغريبة التي شاهدناها في نوزي والتي جاءت عن طريق الدولة الميتانية من سورية وتمثل هذه الموضوعات لوحة «الشجرة المقدسة» وحيوان الغريفين المجنح. كما يمكن مشاهدة الأشكال المتوسطية من الزخارف في الألواح المزججة في «كار ـ توكولتي ـ نينورتا».



الشكل رقم ١٣١ : تصميم لختم من العصر الآشوري الوسيط يظهر فيه الملك وهو يصطاد طيور النعام ـ القرن الثالث عشر قبل الميلاد.



الشكل رقم ١٣٢ : مشهد آخر من العصر الآشوري الوسيط. النبيل بيكاسوس يدافع عن مهره من اعتداء الأسد.



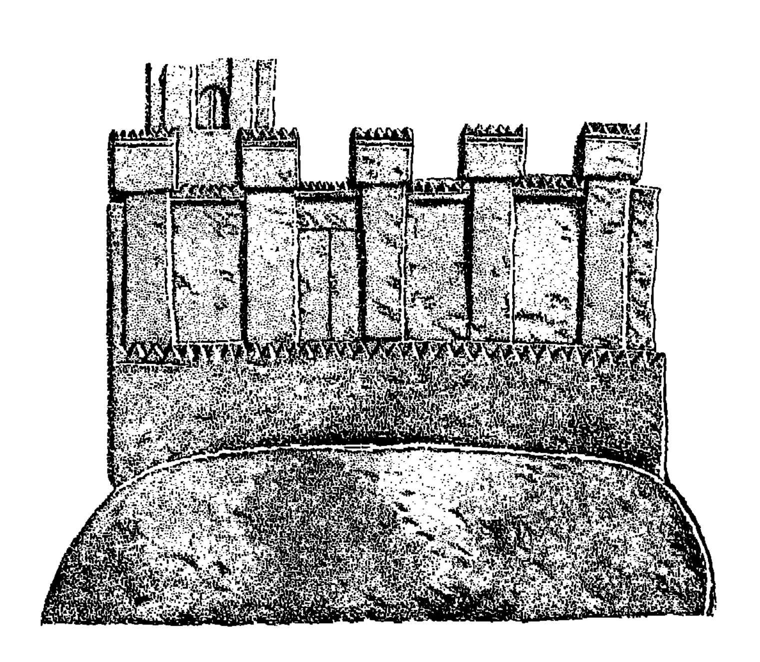
الشكل رقم ١٣٣: تصميم لختم يحدد عملية الانتقال من العصر الآشوري الوسيط إلى العصر الآشوري الحديث عام ٩٠٠ قبل الميلاد. ونشاهد الملوك والكائنات الاسطورية أمام شجرة الحياة المقدسة مع رمز يشبه الطائر لاله آشوري.

تطبيقات البناء

لقد اقتصرت عملية وصفنا للأبنية في آشور ولأسباب واضحة على المخططات الأرضية لهذه الأبنية. أما عن زخارف الواجهات والمظاهر الخارجية فاننا نستطيع العثور على بعض الأدلة في تصاميم الأختام المعاصرة، وينطبق هذا الأمر بشكل خاص على متاريس سقوف الأبنية الدينية أو الدنيوية. وتساورنا الشكوك في ان استعمال شرفات إطلاق النار كان من أصل مصري لأن أحد أختام القرن الثالث عشر قبل الميلاد في آشور يبين وجود سور محصن مزدوج وكانت للمتراس فيه شرفات لاطلاق النار ولها جدار فاصل[٢٣٣]. كما وأظهر خاتمان آخران من نفس الموقع يعودان إلى ما بعد (١٠٠) عام وجود جدران فاصلة بين الأسوار على شكل المدرج المعروف في العصر الحديث[٢٣٤]. ويتميز أحد هذه الأختام بأهمية خاصة لأنه يحمل رمز ألهة الكلب «كولا» (Gula) مما يثبت ان البناء معبد وليس حصناً وبالتالي فان هذه الشرفات تزيينية بحتة. كما وأن هذا الخاتم يبرز تفاصيل معمارية مثل الأبراج القائمة على الجدران والممرات والألواح المستطيلة التي يعتقد بأنها نوافذ.

وأخيراً ففي أختام هذا العصر تظهر صور الشياطين أحياناً، وهي كائنات هجينة ذات أجنحة، أو وحوش مجنحة أيضاً ولها رؤوس نسور أو أشخاص ملتحون

مغلفون بحراشف الأسماك. كما وتظهر هذه الأشكال في اللوحات والتماثيل الطينية التي كان بعضها مدفوناً تحت أرضيات المنازل لأغراض الحماية من الشر (Apotropaic) ، كما وتأخذ هذه الأشكال مكانها في فن الرسم والتصوير في العصور الآشورية اللاحقة.



الشكل رقم ١٣٤ : تحصينات مدينة آشورية مأخوذة من نقش نافر للملك تيغلات فيلاصر الثالث ـ وتظهر الأبراج كما تم تطويرها في العصر الآشوري الأخير. (رسم ر. ليكروفت).

الفصل التاسع

العصر الآشوري الأخير

تاريخ امبراطوري

في وقت مبكر من القرن العاشر قبل الميلاد أسس الملك «آشور رابي الثاني» (Ashur - Rabi II) سلالـة جديدة في آشور وبدأت بذلك مرحلة جديدة وهامة من تاريخ بلاد الرافدين. وقد شهدت فترة حكم حفيده «حدد ـ نيراري الثاني» (Adad - Nirari II ٩١١ ـ ٨٩١ قبل الميلاد المرحلة الأولى من عملية إعادة الاستقرار السياسي وامتلاك زمام المبادرة العسكرية التي أدت إلى إعادة تكوين الامبراطورية الآشورية. تركـز اهتمام «حدد نيراري الثاني» على تثبيت حدود المملكة بشكل كامل واستطاع تحقيق ذلك بواسطة سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة والمناورات السياسية. فأصبحت مدن مثـل كركوك أو أرافا في الشرق وجوزن (تل حلف) عند منابع نهر الخابور في الشمال حصوناً قوية ضمن نظام دفاعي جديد أقامه الملك، أما الامارات الآرامية الصغـيرة في أواسط نهر الفـرات فقـد قام بالاستيلاء عليها لحماية علاقاته التجارية مع سورية.

في المراحل الأولى من عملياته قام بتثبيت الحدود الجنوبية للدولة الآشورية مع الدولة البابلية عن طريق معاهدة مازالت نصوصها محفوظة في نقش كتابي شهير عرف باسم «التاريخ المتزامن» (Synchronous History). وتحوي هذه الوثيقة وصفاً زمنياً لكل نزاعات الحدود السابقة بين الدولتين. ويمكن اعتبارها نقطة البداية للتاريخ المحدد بدقة لأنه منذ ذلك التاريخ أصبحت لدينا وثائق متكاملة عما يسمى «قوائم الحوليات» (Limmu) وهي تسجل وفق تسلسل زمني أسماء الموظفين الذين كانوا يعينون سنوياً للاشراف على احتفالات السنة الجديدة ولأن هؤلاء الموظفين استعملوا لتأريخ الاتفاقيات القانونية والوثائق الهامة الأخرى فان أهميتهم التاريخية واضحة تماماً.

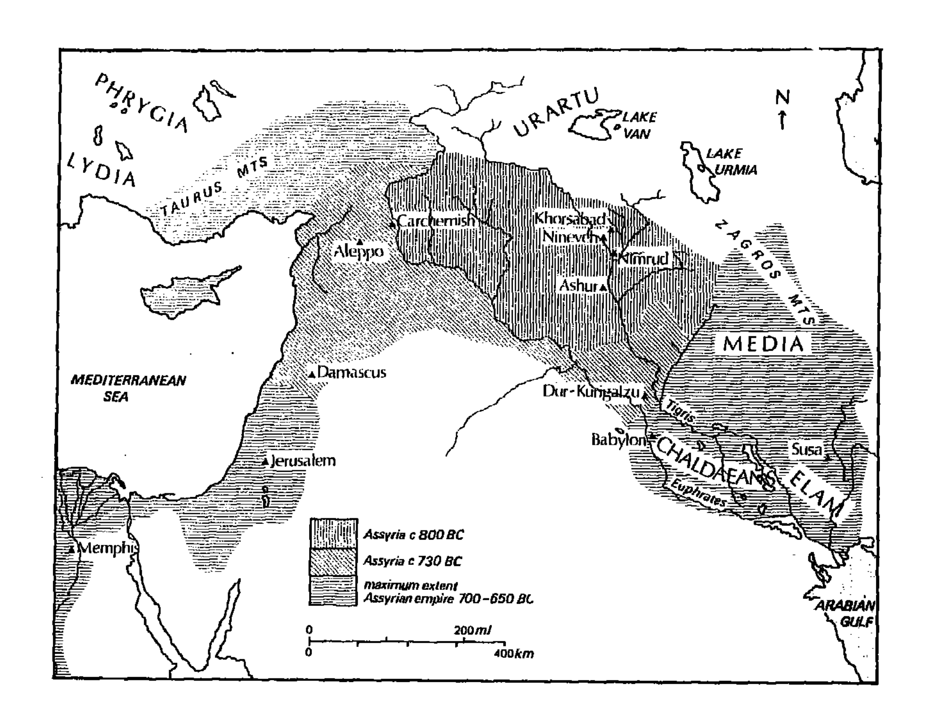
قام «توكولتي نينورتا الأول» وهو خليفة «حدد نيراري» بالخطوة الأولى لتوسيع حدود دولة أبيه نحو الشمال، وفي عمله هذا وجد نفسه للمرة الأولى على اتصال مع شعب «الموسكي» أو «الفريجيين» (Phrygians) الذين حلوا محل «الحثيين» في هضبة الأناضول، وكذلك مع شعب «النيري» وقد توحد الشعبان في دولة واحدة اسمها «اورارتو». عند ذلك اقتنع الملك بالقيام بعملية عسكرية من نوع كرره خلفاؤه على فترات، وهي عملية اكتساح للأمارات الشرقية والجنوبية التي كانت تتمنع أحياناً عن دفع الأتاوات، موجهين بذلك اشارة تحذيرية إلى الدولة البابلية. وبهذه المناسبة توقف الملك للتفتيش في بقايا وآثار مدينة «دور كوريكالزو» عاصمة دولة الكاشيين القديمة.

ومن وجهة النظر الأثرية، فقد كان «آشور ناصربال» (٨٨٣ - ٨٥٩) قبل الميلاد، أكثر ملوك العصر الحديدي في الدولة الآشورية أهمية وذلك لأنه نقل مركز الحكومة من آشور إلى مدينة أقل شأناً تقع عند ملتقى دجلة بالزاب الأعلى. تدعى هذه المدينة باسم «كلخو» (Kalhu) أو كالاه سفر التكوين، وتعرف اليوم باسم «نمرود». وقد قام آشور ناصربال بتوسيعها وزخرفتها ثم جعل منها عاصمة للدولة. وعندما أتم ذلك أسس قاعدة حربية متطورة وانطلق في حملة عسكرية عبر معابر نهر الفرات في اتجاه الشمال الغربي. وحتى ذلك الوقت كانت العقبة الرئيسية أمام تقدمه دولة قوية مركزها «تل بارسيب» (Til Barsip) تل أحمر قرب «كركميش». وعندما استولى عليها أصبح الطريق إلى حلب مفتوحاً أمامه، ومن هناك انطلقت جيوشه دون أية مقاومة إلى ساحل البحر المتوسط وقام بفرض الجزية على المدن الساحلية. وهكذا بدأت قصة زاخرة بالبطولات والفتوحات كان أبطالها خلفاء «آشور ناصربال» وتمكنت

الجيوش الآشورية خلالها من الوصول حتى مصر غرباً.

ولأن قبضة «آشور ناصربال» كانت قوية وظالمة في تعاملها مع المدن الغربية، فاننا لن نستغرب قيام تحالف مضاد للآشوريين بقيادة أمير دمشق «حدد ـ يري» (Adad - Iri) الذي يعتقد انه «بن حدد» المذكور في العهد القديم من الكتاب المقدس. تم بعد ذلك القضاء على هذا التحالف وأعيدت المناطق الداخلية من سورية إلى السيطرة الآشورية، كما أعيدت السيطرة على «طابال» (Tabal) في شمال حلب و«كو» (Que) في كيليكيا. كانت هذه الفتوحات مفيدة جداً من الناحية الاقتصادية للدولة الآشورية لأنها أمنت الطرق التجارية نحو الغرب وأمنت الوصول إلى مصادر المعادن في جبال طوروس. وكذلك فان إخماد «شلمنصر» لعصيان شيوخ القبائل الكلدانية على حكومة بابل الصديقة قد سهل الاتصال مع تجار الخليج العربي الذين كانوا يوفرون بضائع الهند والجزيرة العربية عن طريق «ديلمون» أو البحرين.

ومن غير المناسب هنا ان نتابع بالتفصيل تسلسل الأحداث في التاريخ الآشوري وان كان من الضروري أن نذكر العناصر والعوامل التاريخية الرئيسة التي تنسجم مع السجلات الأثرية. إن الممالك الخمس التي أعقبت حكم «شلمنصر الثالث» تمثل عصراً من الخمود النسبي إذ ضعفت المطامح الاستعمارية مؤقتاً. وقد بذلت جهود قليلة حيال تآكل المناطق التي سيطرت عليها الدولة الآشورية. ففي الشمال برزت مملكة «اورارتو» القوية في منطقة بحيرة «فان»، وهي مملكة اشتهرت بنظامها الدفاعي الذي يعتمد على الحصون والقلاع، واتبعت هذه المملكة سياسة توسع أعاقت اتصال الدولة الآشورية ببلاد الأناضول. امتدت مناطق هذه المملكة نحو الشرق حتى بحيرة «اورميا». وفي عام ٧٤٥ قبل الميلاد عندما اعتلى «تيغلات ـ فيلاصر» الثالث (Tiglath - Pileser III) العرش في «كلخو» كانت جيوش «اورارتو» مشغولة في هجوم شنته نحو الغرب باتجاه سورية. لقد تطلب هذا الأمر القيام بعمل حاسم أثبت فيه «تيغلات ـ فيلاصر» انه قائد على مستوى القضية، فخلال فترة حكمه استردت الدولة الآشورية المناطق التي فقدتها وأعادت بناء نفسها كقوة عسكرية واقتصادية رائدة في الشرق الأدنى. وتكتمل هذه النهضة بعمليات الإصلاح الإداري التي اعيدت من خلالها عملية تنظيم هيكل الحكم ضمن البلاد وفي المقاطعات. ولقد أصبحت هذه العملية كبيرة التأثير بعد انشاء مراكز البريد على طرق القوافل وهي

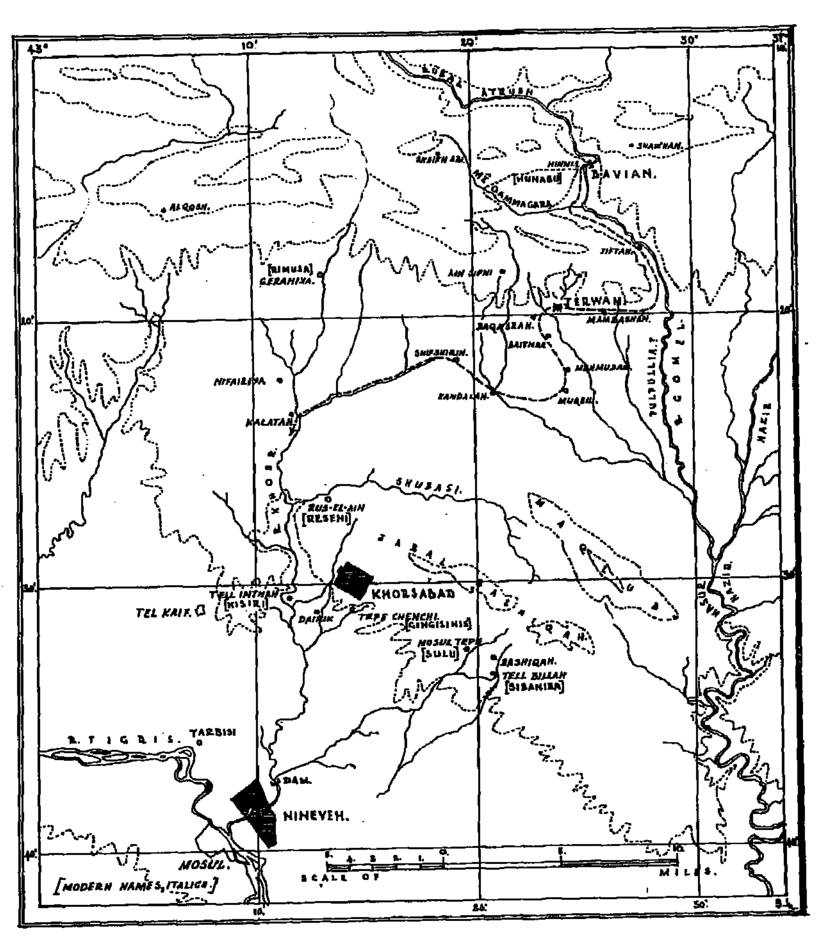


الشكل رقم ١٣٥ : خريطة للامبراطورية الآشورية.

المراكز التي جعلت الملك على اتصال دائم مع حكام المقاطعات. أما الدول التابعة التي استطاع السيطرة عليها فكانت محمية بحزام خارجي من الممالك المرتبطة بأشكال متعددة مع الدولة الآشورية. وعندما توفي الملك «تيغلات فيلاصر» في عام ٧٢٧ قبل الميلاد كان يحكم امبراطورية تمتد من حدود مصر حتى جنوب بابل وكانت هذه الأخيرة ماتزال مسرحاً للاضطرابات السياسية. ففي هذه المنطقة كان المنشقون من رجال القبائل ولسنوات طويلة يواصلون عمليات التحدي للسلطة الآشورية وكانوا بقيادة «ماردوخ ـ ابيل ـ ايدينا» (Marduk - apil - idinna).

ونواجه في هذه المرحلة أيضاً أسماء أربعة من الحكام العظماء الذين لا نلمح في ظل حكمهم تعاظم القوة الآشورية فقط بل نلاحظ بذور الانحلال في نفس الوقت. ان ظروف ارتقاء «سارغون» إلى السلطة وانتصاراته العسكرية يكملها مشروعه في انشاء عاصمة جديدة. في الموقع المعروف اليوم باسم «خورساباد»، الذي يقع على

بعـد (١٢) ميلاً إلى الشـمال الشرقي من «نينوى»، بنى «سـارغـون» مدينة قوية التحصين على مساحة تزيد عن ميل مربع وأطلق عليها اسم «دور ـ شاروكين» Dur). Sharrukin - لقد تم انجاز الأبنية العامة والتحصينات في مدة قصيرة جداً ولكن هناك بعض الشك في حقيقة ان زيادة السكان التي أدت إلى جعل المدينة مزدحمة قد حدثت خلال ستة عشر عاماً من حكمه. نادراً ما كان سارغون موجوداً في عاصمته وبعد موته في عام (٧٠٥) قبل الميلاد هجرت المدينة. أما خليفته «سنحاريب» فقد فضل ان



الشكل رقم ١٣٦ : خارطة تصور مسار قناة سنحاريب بدءاً من الخزان وأقنية المياه في بافيان، مروراً بقناة جروان وأخيراً ربط مجرى نهر خوسر بمدينة نينوى. (س. لويد).

يجعل من نينوى عاصمة له ومركزاً للحكومة مستفيداً من موقعها المتوسط على الضفة الشرقية لنهر دجلة حيث أقيمت وللمرة الثالثة على التوالي أروع القصور الآشورية.

في أحد النصوص الشهيرة يلوم «سنحاريب» أسلافه لاهمالهم أمور صيانة المدينة ثم يضيف شرحاً مطولاً وتفصيلياً للجهود التي بذلها من أجل اصلاح «نينوى». وتبدو عظمة إنجازه جلية من خلال المنطقة الواسعة من المدينة والتي يمكن أن نرى آثارها من روابي الضفة الغربية لمدينة الموصل. وتشكل أسوار المدينة شبه مستطيل يبلغ طوله (٢,٥) ميلاً. وعلى الجهة المقابلة للنهر نرى هضبة قديمة قد تم تعديل شكلها وحجمها لبناء بدائل للقصور والمعابد. وخارج أسوار المدينة، كما نعلم من النص المذكور، امتدت البساتين والمزارع المغروسة بالأشجار النادرة التي نقلت من مقاطعات بعيدة تابعة للامبراطورية كما اضيفت لهذه البساتين حديقة للحيوانات. ولعدم قناعة «سنحاريب» بمواصفات مياه نهر دجلة أنشأ قناة يبلغ طولها أكثر من (٥٠) ميلاً، ورصف جوانبها بالحجارة وذلك لينقل المياه العذبة من الينابيع في الجبال الشمالية الشرقية. وعند أكثر مصادر المياه بعداً وعلى أحد الجروف الصخرية قرب «بافيان» (Bavian) تم تخليد عملية إنجاز هذا المشروع بنقش للالهة الآشورية حفر على الصخر، وأضاف على النقش تقريراً عن إنجازاته السياسية والعسكرية[٢٣٥]. وفي هذه النصوص وغيرها من النصوص التي أخذت من قصره في نينوى يظهر سنحاريب كأعظم محارب ورجل دولة منذ حمورابي.

وتبقى لدينا شخصيتان بارزتان في التاريخ الآشوري إحداهما «اسرحدون» (Esarhaddon) وهو الذي خلف سنحاريب بعد ان قتله بعض أفراد أسرته، وهو القائد الذي استطاع تحقيق مطامح دولته في غزو مصر. فأثناء فترة غياب مؤقتة للملك الاثيوبي «تاركو» (Tarku) حاصر «اسرحدون» مدينة «ممفيس» واستولى عليها وأطلق على نفسه لقب «الفرعون» ملك مصر العليا والسفلى. بعد ذلك توفرت لديه فرصة لبناء قصر إداري جديد في نينوى عرض فيه بعض الغنائم التي جاء بها من مصر، قبل ان يتلقى خبر استرداد الملك تاركو لعاصمة مصر ممفيس. وتوفي اسرحدون عندما كان متجهاً إلى مصر لمعالجة الاوضاع المستجدة هناك. وتبين إحدى الوثائق أن اسرحدون قد أمّن لابنه «آشور بانيبال» الوصول إلى العرش الآشوري. لذلك تولى «بانيبال» مسؤولية إعادة فتح مصر وقد دمرت ممفيس في هذه المرة تدميراً كاملاً. بعد ذلك انتقل

اهتمام «آشور بانيبال» إلى الحدود الجنوبية الشرقية حيث قام العيلاميون بعصيان بعد ان عقدوا حلفاً مع دولة الكلدانيين. وباستيلائه على عاصمتهم سوسا حقق انتصاراً بارزاً تم تخليده في نحت نافر وجد في قصره في مدينة نينوى.

وبعد خمسة وعشرين عاماً لعب الكلدانيون دوراً كبيراً في الأحداث التي أدت إلى الدمار النهائي لمدينة نينوى. ففي عام ٦١٤ قبل الميلاد قام جيش «ميدي» بقيادة «سيكساريس» (Syaxares) بغزو الدولة الآشورية واستولى على مدينة «نمرود» مدمراً أقدم عاصمة للآشوريين. هذا الانتصار جعلهم على اتصال مع البابليين حيث تم التوقيع على معاهدة بين «سيكاريس» ملك الميديين و«نابولاسار» ملك الكلدانيين. وبعد سنة من هذه المعاهدة استطاع الميديون ضمان مساندة قبائل السكيثيين إلى الشمال من مملكتهم فتوحدت الشعوب الثلاثة ضد نينوى. سقطت المدينة بعد حصار دام لفترة قصيرة جداً في عام ٦١٢ قبل الميلاد ودمرت تدميراً شاملاً. ولقد لجأ من بقي على قيد الحياة من أفراد البلاط الآشوري إلى «حران» على الحدود الشمالية الغربية.

التنقيبات الأثرية القديمة في المدن الآشورية

يبدو من الضروري ان نقدم عرضاً للمرحلة الأخيرة من تاريخ السلالة الآشورية لتوضيح التسلسل التاريخي ومواقع الاكتشافات التي ستكون موضوع بحثنا. ان وفرة وتنوع الاكتشافات قد أصبحت واضحة الآن نتيجة المجلدات الضخمة التي كتبت عنها ومن خلال التراكم الكبير للأعمال الأدبية. كما وان عملية التحليل الانتقائي للمعارف قد أسهمت في اغناء معلوماتنا الاضافية التي نحاول الاستفادة منها في هذا البحث.

ومن أجل تحقيق هدفنا المنشود يجب ان نميز أولاً بين نوعين من عمليات التنقيب الأثري التي خضعت لها المدن الآشورية. تفصل بين هذين النوعين فترة طويلة من الزمن ويرتبط كل نوع منهما بطبيعة الفهم للغاية من عمليات الحفر الأثرية. تشمل المجموعة الأولى عمل المكتشفين الرواد في القرن التاسع عشر الذين كان هدفهم اكتشاف وحيازة القطع الأثرية التي يمكن نقلها، والذين أولوا القليل من الاهتمام للبيئة التي وجدت فيها هذه الآثار. بدأت هذه العمليات الأثرية في عام ١٨٤٢ باكتشاف «بوتا» (E. Botta) لمدينة خورساباد ثم قام «لايارد» (H. Layard) بعد

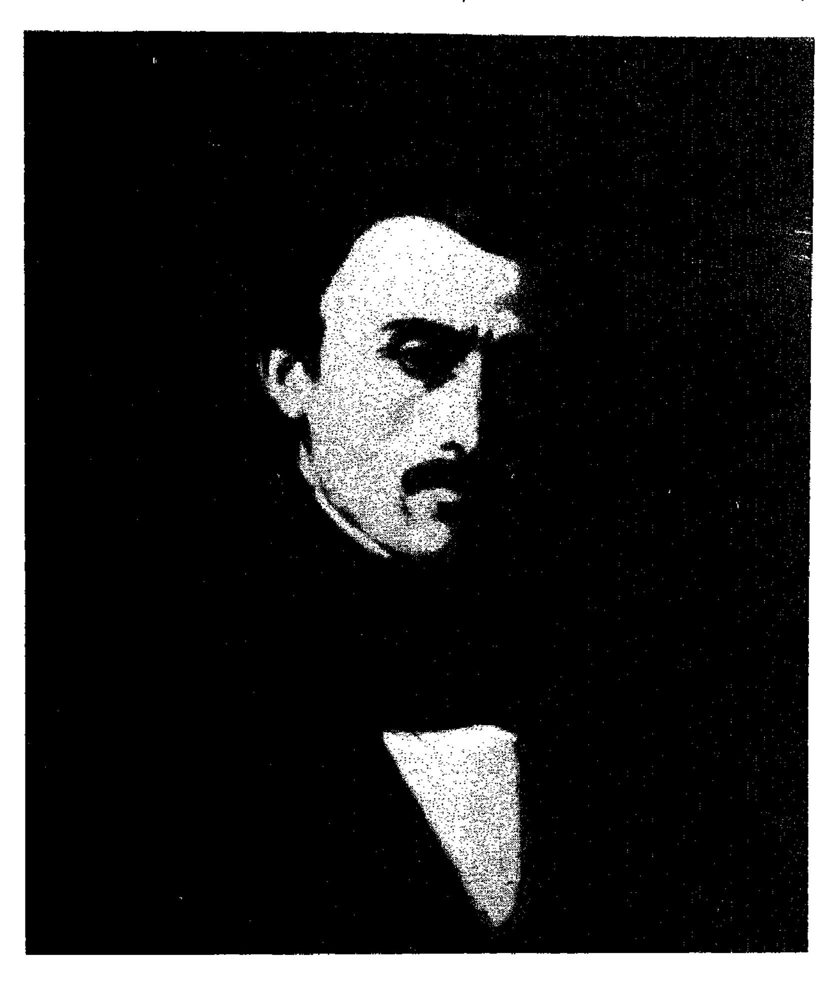


الشكـل رقم ١٣٧ : رسم لاوستن هنري لايارد في ثوب بختياري. رسمته «ألريكا لويد» من رسوم كتاب «مغامرات وحياة ورسائل لايارد».

سنتـين بأول عملية تنقيب في نمرود. استمرت هذه العمليات مع فترة قصيرة من التـوقف أثنـاء حرب القـرم وحتى وفـاة «جورج سميث» (George Smith) في عام ١٨٧٧، وهو الذي اكتشف نسخة من قصة الطوفان بالكتابة المسمارية.

أمـا المجمـوعة الثانية من هذه العمليات وهي من النوع المألوف في العصر الحاضر، إذ تعطي اهتماماً كبيراً بطبقات الآثار والقرائن البيئية، فقد استؤنفت في عام

١٩٢٧ حين عاد علماء الآثار الامريكيون إلى خورساباد ثم عاد المختصون البريطانيون إلى نمرود. أما عن حياة ومغامرات هؤلاء المنقبين الأوائل فلن تكون موضع اهتمام كبير في بحثنا وان كنا لا نستطيع ان نخفي اعجابنا الشديد بروح الاصرار والتحدي والمتابعة التي توفرت لديهم ضمن ظروف من الاحباط والمصاعب والعقبات المتعمدة. لقد كان جزاؤهم في نهاية الأمر ردة الفعل العامة التي ظهرت في

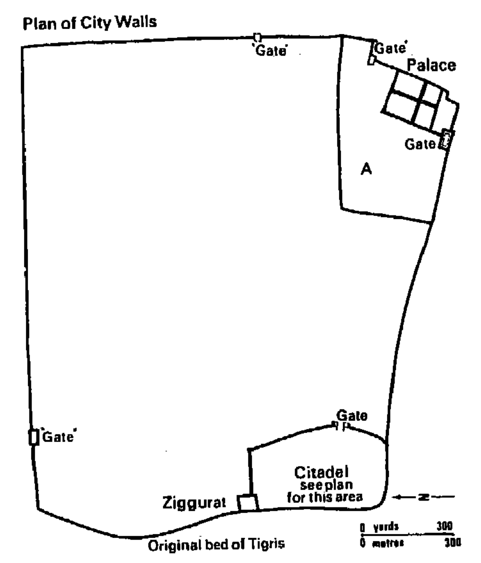


الشكل رقم ١٣٨ : بول اميل بوتا مكتشف ومنقب مدينة خورساباد. لم يعط عمله حقه من حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية وقد عين بوظيفة قنصل في طرابلس - سورية وتوفي في عام ١٨٧٠.

الشغف الرومانسي بهذه الاكتشافات. ولقد تم اغفال التنافس الدولي الشرس الذي أفسد العلاقات بين الدول والذي تحول إلى زحف غير مقدس من أجل الحصول على الغنائم الأثرية. لقد ظهرت قصص روائية عن مغامرات المنقبين عن الآثار كما وأتى على ذكرها العلماء الألمان والفرنسيون بصورة أكثر موضوعية[٢٣٦]. ان الغاية من بحثنا هي ان ندرس المواقع التي حفروها ونتأكد من الآثار والأبنية التي صادفها هؤلاء المنقبون وذلك على ضوء دراسات علمية أكثر تنظيماً وترتيباً.

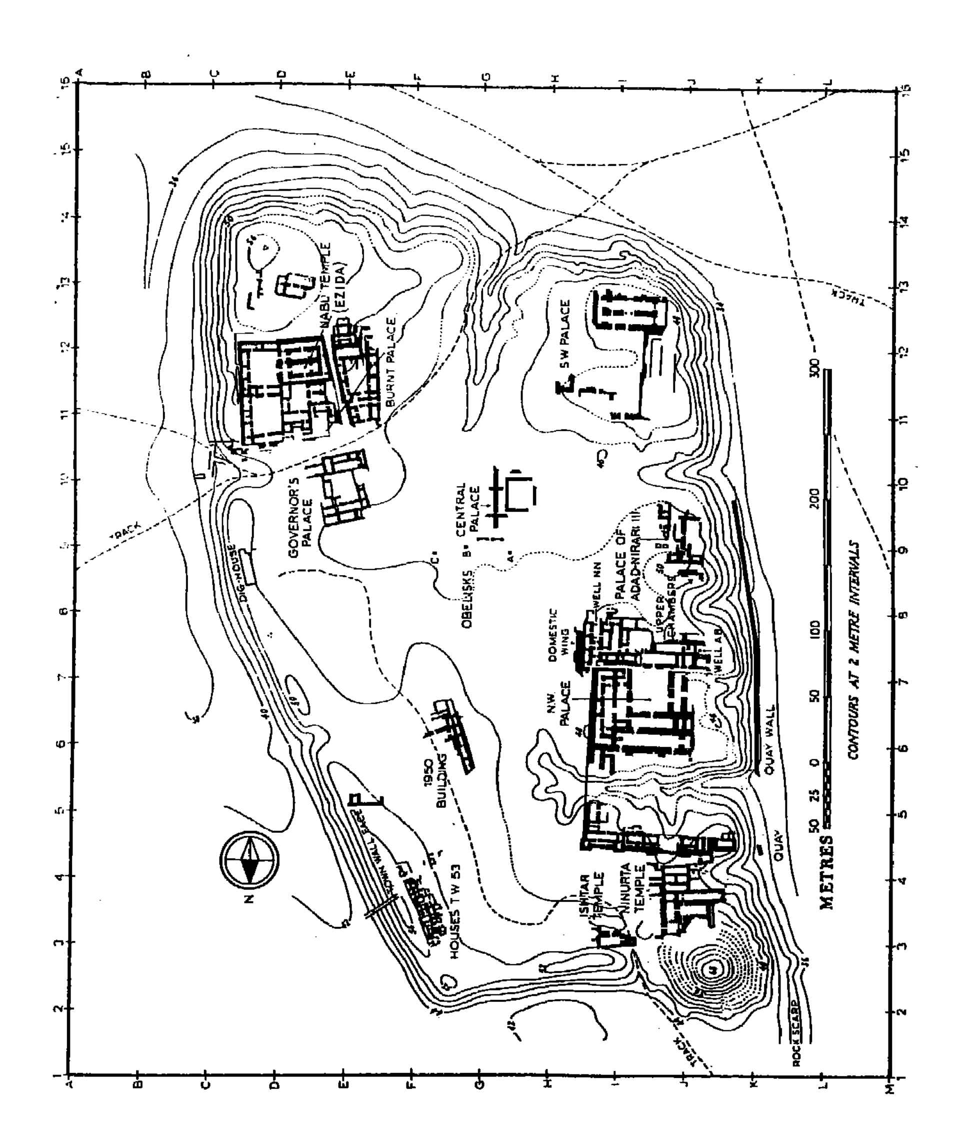
نمرود (كلخو)

كانت المدينة التي تم توسيعها في «كلخو» والتي صممها «آشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣ - ٨٥٩) خلال السنوات الأولى من حكمه مربعة الشكل تقريباً ويبلغ أطول بعد لها (١,٢٥) ميلاً[٢٣٧]. يحد موقع المدينة نهر دجلة من الغرب أما من الجنوب فتحدها قناة تنقل الماء من نهر الزاب الأعلى. وفي الزاوية الجنوبية الغربية تشكلت



الشكل رقم ١٣٩: رسم يبين تحصينات مدينة نمرود وأبنيتها الرئيسية. كانت مياه نهر دجلة تحمي المدينة من الغرب ومياه قناة واسعة تحميها من الجنوب. (عن هوكس، ١٩٧٤).

رابية من بقايا مستوطنة قديمة أعيد تشكيلها واكساؤها بالحجارة فتحولت إلى قلعة عالية تركزت ضمن أسوارها القصور الرئيسية وأبنية المعابد، كما نلاحظ في الزاوية الشمالية الشرقية وجود منطقة مسورة تحتوي على مستودع للأسلحة.



الشكل رقم ١٤٠ : مخطط قلعة نمرود وقد انجز بعد انتهاء عمل مالوان هناك في عام ١٩٦٣ . قام كل من لايارد وراسـام ولـوفتـوس بعمليات تنقيب متقطعة بين عامي ١٨٤٥ و١٨٥٤ . ولقد تم العثور على اللقى الأساسية في مجموعات الأبنية في الشمال الغربي والجنوب الشرقي من المندينة . (عن مالوان، ١٩٦٦) .

جذبت القلعة العالية انتباه «لايارد» عندما بدأ حفرياته في تشرين الثاني من عام ١٨٤٥[٢٣٨]. وكما هي حالها اليوم، فقد تعرضت للتعرية جزئياً بسبب رشح مياه الأمطار من الأعلى، ويمكن للمرء ملاحظة جدرانها وأسوارها الباقية بالاضافة إلى بقايا الزيقورة في الزاوية الشمالية الغربية. وأول الأشياء التي اكتشفها «لايارد» من خلال الخنادق الأولى التي حفرها هي الأسوار والتماثيل المنحوتة في المقر الرسمي «لآشور ناصربال». عرف هذا المقر فيما بعد باسم «القصر الشمالي الغربي» وهو يطل على النهر مباشرة في الجنوب من الزيقورة. وفي هذا القصر اكتشف «لايارد»، بالاضافة إلى اللوحات الجدارية النافرة، ممرات كانت على أطرافها تماثيل حراسة لثيران وأسود مجنحة تقف خلفها حيوانات خرافية طويلة القامة. اقتصر عمله في البدء على بعض الغرف المنتشرة حول القصر. وفيها عثر على تماثيل البرونز وأوانٍ من الرخام بالاضافة إلى قطع متساقطة من رسوم جدارية لم تكن لديه الوسيلة للمحافظة عليها.

استمرت المرحلة الأولى من عمل لايارد حتى عام ١٨٤٧، وخلالها قام بتحديد المواقع ودراسة عدد من الأبنية الأخرى. ومرة أخرى نلاحظ وجود ما يسمى بالقصر الغربي للملك «حدد ـ نيراري الثالث» بحذاء النهر بالاضافة إلى القصر الجنوبي الغربي الذي بناه الملك «اسرحدون» مستخدماً منحوتات من مبنى قصر الملك «تيغلات فيلاصر الثالث». يرتبط اسم هذا الأخير باسم شلمنصر الثالث على الكثير من النقوش المكتوبة في القصر الملكي المركزي. وضمن هذا البناء عثر لايارد على «النصب الأسود» أو المسلة السوداء الموجودة حالياً في المتحف البريطاني. وهي تشتهر بمشاهدها التي تصور حاملي الضرائب (الجزية) الذين كان من بينهم «يهوه» (Jehu) ملك إسرائيل. وأخيراً وتحت منطقة مرتفعة من الزاوية الجنوبية الشرقية من التل كشف «لايارد» بعض الغرف من بناء ينتمي إلى عصر أحد الملوك الآشوريين المتأخرين وهو «آشور ايتيليلاني» (Ashur - etililani). وقد تمكن «مالوان» بعد قرن من الزمن من العثور على الكثير من اللقى الأثرية الهامة في هذا البناء. وفي عام ١٨٤٧ عندما كان «رولنسون» (G. Rawlinson) في بغداد يكتسب المزيد من المعلومات عن الكتابة المسمارية تمكن «لايارد» من اقناع نفسه بأن الموقع الذي كان يعمل به هو «كلخو» وليس «نينوى».

عاد «لايارد» إلى نمرود عام ١٨٤٩ بعد أن نشر كتابه «نينوى وآثارها»

واصطحب معه الرسام «كوبر» (Cooper) الذي استبدله بالرسام «بيل» (Bell) فيما بعد وذلك ليقوم برسم النقوش النافرة وكان ذلك يكلفه الكثير من الجهد والوقت. وخلال السنتين التاليتين اكتشف الكثير من اللقى في القصر الشمالي الغربي، وكانت تشمل بضع مئات من الأشياء البرونزية وزخارف من العاج والزجاج. وفي أسفل الزيقورة اكتشف «لايارد» معبداً مكرساً للاله «نينورتا» وفيه ألواح حجرية تعرض سجلاً تاريخياً لفترة حكم الملك «آشور ناصربال». كما عثر على تمثال سليم تقريباً لهذا الملك وقد نقل التمثال إلى المتحف البريطاني لأنه نموذج نادر لفن النحت الآشوري. وفي عام ١٨٥٠ بدأ مرحلة ثانية من عمليات التنقيب الأثري في رابية القصر في نينوى. وكان اكتشافه لقصر «سنحاريب» نهاية عمله الميداني في مجال الآثار.

وفي الفترة الممتدة بين عامي ١٨٥٢ ـ ١٨٥٤ تولى عمله في الدولة الآشورية مساعده «هورمز راسام» وهو شقيق الممثل القنصلي البريطاني في الموصل. عرف «راسام» بتعصبه لطريقته في التنقيب الأثري وبعدم احترامه لأبسط مبادىء الأخلاق الدولية[٢٣٩]. ففي نمرود حدد موقع مجمع معبد «نبو» (Nabu) الذي نقبت فيه بعثة «مالوان» بشكل منهجي. وهناك عثر على تماثيل كرس اثنان منها على التوالي لتخليد حياة الملك «حدد ـ نيراري» الثالث وأمه «ساموررامات» أو «سميرأميس» بالاضافة إلى لوح حجري للملك «شمشي ـ حدد» الخامس. ومنذ ذلك الوقت أصبح يغيب عن الموصل طويلاً لانشغاله بعمليات التنقيب الأثري في نينوى. وفي عام ١٨٥٤ عهد «رولنسون» بالعمل في نمرود إلى «و. ك. لوفتوس» (W. K. Loftus) الذي عرف بأسباره في مواقع المدن السومرية القديمة في الجنوب[٢٤٠]. ولقد قام لوفتوس باكتشاف كبير الأهمية في بناء يقع إلى الغرب من معبد «نبو» المعروف الآن باسم «المعبد المحترق». يتمثل هذا الاكتشاف في مجموعة من المنحوتات العاجية الرائعة ومما يجدر ذكره ان المتحف البريطاني قد قام بإجراء دراسة عميقة حول هذه العاجيات باعتبارها أول مظهر من مظاهر تقدم المهارة الفنية الحرفية.

خورساباد

قبل ثلاث سنوات من اكتشاف «لايارد» لمدينة نمرود تم تعيين «بول اميل بوتا» (Paul Emile Botta) قنصلاً لفرنسا في الموصل. وكان بوتا قد بدأ في عام ١٨٤٢ بإجراء

بعض الأسبار في رابية «كويو نجيك» (Küyünjik) في نينوى دون ان يحقق نجاحاً كبيراً، وعندما أبلغه عماله عن وجود تماثيل قديمة في خورساباد وهي هضبة كبيرة على نهر الخوصر (Khosr) على بعد (١٢) ميلاً إلى الشمال الشرقي. وفي آذار من عام ١٨٤٣ نقل «بوتا» نشاطه إلى هذا الموقع حيث انهمك بعملية التنقيب في بناء معروف الآن باسم قصر «سارغون الثاني». كان نجاحه سريعاً وكانت لقاه الأثرية شبيهة بتلك التي أدهشت «لايارد» بعد عامين في نمرود. وفي العام التالي توفرت له فرصة حسنة بانضمام الرسام الشهير «ي. فلاندين» (E. Flandin) إليه. ولقد قام فلاندين بتسجيل رسوم النقوش النافرة والتماثيل التي اكتشفت بإعداد هائلة[٢٤١].

وفي خورساباد اختار سارغون موقعاً، كما في نمرود وكان أصلاً رابية قديمة من نوع يمكن إعادة تشكيله وذلك لبناء قصر له. أخذت المدينة التي أنشأها شكلاً مربعاً يبلغ ضلعه أكثر من ميل وأحاط المدينة بأسوار وأبراج وسبع بوابات ـ (أنظر الشكل ١٤٣) بني رصيف القصر على الجانب الشمالي الغربي من السور وكان الجزء الداخلي منه محاطاً بقلعة داخلية مبنية من مستوى الأرض وبني ضمن القلعة عدد من الأبنية العامة. وكما هي الحال في نمرود فقد كان هناك مخزن للأسلحة في الزاوية الجنوبية من المدينة. ووفقاً للتقاليد الآشورية بني قصر سارغون حول ساحتين رئيستين كانت الساحة الداخلية منهما تستعمل لأغراض احتفالية. وبالنسبة لتنقيبات «بوتا» فقد أوضحت المجلدات الخمسة التي نشرها مع «فلاندين» في عامي ١٨٤٩ ـ ١٨٥٠ ان عمله قد اقتصر على الجناح البارز من القصر في الجهة الشمالية الغربية. واستمر عملهما حتى عام ١٨٤٦ إلا انه بعد الأحداث السياسية التي وقعت في باريس عام ١٨٤٨ ولأسباب غير معروفة نقل «بوتا» من عمله في الموصل إلى دولة أخرى. وفي ذلك الوقت فهم، كما فهم لايارد، أن المدينة التي كان يجري بها أعماله الأثرية لم تكن مدينة نينوى كما ظن في البداية.

وفي عام ١٨٥٢ حل «فيكتور بلاس» (V. Place) محل «بوتا» وكان يرافقه الرسام «فيلكس توماس» (Felix Thomas) كمساعد رئيسي. واننا ندين لتوماس بالسجلات الباقية عن اللقى الأثرية التي عثرت عليها البعثة الفرنسية في السنة التالية[٢٤٢].

لقد تم تحديد المخطط الكامل للقصر وعثر على تماثيل في حالة جيدة أرسلت إلى باريس مع الكثير من اللقى الصغيرة. (أنظر الشكلين ١٤٣ ـ ١٤٤) ووفقاً

لحسابات «بلاس» نفسه في عام ١٨٥٣ فقد قام بتعزيل (٢٠٩) غرف مبنية حول (٣١) ساحة بالاضافة إلى ثلاثة معابد وزيقورة صغيرة. كما استطاع تحديد دائرة أسوار المدينة التي بنيت على أساسات حجرية بسماكة (٢٤) متراً، ودرس سبع بوابات ثلاث منها مزودة بالتماثيل المنحوتة بينما كانت أحداها ذات ممرات بقناطر ونقوش مزخرفة بألوان براقة وكانت في حالة سليمة تقريباً. وعندما اكتمل عمله في ١٨٥٥ وكان يستعد للعودة إلى فرنسا وقعت كارثة أثرية كبيرة وقد أصبحت القصة مشهورة في الوقت الحاضر. نقلت تماثيل خورساباد بأمان حتى بغداد حيث حمل (٢٣٥) صندوقاً من التماثيل مع آثار من مصادر أخرى على قارب وطوافات متجهة إلى البصرة. وقرب «القرنة» حيث يلتقي نهر دجلة بفرع من نهر الفرات هاجم رجال القبائل القافلة وقلبوا محتويات الطوافات في الماء. ولحسن الحظ فقد سبق ان شحن «بوتا» إلى فرنسا في عام ١٨٤٧ شحنته من الآثار وصلت سالمة. ان هذه المجموعة المتواضعة من الآثار بالاضافة إلى تمثالين لأسدين مجنحين موجودة في المتحف البريطاني وهي كل ما بقي من اللقى التي عثر عليها الفرنسيون في خورساباد[٢٤٣].

نينوى

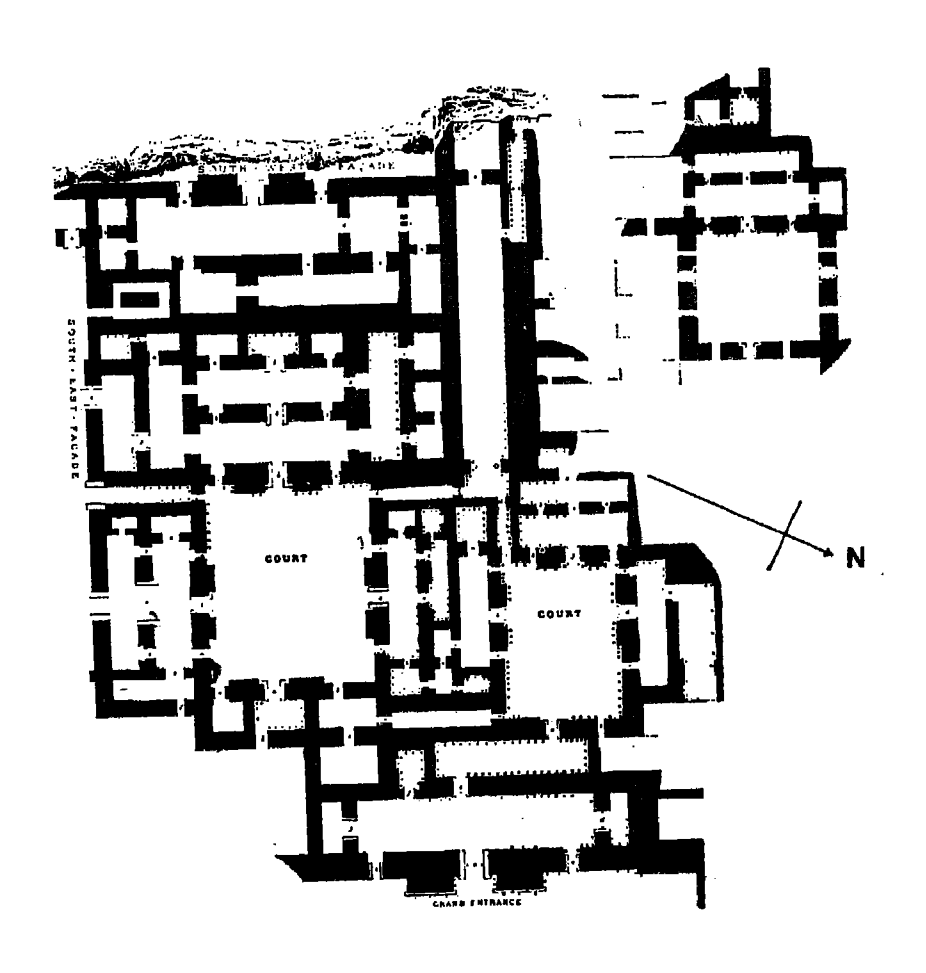
غدت آثار نينوى موضع اهتمام المنقبين الأثريين الفرنسيين والبريطانيين أثناء فترة النشاط في هذا المجال والتي تحدثنا عنها من قبل. وتشكل أسوار المدينة التي تقع اليوم على مسافة من نهر دجلة مستطيلاً غير منتظم الأبعاد يبلغ محيطه (٧,٥) ميلاً تقريباً مع سور خارجي وخندق على الجهة الشرقية من المدينة[٢٤٤]. ان الرابية المعروفة اليوم بالاسم التركي «كويونجيك» (Küyünjik) تمثل الحدود للسور الغربي تجاه النهر. وعلى بعد ميل واحد إلى الجنوب تغطي رابية أصغر حجماً آثار مستودع آشوري للأسلحة وعند قمة الرابية تتجمع اليوم منازل قرية عربية حول ضريح إسلامي مقدس يرتبط باسم «النبي يونس» أما مداخل هذه المدينة التي تم التعرف عليها فهي «بوابة نيرجال» (Nergal) مع تماثيل الحراسة على جانبيها وبوابة «شمشي»[٢٤٥] (Shamash) إلى الشرق. ولقد تم التعرف على هذه البوابات وغيرها بالاضافة إلى التحصينات الملاصقة لها كما تمت إعادة بنائها.

استطاع «لايارد» خلال حملته الأولى في نمرود ان يجد الوقت الكافي لمتابعة



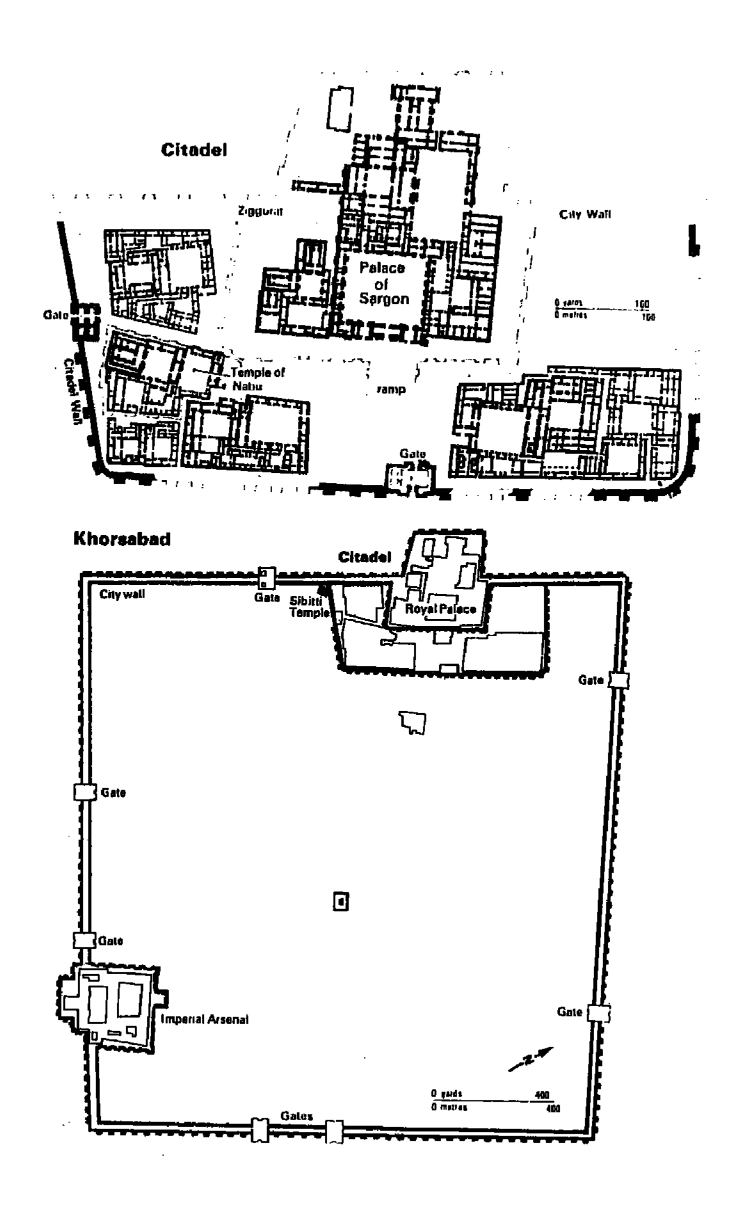
الشكل رقم ١٤١ : مخطط لمدينة وتحصينات نينوى في العصور الآشورية الأخيرة ولقد أجريت تنقيبات أثرية في تل كويونجيك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما تل النبي يونس فهي مازالت مأهولة بالسكان لأنها موقع مركز ديني إسلامي. وكان مجرى نهر دجلة القديم يلتف حول أسوار المدينة في الجنوب الغربي. (عن هوكس، ١٩٧٤).

أسبار «بوتا» في رابية «كويونجيك» في نينوى. لكن آماله في هذه المنطقة لم تتحقق حتى شهر حزيران من عام ١٨٤٧ . لقد عثر في الزاوية الجنوبية من القلعة على جدران بناء هائل ثبت انه قصر الملك «سنحاريب» واضطر إلى تأجيل متابعة اكتشافاته لأنه عاد بصورة مؤقتة إلى لندن. وعندما استأنف عمله في عام ١٨٤٩ أصيب بخيبة أمل لعثوره على أدلة تبين أن القصر قد أحرق أثناء سلب نينوى في عام ٦١٢ قبل الميلاد.



الشكل رقم ١٤٢ : مخطط لقصر سنحاريب في نينوى (عن باترسون، ١٩١٢).

ومع ذلك فقد تبين ان الأضرار التي لحقت بالقصر كانت أقل مما توقع وأن معظم المنحوتات بقيت سليمة. لقد درس «لايارد» في الغرف الاحدى والسبعين أكثر من ألفي لوح حجري منحوت، كما وجد في غرفتين صغيرتين (رقم ٤٠ ـ رقم ٤١) كميات كبيرة من الألواح المكتوبة التي تتضمن قسماً من مكتبة الملك «سنحاريب» التي كانت مخزناً ضخماً للمعلومات ولأحداث ذلك العصر المذكورة بالتفصيل[٢٤٦]. عند ذلك حاول «لايارد» ان يجري عملية تنقيب في القسم غير المسكون من تل «النبي يونس» ولم تتكلل هذه المحاولة بنجاح يذكر. لقد عثر على نقوش مكتوبة عن «حدد



الشكل رقم ١٤٣ : مخطط أرضي لمدينة دور شاروكين عاصمة الملك سارغون الثاني في خرساباد مع تحصينات منطقة تزيد مساحتها عن ميل مربع. يشمل المخطط التفصيلي في الأعلى القصر الملكي المبني على رصيف بمستوى أسوار المدينة. قام بالتنقيب عنه بوتا وبلاس ثم أعاد دراسته غوردون لود. وتحت مستوى الأرض توجد قلعة محصنة قام لاود بالتنقيب عنها أيضاً وهي تضم عدداً من القصور الصغيرة والأبنية العامة. (عن هوكس، ١٩٧٤).

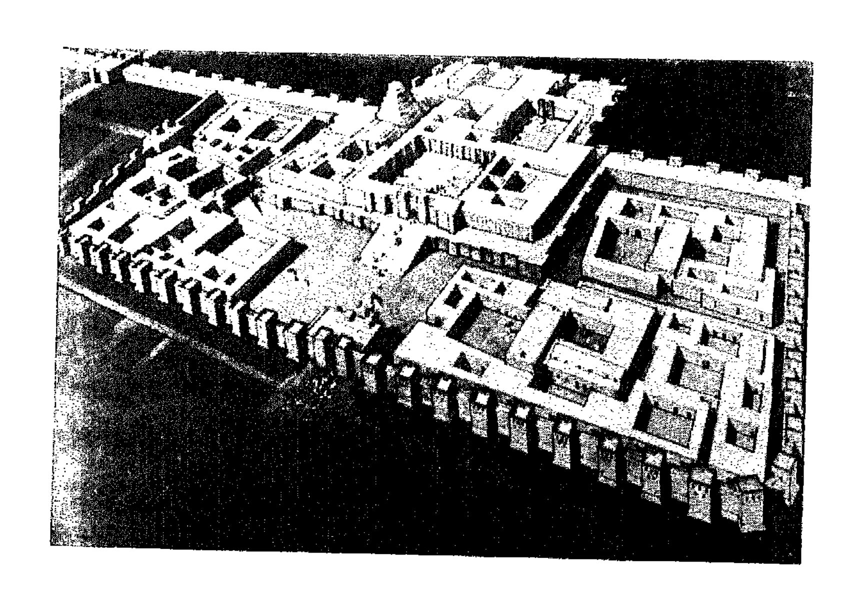
نيراري» و«سنحاريب» و«اسرحدون» لكن عداء السكان القاطنين في المنطقة أجبره على عدم متابعة عمله. وفي عام ١٨٥١ عاد إلى وطنه بصورة نهائية بعد أن تحمل «هورمزد راسام» مسؤولية متابعة عمليات التنقيب الأثري.

كان «لايارد» قد توصل إلى تفاهم مع «فيكتور بلاس» يقضي بأن يقتصر نشاط البريطانيين الأثري على النصف الجنوبي من تل «كويونجيك» وبذلك أكد «بلاس» حقه باستكشاف النصف الشمالي. أما «راسام» الذي عاد إلى الموصل في عام ١٨٥٢ فقد تحدى هذا الاتفاق ولجأ إلى وسيلة العمل تحت جنح الظلام. اكتشف «راسام» القصر الشمالي الغربي للملك آشور بانيبال وادعى بأحقية المتحف البريطاني به. وبالاضافة إلى سلسلة تماثيل ومنحوتات «صيد الأسود» ثبت ان البناء يحتوي على النصف الباقي من المكتبة الملكية. لقد مثلت هذه الاكتشافات ذروة العمل الأثري البريطاني في نينوى. هذه الأعمال اكتملت في عام ١٨٧٤ بأعمال جورج سميث «George Smith» الذي أدت أبحاثه في غنائم «راسام» إلى استعادة الأجزاء المفقودة من نص قصة «الطوفان».

وينبغي ان نضيف هنا ان البقعة المضيئة في اكتشافات «راسام» تتمثل باكتشافه لمدينة «ايمغور ـ انليل» (Imgur - Enlil) في بلاوات، في عام ١٨٧٨ وهي العاصمة الريفية للملوك الآشوريين، وتقع على بعد (٢٥) ميلاً إلى الشرق من مدينة الموصل. ولقد عثر في هضبة صغيرة في هذا الموقع على زوجين من البوابات البرونزية كان قد بناهما على التوالي «آشور ناصربال» و«شلمنصر الثالث» على مدخل أحد القصور وأحد المعابد[٢٤٧]. وسوف ندرس بكثير من التفصيل هذه البوابات بالاضافة إلى زوج ثالث منها عثر عليه «مالوان».

التنقيبات الأثرية الامريكية في خورساباد

يتضح لنا مما سبق وقدمناه عن التنقيبات الأثرية في المدن الآشورية الحديثة ان الأبنية الدنيوية قد أخذت من الاهتمام قدراً أكبر مما أخذته الأبنية الدينية. لقد تركز اهتمام الملوك في هذا العصر على إنشاء التحصينات وإشادة القصور الفخمة مما جعل المعابد والهياكل الدينية أبنية ملحقة بهذه القصور في معظم الحالات. ومع تعاقب الحكام والملوك كانت القصور تزداد عدداً وتتوسع دون أي اعتبار لمخططاتها وأرصفتها



الشكل رقم ١٤٤ : رسم تشكيلي يمثل القصر الملكي وأبنية القلعة في دور شاروكين ونلاحظ في اليسار معبد نبو وهو يرتبط بواسطة جسر مع رصيف القصر.

التي كان يتم إقامتها عليها وبالتالي فان الدمار الكلي لهذه القصور زاد من عدم إمكانية التعرف عليها بشكل دقيق ومحدد. تلك كانت الحالة في نمرود ولدرجة كبيرة في نينوى حيث بقيت التفاصيل المعمارية غير كاملة حتى الوقت الحاضر. وإذا انتقلنا إلى خورساباد فاننا سنجدها مدينة سكنية سكنت وهجرت خلال جيل واحد فقط. لذلك فان آثارها التي لم تكن معقدة بسبب الطبقات الأرضية قد تم التنقيب عنها وتسجيلها بشكل كلي وبدقة خلال فترة طويلة من الزمن. ومن أجل تحقيق غايتنا من البحث يمكن اعتبار هذه المدينة نموذجاً يوضح مبادىء تخطيط وتنفيذ الأبنية التي اتبعها البناؤون في ذلك العصر.

لقد فعل المنقبون الامريكيون، الذين عادوا إلى خورساباد، الكثير من أجل توسيع دائرة اللقى الأثرية لأسلافهم الفرنسيين. وبعد قيامهم بتنظيف بوابة المدينة غير المزخرفة التي أعطاها «بوتا» الرقم (٧) بدأوا في إعادة عملية التنقيب لبعض أجزاء القصر ونقلوا بعض التماثيل والمنحوتات التي أهملها «بوتا» بسبب عدم إمكانية نقلها[٢٤٨]. وفي عام ١٩٣٠ اكتشفت بوابة أخرى مزخرفة بالثيران المجنحة

والشياطين. وقد أدى هذا إلى اكتشاف قلعة داخلية تحيط بالقصر. وتحت إدارة «غوردون لود» (Gordon Loud) أمضت البعثة الأمريكية السنوات التالية في إظهار أبنية كثيرة ضمن سور القلعة، وفي دراسة مستودع الأسلحة في الزاوية الجنوبية من المدينة(٢٤٩).

وخلال فترة عمل «لود» في القلعة تم اجراء عملية مسح جديدة تضمنت تدقيق وتصحيح مخطط القصر الذي اكتشفه «بلاس»(٢٥٠). وبذلك تأكد عدم كفاءة أساليب البناء الآشورية في المداخل البدائية. حتى الرصيف كان مخططاً بشكل غير منتظم كما كانت الأبنية ضمن القلعة مبنية بشكل اعتباطي لدرجة كبيرة. عند مدخل البوابة (A) بني معبد ضخم مكرس للاله «نبو» في زاوية غير مناسبة بجانب الشارع المرصوف. وقد رفع هذا البناء على منصة بمستوى القصر يمكن الوصول إليها عبر جسر مبني فوق الشارع. وخلف المعبد وجدت مساحة مكشوفة يؤدي منها درج عريض إلى مدخل القصر وتواجه الساحة أيضاً بوابة لقلعة ثانوية. وفي أماكن أخرى ضمن هذه الأسوار الداخلية اكتشف «لود» خمسة قصور صغيرة تم تكييف مخططاتها بصعوبة بالغة بما يتناسب مع المواقع المتوفرة لها. إن غياب المخططات الأولية سيبدو سمة خاصة من سمات الأبنية الضخمة في كل العصور التاريخية لبلاد الرافدين.

وفي القصر الرئيسي بنيت الغرف الحكومية والأجنحة الاحتفالية حول ساحة داخلية تبرز في أحد أطرافها مجموعة تماثيل منحوتة لثيران مجنحة وتماثيل أخرى تحيط بالمداخل الثلاثة لغرفة العرش. وغرفة العرش هذه هائلة الحجم تصل جدرانها إلى ارتفاع (١٢) متراً، وهي مزينة بالرسوم الجدارية حتى السقف، وعند المكان المخصص للعرش نشاهد المنحوتات البارزة. وفي الجهة الأخرى يمتد رواق يؤدي إلى سلم يمكن الصعود منه إلى سطح منبسط، وبجانب العرش هناك ممر يؤدي إلى غرفة طويلة ويتم الدخول منه إلى باحة خاصة تتجمع حولها غرف الأجنحة الخاصة بإقامة الملك. ويبدو ان هذا التصميم لقاعة العرش وجناح إقامة الملك من السمات المعمارية التقليدية التي اتبعت في بناء كل القصور الآشورية. وقد أضيف لهذه السمة في خورساباد بناء أجنحة الاستقبال. أما السمة المعمارية التقليدية الثانية فهي بناء مجموعة منفصلة من الغرف الإدارية في الجانب الشمالي الغربي من قصر الملك «سارغون». وقد اكتشف «لود» مجموعة مماثلة من الغرف في القسم السكني من

مستودع السلاح الجنوبي في القصر نفسه[٢٥١].

أمـا بالنسبة للأبنية الدينية فان معبد «نبو» الذي يتميز بساحتيه الخارجيتين وهيكله المصمم بالطريقة التقليدية هو أكثر هذه الأبنية أهمية. ولقد أعاد «لود» عملية التنقيب في مجموعة مؤلفة من ثلاثة معابد صغيرة ترتبط بالقصر من جهته الجنوبية الغربية، وفي أحد هذه المعابد وهو معبد «سن» تم اكتشاف واجهة بحالة سليمة. وعن أنـواع الـزخارف والتزيينات في المعبد فهي تتألف من ألواح بارزة من جانبي الممرات وتقابلها زخارف مكونة من القرميد اللامع ذي الألوان البراقة. وفي الممرات أيضـاً نشاهد أشجار نخيل صناعية وتماثيل أنثوية. تذكر هذه الزخارف باللوحات الجـدارية التي سبق وتحـدثنـا عنهـا في مملكة ماري. ومن أجل المزيد من الاطلاع والدراسة فقد تم تجريد الزيقورة الصغيرة الملاصقة لهذه المعابد. وبالاعتماد على رسم «بلاس» فقد كان لهذه الزيقورة درج يقسمها إلى قسمين متتاليين تم تلوين كل قسم منها بلون مختلف[٢٥٢].

أما القصر الذي اكتشف في خورساباد والذي اعتبره «لود» مقراً لاقامة الملك «سنحـاريب» عندما كان ولياً للعهد فهناك نقطة وحيدة عظيمة الأهمية. ان قواعد القصر المبنية من أعمدة حجرية والتي وجدها «بلاس» بين آثار القصر تذكر بنقش كتابي منحوت يدعي فيه سارغون بأنه قد بنى قصراً من الطراز السوري يدعى «بيت هيلاني» (Bit - Hilani). ولقـد أوضح لود ان مواقع الأعمدة لا تتوافق مع هذه المقولة لذلك فيجب البحث عن قصر سارغــون في مكـان آخـر[٢٥٣]. ولا بد ان نضيف بعض المعلومات عن هذا القصر لاننا سنتأكد قريباً ان بناءً من نفس النوع قد قام «مالوان» بالتنقيب عنه بشكل كامل في «نمرود».

إنشاء الأبنية

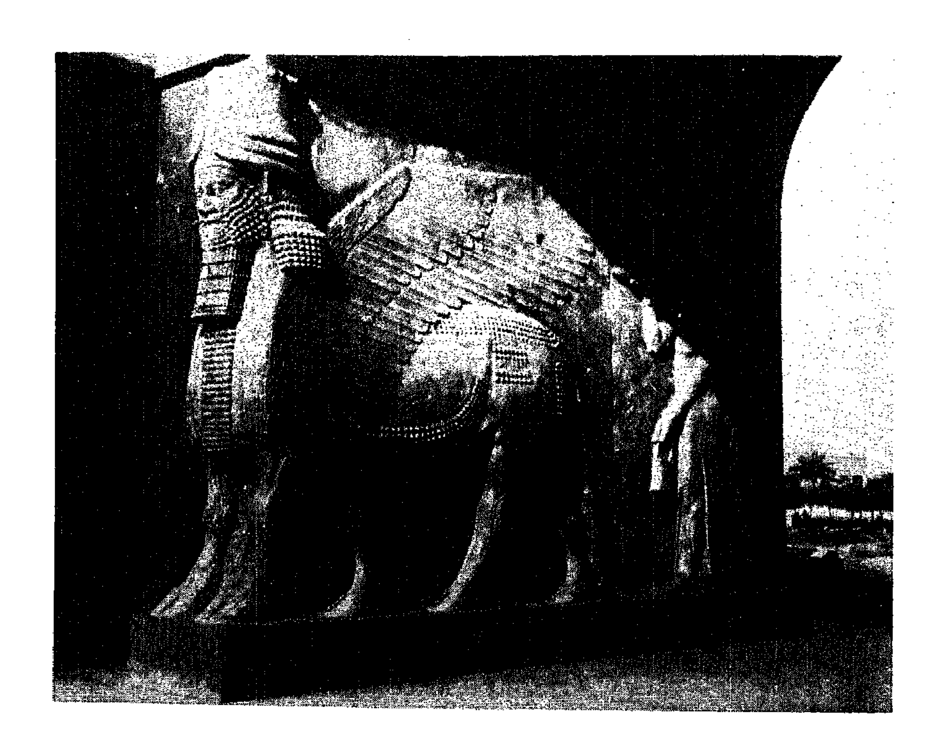
بنيت في خورساباد أسوار من أنواع مختلفة من القرميد الطيني. وخلافاً للعادة والعرف فنادراً ما استعمل (الملاط) لتثبيت القرميد لأن أحجار القرميد كانت تجفف قليلاً بعـد صبهـا وتبنى وهي طرية ومـرنـة. أما قطع القرميد المشوي بالفرن فقد استعملت بكميات كبيرة لاكساء الواجهات والأرصفة. كانت أسوار المدينة التي تبلغ سماكتهـا (٢٠) متراً مكسـوة بالحجارة حتى ارتفاع يزيد عن المتر. وخلف الواجهة

الحجرية وضعت أشكال مختلفة من الحجارة لتكوين قاعدة متينة للقرميد في القسم الأعلى من السور الذي ينتهي بشرفات ذات فتحات لاطلاق النار. وهنا كما هي الحال في كل مكـان من الدولة الآشورية استعملت حجارة تعرف باسم «رخام الموصل» الذي حصلوا عليه وبأحجام مختلفة من المقالع المحلية. وكان لرصيف القصر واجهة حجرية يبلغ طول القطعة الواحدة منها (٢,٧) متراً ووزنها (٢٣) طناً. كما استعملت الحجارة لنحت التماثيل عند مدخل القصر وللنقوش النافرة التي كانت توضع بكاملها في داخل البناء لتزيين قواعده بزخارفها ورسومها. واكتشف الأمريكيون ان صفوفاً من هذه الألواح أو النقوش النافرة كانت قد وضعت ونقشت في مكانها الذي وجدت فيه قبل إتمام بناء القسم العلوي من الجدار[٢٥٤]. وفي الحالات التي وجدت فيها الألواح على جهتي الجدار كان الفراغ يملأ بكسارة الحجارة الناتجة عن عملية البناء. وكانت الحجارة تستعمل أيضاً في إنشاء عتبات الممرات الهامة حيث كانت رقائق كبيرة منها تنقش بتصاميم تشبه رسوم السجاد[٢٥٥].

وأما عن بناء السقوف فقد تم العثور على أدلة توحي بأنها كانت تبنى على شكل قناطر، كما استعملت قطع القرميد المحدبة من أجل تأمين عملية تصريف المياه في رصيف القصر. أما بالنسبة للقصر فقد اكتشف «لود» ان السقوف المستوية كانت هي القاعدة وانهم قد استعملوا أعمدة مدهونة لتدعيمها ولقد كان الخشب متوفراً نسبياً. ومن النماذج التي اكتشفت أخشاب الأرز والسرو والعرعر (فصيلة من الصنوبر). كما لاحظ من الأعمدة الساقطة ان هذه الأخشاب قد توفرت بأطوال كافية لتدعيم الغرف الواسعة.

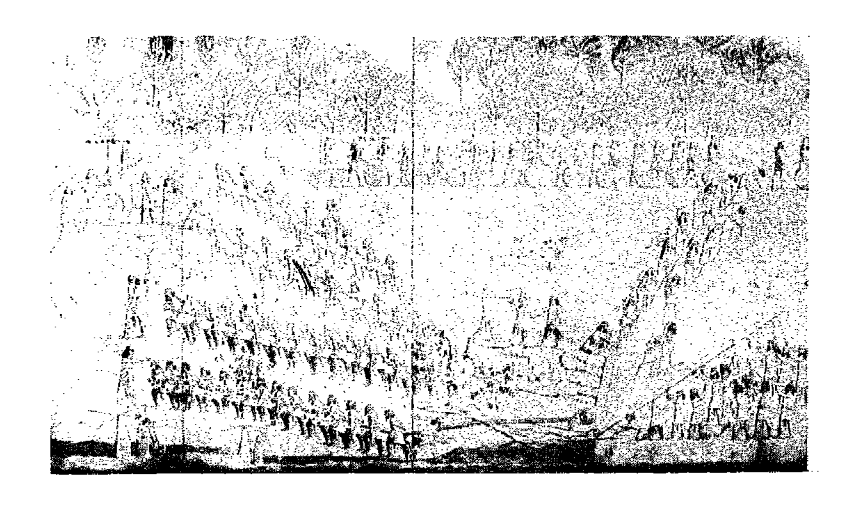
فن النحت في العصر الآشوري الأخير

ان التماثيل المصنوعة بشكل كامل نادرة جداً في هذا العصر لأسباب غير معروفة فالأعمال الفنية التي وجدت من هذا العصر قليلة والجزء الذي بقي سالماً منها أكبر بقليل من نصف الحجم الطبيعي للأشياء التي تصورها التماثيل. يعتبر تمثال «آشور ناصربال الثاني» الذي وجد في «نمرود» نموذجاً لفن النحت في ذلك العصر. كما وان تمثال هذا الملك العاري الرأس والملفوف بثوب بسيط يصور الوقار والجلال بكل وضوح[٢٥٦].



الشكل رقم ١٤٥: واحد من اثنين من الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية مع كائن اسطوري مرافق له عند البوابة الجنوبية الغربية للقلعة في خورساباد. نراه اليوم في المتحف العراقي في بغداد.

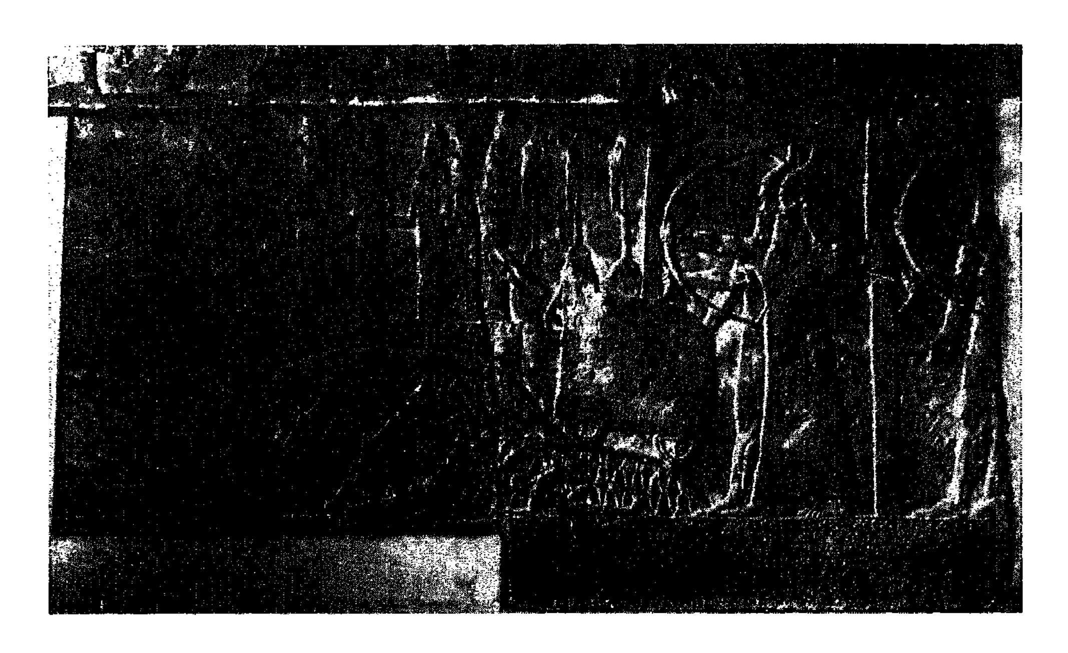
وعلى النقيض من ذلك فان أبرز أنواع التماثيل في هذه المرحلة هي تماثيل الحراسة التي زينت مداخل القصور في المدن الآشورية. هذه التماثيل الهجينة التي تمثل أسوداً أو ثيراناً ذات أجنحة وذات رؤوس بشرية كانت ذات مظاهر مزدوجة فقد كانت تصنع ضمن إطارات الممرات وكان لها قدم خامسة يقصد منها تفسير منظرها من الجهتين الأمامية والجانبية «Lamassu» كانت هذه الوحوش المصنوعة من الحجارة تنحت بشكل نافر من جهة وبشكل كامل منن الجهة الأخرى من لوح واحد من الحجارة تصل مساحته إلى (٥,٥) متراً مربعاً. وكانت الحجارة تنقل بعد تشكيلها بصورة مبسطة إلى المكان المطلوب بواسطة النهر ثم توضع في مكانها المخصص لاتمام عملية النحت[٢٥٧]. لقد كانت أبرز الانجازات في فن النحت في العصر الآشوري واضحة في مجال النقوش النافرة. ويعتبر ما ابتدعه النحاتون من تصاميم تصويرية لتزيين الواجهات الداخلية للأسوار انجازاً تقنياً عظيماً بحد ذاته كما وان قدرتهم على



الشكل رقم ١٤٦ : رسم نافر من قصر سنحاريب في نينوى يصور عملية نقل تمثال لثور مجنح من ميناء. كان التمثال ينحت بشكل غير كامل وينقل إلى مكانه المقرر لاتمام عملية النحت.

التعبير المجرد قد رفعت من مستوى انتاجهم الفني إلى مجال الفن الابداعي.

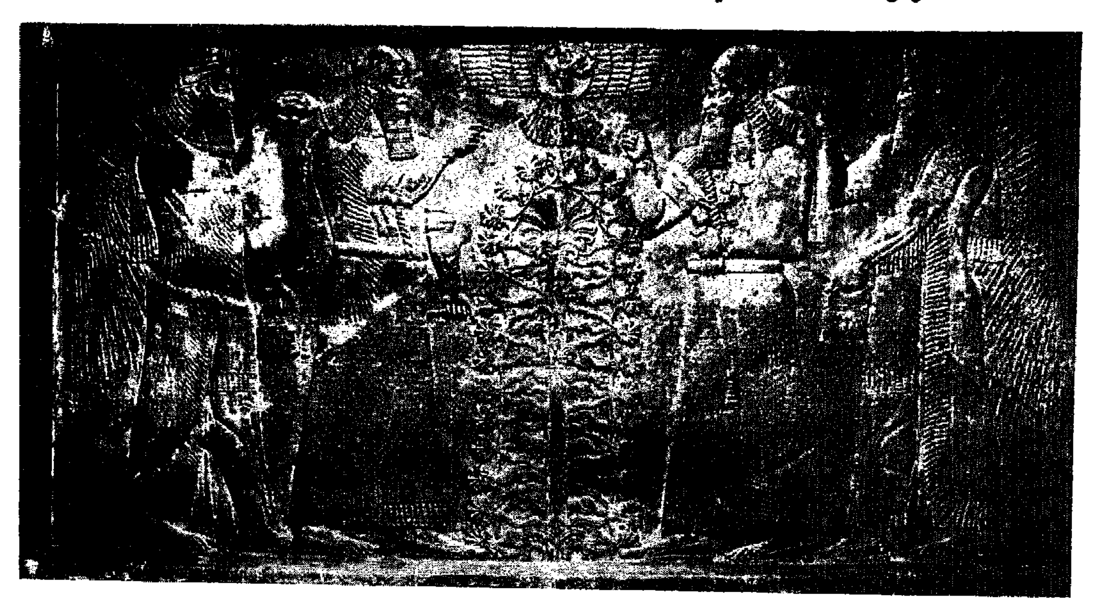
وفيما يتعلق بموضوع نقوشهم النافرة، فمنذ عصر «آشور ناصربال» كانت تعنى بتصوير حملات الملوك العسكرية وانتصاراتهم على جيوش المدن المنشقة عن المملكة ولقد تكرر هذا الموضوع حتى أصبح رتيباً ومملاً. وكما يقول «فرانكفورت»: «اننا نشاهد مسيرة الجنود وهم يسيطرون.. يحرقون.. ويعاقبون في قطر بعد آخر». عربة الحرب أيضاً كانت موضوعاً متكرراً إذ نشاهدها تتقدم في وجه عدو متراجع مندحر كما نشاهد المشاة وهم يقتلون الجرحى في ميدان المعركة. بعد ذلك تتركز المقاومة في المدينة التي يتم احتلالها في نهاية المطاف ثم يقتل قادتها بطرق مختلفة. يمكن الحصول على الكثير من المشاهد المتنوعة إذا تصورنا الخلفية الجغرافية التي وقعت فيها هذه الأحداث والخصائص القومية لاعداء الدولة الآشورية. كما وتظهر تفاصيل واضحة ودقيقة عن هذه الأحداث بكثير من الواقعية إذا تذكرنا محدودية الوسائل التي عمل بها هؤلاء الفنانون وجهلهم لمبادىء المنظور. وضمن هذه الظروف فان قدرتهم على رسم المناظر لا يوازيها أي عمل فني قبل أعمال الفنانين الاغريق.



الشكل رقم ١٤٧ : نحت نافر من القصر المركزي لتيغلات فيلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧) قبل الميلاد في نمرود. يصور النحت هجوماً على مدينة محصنة، تظهر السلالم والمدكات ورماة السهام. في الأسفل نلاحظ عملية قتل الاعداء وفي الأعلى الأسرى مثبتون على الخوازيق.

وعموماً فان حملات الملك العسكرية كانت تحدث في فصول محددة من السنة، وفي الفترات الواقعة بين هذه الحملات كان الملك يبحث عن التسلية في قيامه بالصيد الذي وفر موضوعاً محبباً للفنانين في مجال النقوش النافرة. وتظهر هذه المواضيع بأفضل صورها في أعمال النقوش النافرة للمرحلة التاريخية الأخيرة، وهناك سلسلة من مشاهد الصيد تعود إلى عصر «آشور ناصربال»[٢٥٨]. لا تمثل هذه المشاهد عملية صيد في البراري إنما ضمن منطقة محصورة بدروع الجنود تطلق ضمنها الأسود التي يصطادها الملك من عربته الملكية الفاخرة. وبعد الصيد يسكب الملك السائل المقدس فوق جثث طرائده ويرافقه أفراد البلاط والموسيقيون. كان ارتفاع الألواح الحجرية المصنوعة في ذلك العصر مترين عادة وكانت الرسوم تنقش عليها في خطين أفقيين. أما المشهد الذروة في هذه السلسلة من الرسوم فنراه حيث يأخذ الملك وجبة طعام خفيفة بعد الصيد، وهو يشغل كامل اللوح الحجري. انه نوع من الخاتمة نتذكر فيها الحراسة المقدسة التي يتمتع فيها الملك والمتمثلة بأشكال من الشياطين أو الكائنات الخرافية على جانبيه. كما نشاهد أشكالاً مماثلة تجاه شجرة الحياة التي تظهر في اللوح الحجري

الموجود خلف العرش في غرفة العرش في القصر الشمالي الغربي في «نمرود»[٢٥٩]. لهذه الرسوم والنقوش مواصفات سجادة الحائط الرائعة ونلاحظ ان التصاميم بذاتها تتكرر في المشاهد المطرزة على عباءة الملك آشور ناصربال[٢٦٠]. والغريب حقاً في هذا المجال ان الرموز الدينية نادرة في هذه التماثيل وأعمال النحت.



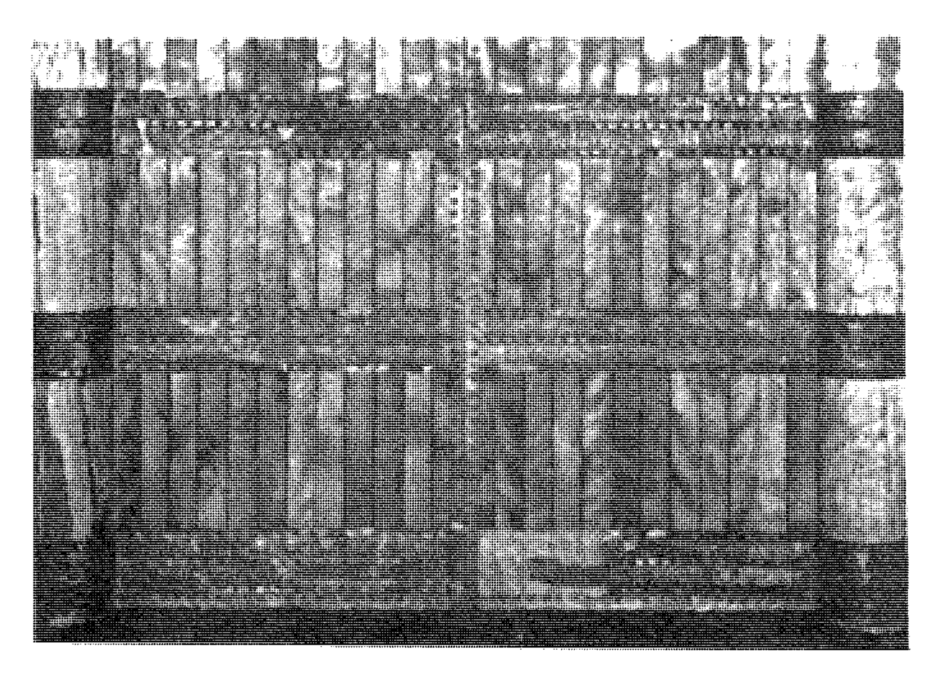
الشكل رقم ١٤٨: نحت نافر من القصر الشمالي الغربي لآشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) قبل الميلاد في نمرود. الملك يتعبد أمام الشجرة المقدسة تحيط به الآلهة ويحمل كل منها مخروطاً وسطلاً معدنياً. كما نشاهد في الأعلى الاله آشور ضمن قرص الشمس المجنح.

وخلال حكم «شلمنصر الثالث» (Shalmaneser III) ظهرت أشكال متنوعة من الزخارف النافرة للمرة الأولى في بوابات «بلاوات» البرونزية الضخمة. انها أبواب خشبية مزدوجة تبلغ أبعاد كل مصراع من الباب (١,٨ × ٦,١) متراً ويدور المصراع حول محور دائري مصنوع من الخشب أيضاً. ولقد زينت هذه الأبواب بحزم أفقية من صفائح البرونز عرض الواحدة منها (٢٨) سم ولا تتجاوز سماكتها (٢) مم. وتمتد هذه الحزم من أحد جوانب الباب إلى الجانب الآخر وتستمر حول المحور. ولقد رسمت مشاهد بالنقوش النافرة على البرونز تشبه المشاهد المنقوشة على الحجارة في أماكن أخرى، ولا يزيد عرضها عن (١٣) سم. تمثل المشاهد المنقوشة على البرونز

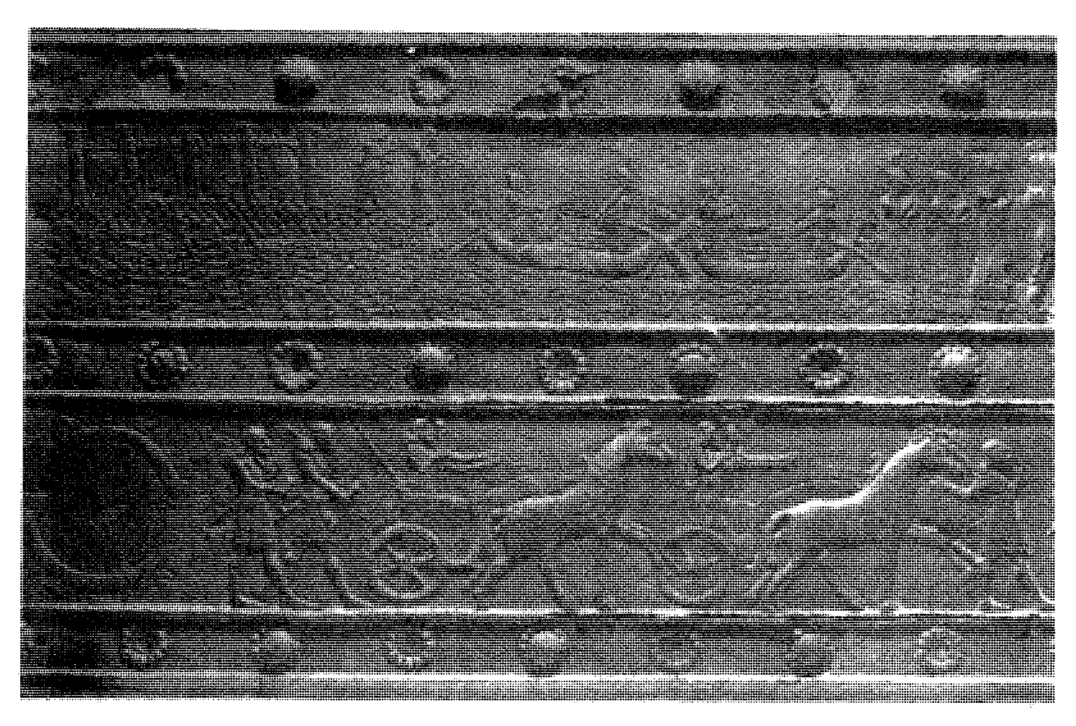


الشكل رقم ١٤٩ : منحوتات نافرة من القصر الشمالي للملك آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٧) قبل الميلاد في نينوى. في الأعلى نشاهد الملك أثناء صيد الأسود.. وفي الأسفل نشاهد احتفالاً يسكب فيه الملك السائل المقدس على ضحاياه.

شخصيات قصصية روائية وهي مفعمة بالحيوية والحركة(٢٦١). من هذه المشاهد ما يصور الانتصارات كالانتصار على الكلدانيين الذي تحقق في مزارع النخيل في بلاد الرافدين السفلى، أما على شاطىء البحر المتوسط فنشاهد احتلال حصون مدينة صور وعملية نقل الضرائب من حاكم المدينة إلى المعسكر الآشوري بواسطة البحر. وفي «ارارتو» الجنوبية أعاقت التلال والغابات تقدم الجيش أما في الشمال فقد تم تصوير مشاهد غريبة. لقد اكتشف الملك مكاناً في كهف جبلي اعتبره منبع نهر دجلة. وقدم



الشكل رقم ١٥٠: القسم السفلي من بوابة بلاوات كما أعيد تشكيلها في المتحف البريطاني.



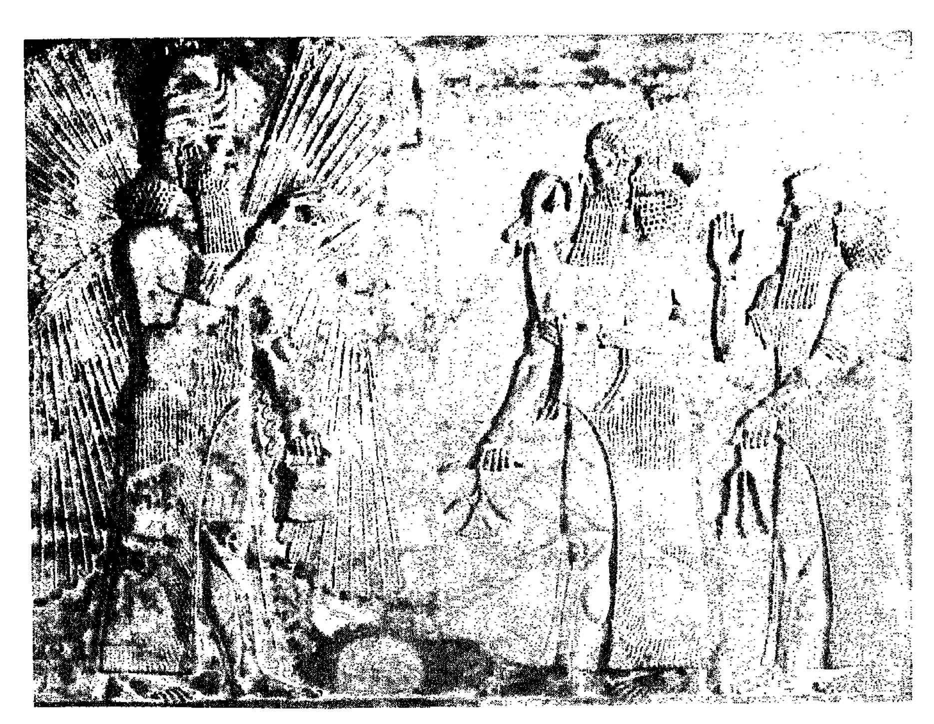
الشكل رقم ١٥١: تفاصيل من بوابة بلاوات - الرسم يمثل حملة شلمنصر الثالث على الشاطىء الشرقي عام ٨٥٨ قبل الميلاد. مدينة صور على الجزيرة الصخرية ترسل الجزية بالقوارب لاسترضاء الملك. وفي الأسفل نراه في عربته يتنقل إلى فتوحات أخرى بينما بقي معكسره فارغاً من الجند. الارتفاع ٢٧ سم.



الشكل رقم ١٥٢ : لوحة جدارية من قصر الحاكم في تل برسيب في الفرات الأوسط. (فترة حكم تيغلات فيلاصر الثالث ٧٤٤ - ٧٢٧) قبل الميلاد. لونت اللوحات الجدارية بالأسود والأحمر والأزرق على خلفية من الجص الأبيض.

الاضحيات في وقت كان فيه الجنود يقفون في الماء الذي يغمر أجسامهم حتى صدرورهم. قام أحد النحاتين بنقش رسم نافر على الصخر لتخليد هذه المناسبة(٢٦٢). أما الزوج الثالث من بوابات «بلاوات» الذي تم الحصول عليه وأعيد إلى متحف العراق فانه يضيف حلقات جديدة إلى تاريخ الفن التصويري في بلاد الرافدين(٢٦٣).

وبعد النهضة الآشورية التي شهدتها أواسط القرن الثامن قبل الميلاد بنى الملك «تيغلات فيلاصر الثالث» قصراً ريفياً خاصاً به في تل بارسيب أو تل أحمر على نهر الفرات في سورية. وفي هذا القصر استبدلت التماثيل النافرة برسوم جدارية على الصخر(٢٦٤). وقد رسمت التصاميم باللون الأحمر والأزرق والأسود على خلفية من



الشكل رقم ١٥٣ : نحت نافر لاله مجنح وحاملي الاعطيات من قصر سارغون الثاني في خورساباد. يزيد ارتفاع اللوح عن ثلاثة أمتار.

الجص الأبيض وكانت موضوعات هذه الرسوم لا تختلف عن موضوعات النقوش الحجرية النافرة. تناوبت هنا مشاهد حملات الملك العسكرية مع مشاهد الصيد لكن الرسوم التي تصور (الجان) أو الشياطين كانت بين التماثيل الخاصة بالأبواب. تمت عملية إعادة تشكيل هذه المشاهد في متحف اللوفر إلا أنها لم تظهر بالألوان إلا منذ فترة قصيرة نسبياً(٢٦٥).

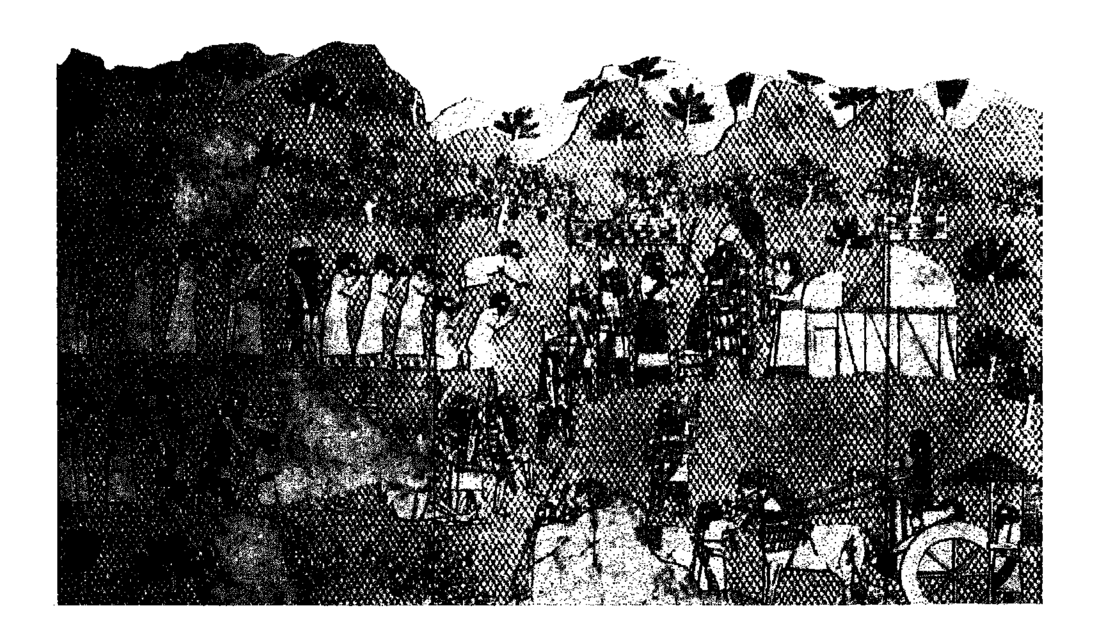
تبرز النقوش الحجرية النافرة في قصور خلفاء «تيغلات فيلاصر» في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد تغيراً واضحاً في الخصائص الفنية. ففي الأبنية الحكومية في خورساباد استبدلت المشاهد الروائية بمشاهد ساكنة تمثل احتفالات القصر. أما التماثيل الضخمة للملوك وأفراد الحاشية التي يصل ارتفاع بعضها إلى (٢,٧٥) متراً فهي تقف بصورة متقابلة أو يتبع أحدها الآخر بتسلسل هرمي ونلاحظ استخدام الألوان بشكل بسيط على الشعر واللحية والأجزاء المكشوفة من الجسم. ان الامكانيات التي وفرتها هذه الألواح الضخمة قد استغلها فيما بعد الفنانون في عصر

الملك «سنحاريب» في ابداع فن تصويري من نوع مختلف. فقد تمكنوا من تطوير الأحداث التاريخية وأضافوا أحداثاً مساعدة إلى الفكرة الرئيسة. ومن أجل تحقيق ذلك تخلى هؤلاء عن تقسيم الصورة بشكل أفقي وامتد تصميم واحد ليغطي كامل مساحة اللوحـات الحجرية كما ابتكروا صيغاً جديدة لتحقيق مسافة نسبية واعطاء الأولوية للحدث الدرامي. كذلك أضاف الفنانون في عصر سنحاريب تفاصيل للمشاهد لتحقيق الأثر البانورامي للأعمال الفنية.

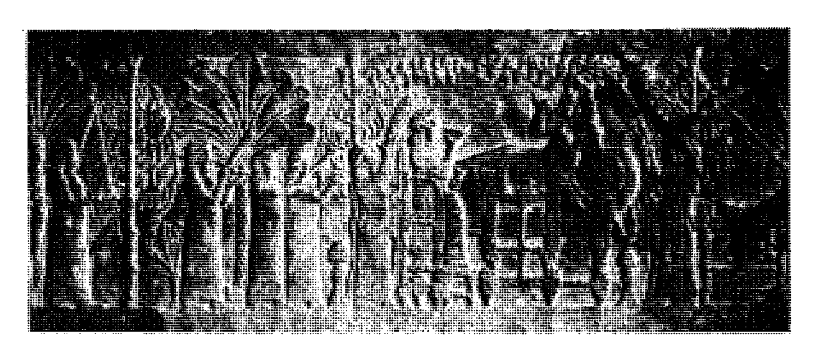
من المستحيل هنا ان نعدد المواضيع الكثيرة والمتنوعة التي اختارها الفنانون في ذلـك العصر[٢٦٦] إلا أن كل المـواضيع تقـريبـاً تدور حول العنف والآثار التدميرية للحروب الانتقامية. ولقد اكتسبت بعض هذه الأعمال أهمية كبيرة نتيجة الكتابة التي تحدد الأحداث التاريخية وحتى الشخصيات الهامة في هذه الأحداث. بعد الاستيلاء على مدينة «لاكيش» (Lakish) في فلسطين نشاهد «سنحاريب» وهو يستقبل ضباط جيشه ومعهم الأسرى يطلبون الرحمة. كما نراه في إحدى حملاته في مستنقعات جنوب بلاد الرافلدين يراقب جنوده من إحدى الجزر وهم يطاردون فلول الأعداء بقواربهم بين نباتات القصب ومياه الأهوار المليئة بالأسماك. أما الملك «آشور بانيبال» فنشاهده وهو يقيم مهرجاناً موسيقياً احتفالاً بالاستيلاء على مدينة «سوسه» حيث نراه وهو ينظر من مكان مرتفع إلى المدينة وإلى الآثار التدميرية التي خلفتها المعارك الضارية، كما نشاهده في مكان آخر مع زوجته مسترخياً على وسادة تحت أشجار العنب[٢٦٧].

في المرحلة الأخيرة من فن النحت الآشوري النافر أعطيت رسوم الحيوانات الكثير من الاهتمام والعناية. وقد وصل هذا الفن إلى قمة الابداع في عصر الملك آشور بانيبـال عنـدما أصبحت مشاهد الصيد التي تصور الأسود والحمير والغزلان البرية مواضيع شائعة. وتظهر في هذه المشاهد مسحة رثاء وعطف لأن المرء يتعاطف مع اللبوة وهي تموت ومع انثى حمار الوحش المرغمة على التخلي عن فلوها.

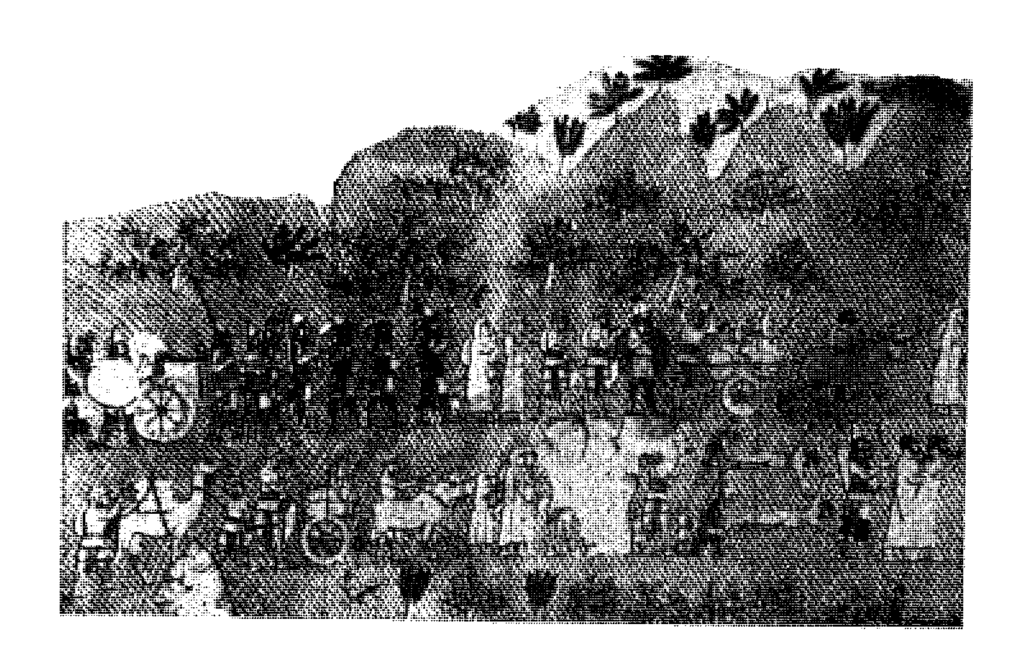
تكمن القيمـة العملية لهذه الرسوم النافرة من وجهة النظر الأثرية في الثروة العظيمة التي توفرها عن المظهر والمواصفات والخصائص ليس للشعب الآشوري فقط بل وللشعـوب في المنـاطق المجـاورة التي جعلتهـا الحروب على اتصال مع الشعب الآشوري. ان الدراسة الجادة لهذه الآثار التصويرية أتاحت لنا الاطلاع على أدق التفـاصيل عن المعـدات الحربية والأسلحة وطريقة استعمالها، وهذا أمر يتعذر ان



الشكل رقم ١٥٤ : في اليمين: قسم من مشهد منحوت من قصر سنحريب في نينوى تم تحديد هويته من خلال نقش كتابي وهو يمثل عملية الاستيلاء على لاكيش في فلسطين. وفي منطقة تلال مليئة بأشجار الكرمة والزيتون يجلس الملك على عرشه أمام خيمته يستقبل قادة جيشه، والأسرى ينحنون أمامه.
في اليسار: عملية تعذيب ونفي للأسرى من شعب لاكيش مع علائلاتهم. في وقت مبكر من القرن السابع قبل الميلاد أجريت عملية ·فنية من هذا النوع لبعث الحياة بشكل تصويري في المنطقة التي تقع فيها الأحداث.



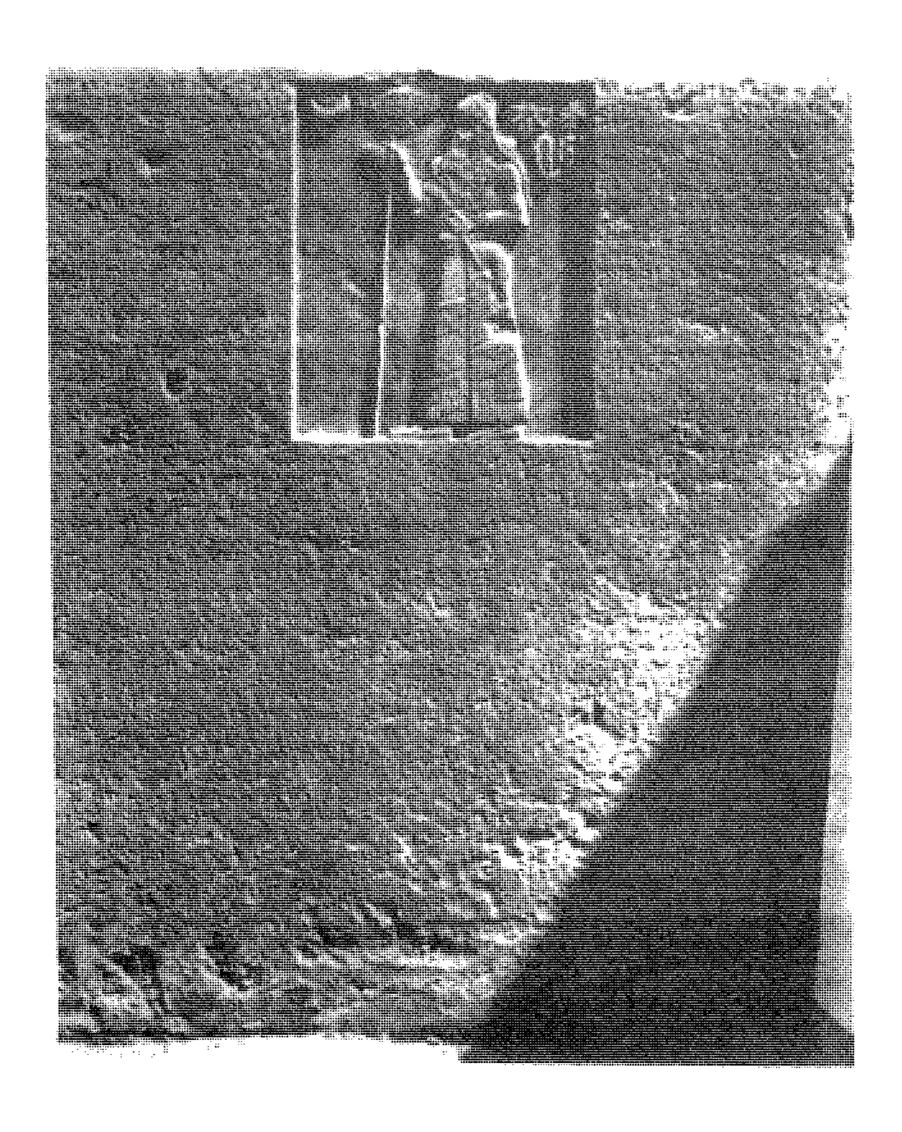
الشكل رقم ١٥٥ : نحت نافر من القصر الشمالي للملك آشور بانيبال في نينوى. يحتفل الملك والملكة بالانتصار على العيلاميين تحت أشجار الكرمة مع عزف للموسيقى. نشاهد رأس ملك الأعداء (تي اومان) مقطوعاً ومعلقاً على شجرة.



توضحه النصوص المكتوبة لوحدها[٢٦٨]. أما مظاهر الحياة الآشورية التي تصورها الرسوم النافرة فلم يبق منها إلا الشيء القليل للدراسة.

البريطانيون يعودون إلى نمرود

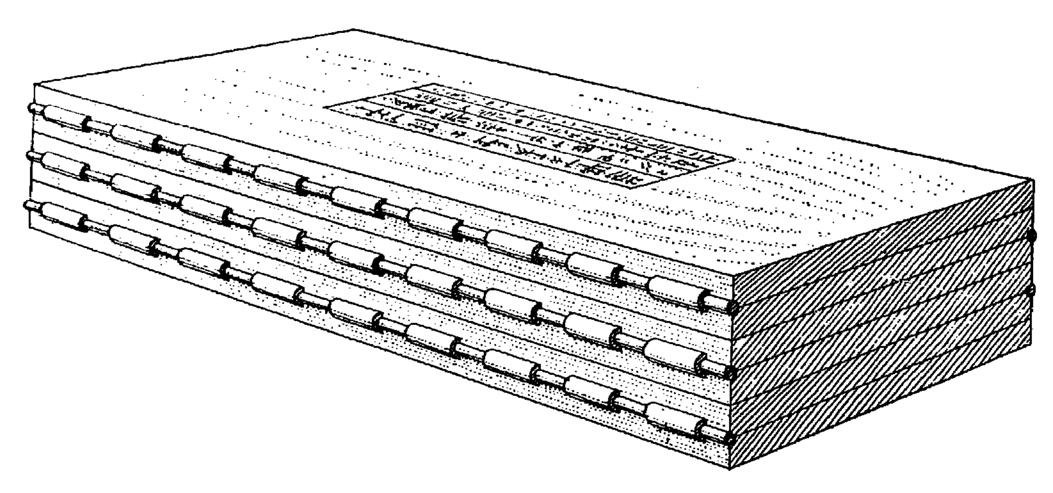
لا بد من تقديم عرض للقى التي عثرت عليها البعثة الأثرية البريطانية بقيادة م. ي. مالوان (M. E. L. Mallowan) التي عادت إلى نمرود عام ١٩٤٩ وعملت في الموقع لمدة تزيد عن (١٤) عاماً أخرى[٢٦٩]. (أنظر الشكلين ١٣٩ - ١٤٠). ركز «مالوان» عمله في البداية في القصر الشمالي الغربي الذي قام «لايارد» بعملية تنقيب فيه أدت إلى اكتشاف غرفة العرش[٢٧٠]. أولى لقاه الهامة كانت في غرفة جانبية مجاورة للعرش وهي لوح تذكاري للملك «آشور ناصربال الثاني»، حيث نشاهد صورة الملك بالنحت النافر بالاضافة إلى نقش كتابي مكون من (١٥٣) سطراً تغطي اللوح الحجري من الجانبين. انه عمل أثري على قدر كبير من الأهمية لأنه يدون الاحتفالات والمهرجانات التي أقيمت عند تدشين القصر بشكل رسمي في عام ٨٧٩



الشكل رقم ١٥٦ : لوحة من الصخر الرملي لآشور ناصربال الثاني الذي تظهر صورته تحت رموز الآلهة «سن وآشور وشمش» . . الخ وحول تمثاله نشاهد ١٥٣ سطراً من النقوش المكتوبة التي تمجد قيامه ببناء العاصمة نمرود عام ٨٧٩ قبل الميلاد.

قبل الميلاد. كما يشمل تفاصيل عن أنواع الطعام التي أعدت لتكفي ما يقارب (٧٠) ألف مواطن لمدة عشرة أيام. لقد أتاحت هذه المعلومات لمالوان إمكانية تقدير عدد السكان التقريبي لمدينة «كلخو» (Calah) بعد ان جعلها الملك آشور ناصر بال عاصمة جديدة لدولته. وكان العدد الذي توصل له هو (٦٨) ألفاً بما فيهم الأطفال وهو يعادل نصف عدد سكان نينوى الذي ذكر في العهد القديم من الكتاب المقدس.

في هذه الاثناء تمت دراسة القسم السكني الشرقي من القصر كما تمت دراسة بئرين عميقين. في أحد هذين البئرين (AB) ، الذي كان لايارد قد قام بعملية تنقيب جزئية له، عثر على (لقية) لم تتضح أهميتها إلا بعد دراستها في مختبر المتحف البريطاني.

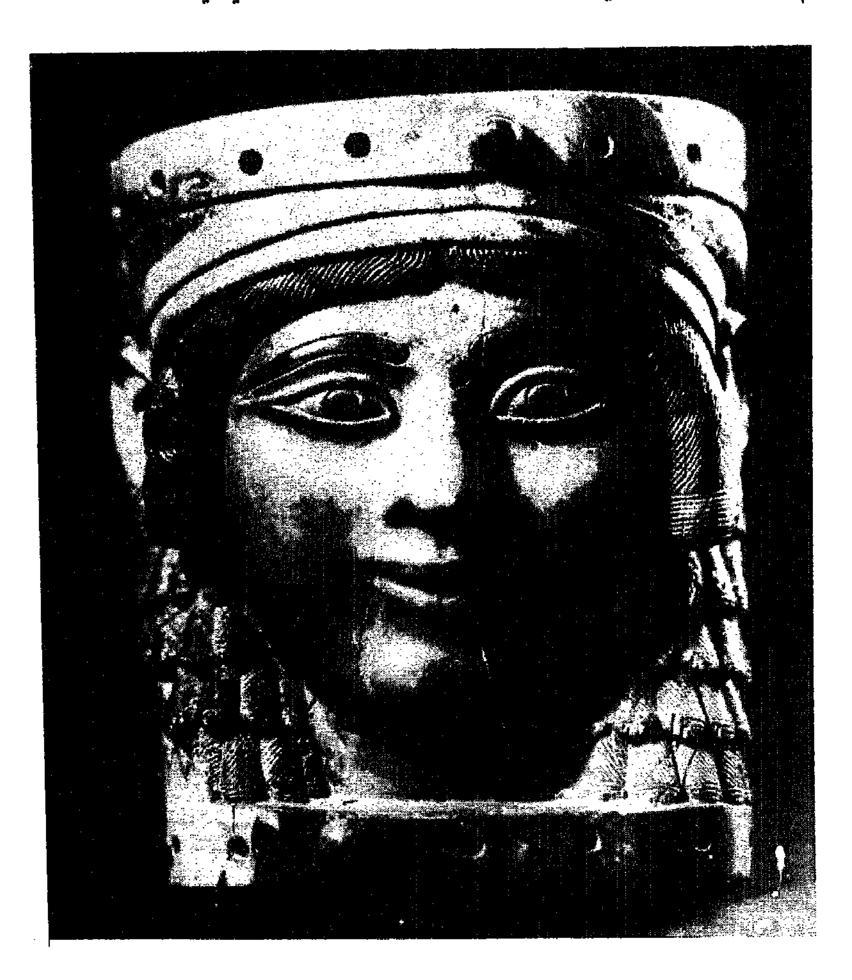


الشكل رقم ١٥٧ : قسم من كتاب أعيد تشكيله حديثاً وقد وجد في بئر في نمرود وهو يتألف من لوحات عاجية مغلفة بالشمع ومزودة بمفاصل من أجل تحريك صفحاته. ولقد أعطي الشمع لوناً قاتماً لجعل القراءة أكثر سهولة. أبعاد كل لوح: (٣٣,٨ × ١٥,٦) سم. (عن مالوان، ١٩٦٦).

لقد كانت كتاباً مؤلفاً من (١٥) صفحة مزودة بمفاصل ذهبية وذلك من أجل عملية فتح الصفحات المصنوعة من الخشب والعاج. لهذه الصفحات حواف مرتفعة لحماية سطحها المصنوع من الشمع الذي نقشت عليه كتابة مسمارية. وتشكل صفحات هذا الكتاب وثيقة مكتوبة من بضعة آلاف من السطور. على الغلاف كتب اسم الملك «سارغون الثاني» وعنوان الكتاب وملاحظة تقول بأن الكتاب يجب ان يحفظ في القصر الجديد للملك في «دورشاروكين». وحتى ذلك الوقت لم يكن قد عثر على كتابة على

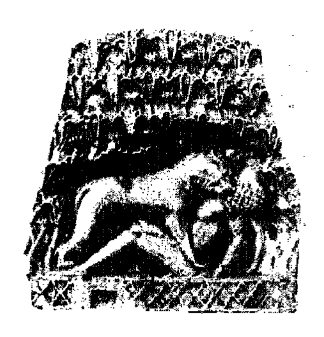
الشمع إلا في «فريجيا» (Phrygia). ولقد عاد إلى ذهن «مالوان» النقش البابلي الأكثر حداثة والذي يقرأ فيه أحد الموظفين بشائر الملك وانه قد أمر عند انتهاء القراءة ان «يغلق الكتاب» وهي عبارة كان من الصعوبة بمكان فهمها لأنه كان يفترض ان الموظف يقرأ في لوح حجري.

واستطاع «مالوان» ان يحصل من البئر الثاني على بضعة أشياء تعتبر الآن من أعظم الأعمال الفنية في مجموعات عاجيات نمرود. ويأتي في مقدمة هذه الأشياء



الشكل رقم ١٥٨ : رأس امرأة مصنوع من العاج وجد في بئر تحت القصر الشمالي في نمرود وقد لون الشعر والحاجبان وبؤبؤ العين بألوان قاتمة ـ ترجع هذه المنحوتة التي سماها المنقبون (الموناليزا) إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد. الارتفاع ١٦ سم.

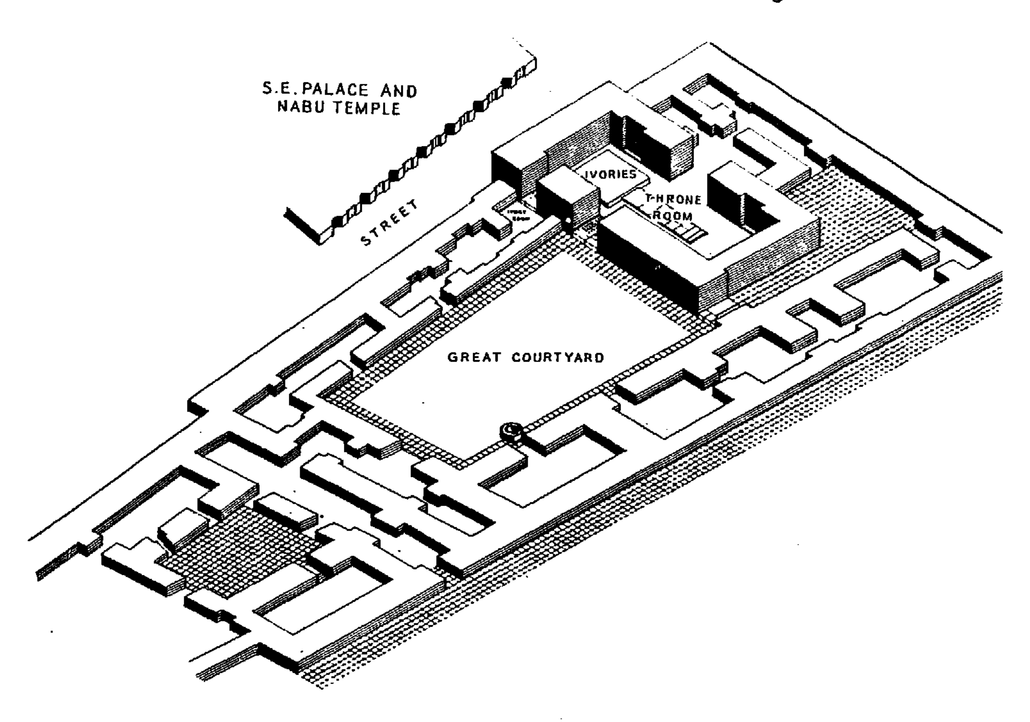
الرأس الانثوي الجميل الذي يعتقد انه كان جزءاً زخرفياً من قطعة أثاث. لقد عرف هذا الـرأس عنـد المنقبـين باسم «المونـاليزا»[٢٧١]. تبلغ أبعـاد هذا العمـل الفني (١٦ × ١٣,٣) سم وقـد صنـع من عاج بني اللون أمـا المـلامـح فكـانت مدهـونـة بألـوان منـاسبـة لدرجة جعلت مالوان يقارن العمل بمنحوتات الاغريق القدماء. ولقد عثر على رأس من نفس النوع مصنوع بشكل أقل اتقاناً وكلاهما يرجع إلى عام ٧٠٠ قبـل الميلاد. أمـا العمل التي يبرز فيه الأثر الجمالي أكثر من أي من الرأسين فهو لوح عاجي يصور لبوة تفتك بزنجي، والعمل منحوت على خلفية من نبـات اللوتس (النيلوفـر)[٢٧٢]. يبلغ طول هذا العمل الفني (١٠) سم وهو مطعم بصفائح ذهبية وملبّس بقشور ملونة. ولقد تمت دراسة عملية زخرفة هذا العمل الفني بشكل دقيق في المتحف البريطاني[٢٧٣].



الشكل رقم ١٥٩ : لوحة عاجية من نفس المصدر في نمرود تصور لبؤة تفترس شاباً زنجياً في أجمة من اللوتس ونباتات البردي. الزهور مطعمة باللازورد والعقيق ومطلية بالذهب. كما لونت الملامح البارزة كالشعر والبنطال.

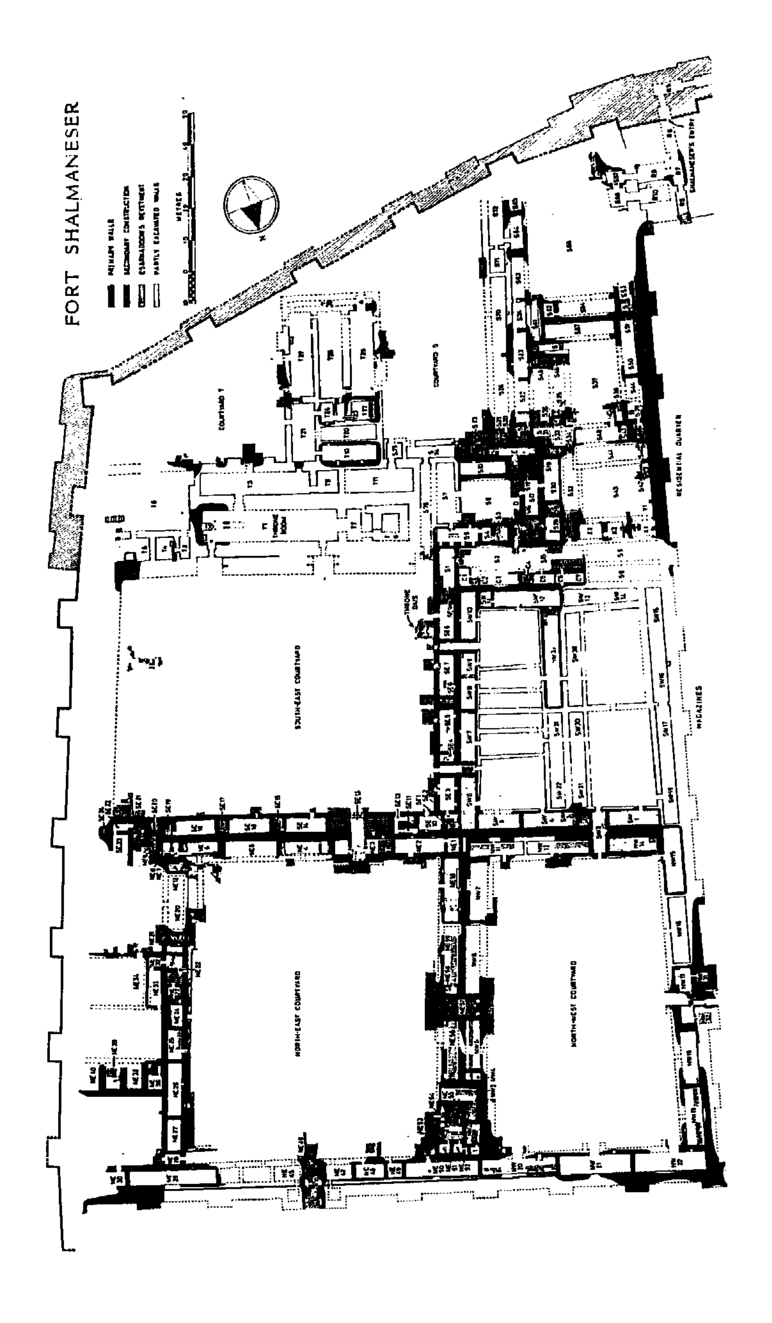
وتشمل الأبنية الأخرى التي قام مالوان بالتنقيب عنها الجناح الشمالي للقصر الشمالي الغربي ومعبد «نينورتا» عند سفح الزيقورة ومجمع الأبنية الجنوبي الغربي المؤلف من «قصر لوفتوس المحترق» ومعبد «نبو» وقصر الحاكم المجاور للمعبد، ومجموعة كبيرة من الأبنية السكنية الخاصة عند سور الميناء الذي يدعم الجانب المحاذي للنهر من رصيف القلعة. درست هذه الأبنية بطريقة منهجية وتم تحديد المراحل المتتالية من تاريخها المعماري. وخلال هذه السنوات لم يكن «مالوان» يبحث عن التماثيل الضخمة أو المنحـوتـات النـافـرة لكن عمله أثمر في حصوله على الكثير من اللقى كالأواني والأسلحـة البرونزية والمنحوتات العاجية ومستودعات الألواح الفخارية غير المشوية بالاضافة إلى مواد من أنواع لم يكن المنقبون الأوائل قادرين على المحافظة عليها. لكن

أكثر الاكتشافات الأثرية أهمية تمت بعد ان نقل «مالوان» نشاطه إلى مجموعة كبيرة من الأبنية تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة وتمثل هذه الأبنية المستودعات الملكية للملك «شلمنصر الثالث»(٢٧٤).



الشكل رقم ١٦٠ : مخطط مجسم للقصر المحترق في نمرود ٦١٢ قبل الميلاد. اكتشف لوفتوس العاجيات في القصر عام ١٨٥٤ . (عن مالوان، ١٩٦٦).

لقد وجدت أبنية تتفق مع هذا الوصف في العواصم الثلاث الأخيرة للدولة الآشورية. بقي مستودع مدينة نينوى مدفوناً تحت أبنية حديثة في موقع النبي يونس لكن موشوراً منقوشاً من تلك المنطقة يدل على إعادة عملية بناء المستودع في أيام الملك «اسرحدون»(٢٧٥). ويشير أحد النصوص للغرض من هذا البناء على انه كان مخصصاً لاقامة طقوس المعسكر والمحافظة على الخيول والبغال والعربات والأسلحة والأدوات الحربية وغنائم المعارك المختلفة الأنواع. ويظهر من أحد السجلات ان هذا البناء كان يخضع للتفتيش من الملك بالذات في احتفال رأس السنة الجديدة ومن أجل ذلك أعد فيه جناح خاص بإقامة الملك.

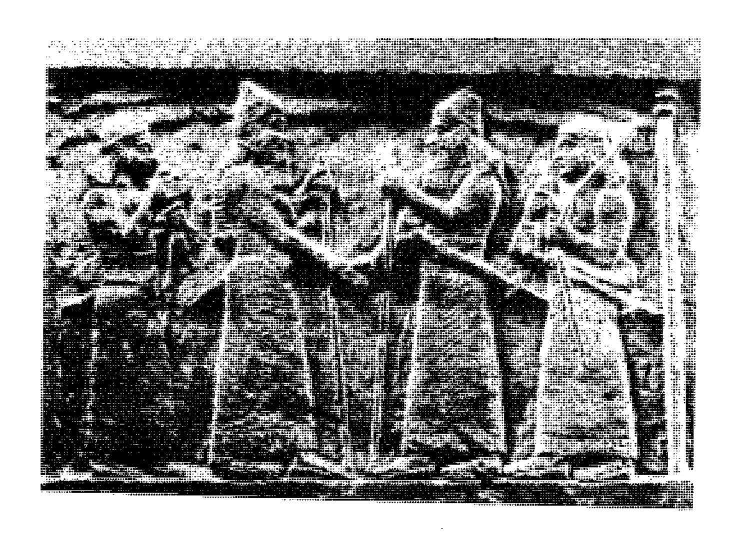


الشكل رقم ١٦١ : مخطط لحصن شلمنصر في نمرود. توجد ساحات إلى الشمال والغرب تحيط بها الورشات والمخازن والمكاتب. وقد قسمت الساحة الجنوبية الغربية إلى مخازن طويلة كان أحدها المصدر الرئيسي للعاج. أما ساحة الاستعراضات فهي تفصل المخازن عن مقر الملك المؤلف من غرفة العرش والأجنحة الخاصة باقامة الملك.

أمـا مستـودع مدينـة نمـرود والمعـروف عند المنقبين الأثريين باسم «حصن شلمنصر» فكان يشغل موقعاً مستطيلاً تبلغ أبعاده (٣٠٠ × ٢٠٠) متراً وهو محصور من الجهتـين الشرقية والجنـوبية بسـور المـدينـة ومن الجهتـين الباقيتين بتحصينات ضخمة. لقد ظن «دافيد اوتس» (David Oates) الذي تولى مسؤولية التنقيب عنه في عام ١٩٥٨ بأن المستودع قد جهز بسور خارجي وهناك أدلة على ترتيبات مماثلة في خورسـابـاد. ولقـد قسم الحصن إلى خمسـة أجزاء رئيسة ففي الوسط نجد المنطقة المحصنة للاستعراضات العسكرية وقد أقيمت على جانبها منصة ملكية. وإلى الشمال من منطقة الاستعراض الواسعة هناك ساحتان محاطتان بتجهيزات المراكز التجارية وورشات النجارين والحدادين وصانعي الجلود والدروع وفي مرات عديدة وجدت أدوات خاصة بهذه المهن بين الحطام وكانت بحالة جيدة كما وعثر هنا على تمثال ملكي قيد الاصلاح في هذه الورشات. وفي مكان آخر وجدت مخازن الطعام والخمر قرب المكاتب الادارية ومراكز القادة المساعدين. قسمت الساحة الثالثة الواقعة إلى الغرب من ساحـة الاستعـراضات إلى مخازن ضخمة مرتبة حول حفر صغيرة. أما القسم الجنوبي من البناء فكان مقراً لسكن الملك، وكان الجناح الاحتفالي منه، والذي يرتبط بمنطقة الاستعراضات بواسطة مدخلين، يتألف من قسمين ينسجمان في التخطيط بشكل دقيق مع التقاليد المعمارية التي لاحظناها في خورسباد والتي اتبعت في تصميم جناح الاستقبال ذي غرفة العرش المستطيلة الضخمة والجناح البارز التي يحتوي على الأقسام الحكومية من الأبنية.

وفي غرفة العرش بقيت المنصة الحجرية بحالة سليمة وهي منقوشة برسوم نافرة تمثل استلام الملك للضرائب الواردة من سورية والدولة الكلدانية. وكان الموضوع الرئيس لهذه الرسوم هو المقابلة بين شلمنصر وحاكم بابل في ذلك العصر والتي تمت فيها عملية مصافحة[٢٧٦]. أما اللوح التصويري المصنوع من القرميد اللامع والذي سقط من مدخل غرفة مجاورة فقد كان على نفس القدر من الأهمية حيث ظهر الملك الآشوري بشكل مزدوج تحت قرص مجنح[٢٧٧].

ومن أهم الاكتشـافات في حصن شلمنصر محتويات غرف المخازن الموجودة ضمن وحـول السـاحـة الجنوبية الشرقية بالقرب من منطقة الاستعراض[٢٧٨]. فقد احتوت هذه الغرف على مجموعة واسعة من المنحوتات العاجية معظمها من النوع



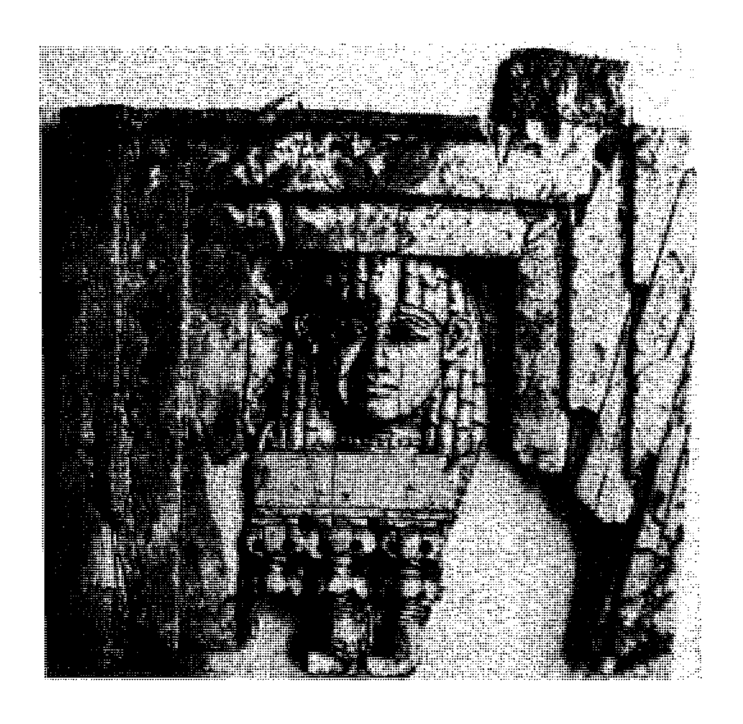
الشكل رقم ١٦٢ : قسم من القاعدة الحجرية لعرش الملك في حصن شلمنصر. وهي منحوتة بشكل نافر من كل الجهات وتظهر عليها مواكب حاملي الضرائب وموظفي القصر الملكي. كما يظهر شلمنصر وهو يصافح مردوخ زاكير شومي ملك بابل.

المستعمل في زخرفة الأثاث وفي المركبات ومعدات الاستعراض العسكري. لقد كانت هذه المنحوتات العاجية مكدسة أو مبعثرة في كل مكان من الحطام الذي ملأ الغرف وكانت تتكون من ألواح منحوتة وتماثيل لحيوانات أو آدميين. أما القسم الذي كان منحوتاً بشكل دائري فهو من أعمال الحرفيين الفينيقيين والسوريين وهو من غنائم المعارك في المدن السورية في الغرب. ولقد تم تجميع بضع مئات من المواد من آلاف القطع العاجية المحطمة التي نشر معظمها في الوقت الحاضر[٢٧٩].

عاجيات نمرود

لقد أتينا، لسبب ما، على ذكر دراسة قام بها «ر. د. بارنيت» (R. D. Barnett) لعاجيات المرحلة الآشورية الأخيرة خلال السنوات التي سبقت تنقيبات مالوان في نمرود[٢٨٠]. ولقد بنى «بارنيت» دراسته على مجموعة من هذه الأعمال بقيت في المتحف البريطاني لمدة تقارب القرن وثبت انه قد تم الحصول عليها من مصدرين هما لقى «لايارد» في القصر الشمالي الغربي واكتشفات «لوفتوس» في القصر المحترق. وخلافاً

للمنقبين الأوائل استطاع بارنيت ان يقارن هذه العاجيات بلقى من نفس النوع تم الحصول عليها من مواقع في فلسطين وسوريا والأناضول وقبرص. في المرحلة الأولى من دراسته للأسلوب كان واضحاً انه في كلتا المجموعتين كانت معظم التصاميم من أعمال الحرفيين الفينيقيين في المدن الساحلية. كانت هذه الحقيقة أكثر وضوحاً في المجموعة التي تم الحصول عليها من القصر الشمالي الغربي والتي تتألف من زخارف للأثاث كأجزاء العرش الملكي الذي يقال بأن «لايارد» عثر عليها في البئر (AB). ومن



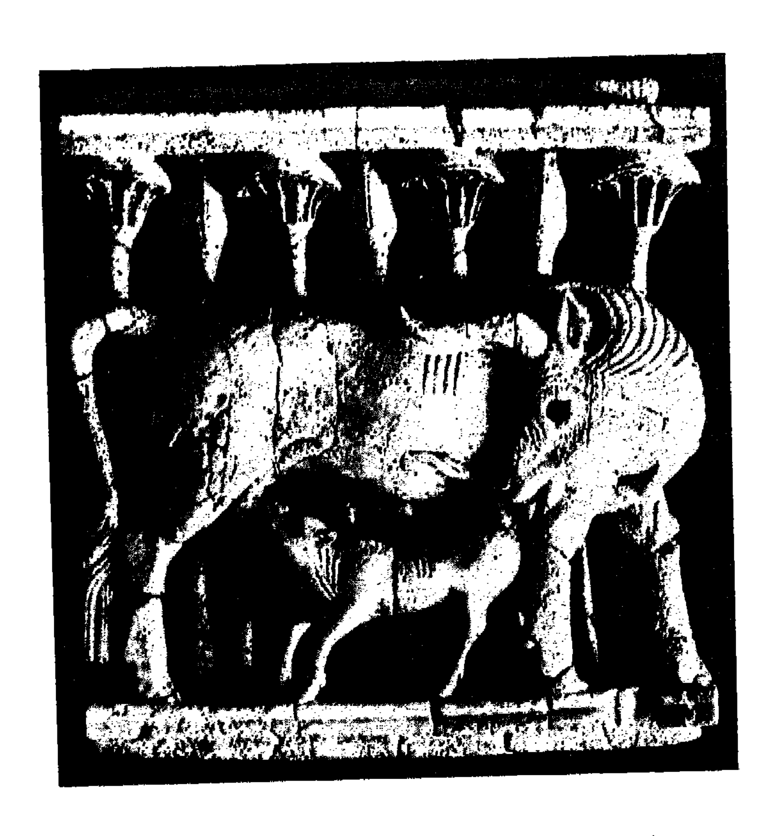
الشكل رقم ١٦٣: زخارف عاجية مع ألسنة لتعليقها في الأثاث. ان الموضوع الفينيقي المعروف باسم (سيدة على النافذة) كان مألوفاً في الشرق. ترجع هذه القطعة إلى عام ٧٠٠ قبل الميلاد وهي مأخوذة من القصر الشمالي الغربي في نمرود.

أشهر هذه النماذج تصميم «امرأة عند النافذة» الذي يصور الالهة عشتار الفينيقية، و«البقرة» التي تلعق عجلها وهو يرضع وكانت هذه التصاميم موسومة باسم صانعها بأحرف مطابقة للأبجدية الفينيقية. أما التصاميم الأخرى المتأثرة بالأسلوب الفينيقي



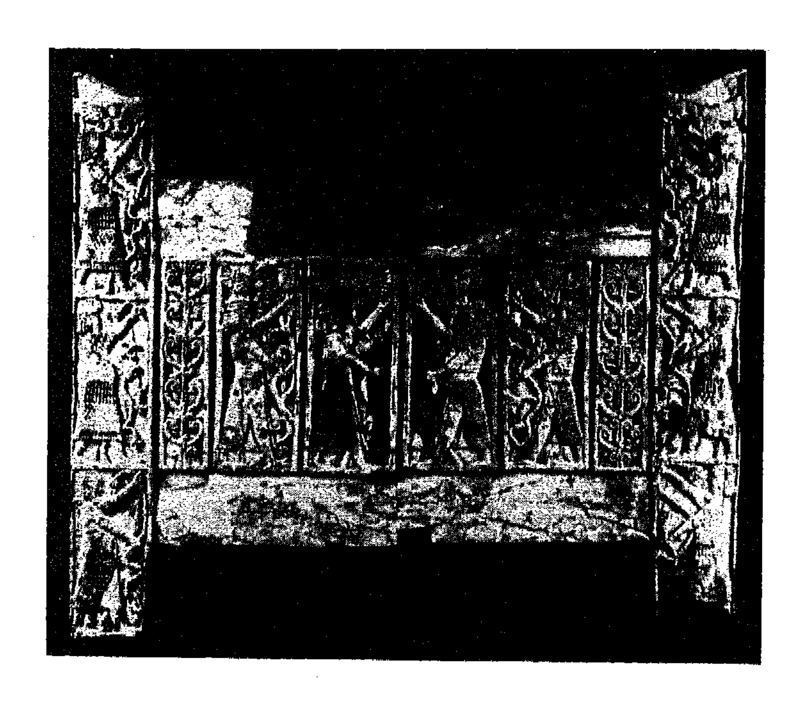
الشكل رقم ١٦٤ : تمثال من العاج لنوبي يقود ماريه (نوع من بقر الوحش الأفريقي)، ويحمل قرداً حياً وعليه جلد فهد. قطعة زينة فاخرة من حصن شلمنصر.

فانها تدل على نفس المنشأ. وعلى النقيض من ذلك فقد زعم «بارنيت» ان مجموعة «لوفتوس» هي تقليد للاسلوب السوري من حيث تشكيل وحدة مستقلة ترتبط ببعض المراكز الداخلية في البلاد وقد استعملت فيها مواضيع غير فينيقية وطبقت تصاميم ذات مواضيع مختلفة. شملت هذه المواضيع تماثيل امرأة تقوم مقام الأعمدة في المبنى بالاضافة إلى صوامع وأوان للزيت. ولقد ظهرت شكوك في ان وجود هذه المجموعة من الأشياء المصنوعة كان نتيجة استقدام الحرفيين أنفسهم إلى الدولة الآشورية. ولقد نشرت عاجيات «بارنيت» التي عثر عليها في نمردو في عام ١٩٥٧ وفي السنوات التالية توفرت مجموعة ضخمة من هذه المواد الجديدة. وفي دراسة أجراها «مالوان» للقاه العاجية ظهرت بعد تسع سنوات استطاع تأكيد الكثير من النتائج القديمة لكنه كان حذراً في قبول تمييز «بارنيت» الثابت بين الأعمال السورية والأعمال الفينيقية استناداً إلى ان عملية تبادل حرة بين الحرفيين قد جرت في ذلك العصر وفي كل أسواق منطقة نهر الفرات. ومن جهة ثانية استطاع ان يكتشف مدرسة كاملة من الفنانين والنحاتين الذين يدينون بالقليل ما عدا تقنيتهم إلى التأثير الأجنبي. وفي دراسته للهدف ومحيط هذه العاجيات فقد كوَّن «مالوان» انطباعاً بأن هذه المادة الثمينة والكمالية كانت تطبق



الشكل رقم ١٦٥ : موضوع مشهور آخر عند نحاتي العاج الفينيقيين يحمل بعض الملامح المصرية. وهو يمثل بقرة ترضع عجلها. نموذج من حصن شلمنصر.

كقشرة على كل نوع يمكن تصوره من أنواع الأثاث. وفي غرفة واحدة من حصن شلمنصر (SW 7) عثر على عدد كبير من الألواح العاجية مرفوعة بجانب بعضها في مكانها الأصلي وقد كانت هذه الألواح بالتأكيد زخارف لخلفيات الاسرَّة والكراسي وغيرها. وفي هذا المجال استطاع «مالوان» ان يشير إلى قطع الأثاث المرسومة بعناية من نقوش نافرة والتي كان الملك آشور بانيبال وزوجته يستريحان عليها بعد الاستيلاء على مدينة سوسا. كما ذكر بعض الأغراض وأنواع المواد التي استعملت فيها المنحوتات العاجية، وأجرى مقارنة مع الغنائم الباقية التي أحضرها الملك سارغون الثاني من دولة «اورارتو» التي كان العاج فيها مشهوراً كما هو في الدولة الآشورية نفسها.



الشكل رقم ١٦٦ : قطعة فاخرة من سرير في حصن شلمنصر يتألف من (١٢) لوحاً نشاهد على كل منها شكلاً لمقاتل ذي لحية وشجرة سحرية. قرص الشمس يرتفع فوق التماثيل الموجودة في الوسط. أعطاها مالوان التاريخ ٧٣٠ قبل الميلاد.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الاسلوب المشرقي (Levantine) في النحت فان المرء يتذكر ان المهنيين الفينيقيين الذين ارتقوا بهذا الفن إلى درجة الكمال قد احرزوا شهرة كبيرة حتى في العهد القديم من الكتاب المقدس بسبب مهارتهم وعبقريتهم. ومع ذلك فاننا نلاحظ ان التصاميم كانت تفتقر إلى التقاليد المحلية الحقيقية. وتماماً كما حدث في اوربا حيث استلهم فنانو عصر النهضة أعمال الاغريق القدماء كذلك الأمر فقد وفر الفن المصري للفينيقيين أسلوباً جاهزاً. لقد اعتمد الفن المصري على الصور الدينية وعلى مستودع كبير من الأشكال والصيغ الرمزية والاسطورية. بينما لم يكن لدى الفينيقيين ديانـة أو رمـوز ولقـد جرت محاولات قليلة لفهم طبيعـة حياتهم وتفيكرهم. ولهذا السبب كانت محاولاتهم في تكييف التماثيل المصرية غير صحيحة

وخرقاء أحياناً. ومع ذلك فقد بقي الأثر الحسي للأعمال الفنية المصرية قوياً بشكل يثير الدهشة[٢٨١].

زمنياً، يمكن تأريخ عاجيات نمرود على أية مرحلة بين حكم آشور ناصربال ودمار عاصمته. ومن المعروف ان الملك حدد ـ نيراري الثالث قد حصل على سرير وأريكة من ملك دمشق في عام ٨٠٠ قبل الميلاد تقريباً. لكن مالوان يعتبر ان معظم لقاه كانت من عصر أحدث تاريخياً وقد أرخ معظمها على عصر الملك سارغون الثاني. ان انقراض الفيل السوري في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد ربما كان قد سبب نقصاً في مادة العاج.

الفصل العاشر

بابل: آخر ممالك بلاد الرافدين

نهضة السلالات

بعـد سقـوط نينـوى انسحب الميديون (Medes) لتعـزيز فتـوحـاتهم في بلاد الأناضول الشرقية وتركوا الحاكم البابلي مسيطراً سيطرة تامة على كل الدولة الآشورية. وفي ذلك الوقت كرس «نابوبو لاصر» (Nabopo lassar) كل طاقته لانعاش اقتصاد بلاد الـرافـدين الجنـوبية وتـرميم المـدن التي أهملت مرافقهـا المدنية أثناء السيطرة الآشـورية. وفي تلك الأثنـاء كان أكـبر تهديد لهذه المقاطعات الآشورية يتمثل في المصريين الذين انشأوا مراكز عسكرية متقدمة لهم على نهر الفرات عند كركميش. أوكـل «نـابوبو لاصر» إلى ولي عهده «بنوخذ نصر» مهمة مواجهة الجيوش المصرية واسـترداد مدن شمال سورية، ولقـد نجح «نبوخذ نصر» في ذلك. لكنه بعد توليه العرش استمر في تورطه بصراع دائم من أجل حماية طرق التجارة التي اعتمد عليها ازدهار الدولة البابلية الاقتصادي. وخلال إحدى حملاته الناجحة في الغرب احتل مدينة القدس وسبى بضعة آلاف من اليهود إلى الدولة البابلية. وفي الوطن وخلال

فترات السلام خصص معظم وقته لاتمام عمل والده «نبوبو لاصر» في إعادة بناء المدن السومرية. وفي مدينة بابل بالذات فان النسق الرائع للأبنية العامة الضخمة والتحصينات التي اكتشفت يمكن ان تنسب جميعها لخطط «نبوخذ نصر» وعبقريته الفذة.

أما الملك «نابونيد» (Nabonidus) وهو آخر حاكم مستقل للدولة البابلية فقد كان على النقيض من «نبوخذ نصر»، إذ كان شاذاً غريب الأطوار وضعيف التأثير. كما كان منحرفاً، وبقي سلوكه الغامض لغزاً محيراً لعلماء التاريخ وكذلك ظل غيابه المتكرر عن المملكة ونبذه لـ «مردوخ» (Marduk) إله بابل المقدس في ذلك الزمان لمصلحة الإله «سن» (Sin) الذي كان «نابونيد» يعبده في حران. وتقدم النقوش المكتوبة تفاصيل عن إقامته الطويلة وغير المفهومة في وسط الجزيرة العربية[٢٨٢]. ولقد تحقق «وولي» أن مجموعة الآثار التاريخية التي وجدت في اور هي مجموعة «نابونيد» الخاصة من الآثار الثمينة التي كان يمتلكها.

وفي بابل وخلال حكم «نابونيد» وقع الحدث السياسي المشؤوم المتمثل في توسع الامبراطورية الفارسية بقيادة حاكمها «الأخميني الأول». وفي عام **٥٣٩** قبل الميلاد اكتسحت جيوش «قوروش» (Gyrus) الدولة البابلية بمساندة من الشعوب الآشورية المنشقة. وبعد ذلك قام ولي العهد «بيلشازار»، كما ورد في التوراة، الذي كان نابونيد يوكله بالقيام بمهامه خلال فترة غيابه، بتحصين الحدود الخارجية. وخلال بضعة أيام تمكن من استرداد بابل دون أية مقاومة من الجيش الفارسي[٢٨٣]. وبناء على أوامر من «قوروش» تم تجنب العنف حين اقتنع السكان بقبول حاكمهم الجديد كمحرر لهم. وهكذا انتهت فترة ثلاثة آلاف عام من الحكم الذاتي في بلاد الرافدين بانهيار غريب ومفاجىء.

لدينا ثلاثة مصادر للمعلومات عن الأوضاع في مدينة بابل خلال السنوات الأخيرة من الاستقلال. أحد هذه المصادر نجده في كتابات حكام الدولة البابلية وتشمل وصفاً قدمه «نبوخذ نصر» عن كيفية قيامه ببناء المدينة. وعن تلك الفترة من القرن السادس قبل الميلاد هناك نوع آخر من الأدلة لم يكن متوفراً من قبل وهو تقارير شهود عيان كتبها رحالة من شعوب أخرى كانوا قد زاروا المدينة. ومن الكتاب العبريين للعهد القديم يمكن الحصول على قليل من المعلومات في هذا المجال لأن

طبيعة علاقتهم القصيرة وغير المقبولة مع المدينة لم توفر لهم المجال لتقديم حكم موضوعي. وفي هذا المجال فإن وضع الكتاب من الرحالة الإغريق مختلف تماماً. فقد قدم لنا «هيرودوتس» (Herodotus) ولدرجة أقل «ستيسياس» (Ctesias) وصفاً طويلاً ومفصلاً ليس عن المدينة وأبنيتها فقط بل عن الأخلاق والعادات البابلية(٢٨٤).

لقد كانت معلومات من هذا القبيل متوفرة للمكتشفين الأوائل للآثار في القرن التاسع عشر بدءاً من «كلوديوس ريش» (Claudius) ومن جاء بعده(٢٨٥). لكن تنقيباتهم الأثرية الفعلية لم تبدأ إلا في نهاية القرن الماضي عندما أخضع «روبرت كولديوي» (Robert Koldewey) وزملاؤه الألمان موقع المدينة لعملية تنقيب منهجية استمرت قرابة (١٣) عاماً. وتعتبر نتائج هذه التنقيبات المصدر الثالث للمعلومات عن مدينة بابل(٢٨٦).

عمليات التنقيب الألمانية

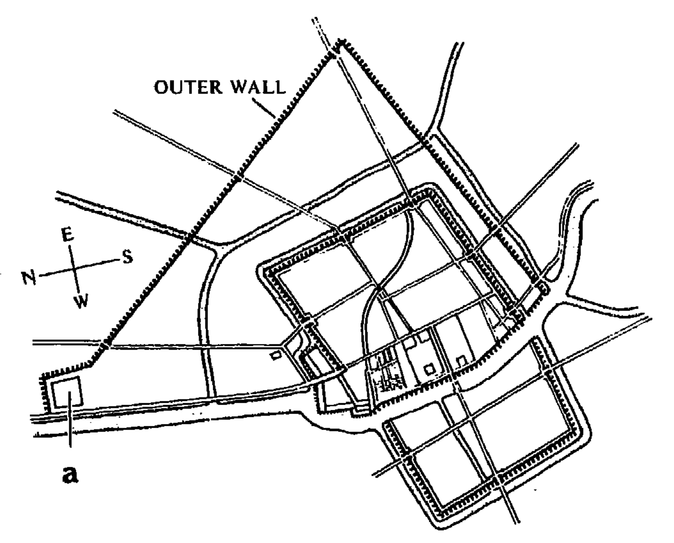
إن الصبر والأناة والعبقريةالتي تميز بها عمل المنقبين الألمان الطويل في بابل مازالت تحظى بإعجاب الأجيال التالية من علماء الآثار ومازالت بادية للعيان في نتائج أعمالهم. لقد رافق «كولديوي» في عمله مساعدون معماريون وكان هناك نوع من المنافسة االبريئة بينه وبين المختصين في تفسير النقوش المكتوبة الذين اعتمد عليهم في فهم النصوص الكتابية. ومع ذلك فإننا ندين للتعاون بين هؤلاء جميعاً بالمعلومات التفصيلية المتوفرة لدينا عن مدينة لم يبق فيها حتى قبل قرن من الزمن إلا القليل من الآثار التي يمكن رؤيتها على أرض الواقع. لقد كان بين «كولديوي» و«أندريه» مجموعة من المنقبين الأوائل في منطقة الشرق الأدنى استطاعوا استيعاب مسائل علم طبقات الآثار وكان هؤلاء أول من يدرب مجموعة من الخبراء في الكشف عن الأسوار. وتجمع معظم الآراء على أن طرائقهم في العمل كانت على درجة عالية من الكفاءة لم تكن متوقعة في تلك الفترة المبكرة من تاريخ تقنيات التنقيب الأثري. ورغم ذلك ومع كل النشاط والمثابرة والنفقات الكبيرة، لم يعتبر «كولديوي» إن عمله في بابل قد وصل إلى الكمال بكل معنى الكلمة. وكان قد قدر عندما بدأ عمله أن خمس سنوات مدة تكفي لإنجاز عمله، ومع ذلك نجده بعد مرور أربعة عشر عاماً، أي في عام ١٩١٣، يكتب في أحد تقاريره أنه قد أنجز نصف العمل الضروري فقط. وفي

الواقع لم تستأنف عمليات التنقيب للألمان بعد ذلك على نطاق معقول. ويجب أن نشير هنا أن اهتمام كولديوي بالموقع لم يكن في الأصل مقتصراً على آثار المدينة البابلية الحديثة. لقد كان يأمل أن يعثر تحت هذه المدينة على آثار المدينة القديمة التي ترجع للألف الثاني قبل الميلاد والتي كانت عاصمة امبراطورية حمورابي. وعند نهاية حملته الأولى تحقق أن خيبة أمل كبيرة كانت بانتظاره وذلك بسبب المنسوب المرتفع للمياه السطحية. لجأ بعد ذلك إلى توسيع دائرة تنقيباته الأثرية بشكل جانبي لتغطية كامل المدينة الحديثة على أمل استعادة تشكيل مخططها بالقدر الممكن. لقد كان ذلك عملاً عظيماً وخارقاً اقتضى منه الإقامة المستمرة في الموقع على مدار السنة باستثناء زياراته القليلة لوطنه.

ويمكننا أن نكوّن فكرة عن التحصينات التي أنشئت في المدينة في القرن السادس قبل الميلاد من خلال التقرير الأولي الذي كتبه «هيرودوت». لقد قدم الرحالة الإغريقي وصفاً كلياً للمنطقة المحاطة بالأسوار وأضاف إلى ذلك شرحاً وافياً ومتأنياً عن تنظيمها وتنفيذها بالإضافة إلى تحديد أبعادها التي ثبتت صحتها فيما بعد. ويحتاج المرء لإلقاء نظرة واحدة على مخطط الموقع حسبما نشره الألمان ليدرك تصورات الرحالة الإغريقي التي نقلت إلى سجل طبوغرافي دقيق[٢٨٧].

المدينة

يمكننا رؤية «المدينة الداخلية القديمة» على الضفة اليمنى لنهر الفرات حيث تشكل مربعاً غير منتظم الأبعاد يبلغ طول ضلعه أكثر من ميل. وفي عصر «نبوخذ نصر» امتدت أسوار المدينة لتحيط (الشكل ١٦٧) بمنطقة أوسع تقع على الجهة الغربية من النهر وبذلك تحول المربع إلى مستطيل بلغ طوله (١,٥) ميلاً. وفي القطاع الغربي اقتصرت عمليات التنقيب الأثري على الأسبار التي أمكن بواسطتها تحديد مدى الأسوار وتكوين فكرة عن مخططات الشوارع. أما بقية الأعمال الأثرية فقد تركزت في القطاع القديم في الجهة الشرقية من المدينة حيث أجريت دراسة كاملة للتحصينات. بنيت التحصينات من خط مزدوج من الأسوار وكان السور الداخلي بسماكة (٦,٥) متراً وهو أكثر ارتفاعاً من السور الخارجي. وقد بني السوران من القرميد المجفف بأشعة الشمس وتم تعزيزهما بحصون تفصلها أبعاد غير كبيرة، وكان

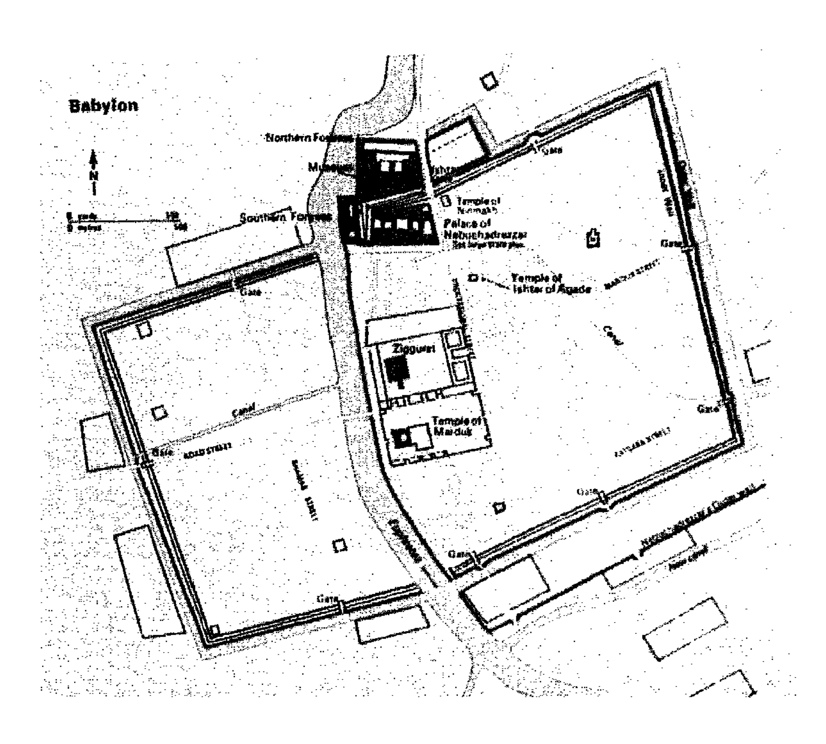


الشكل رقم ١٦٧ : مدينة بابل في عصر نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ ـ ٥٦٢) قبل الميلاد ونلاحظ ان التحصينات قد امتدت لتشمل قصر سومر (a) في الشمال. (عن ر. ليكروفت).

لهذه الحصون أبراج بارزة فوق شرفات إطلاق النار أو السهام. استخدمت المسافة الموجودة بين السورين كما يقول هيرودوتس طريقاً عسكرياً آمناً على نفس مستوى المتراس. وفي أسفل السور الخارجي حفر خندق مائي يتراوح عرضه بين ٢٠ـ ٨٠ متراً. وكان السطح الداخلي للخندق مكسواً بجدار من القرميد المشوي بالفرن والمثبت بالقار. وقد أكد «كولديوي» وثيقة «هيرودوت» القائلة بوجود ممر للقوارب والعربات المختلفة الأنواع حول هذا الخندق المائي، كما ويمكن الافتراض بوجود جسور فوق الخندق من أجل الوصول إلى البوابات الرئيسة للمدينة. ولقد أطلقت على البوابات التسع أسماء الآلهة أو أسماء المدن التي تواجه هذه البوابات كما وكانت مزودة بغرف حراسة داخلية وخارجية تم التنقيب عن أربع منها.

بنيت التحصينات الداخلية بأكملها في عهد «نابوبو لاصر» و«نبوخذ نصر» بين عامي ٦٢٥ـ ٥٦٢ قبل الميلاد. أما الملك «نابونيد» فقد بنى فيها بعد سوراً جديداً محاذياً للضفة الشرقية من النهر كما أنه بنى الميناء الواسع في أسفل السور.

كان القصر الرئيسي للملوك البابليين في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة عند نقطة كانت فيها الأسوار تشكل معقلاً حصيناً يطل على النهر وقلعة



الشكـل رقم ١٦٨ : مخطط للمـدينـة القـديمة في بابل مع الضاحية الغربية ويظهر شارع المواكب والأبنية الرئيسية. (عن هوكس، ١٩٧٤).

خارجية. (انظر الشكل ١٧٢). ونجد هنا أيضاً الشارع الرئيسي الواسع القادم من الشمال عبر «بوابة عشتار» الشهيرة نحو المدينة الداخلية، (انظر الشكل رقم ١٧١)، وقـد أصبح هذا الـطريق الشريان الـرئيس للمدينة فيما بعد. إنه شارع المواكب الاحتفالية الذي كانت تحمل فيه تماثيل الآلهة في مهرجان السنة الجديدة والذي يتجه نحو الجنوب بحذاء الجدار الشرقي للقصر. ثم يعبر القناة المسماة باسم «ليبليكالا» (Libilhegalla) ويلتف حول جدران الـزيقـورة «ايتيمينانكي» (Etemenanki)، ثم ينعطف عند مركز المدينة باتجاه الغرب ماراً بمعبد «مردوخ»، بعد ذلك ينحدر نحو

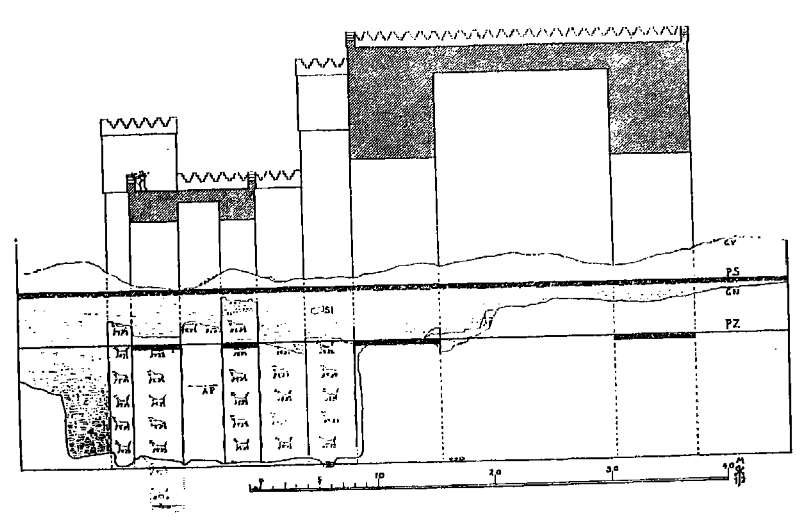
نهر الفرات الذي يعبره فوق جسر محمول على خمسة أعمدة حجرية لينتهي إلى القطاع الغربي من المدينة[٢٨٨].

وأخيراً لابد من الإشارة إلى السور الخارجي الذي كان يشكل امتداداً للمدينة على الضفة الشرقية من النهر. لقد بني هذا الحصن المزود بخندق مائي ليحيط من طرفه الشمالي بالقصر الصيفي للملك «نبوخذ نصر» (انظر الشكل ١٦٧) كما كان يتراجع نحو النهر في الجهة الجنوبية من المدينة. ولقد كان يعتقد في بعض الأحيان أن الغاية من بنائه تكرار المثلث الخارجي على الجهة الغربية من النهر وتحويل المدينة إلى شكل مربع واسع المساحة. إلا أنه ليس هناك أي دليل على حدوث مثل هذا الأمر. يبلغ طول الضلعين القصيرين من المثلث (٢,٥) ميلاً لكل ضلع. وبالاعتماد على هذا الرقم يمكن تقدير مساحة المربع الذي تحدثنا عنه.

الأبنية

يتجه الشارع الرئيسي الشمالي نحو الأعلى بصورة حادة قبل الوصول إلى بوابة عشتار لذلك فقد رصفت البوابة وشارع المواكب بمنسوب أعلى من الأبنية المحيطة به ببضعة أمتار. ويتكون الرصيف من رقائق من الحجر الكلسي تزيد مساحة كل منها على متر مربع أحيطت كل منها بأحجار البريشة (صخر يتألف من شظايا متلاحمة) الحمراء. وتحت الرصيف استطاع الألمان أن يكشفوا عن أساسات البوابة وجدران الشارع وقد وجدوا أن «نبوخذ نصر» قد وصل في عمله في هذا المجال إلى عمق (١٥) متراً أي مايعادل عمق التربة النظيفة تحت الرابية. ولأن عمليات قلع الحجارة التي قام بها البناؤون المحليون قبل وصول «كولديوي» لم تترك أي أثر يذكر فوق مستوى الرصيف فإن هذه الأساسات هي كل مابقي ليراه زوار الموقع. ومع ذلك فقد ساعدت هذه الأساسات المنقبين على استعادة مخطط البوابة نفسها والتي تتميز بأبراجها وغرفها الداخلية ذات القناطر ومن الممكن مشاهدة هذه البوابة حالياً في متحف برلين بعد إعادة تشكيلها.

وفيما يتعلق بالزخارف الخارجية لهذه الأبنية الشهيرة فإن البوابة بكاملها والجدران المحاذية لشارع المواكب كانت مزينة بتصاميم من القرميد ذات ألوان براقة. كما تكررت على مسافات منتظمة تماثيل الأسود والثيران وحيوانات التنين، وقد تم

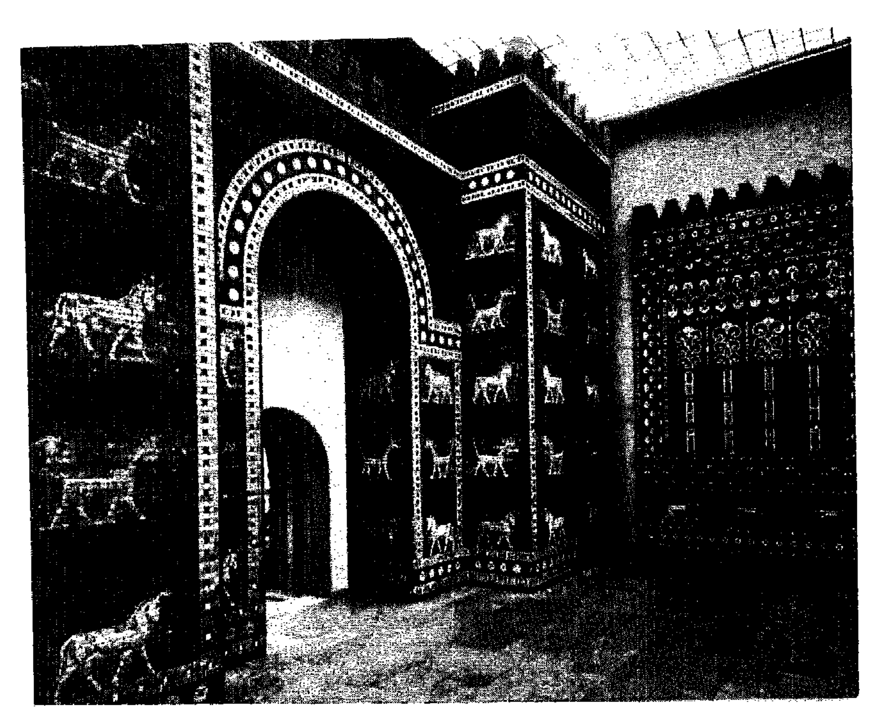


الشكل رقم ١٦٩ : رسم يمثل بوابة عشتار كما تشاهد من الشمال. كما نشاهد مقطعاً لشارع المواكب المرتفع على أساسات مزخرفة في أسفله. (عن كولديوي، ١٩٢٦).



الشكل رقم ١٧٠ : نحت نافر للتنين مصنوع من القرميد المسكوب في قوالب. وقد أخذ من واجهة بوابة عشتار في بابل. المنحوتات النافرة مطلية بطبقة مزججة وملونة بالبني والأصفر على خلفية زرقاء. الارتفاع ٩٢ سم.

تشكيل بعضها بشكل مسطح والبعض الآخر بنقوش نافرة براقة. أصبحت عملية إعـادة تشكيل هذه التصاميم ممكنة نتيجة العثور على قطعة منها بحالة سليمة عند قاعدة أحد الأبراج، أما بالنسبة لعملية تزجيج هذه الزخارف القرميدية وتجميعها فقد تأمل «كولديوي» هذا الأمر بصورة عميقة وإن كان في تأمله يفتقر إلى الوضوح. ويبقى لنا الافتراض بأن هذه الزخارف تشبه في الكثير من الجوانب الزخارف التي استعملها الآشوريون في خورساباد وفي حصن شلمنصر في نمرود.



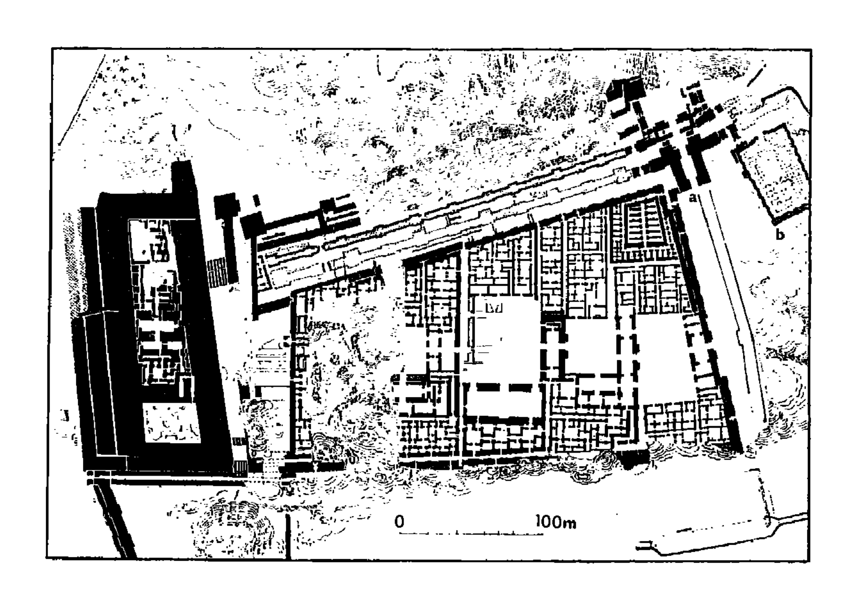
الشكل رقم ١٧١: إعادة تشكيل تمت في متحف برلين للواجهات المزخرفة لبوابة عشتار ونشاهد في اليمين ألواح القرميد المزججة المأخوذة من الواجهة الخارجية لقاعة العرش الكبرى المقابلة للمساحة الثالثة في قصر نبوخذ نصر.

ويبدو أن نفس هذا النمط من الواجهات قد استعمل في بعض أقسام القصر الملكي الذي يطلق عليه الألمان اسم «القلعة الجنوبية» ويكتسب أحد الألواح التي أخذها الألمان من جدار خارجي لغرفة العرش أهمية كبيرة، فقد تم فيه تكييف الأفكار

الكلاسيكية في التصميم مما يدل على وجود بعض العلاقة في ذلك العصر بين بابل وبلاد الإغريق. وباستثناء الضخامة في الحجم فإن التخطيط وفن العمارة لهذا البناء لايختلفان عن التقاليد الخاصة ببلاد الرافدين. وهناك خمس ساحات متعاقبة مرتبة حول محور واحد، وتقع أكبر هذه الساحات في الوسط وتبلغ أبعادها (٦٣×٥٨) متراً، ويتم الدخول إليها من نوع مما يسمى بالباب العالي. وفي الجهة الجنوبية من الساحة توجد غرفة العرش التي تشغل كامل عرض الساحة. ومثلها مثل كل قاعات الاستقبال الهامة، فقد أعطيت اتجاهاً شمالياً من أجل الحصول على جو لطيف ومعتدل في الصيف. أما المساحة الباقية فقد امتلأت بالغرف الإدارية أو السكنية. وهناك أمر آخر في الجهة الشمالية الشرقية من البناء يثير الكثير من الاهتمام، حيث نجد هنا مجموعة من غرف الخزن دون مستوى الأرض. تتميز هذه الغرف بالقناطر الحجرية بالإضافة إلى الكثير من الأعمال الحجرية المخربة. اعتقد بعض المنقبين أن هذا المكان قد يمثل الموقع الذي بنيت فيه حدائق بابل المعلقة التي قدم هيرودوت وصفاً لها. وتم التأكيد على صحة هذه الفرضية بعد اكتشاف بئر عميق تعلوه غرفة من ثلاث طبقات يحتمل أنها كانت مخصصة لأجهزة ضخ المياه إلى الحدائق في الأعلى. في السنوات الأخيرة وجد المختصون أسباباً لدحض هذه النظرية.

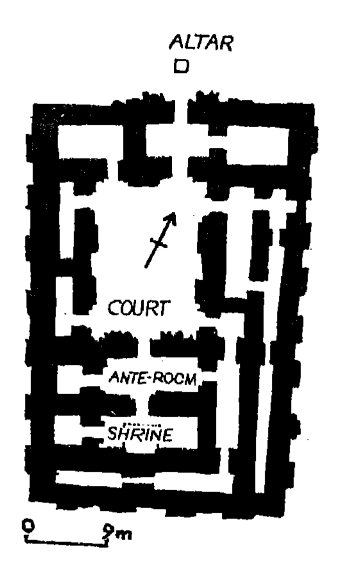
لقد سبق أن أشرنا إلى أن شارع المواكب عند اتجاهه غرباً نحو الجسر يمر بين الزيقورة «ايتمينانكي» ومعبد «مردوخ» الذين يمثلان المعبد العالي المرتفع (Hochtempel) والمعبد المنخفض الأرضي (tieftempl) في التقاليد المعمارية فإن من المحزن حقاً عدم وجود أية آثار مادية لهما. لقد كان للزيقورة التي تبلغ مساحتها أكثر من (٥٠٠) متر مربع جداران أحدهما خارجي والآخر داخلي. تم التنقيب عن مجمع للأبنية الإدارية حول هذا المعبد أما البرج المتعدد الطبقات فقد قام بعض اللصوص بسرقة محتوياته بشكل كامل. لذلك فإن كل مايمكن معرفته اليوم عن هذا البناء هو مايستنتج من أثر سلبي بقي على الأرض وهو حفرة عميقة تشبه المستنقع. وبناء على أفكار «هيرودوت» وآخرين غيره ثم افتراض أشكال مختلفة للزيقورة كان أقربها إلى الدقة والإقناع تلك التي تشبه برج السلالة الثالثة في أور[٢٨٩]. أما معبد «مردوخ» (Esagila) فهو يمثل قضية مختلفة تمام الاختلاف. لقد دفنت آثاره تحت سماكة (٢١) متراً من الحجر الدبش الذي بني فوقه مزار إسلامي معروف باسم «حجي عمران»

لذلك فإن عملية التنقيب عن هذا الأثر تعني إزالة (٣٠٠٠٠) متر مكعب من التراب ولايمكن إنجاز هذا العمل إلا بواسطة حفر أنفاق على طول قواعد الأسوار. ولقد كان ممكناً على الأقل تحديد حجم البناء الذي تبلغ أبعاده (٨٦ × ٧٨) متراً.



الشكل رقم ١٧٢: مخطط لقصر نبوخذ نصر المجاور لبوابة عشتار. غرفة العرش وجناح الاقامة الملحق بها يواجهان الساحة الكبرى التي يتم الدخول إليها بواسطة الباب العالي. مجموعة المخازن ذات القناطر التي كان يعتقد انها تدعم الحدائق المعلقة قد تم تحديد مكانها في الزاوية الشمالية الشرقية من البناء. a- بوابة عشتار. b- معبد نينماخ (عن كولديوي ١٩٢٥).

إن وجود نتائج متناقضة حول مخطط البناء يتضح لنا عندما نلاحظ أن إعادة تشكيل المعبد بصورته النهائية والنموذج الضخم له لم يكونا منسجمين حتى في تحديد موقع المذبح الرئيسي في المعبد. أما بالنسبة لأثاثه فيجب أن نكتفي ثانية بما ورد في القصص، فمن الأعاجيب الأخرى تذكر القصص وجود تمثال من الذهب بارتفاع ستة أمتار وعرش ذهبي أيضاً يبلغ وزنه (١٨,٥) طناً.



الشكل رقم ١٧٣ : مخطط لمعبد نينماخ قرب بوابة عشتار. وهو بناء يمثل العصر البابلي الأخير وقد تمت إعادة بنائه حديثاً في مكانه الأصلي. (عن ماكوين، ١٩٦٤).

بالإضافة إلى معبد «نينماخ» (Ninmakh) المجاور لبوابة عشتار والذي سبق ذكره، فقد تمت عملية تنقيب عن عدد من الهياكل الصغيرة الأخرى. ويبدو أن جميع هذه الهياكل تتفق من حيث التصميم العمراني للمدخل والساحة والمزار التي رتبت جميعها حول نفس المحور مع وجود بعض الغرف الملحقة. وفي بعض الحالات كانت للمنازل الخاصة أهمية كبيرة وذلك لوجود أثاث ضخم يمكن أن نتوقع وجوده في العاصمة فقط. ومثل كل منازل المدن في كل عصور تاريخ بلاد الرافدين، لم يكن للغرف في الطابق الأرضي أية إطلالة على الخارج وكانت تتلقى الإضاءة من الفناء المركزي للمنزل. ونطلع هنا أيضاً على نمط غريب من زخارف الواجهات الخارجية التي يحتمل أن تمثل تطوراً خاصاً في العصور البابلية الحديثة. فقد وضعت صفوف من القرميد في زاوية ضيقة على واجهة الجدار فكونت نموذجاً مسنناً على شكل سلسلة عمودية. ويمكن أن يكون هذا النمط قد اتبع نتيجة الشكل غير المنتظم للموقع وهو الذي أدى إلى حالة عدم الانسجام بين الزاوية المائلة للسور الخارجي والغرف المستطيلة التي تشكلها الجدران. ولقد ذكر هيرودوت وجود منازل ذات طبقتين أو أكثر

وعلى الرغم من الصعوبة التي عانى منها المنقبون في تأكيد ذلك الأمر، فيمكننا القول أن هذه المنازل المبنية على غرار المنازل التي قام «وولي» بالتنقيب عنها في «أور» كانت تتلقى الإضاءة ويتم الدخول إليها من بهو في الطابق العلوي[٢٩٠]. أما أماكن العبادة الخاصة التي تحتوي على مدافن تحتها فتوحي بوجود نمط آخر من الحياة المنزلية في بابل.

إن الأدلـة على وجـود الأبنية الضخمة في عصر ملوك الدولة البابلية الحديثة تقتصر على العاصمة فقط. ولقد سبق وذكرنا قيام نبوخذ نصر بإعادة بناء أسوار مدينة أور وبـوابـاتها وموانئها المحصنة على نهر الفرات الذي كان طريقاً للتجارة بواسطة السفن. وفي موقع جديد في المدينة ظهر بناء كبير عرف باسم قصر «بل - شالتي - نانار» (Bel- Shalti- Nannar) وهو ينتمي إلى نفس العصر[٢٩١]. أما في «كيش» فقد بنيت معـابـد ضخمة ماتزال جدرانها قائمة على ارتفاع عدة أمتار. وفي كل مدينة سومرية أخرى تقريباً فإن الأكوام المكدسة من القرميد المشوي بالفرن والمختومة باسم نبـوخذ نصر تؤكد قيامه بإصلاح وترميم وتجديد الهياكل القديمة بصورة أعادت لها روعتها وعظمتها.



الشكل رقم ١٧٤: واجهات معابد تعود للعصر البابلي الحديث على قمة تل «هارسا كالاما» في كيش وهي ماتزال قائمة على ارتفاع ٥,٦ متراً. تدل الأساسات على انها من عصر نبوخذ نصر.

وفي تلخيصنا لنتائج عمليات التنقيب الأثري في بابل، من المدهش حقاً أن نجد القليل فقط من أعمال النحت. ولقد كان المنقبون الأثريون الألمان أول من يظهر خيبة أمل كبيرة لهذه الظاهرة. يظهر هذا الشعور في تعليق لأحد الكتاب حيث يقول:

«إن ندرة الأعمال الفنية في هذا العصر تجعل من المستحيل تقدير قيمة إنجازاتهم الفنية». ويضيف: «لقد تميز العصر بنشاط أدبي كثيف إذ استطاع العالم الهيلينيستي أن يحصل على معارفه في علم الفلك وغيره من العلوم عند البابليين. إلا أن الفن البابلي الحديث لم يؤثر على الغرب. لقد حصل الإغريق على نماذجهم الفنية من الآشوريين على الرغم من وجود الفينيقيين في موقع متوسط بينهما»(٢٩٢).

حاشـــية

في السنوات الأخيرة استمر ورود تقارير عن اكتشافات جديدة ترتبط بموضوع هذا الكتاب بالرغم من أن مواقع هذه الاكتشافات تقع خلف حدود ممالك بلاد الرافدين القديمة. ستؤدي هذه الاكتشافات إلى توسيع جديد في دائرة المنظور التاريخي للمنطقة. وإن أحد الأمثلة الرئيسة التي يجدر التنويه عنها هنا هو عملية تنقيب أثري ماتزال جارية ولابد أن يكون لها أهمية كبيرة في هذا المجال.

في موقع يدعى «تل مرديخ» يقع على بعد (٣١) ميلاً إلى الجنوب من مدينة حلب في سورية تم اكتشاف آثار مدينة «إيبلا» التي سبق أن عرفنا أسماء بعض حكامها في الألف الثالث قبل الميلاد. ومن عصر أحدث قليلاً أي في وقت يعاصر سلالة «لارسا» والسلالة العمورية في بابل اكتشفت آثار معمارية وتماثيل تنافس من حيث الأهمية وحسن التنفيذ الآثار المعروفة في بلاد الرافين. لكن الاكتشاف الأعظم والذي نضيفه هنا هو أرشيف من الألواح الكتابية التي يصل عددها إلى الآلاف والتي وصل ماكتب على بعضها إلى أكثر من ألف سطر من الكتابة. إن النقوش الكتابية لهذه الألواح والتي كانت بلغة غير مألوفة من النوع السامي الغربي قد تم التعرف عليها من خلال النماذج المتعددة والمتنوعة للغات السومرية المماثلة. ولكن بعيداً عن أهميتها اللغوية فإن البيئة التي وجدت فيها الألواح يمكن بحد ذاتها أن تمثل اختراقاً حقيقياً إلى عالم جديد من الاكتشاف. إن النقطة التي تساهم هذه الاكتشافات في توضيحها كما جاء في كلمات المنقب الأثري هي أن: «جنوب بلاد الرافدين لم تكن السلف الوحيد للحضارة والكتابة في كل منطقة الشرق الأدنى، وأن عمليات مماثلة كانت

تجري فوق منطقة أكثر اتساعاً تمتد من المشرق حتى عيلام»[٢٩٣].

وفي هذه الأثناء أيضاً فإن مصدراً جديداً للمعلومات يرتبط بعصور أكثر قدماً في التطور الثقافي والحضاري لمنطقة بلاد الرافدين، تجري عملية إنقاذه في منطقة واسعة ستغمر بالمياه نتيجة إقامة سدود جديدة على الأنهار والروافد. ومن الأمثلة على هذه المصادر الموقع الذي اكتشف في تل محمد عرب في منطقة سد «اسكي موصل».

وربما سيكون هذا الموقع نموذجياً لإجراء دراسات أكثر عمقاً لعصر (نينوى ـ ٥» (Ninevite-Five) الذي يعاصر المدن السومرية في الجنوب. كما وأن عمليات التنقيب الأثري في منطقة سد الطبقة على نهر الفرات شرق مدينة حلب قد كشفت وجود مواقع أثرية من عصر أوروك. وفي «حبوبه الكبيرة» اكتشف المنقبون الألمان آثار حصن ضخم يمتد لمسافة نصف كيلو متر على طول نهر الفرات ويحيط بشبكة كثيفة من الشوارع حيث يؤدي طريق يتجه شمالاً وجنوباً إلى قلعة تعرف اليوم باسم «تل قناص».

وكان زملاء لهم قد اكتشفوا بقايا معبد يشبه في مخططه «المعبد الأبيض» في أوروك أو «المعبد المدهون» في «العقير» (Uqair). أما المعابد الأخرى فقد كانت من النموذج الصليبي الذي يشبه النماذج الشهيرة للمعابد في أوروك نفسها.

إن هذه الاكتشافات، بالإضافة إلى ظهور نموذج أوروك في جنوب الأناضول والمواد العبيدية أيضاً، تعتبر دليلاً على الأصل الشمالي لحضارة أوروك. ولقد حدث اضطراب وغموض في دقة هذه النتيجة بعد الاكتشافات التي تمت في حوض «حمرين» شمال بغداد. ففي «عبادة» قرب خانقين وخلال عمليات إنقاذ للآثار ظهرت مستوطنة تعود إلى عصور ماقبل التاريخ معاصرة لأقدم مراحل الاستيطان في «أريدو» و«سامراء» كما كشف النقاب عن بعض الآثار المعمارية الباقية بحالة سليمة. تشمل هذه الآثار مجمعاً دينياً يتألف من وحدات متعددة من النموذج المتصالب، وقد تكررت هذه الوحدات في أبنية مجاورة أصغر حجماً يعتقد بأنها أبنية سكنية. إن التناقض في التاريخ بين فترة الإقامة في هذه القرية وظهور المزارات الصليبية التي ذكرناها سابقاً تشكل مسألة تحتاج إلى الكثير من البحث والدراسة.

خلال القرن الماضي، كما حاولنا أن نبين في هذه الصفحات، تمت دراسة منطقة بلاد الرافدين وآثارها بكثير من التعمق.

وكموضوع متخصص فإن الإمكانيات التي توفرها هذه المنطقة مازالت غير محدودة لكن هناك الكثير من المعلومات التي نترقب الحصول عليها نتيجة عمليات البحث الإضافي في مجالات مجهولة من حقول وميادين البحث في آثار منطقة الشرق الأدنى.

انتهى

محتويات الكتاب

Notes on the Text

هوامش ومراجع الكتاب باللغة الانكليزية

1 The best commentary on the geography of Iraq is in Brice (1966, chs. 11 and 21).

2 But see Roux (1960, pp. 20–31).

3 Lees and Falcon (1952, pp. 24–39).

4 Jacobsen (1960), pp. 174–83). His theory is at present *sub judice*.

5 See Adams (1958, pp. 101–4).

6 See Jacobsen (1958a, p. 1251).

7 See Oates, D. (1968, fig. 2, p. 14).

8 See chronological table in Solecki (1971, fig. 8, p. 182).

9 See Van Zeist (1977) and (1982).

9a Subsequent excavations at Zarzi are reported in Wahida (1981).

10 Garrod (1930, p. 8).

11 Solecki (1971); note in particular map 2, on p. 17.

12 Their work is fully reported in Braidwood and Howe (1960).

13 Childe (1950), quoted in Singh (1974, p. 4).

14 Çambel and Braidwood (1980).

15 Mellaart (1967).

16 Singh (1974); for a fuller account see Mellaart (1975) or D. and J. Oates (1976).

17 Lamberg-Karlovski (1974).

18 Braidwood (1974b).

19 Mortensen (1964, p. 32 ff.).

20 Braidwood (1960, p. 173).

21 An analysis and discussion of all these soundings is presented in Perkins (1949), and by A. Porada in Ehrich (1965).

22 The German reports have been published at great length, mostly in the series *Uruk Vorläufige Berichte* (titles vary), and *Abhandlungen der Deutsche Orient Gesellschaft*, in progress since 1929. An almost up-to-date summary in English is to be found in Mallowan (1970, ch. 8/1, p. 360 ff.), and in Frankfort and Davies (1971, ch. 12). But note also the more recent find of a level IVa–b palace, in Lenzen (1974, p. 111).

23 Mackay (1931) and elsewhere.

24 See Lloyd and Safar (1947, p. 84 ff. and 1948, p. 115 ff.); also Lloyd (1947 and 1948).

25 Delougaz and Lloyd (1942).

26 These and other proposed changes in stratigraphical terminology are well shown diagrammatically by E. Porada in Ehrich (1965, p. 176).

27 Heinrich (1957).

28 Safar (1950, p. 27 ff).

29 Van Buren (1972).

30 Ziegler (1953).

31 Oates, Joan (1960, pp. 32–50).

32 See 'Excavations in Iraq, 1971–72', *Iraq*, 34, pt 2 (1972), p. 149.

33 Lloyd and Safar (1943, p. 131 ff.).

34 Heinrich (1957).

35 Van Buren (1952, p. 76 ff.). Also see Moorey (1975).

36 *Riemchen* in German, meaning 'prismatic', is the name used by the excavators for the small, rectangular mud bricks characteristic of the Uruk period.

37 Delougaz and Lloyd (1942).

38 Mostly accounts and inventories.

39 A full discussion of this script will be found in Falkenstein (1936).

39a See Schmandt-Besserat (1977).

40 Roux (1964, p. 82).

41 General reference books for cylinder-seals are Frankfort (1939), Porada (1948) and Amiet (1961).

42 Some fine examples are illustrated in Frankfort (1955, pl. 1 ff.).

42a A basic work on the subject is Porada (1948).

43 Well illustrated in Delougaz (1952).

44 E.g. in Frankfort (1951).

45 See Falkenstein (1965, p. 269 ff.).

46 See Lamberg-Karlovsky (1974).

47 Cf. Kramer (1963, p. 111 ff.).

48 Cf. D. and J. Oates (1976, p. 136).

49 See Lloyd (1960).

50 Oates, Joan (1976, pp. 20–31), with map, fig. 1, p. 23, and Burkholder (1972, pp. 264–9). The writer is indebted to Dr Oates for the further information which follows.

51 For a comparative analysis in detail of the evidence from these excavations, in northern Iraq, see Mellaart (1975) Also to be recommended is the site-by-site commentary in Mallowan (1970, ch. 8/2, p. 376 ff.).

52 Mallowan and Rose (1935). A subsequent excavation at Arpachiyah by Ismail Hijara is reported in *Iraq* 42/2 (1980).

53 See Speiser (1935) and Tobler (1950).

54 Herzfeld (1950).

55 Thompson and Mallowan (1932, p. 71 ff.).

56 Lloyd and Safar (1945, p. 255 ff.).

57 Summary reports in English: Munchajef and Merpert (1969 onwards).

58 Preliminary reports: Kirkbride (1972 onwards).

59 Of the animal bones 68·5% were onager and 15·9% gazelle.

60 See Braidwood *et al.* (1952, p. 1 ff.).

61 Preliminary reports by B. Abu-al-Soof and others in *Sumer*, 21 (1965) to 24 (1968).

62 See Oates, Joan (1966).

63 See Oates, Joan (1969) and Braidwood (1944, pp. 47–72).

64 E.g. at Yanik Tepe in Azarbaijan: Burney (1964). But see Hijara (1980).

65 Cf. Mallowan (1970, ch. 8/2, footnote no. 2 on p. 383).

66 See Mallowan (1947, p. 1 ff.).

67 See Braidwood (1944, pp. 47–72).

68 Typical examples of Samarra and Tel Halaf painted pottery are well illustrated in colour in Strommenger (1964, pl. II).

69 Lloyd (1938, p. 123 ff.).

70 See Ucko (1968).

71 Munchajef and Merpert (1971, pl. V, fig. 2 and pl. VII, fig. 10).

72 Oates, Joan (1969a) and illustrations reproduced in Singh (1974, figs. 59a–d, 60 and 61).

73 Typical figurines from these two sites are illustrated side-by-side in Strommenger (1964, pl. 6).

74 See Speiser (1935, pl. CXLII, p. 36) and Barnett (1966).

75 Syria and Iran are covered rather more fully in Mellaart (1975).

76 Two of these are illustrated in colour in Strommenger (1964, pls. III and IV).

77 See Le Breton (1957, p. 79 ff.), with diagrams of comparative chronology.

78 See Lamberg-Karlovsky (1970). It should be noted that recent excavations in Susiana and at Deh Luran have now complicated the Susiana sequence and its relationship with Iraq, as may be gathered from new synchronisms mentioned by Oates in Curtis (1983).

79 Jacobsen (1939). Simply presented in Woolley (1965, pp. 21–6).

80 A useful English translation is Sandars (1960).

81 There is a summary of the evidence in Gadd (1971, ch. 13, p. 93).

82 Sollberger (1960, p. 69 ff.). Recently found tablets from Abu Salabikh are closely comparable with those from Farah (written by scribes with Akkadian names). Cf. Postgate in Curtis (1983), p. 50.

83 Hall and Woolley (1927).

84 See Kramer (1965).

85 Delougaz and Lloyd (1942, fig. 115, p. 134), and alternative dating in Ehrich (1954, table on p. 176).

86 This subject has been exhaustively studied in Mallowan (1964, p. 62 ff.). At Kish he noted several alternative 'Flood-levels'.

87 See Kramer (1956, p. 290).

88 See Sollberger (1954–6, p. 10 ff.).

89 See Edzard (1959, p. 9 ff.).

90 See Kramer (1952).

91 The relevant final publications of the Ḳhafaje excavations are, Delougaz (1940) and Delougaz and Lloyd (1942).

92 For burials, see Delougaz *et al.* (1967).

93 Delougaz and Lloyd (1942).

94 Delougaz and Lloyd (1942).

95 Woolley's preliminary reports were published under the heading 'Excavations at Ur', in the *Antiquaries Journal*, 3 (1923), to 14 (1934), and republished in a single volume by Benn, London (Woolley 1954). Of the final publications, Woolley (1934), Woolley (1939) and Woolley (1974) are relevant to this chapter.

96 Site-plans are reproduced in colour in Hawkes (1974, p. 173).

97 For the identity of these animals, see Dyson (1960, p. 102 ff.).

98 Cf. Gadd (1960, p. 51).

99 See Hall and Woolley (1927).

100 See Delougaz (1938, p. 1ff.).

101 Mackay (1929): also Waterlin and Langdon (1930–4).

102 See Moorey (1966, p. 83) and Lloyd (1969, p. 40).

103 De Sarzec and Heuzey (1884–1912).

104 Jacobsen (1958, pp. 127–9).

105 See Crawford (1974, p. 29 ff.).

106 Parrot (1948).

107 For easy reference, see site-plan in Hawkes (1974, p. 174).

108 For preliminary reports, see Haines (1956, 1958, 1961), and Hansen and Dales (1962).

109 See Hansen (1965, pp. 201–13).

110 See Hansen (1963).

111 For plan in colour, see Hawkes (1974. p. 181).

112 See Andrae (1922). The results of this excavation are summarized in English in Mallowan (1971, ch. 16, p. 298), and in French (with plan) in Parrot (1946, p. 224 ff. and fig. 52).

113 Cf. Edzard (1959, p. 9 ff.).

114 Preliminary reports on A. Parrot's excavations at Mari appeared annually in *Syria* and other journals, from 1935 onwards. Their final publication is in the series *Mission Archéologique de Mari*, of which vol. 1 (1956), vol. 2, pts 1–3 (1958), vol. 3 and vol. 4 (both 1967) are relevant. Vol. 2, pt 2 and vol. 4 are reviewed in English in Mallowan (1969). The Ishtar Temple is described (with plan) in Mallowan (1971, p. 291 ff.).

115 See Moortgat (1959 *et seq.*). The results are discussed in Mallowan (1966a) and Mallowan (1971, ch. 16).

116 Mallowan (1971, ch. 16).

117 E.g. Moortgat (1959 *et seq.*) and elsewhere.

118 Cf. Ehrich (1965, p. 162).

119 Cf. Frankfort (1954, p. 23 ff.). All Early Dynastic sculpture from the Diyala sites is published by the same writer in Frankfort (1939 and 1943).

120 Andrae (1922).

121 See Frankfort (1939 and 1943).

122 Illustrated in Frankfort (1954, pl. 9b).

123 Illustrated in Frankfort (1954, pl. 13).

124 See Frankfort (1939, footnotes on pp. 51 and 54).

125 Well illustrated in Strommenger (1964, pls. 88–100 and in colour, pl. XX).

126 Strommenger (1964, p. 401) refers to this individual, probably rightly, as 'he'. But see also Barnett (1969, p. 96). A statue from the same provenance, showing a headless couple holding hands, represents a convention occasionally seen elsewhere.

127 Frankfort (1954, pl. 26b).

128 See Hansen (1963, p. 146).

129 Frankfort (1954, pl. 33b).

130 Frankfort (1954, pl. 33a).

131 Hansen (1963). He detected two main phases in their stylistic development, equating the first with the earlier half of the 'ED II' period, and the second with a transitional phase extending to cover 'ED IIIa'. This suggests a sub-division of the 'ED II' period, which would conform to the German system of chronology outlined above on p. 110.

132 Hansen (1963, pl. VI). See also below, p. 131.

133 Illustrated in detail in Strommenger (1964, pls. 66–9)

134 Lamberg-Karlovsky (1974, p. 283).

135 Strommenger (1964, pls. 38–9). See also Delougaz (1960).

136 The making and use of these bricks is explained in Delougaz (1933).

137 E.g. in Sin Temple VIII at Khafaje, in level VIII of the Inanna Temple at Nippur and, most notably, in Palace 'A' at Kish.

138 Delougaz and Lloyd (1942, pl. 23).

139 Delougaz and Lloyd (1942, pl. 12).

140 Delougaz and Lloyd (1942, fig. 203, p. 263).

141 Haines (1961).

142 Delougaz, Hill and Lloyd (1967, pl. 36).

143 Strommenger (1964, fig. 17, p. 391).

144 Safar (1950, fig. 3).

145 Parrot (1972, fig. 2, p. 285).

146 The seals of all three phases are described and illustrated in Frankfort (1939).

147 These two figures were associated by an earlier generation of archaeologists with Gilgamesh and his companion Enkidu of the famous epic; but the equation is today treated with some reserve. Compare Frankfort (1939, p. 62).

148 The most important commentary on objects under this heading is to be found in Woolley (1934).

149 The most satisfying reconstruction of such a headdress is perhaps to be seen in the Iraq Museum exhibit, mounted by an Iraqi sculptor on an imaginary head and shoulders. It is shown here, ill. 85. See also Maxwell-Hyslop (1960).

150 Frankfort (1954, pl. 20a).

151 Best illustrated in Strommenger (1964, pl. 72, and colour pls. X and XI).

152 Parrot (1962, pls. 11 and 12 and fig. 11, p. 164).

153 Compare the top left-hand figure in the 'Peace Scene' of the 'royal standard', ill. 87.

154 Barnett (1969). The anatomy of these instruments, in relation to the known principles of Sumerian music, was first discussed in Galpin (1929). A

more up-to-date commentary on them is to be found in Rimmer (1960).

155 Strommenger (1964, pl. XIV in colour).

156 A long and very detailed study of Early Dynastic pottery, with colour illustrations of painted wares, at this and earlier periods, may be found in Delougaz (1952). See also Strommenger (1964, pls. VIII and IX).

157 See Mallowan (1964, p. 142 ff.).

158 Strommenger (1964, pl. 41).

159 George Roux (1964) competently summarizes earlier information on this subject. Further evidence is now available, e.g. in the form of texts from Abu Salabikh, mentioned in note 82.

160 Saggs (1962, p. 272 ff.).

161 These two rock reliefs are discussed stylistically in Barrelet (1959, p. 20). See also Strommenger (1936, p. 83 ff.).

162 Hilprecht (1903).

163 Scheil (1902).

164 Banks (1912).

165 Waterlin and Langdon (1930–4). See also Moorey (1966, pp. 18–51) and Lloyd (1969, pp. 40–8).

166 Woolley (1934).

167 Delougaz, Hill and Lloyd (1967, p. 186 ff. and pl. 37).

168 Delougaz, Hill and Lloyd (1967, p. 196 ff.). The present writer, who was responsible for the excavation of the Northern Palace at Tell Asmar, finds the argument for this theory unconvincing. Delougaz dates the building to a so-called 'Proto-Imperial' period, defined by Th. Jacobsen, in *Assyriological Studies*, no. 11, table II, as lasting from the reign of the Lagashite king, Entemena, to the first years of Sargon-of-Akkad.

169 Delougaz, Hill and Lloyd (1967, pl. 64).

170 Delougaz, Hill and Lloyd (1967, p. 54 ff. and pl. 20).

171 Mallowan (1947, p. 26 ff. and 63 ff.). Plan also reproduced in Strommenger (1964, fig. 18, p. 403).

172 Mallowan (1932, pl. L), also (1936), p. 104 ff. and pls. V–VII. Illustrated in colour in Strommenger (1964, pls. XXII–XXIII).

173 Originally published in *Mémoires du Délégation en Perse*, vol. I, 1900, pl. X.

174 E.g. two fragments published in Strommenger (1964, pls. 114–15).

175 Strommenger (1964, pls. 118–19), also discussed in Barrelet (1959). The same might be said of a fragmentary nude statue, bearing a dedication to Haram-Sin, more recently found near Dohuk and illustrated in J. Oates (1979), p. 35.

176 Compare Akkadian seals illustrated in Frankfort (1939), Moortgat (1940) and Wiseman (n.d.).

177 See Frankfort (1934).

178 Frankfort (1933, pp. 47–53, figs. 30–3), also Gadd (1933), and Corbieau (1937, p. 1 ff.).

179 Starr (1939).

180 Lambert and Tournay (1951).

181 De Sarzec and Heuzey (1884–1912), also Parrot (1948).

182 What follows is partly taken from an abbreviated account in Parrot (1946, pp. 127 ff.).

183 These statues were first published in de Sarzec and Heuzey (1884–1912). They are well illustrated in Strommenger (1964, pls. XXVI and 133–7).

184 Crawford (1974) and the accompanying footnotes.

185 Woolley's preliminary reports, as has been said, were published immediately after the end of each season's digging. Mallowan, in his introduction to the Memorial Volume, *Iraq*, vol. 22, published soon after Woolley's death in 1960, recalls how these articles were often 'written on board ship as he travelled home'. For the titles of volumes in the final publication (*Ur Excavations*), see Bibliography.

186 See Woolley (1974, pls. 53 and 61).

187 See Woolley (1939). Woolley's several perspective restorations have been widely published and are well known.

188 The only parallels in architectural history for this practice are to be seen in the mausolea of Augustus and Hadrian at Rome. See Bannister-Fletcher (1961, p. 237, figs. b and c).

189 See Woolley and Mallowan (1974, pl. 54).

190 See Frankfort, Lloyd and Jacobsen (1940, pl. 1 *passim*).

191 A good account of Mesopotamian history in the 2nd millennium BC is to be found in Roux (1964).

192 Published as the *Archives Royales de Mari*, Paris 1950 onwards (transliterations and translations).

193 See D. Oates (1968, p. 31 ff.).

194 See Parrot (1938, pp. 308–10).

195 See McEwan (1958).

196 Frankfort *et al.* (1940).

197 Turner (1968).

198 Frankfort *et al.* (1940, pl. 7).

199 Frankfort (1936, p. 74 ff.).

200 See Smith and Baqir (1946); Baqir (1948 and 1959); Gurney (1950).

201 See Woolley (1954, fig. 12, p. 176).

202 E.g. in Woolley (1935, pl. 12).

203 Preliminary reports in *Syria* (1935–67) and *Annales Archéologiques de Syrie* (1951–67). Final publication: see Bibliography under Parrot.

204 Illustrated in colour, e.g. in Strommenger (1964, pls. XXVIII and XXIX) and in Parrot (1961).

205 See Barrelet (1950).

206 See Parrot (1967a).

207 Annual reports by Oates, D. in *Iraq*, 27–34 (1965–72).

208 See Oates, D. (1967, p. 70 ff.). He refers to similar façade ornament at Ur, 'flanking the entrance to the bastion of Warad-Sin, which was built *c.* 1830 BC'. Cf. Woolley (1939, p. 42–3).

209 See Oates, D. (1973, p. 183).

210 All these sculptures are well illustrated in Strommenger (1954, figs. 148–54). But see J. R. Kupper in *Revue d'Assyriologie*, 15 (1971), p. 113 ff.

211 The 'Burney Plaque', illustrated here, ill. 118, and in Frankfort (1954, fig. 56).

212 Strommenger (1964, pl. xxvii).

213 Strommenger (1964, fig. 170).

214 Baqir (1944, 1945 and 1946a).

215 Baqir (1946a).

216 Baqir (1946a, pls. XI–XIV).

217 E.g. Frankfort (1954, pl. 71).

218 Baqir (1945, pls. 17 and 21).

219 Frankfort (1954, pls. 70b and 70c).

220 Starr (1938).

221 For once, a very revealing analysis of their contents is appended to the main publication (Starr 1938, vol. 1, p. 528 ff.).

222 Starr (1938, general plan in folder).

223 Strommenger (1964, fig. 40, p. 430).

224 Frankfort (1954, fig. 64, p. 142); also Mallowan (1939, pp. 887–94), and Ceccini (1965).

225 Strommenger (1964, fig. 179, bottom row).

226 Published by W. Andrae in *Wissenschaftliche Veröffentlichungen der deutschen Orient Gesellschaft*, no. 10 (1909), no. 23 (1913), no. 24 (1913), no. 39 (1922), no. 58 (1935), and summarized by him in Andrae (1938).

227 Andrae's site plan is reproduced in Strommenger (1964, fig. 46, p. 434).

228 Earlier excavators at Ashur had included Rich, Layard, Place, Rassam and finally George Smith of the British Museum. See Lloyd (1955).

229 Reproduced in Strommenger (1964, fig. 47, p. 435), from Andrae (1938).

230 Andrae (1925). Examples illustrated in Frankfort (1954, pls. 74 A–B).

231 Frankfort (1954, p. 65).

232 See Frankfort (1939) and Porada (1948).

233 Weber (1920, p. 105, no. 531).

234 Moortgat (1944, p. 43, figs. 45b and 46).

235 See Jacobsen and Lloyd (1935). For other rock-reliefs of Sennacherib, see Bachmann (1927).

236 Lloyd (1947 with illustrations, and 1955).

237 For the site of Nimrud and its surroundings, see Mallowan (1966b, vol. 1, ch. 1) and Oates, D. (1968, ch. 3).

238 Layard's two principal books are Layard (1950 and 1953).

239 Rassam's excavations are recorded, as a rule rather briefly, in Rassam (1897).

240 Loftus (1857).

241 Botta and Flandin (1849–50).

242 Place (1867–70).

243 See Gadd (1936, p. 57). These two figures were purchased from the French Consular Agent in 1849 and sawn into four pieces each. They were transported safely by sea from Basrah to London, though the ship was reported to be 'well down in the water'.

244 An early survey was published in Jones (1857).

245 See Finch (1948, p. 9 ff.) and Madhloum (1967 or 1968).

246 See plan in Layard (1853, vol. 1, facing p. 67).

247 See plan of Ashurbanipal's palace in Rassam (1897, facing p. 8); for Balawat, King (1915), also Barnett (1973) and D. Oates on more recent excavations in *Iraq*, 36 (1974).

248 See Loud (1936).

249 See Loud and Altmann (1938).

250 Since Loud and Altmann (1938) is a heavy volume, Loud's plans may more conveniently be consulted in e.g. Strommenger (1964, pp. 445–7).

251 See Turner (1970, p. 177 ff.).

252 Reproduced in Frankfort (1954, fig. 32, p. 79).

253 For the *bit hilani*, see Frankfort (1952).

254 See Loud and Altmann (1938, p. 19).

255 Reproduced in Frankfort (1954, fig. 40, p. 103).

256 Reproduced in Frankfort (1954, pl. 82).

257 The pair of bulls from Gate 'A', now at the entrance to the Iraq Museum, measured 4·4 m square and weighed over 20 tons. The single bull, with head facing sideways, from the throne-room entrance, now in the Oriental Institute Museum, Chicago, was 4·7 m square, and the largest fragment weighed 14 tons. Other fragments remain *in situ* of an even larger bull, measuring 5·5 m square.

258 Frankfort (1954, pl. 87).

259 Frankfort (1954, pl. 90).

260 Frankfort (1954, fig. 41, p. 104).

261 Strommenger (1964, pl. 209–14).

262 King (1915).

263 See Barnett (1973, p. 442 and notes).

264 Thureau-Dangin and Dunand (1936).

265 See Parrot (1961, pls. I–IV and figs. 109–20, 266 and 336–48).

266 Some of the best photographs are those taken by Max Hirmer to illustrate Strommenger (1964).

267 Strommenger (1964, pl. 241).

268 E.g. Madhloum (1964).

269 See Mallowan (1966).

270 See plan of the citadel in Mallowan (1966, fig. 1, p. 32).

271 See Mallowan (1966, vol. 1, facing p. 128).

272 See Mallowan (1966, vol. 1, Frontispiece).

273 See Plenderleith's report, quoted by Mallowan: Mallowan (1966, p. 139).

274 Preliminary reports by D. Oates in *Iraq* and *Illustrated London News* from 1957 to 1963. Finally published in Mallowan (1966, vol. 2).

275 See Turner (1960, p. 68 ff.).

276 Well illustrated in *Illustrated London News*, 1 December 1962.

277 See Mallowan (1966, vol. 2, fig. 373, p. 453).

278 In the second volume of Mallowan's major work on the excavations at Nimrud, he deals with two groups of ivories, one from rooms NW.15, SW.2 and SW.7, the other from rooms SW.12, SW.37. This last is one of the eight magazines – each almost 30 m long – of which the storage space in the Southwest courtyard is composed. The remainder are marked on the plan 'partly excavated'. See Mallowan (1966, folding plan no. 8).

279 The final publication of the ivories (Commentary, catalogue and Plates), has appeared in a succession of fascicles under the title *Ivories from Nimrud* (1966, 1970, 1974). Many more are to be expected as the Iraqi excavations continue to be published.

280 Barnett (1957).

281 It has been compared to the 'Chinoiserie' phase of English ornament in the 18th century.

282 See Gadd (1958, p. 35 ff.).

283 Herodotus (*History*, Bk 1, ch. 191 ff.), and Xenophon (*Cyropaedia*, Book VII, ch. V, 10), maintain that Cyrus diverted the course of the Euphrates, so that his troops could enter the city along its dry bed. Koldewey (in F. Wetsel, *Die Stadtmauern von Babylon*, Leipzig 1930, p. 53), was inclined to believe that something of this sort did in fact happen. Others have doubted it.

284 Herodotus' account (Bk 1, ch. 178 ff.), is very fully discussed and compared with the excavators' findings in Ravn (1942), a book in English which is unfortunately difficult to obtain. Koldewey's semi-popular account of his work appeared in 1914, poorly translated into English. A better summary is to be found in MacQueen (1964).

285 See Lloyd (1947).

286 Koldewey's own reports appeared in the *Mitteilunger der deutschen Orient Gesellschaft* (MDOG), in the years between 1899 and 1932.

287 For the site plan before excavation, see Koldewey (1925, fig. 1), and for the inner city after excavation, *ibid.*, fig. 256.

288 Herodotus (*History*, Bk 1, ch. 186), describes how this bridge was built by 'Nitochris'.

289 Various reconstructions are illustrated side-by-side in Ravn (1942, pls. 14 and 15).

290 Discussed fully in Ravn (1942, p. 67 ff.).

291 Woolley's plan of the Neo-Babylonian temenos at Ur appears in Woolley and Mallowan (1962, pl. 60), and that of the Bel-Shalti-Nannar palace in *ibid.*, pl. 70. For the plan of the outer city wall, see Hawkes (1974, p. 173).

292 Frankfort (1954, p. 108).

293 Matthiae (1980).

294 The journals *Iraq*, *Annales archéologiques de Syrie* and *Anatolian Studies* publish regular reports on current archaeological work.

Bibliography

General Recommendations

BEEK, M. A. *Atlas of Mesopotamia*, London 1962.
CURTIS, J. (ed.) *Fifty Years of Mesopotamian Discovery*, London 1983.
EHRICH, R. W. (ed.) *Chronologies in Old World Archaeology*, Chicago 1965.
ELLIS, R. S. *A Bibliography of Mesopotamian Archaeological Sites*, Harrassowitz, Wiesbaden 1972.
HAWKES, JACQUETTA *The First Great Civilizations*, London and New York 1973.
KRAMER, S. N. *The Sumerians*, Chicago 1963.
LLOYD, SETON *Foundations in the Dust*, rev. edn, London and New York 1980.
MALLOWAN, M. E. L. *Twenty-Five Years of Mesopotamian Discovery*, British School of Archaeology in Iraq, London 1956.
MOORTGAT, A. *The Art of Ancient Mesopotamia*, London 1969.
OATES, J. *Babylon*, London and New York 1979.
OPPENHEIM, A. L. *Ancient Mesopotamia*, Chicago 1964.
PARROT, A. *Archéologie Mésopotamienne*, vol. 1, *Les Etapes*, Paris 1946; vol. 2, *Technique et Probèmes*, Paris 1953.
PERKINS, A. L. *The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia*, Studies in Ancient Oriental Civilization, no. 25, Chicago 1949.
ROUX, GEORGE *Ancient Iraq*, London 1964.
SAGGS, H. W. F. *The Greatness that was Babylon*, London 1962.
STROMMENGER, E. *The Art of Mesopotamia*, London 1964.

Other References

ADAMS, R. M. 'Survey of Ancient Water Courses and Settlements in Central Iraq', *Sumer*, 14 (1958).
ADAMS, R. M. and NISSEN, H. J. *The Uruk Countryside*, Chicago 1972.
AMIET, P. *La Glyptique Mésopotamienne*, Paris 1961.
ANDRAE, W. *Die archäischen Ischtar Tempel*, Mitteilungen der deutschen Orient-Gesellschaft, Berlin 1922.
——*Farbige Keramik aus Assur* (Coloured Ceramics from Assur), Berlin 1925.
——*Das Wiedererstandene Assur*, Leipzig 1938.
BACHMANN, W. *Felsreliefs in Assyrien*, Leipzig 1927.
BANKS, E. J. *Bismaya or the Lost City of Adab*, New York 1912.
BANNISTER-FLETCHER *A History of Architecture*, London 1961.
BAQIR, T. 'Iraq Government Excavations at 'Aqar Quf, 1942–43', *Iraq*, Supplement (1944).
——'Iraq Government Excavations at 'Aqar Quf; Second Preliminary Report', *Iraq*, Supplement (1945).
——'Iraq Government Excavations at 'Aqar Quf; Third Interim Report', *Iraq*, 8 (1946a).
——'Tell Harmal: A Preliminary Report', *Sumer*, 2, pt 2 (1946b), 226.
——*Tell Harmal*, Baghdad 1959.
——'A New Law Code from Tell Harmal', *Sumer*, 4, no. i (1948).
BARNETT, R. D. *A Catalogue of the Nimrud Ivories in the British Museum*, London 1957.

——'Homme Masque ou Dieux-Ibex', *Syria*, 43 (1966).
——'New Facts about Musical Instruments from Ur', *Iraq*, 31, pt 2 (1969).
——'Le Palais et le Royauté', *Proceedings of the XIXe Rencontre Assyriologique Internationale*, Paris 1971.
——'More Balawat Gates', *Studies Dedicated to F. M. T. de L. Bohl*, Brill, Leiden 1973.
BARRELET, M.-TH. 'Une Peinture de la Cour 106 du Palais de Mari', *Studia Mariana*, Brill, Leiden 1950, pp. 9–35.
——'Quelque Sculptures Mésopotamienne de l'Epoque d'Akkad', *Syria*, 36 (1959), 20 ff.
BOTTA, P. E. and FLANDIN, E. *Monuments de Ninive* (5 vols.), Paris 1849–50.
BRAIDWOOD, R. J. 'The Iraq-Jarmo Project', in G. R. Willey (ed.), *Archaeological Researches in Retrospect*, Cambridge (Mass.) 1974(b).
BRAIDWOOD, R. J. *et al.* 'Baghouz; New Chalcolithic Material of the Samarra Type and its Antecedents', *Journal of Near Eastern Studies*, 3 (1944).
——'Matarra: A Southern Variant of the Hassuna Assemblage, Excavated in 1948', *Journal of Near Eastern Studies*, 11 (1952).
——*Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan*, Chicago 1960.
——'The Beginnings of Village Farming Communities in South-eastern Turkey', *Proceedings of the National Academy of Sciences, U.S.A.*, 1974(a).
BRICE, W. C. *South-west Asia*. A Systematic Regional Geography, no. 8, London 1966.
BURKHOLDER, G. "Ubaid Sites and Pottery in Saudi Arabia', *Archaeology*, 25 (1970).
BURNEY, C. A. 'Yanik Tepe', *Iraq*, 23, pt 2 (1961) and 26, pt 1 (1964).
ÇAMBEL, H. and BRAIDWOOD, R. J. *Prehistoric Research in Southeastern Asia Minor*, Istanbul 1980.
CECCINI, J. M. *La Ceramica di Nuzi*, Rome 1965.
CHILDE, GORDON. 'The Urban Revolution', in *Town Planning Review*; 21 (1950), 3–17.
COON, CARLETON. *The Origin of Races*, London 1963.
CORBIEAU, S. '*Indus Parallels*', *Iraq*, 4, (1937), 1 ff.
CRAWFORD, V. E. 'Lagash', *Iraq*, 36 (1974).
DELOUGAZ, P. 'Plano-convex Bricks', *Studies in Ancient Oriental Civilization*, no. 7, Chicago 1933.
——'A Short Investigation of the Temple at Al 'Ubaid', *Iraq*, 5 (1938).
——*The Temple Oval at Khafaje*, Oriental Institute Publications, no. 53, Chicago 1940.
——*Pottery from the Diyala Region*, Oriental Institute Publications, no. 63, Chicago 1952.
——'Architectural Representation on Steatite Vases', *Iraq*, 22 (1960).
DELOUGAZ, P. and LLOYD, S. *Pre-Sargonid Temples in the Diyala Region*, Oriental Institute Publications, no. 58, Chicago 1942.
DELOUGAZ, P., HILL, H. and LLOYD, S. *Private Houses and Graves in the Diyala Region*, Oriental Institute Publications, no. 88, Chicago 1967.
DYSON, R. H. 'Shub-ad's Onagers', *Iraq*, 22 (1960).
EDZARD, D. O. 'Enmer-baragisi von Kis', *Zeitschrift für Assyriologie* von Vorderasiatische Archäeologie, no. 53, Berlin 1959.
FALKENSTEIN, A. *Archäische Texte aus Uruk*, Berlin 1936.
——'Zu den Tafeln aus Tartaria', *Germania*, 43 (1965).
FINCH, J. P. G. 'The Nergal Gate', *Iraq*, 10, pt 1 (1948).
FRANKFORT, HENRI. *Archaeology and the Sumerian Problem*, Studies in Ancient Oriental Civilization, no. 4, Chicago 1932.
——*Tell Asmar, Khafaje and Khorsabad*. Oriental Institute Communications, no. 16, Chicago 1933.
——'Gods and Myths on Sargonid Seals', *Iraq*, 1, pt 1 (1933).
——*Progress of the Work of the Oriental Institute in Iraq, 1934–35*, Oriental

Institute Communications, no. 20, Chicago 1936.
——*Sculpture of the Third Millennium B.C. from Tell Asmar and Khafaje*, Oriental Institute Publications, no. 24, Chicago 1939(a).
——*Cylinder Seals*, London 1939(b).
——*More Sculpture from the Diyala Region*, Oriental Institute Publications, no. 60, Chicago 1943.
——*Birth of Civilization in the Near East*, London 1951.
——'The Origin of the Bit Hilani', *Iraq*, 14 (1952), 120–31.
——*Art and Architecture of the Ancient Orient*, Harmondsworth 1954, 4th rev. impression 1970.
——*Stratified Cylinder Seals from the Diyala Region*, Oriental Institute Publications, no. 72, Chicago 1955.
FRANKFORT, HENRI, LLOYD, S. and JACOBSEN, TH. *The Gimilsin Temple and Palace of the Governors at Tell Asmar*, Oriental Institute Publications, no. 43, Chicago 1940.
FRANKFORT, HENRI and DAVIES, L. 'The Last Predynastic Period in Mesopotamia', in *Cambridge Ancient History*, vol. 1, pt 2, ch. 12, Cambridge 1971.
GADD, C. J. 'Seals of Ancient Indian Style Found at Ur', Proceedings of the British Academy, vol. 18, 1933.
——*The Stones of Assyria*, London 1936.
——'The Harran Inscriptions of Nabonidus', *Anatolian Studies*, 8 (1958).
——'The Spirit of Living Sacrifices in Tombs', *Iraq*, 22 (1960), 51 ff.
——'The Cities of Babylonia', in *Cambridge Ancient History*, vol. 1, pt 2, ch. 13, Cambridge 1971.
GALPIN, F. W. 'The Sumerian Harp of Ur', *Music and Letters*, 10 (1929).
GARROD, D. A. W. *The Caves of Zarzi and Hazar Merd*, in Bulletin of the American Schools of Prehistoric Research, no. 6, 1930.
GURNEY, O. R. 'Laws of Eshnunna', *Symbolae Hrozny* (1950).
HAINES, R. C. 'Nippur', *Illustrated London News*, 18 August 1956, 6 September 1958 and 9 September 1961.
HALL, H. R. and WOOLLEY, C. L. *Ur Excavations*, vol. 1: *Al 'Ubaid*, London and Philadelphia 1927.
HANSEN, D. P. 'Votive Plaques from Nippur', *Journal of Near Eastern Studies*, 22 (1963).
HAWKES, JACQUETTA (ed.) *Atlas of Ancient Archaeology*, London 1974.
HEINRICH, E. *Bauwerke in der altsumerischen Bildkunst*, Berlin 1957.
HERZFELD, E. E. *Die Ausgrabungen von Samarra*, vol. 5: *Die Vorgeschichtlichen Töpfereien von Samarra*, Berlin 1930.
HIJARA, I. 'Arpachiyah', *Iraq*, 42, pt 2 (1980).
HILPRECHT, H. V. *Exploration in Bible Lands during the Nineteenth Century*, Philadelphia 1903.
JACOBSEN, TH. *The Sumerian King-list*, Assyriological Studies, no. 11, Chicago 1939.
——'Salt and Silt in Mesopotamian Agriculture', *Science*, no. 128 (1958a).
——'Girsu', *Revue d'Assyriologie*, 52 (1958b).
——'The Waters of Ur', *Iraq*, 22 (1960).
JACOBSEN, TH. and LLOYD, S. *Sennacherib's Aqueduct at Jerwan*, Oriental Institute Publications, no. 24, Chicago 1935.
JASIM, S. A. 'Excavations at Tell Abada', *Iraq*, 45, pt 2 (1983).
JONES, FELIX. *The Topography of Nineveh*, Bombay 1957.
KING, L. W. *Bronze Reliefs from the Gates of Shalmaneser*, London 1915.
KIRKBRIDE, D. 'Umm Dabaghiyah', *Iraq*, 34 (1972) onward.
KOLDEWEY, R. *The Excavations at Babylon* (Engl transl.), London 1914.
——*Das Wiedererstehende Babylon*, Leipzig 1925.
KRAMER, S. N. *Enmerkar and the land of Aratta*, Philadelphia 1952.
——'Dilmun: Quest for Paradise', *Antiquity*, 27, no. 146 (1963).
——*From the Tablets of Ur*, Indianapolis, Colorado 1965.

LAMBERG-KARLOVSKY, C. C. *Excavations at Tepe Yahya, Iran*, Cambridge (Mass.) 1970.
——'Excavations at Tepe Yahya', G. R. Willey (ed.), *Archaeological Researches in Retrospect*, Cambridge (Mass.) 1974.
LAMBERT, M. and TOURNAY, J. R. 'La Statue B de Gudea', *Revue d'Assyriologie*, 45 (1951).
LAYARD, A. H. *Nineveh and its Remains* (2 vols.), London 1850.
——*Discoveries in the ruins of Nineveh and Babylon*, London 1853.
LEACROFT, H. and R. *The Buildings of Ancient Mesopotamia*, Leicester 1974.
LE BRETON, L. 'The Early Periods of Susa: Mesopotamian Relations', *Iraq*, 19 (1957).
LEES, G. N. and FALCON, N. L. 'The Geographical History of the Mesopotamian Plains', *The Geographical Journal*, 118 (1952).
LENZEN, H. J. 'Die Architecktur in Eanna in der Uruk IV Period', *Iraq*, 36, pt 1/2 (1974), p. 111 ff.
LOFTUS, W. K. *Travels and researches in Chaldaea and Susiana*, London 1857 (republished 1971).
LOUD, GORDON. *Khorsabad*, vol. 1, Oriental Institute Publications, no. 38, Chicago 1936.
LOUD, GORDON and ALTMANN, C. B. *Khorsabad*, vol. 2, Oriental Institute Publications, no. 40, Chicago 1938.
LLOYD, S. 'Some ancient sites in the Jebel Sinjar District', *Iraq*, 5 (1938).
——'The Oldest City: A Pre-Sumerian Temple at Eridu', *Illustrated London News*, 31 May 1947.
——'The Oldest City of Sumeria: The Origin of Eridu', *Illustrated London News*, 11 September 1948.
——'Ur-Al 'Ubaid, 'Uqair and Eridu', *Iraq*, 22 (1960).
——'Back to Ingharra', *Iraq*, 31, pt 1 (1969).
LLOYD, S. and SAFAR, F. 'Eridu', *Sumer*, 3 (1947) and 4 (1948).
——'Tell 'Uqair: Excavations by the Iraq Government Directorate of Antiquities in 1940–41', *Journal of Near Eastern Studies*, 2, no. 2 (1943), p. 131.
——'Tell Hassuna: Excavations by the Iraq Government Directorate of Antiquities in 1943–44', *Journal of Near Eastern Studies*, 4 (1945).
MACKAY, E. *A Sumerian Palace and the 'A' Cemetery at Kish, Mesopotamia*, Chicago 1929.
——'Excavations at Jemdet Nasr', in *Field Museum: Anthropological Memoirs*, nos. 1–3 Chicago 1931.
MACQUEEN, J. *Babylon*, London 1964.
MADHLOUM, T. 'Excavation of Nineveh', *Sumer*, 23 (1967).
——'Nineveh', *Sumer*, 24 (1968).
——*The Chronology of Neo-Assyrian Art*, London 1970.
MALLOWAN, M. E. L. 'White Painted Subartu Pottery', in *Mélanges Offerts à M. René Dussaud*, vol. 2, 1939.
——'Excavations at Brak and Chagar Bazar', *Iraq*, 9 (1947).
——'Noah's Flood Reconsidered', *Iraq*, 26, pt 2 (1964a).
——'Ninevite 5', in *Vorderasiatische Archäologie Studien und Aufsatze*, Festschrift Moortgat, Berlin 1964(b).
——'Tell Chuera: Fourth Campaign', *Iraq*, 28, pt 1 (1966a).
——*Nimrud and its Remains* (2 vols. and plans), London 1966(b).
——Review of *Mission Archéologique de Mari*, vol. 4, in *Bibliotheca Orientalis*, 26, no. 1/2 (1969).
——*Cambridge Ancient History*, vol. 1, pt 1, Cambridge 1970, ch. 8, 'The Development of Cities from Al 'Ubaid to the end of Uruk V': section 1, 'Babylonia and Mesopotamia', section 2, 'Assyria', section 3, 'Syria', section 4, 'Iran'; vol. 1, pt 2, 1971, ch. 16, 'The Early Dynastic Period in Mesopotamia'.
MALLOWAN, M. E. L. and ROSE, J. C. 'The Excavations of Tell

Arpachiyah', *Iraq*, 2, (1935).
MATTHIAE, P. *Ebla: an Empire Rediscovered*, London 1980.
McEWAN, C. *et al. Soundings at Tell Fachariya*, Oriental Institute Publications, no. 79, Chicago 1958.
MELLAART, J. *Catal Hüyük*, London 1967.
——*The Neolithic of the Near East*, London and New York 1975.
MOOREY, P. R. S. 'A Reconstruction of East Kish', *Iraq*, 26, pt 1 (1966).
——'Terracotta Plaques from Kish', *Iraq*, 26, pt 2 (1975).
MOORTGAT, A. *Vorderasiatische Rollsiegel*, Berlin 1940.
——'Assyrische Glyptik des 12 Jahrhunderts', *Zeitschrift für Assyriologie*, 48 (n.f. 14) (1944).
——'Tell Chuera in Nord-Ost Syrien', Preliminary Reports in *Wissenschaftliche Abhandlungen für Arbeitgemeinschaft*, Köln 1959 *et seq.*
MORTENSEN, P. 'Additional Remarks on the Chronology of Early Farming Communities in the Zagros Area', *Sumer*, 20 (1964).
MUNCHAJEF, R. and MERPERT, N. IN *Sumer*, 25 (1969) onwards.
——'Early Agricultural Settlements in the Sinjar Plain, Northern Iraq', *Iraq*, 35, pt 2 (1973), p. 93 ff.
OATES, DAVID. 'Tell Rimah, 1966', *Iraq*, 29, pt 2 (1967).
——*Studies in the Ancient History of Northern Iraq*, British Academy, London 1968.
——'Early Vaulting in Mesopotamia', in *Archaeological Theory and Practice: Essays Presented to W. F. Grimes*, London 1973.
OATES, JOAN. 'Ur and Eridu: the Prehistory', *Iraq*, 22 (1960).
——'Tell-es-Sawwan Figurines', *Iraq*, 28, pt 2 (1966).
——'Goddess of Choga Mami', *Illustrated London News*, 28 September 1969(a).
——'Choga Mami, 1967–8': A Preliminary Report, *Iraq*, 31, pt 2 (1969b).
——'Prehistory in North-eastern Arabia', *Antiquity*, 50, no. 179 (1976).
OATES, D. and J. *The Rise of Civilization*, Oxford and New York 1976.
PARROT, ANDRÉ. 'Mari et Chagar Bazar', *Iraq*, 19 (1938).
——*Tello: Vingt Campagnes de Fouilles, 1871–1933*, Paris 1948.
——*Mission Archéologique de Mari*: vol. 1, *Le Temple d'Ishtar*, Paris 1956; vol. 2, pt. 1, *Le Palais: Architectur*, Paris 1958(a); vol. 2, pt 2, *Le Palais: Peintures Murales*, Paris 1958(b); vol. 2, pt 3, *Le Palais: Documents et Monuments*, Paris 1958(c); vol. 3, *Les Temples de Ishtarat et de Nini-Zaza*, Paris 1967(a); vol. 4, *Le Trésor d'Ur*, Paris 1967(b).
——*Nineveh and Babylon*, London 1961.
——'Les Fouilles de Mari: Vingtième Campagne', *Syria*, 39 (1962).
PLACE, V. *Ninive et l'Assyrie, avec des Essaies de Restauration par Félix Thomas*, (3 vols.), Paris 1867–70.
PORADA, E. *Corpus of Ancient Near Eastern Seals in North American Collections*, vol. 1, Washington 1948.
POSTGATE, N. *The First Empires*, Oxford and New York 1977.
RASSAM, H. *Asshur and the Land of Nimrod.* New York 1897 (republished 1971).
RAVN, O. E. *Herodotus' Description of Babylon*, Arnold Busck, Copenhagen 1942.
RIMMER, J. *Ancient Musical Instruments of Western Asia*, London 1960.
ROUX, GEORGE. 'Recently Discovered Sites in the Hammar Lake District', *Sumer*, 16 (1960).
SAFAR, F. 'Eridu: A Preliminary Report on the Third Season's Excavations', *Sumer*, 6 (1950).
SAFAR, F., MUSTAFA M.A. and LLOYD, S. *Eridu* (the final publication), Baghdad 1983.
SANDARS, N. K. (transl.) *The Epic of Gilgamesh*, Harmondsworth 1960.
DE SARZEC, E. and HEUZEY, L. *Découvertes en Chaldée*, Paris 1884–1912.
SCHEIL, V., 'Une Saison de Fouilles à Sippar', in *Memoires Publiées par les*

Membres d' l'Academie Française d'Archéologie Orientale du Caire, vol. 1, 1902.

SCHMANDT-BESSERAT, D. 'Some Characteristics of the Early Tablets', *Syro-Mesopotamian Studies*, 1, no. 2 (1977).

SINGH, P. *Neolithic Cultures of Western Asia*, London 1974.

SMITH, SIDNEY. 'Diniktim', *Sumer*, 2, no. 2 (1946), p. 19ff.

SOLECKI, RALPH S. *Shanidar: The Humanity of Neanderthal Man*, London

SOLLBERGER, E. 'Sur la Chronique des Rois d'Ur et Quelque Problèmes Annexés', in *Archives für Orientforschung*, no. 17, 1954.

——'Notes on the Early Inscriptions from Ur and Al 'Ubaid', *Iraq*, 22 (1960).

SPEISER, E. A. *Excavations at Tepe Gawra*, vol. 1, Philadelphia 1935.

STARR, R. F. S. *Nuzi* (2 vols.), London 1938.

STROMMENGER, E. 'Akkadian Sculpture', in *Baghdader Mitteilungen*, no. 2, pt 1, 1936.

THOMPSON, R. CAMPBELL, and MALLOWAN, M. E. L. 'The British Museum Excavations at Nineveh, 1931–32', in *Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology*, vol. 20, 1932.

THUREAU-DANGIN, F. and DUNAND, N. *Til Barsip*, Paris 1936.

TOBLER, A. J. *Excavations at Tepe Gawra*, vol. 2, Philadelphia 1950.

TURNER, G. 'Tell Nebi Yunus: The Ekal Masharti of Nineveh', *Iraq*, vol. 32, pt 1 (1970).

——'The State Apartments of Late Assyrian Palaces', *Iraq*, 32, pt 2 (1970).

——'Late Assyrian Palaces and their Mesopotamian Antecedents', Ph.D. thesis, London Institute of Archaeology, 1967.

UCKO, P. J. 'Anthropomorphic Figurines', *Royal Anthropological Society, Occasional Papers*, no. 24, London 1968.

VAN BUREN, E. D. 'Places of Sacrifice (Opferstätten)', *Iraq*, 14 (1952).

——'Fish Offerings', *Iraq*, 10, pt 2 (1948), p. 101.

VAN ZEIST, W. and BOTTEMA, S. in *Palaeohistoria*, 19 (1977).

VAN ZEIST, W. and BINTLIFF, J. (eds.) *Palaeoclimates, Palaeoenvironments and Human Communities in the E. Mediterranean Region in Later Prehistory*, BAR, S133, Oxford 1982.

WAHIDA, G. 'The Re-excavation of Zarzi 1971', *Proc. Preh. Soc.*, 47, (1981).

WATERLIN, L. C. and LANGDON, S. *Excavations at Kish*, London 1930–4.

WEBER, O. 'Altorientalische Siegebilder', in *Der Alte Orient*, vols. 17–19, Leipzig 1920.

WETSEL, F. *Die Stadtmauern von Babylon*, Leipzig 1930.

WISEMAN, D. J. *Cylinder Seals of Western Asia*, London (n.d.).

WOOLLEY, C. L. 'Excavations at Ur', *Antiquaries Journal*, 3 (1923), to 13 (1934a).

——*Ur Excavations*, vol. 2: *The Royal Cemetery*, London and Philadelphia 1934(b).

——*Ur of the Chaldees*, London 1935.

——*Ur Excavations*, vol. 4: *The Early Periods*, London and Philadelphia 1956.

——*Ur Excavations*, vol. 5: *The Ziggurat and its Surroundings*, London and Philadelphia 1939.

——*Ur Excavations*, vol. 6: *The Buildings of the Third Dynasty*, London and Philadelphia 1974.

——*Ur Excavations*, vol. 8: *The Kassite Period*, London and Philadelphia 1965.

——*Excavations at Ur* (preliminary reports collected in a single volume), London 1954.

WOOLLEY, C. L. and MALLOWAN, M. E. L. *Ur Excavations*, vol. 9, *The Neo-Babylonian and Persian Periods*, London and Philadelphia 1962.

ZIEGLER, C. *Die Keramik von Haggi Mohammed*, Berlin 1953.

